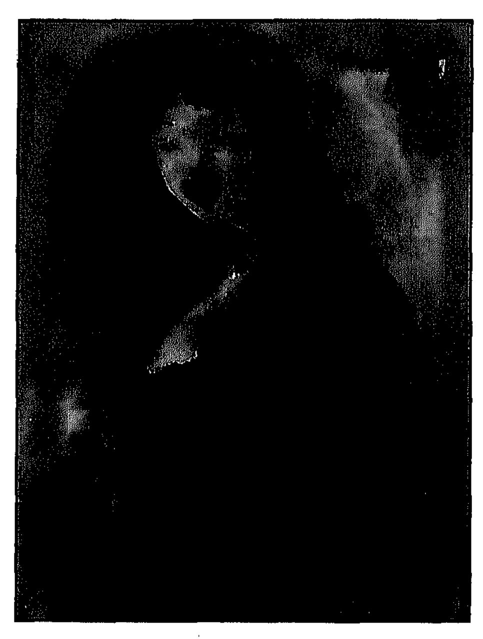
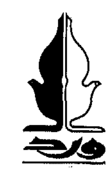
أنطونيو غالا



رواية

ترجمة: رفعت عطفة





الوَله التركي

* أنطونيو غالا

* الوله التركي

* ترجمة رفعت عطفة

* الطبعة الأولى 1998

* الناشر: ورد للطباعـة والنشـر والتوزيـع

سورية ـ دمشق ☎ 3321053

بالتعاون مع :

"La presente edición ha sido traducida mediante una ayuda de la dirección general del libro, archivos y bibliotecas del ministerio de cultura de España"

* الاستشارة الأدبية : حيدر حيدر

* الإشـــراف الفني : د. مجد حيدر

* الإخــــراج الفني : دار الحصاد للطباعة والنشر والتوزيع

* التـــــــــوزيع : دار ورد ☎ 3321053

دار الحصاد: هاتف/فاكس 2126326

أنطونيو غالا

الوَله التركي

رواية

ترجمة رفعت عطفه

عنوان الكتاب الأصلي:

La pasión turca

حصلت هذه الرواية على جائزة بلانيتا 1993 وهي من أهم جوائز الرواية في اسبانيا. طبعت الرواية وأعيدت طباعتها أكثر من عشرين مرة حتى الآن ووصل عدد النسخ إلى أكثر من مليون نسخة.

مقدمة المترجم

بعد روايته الأولى «المخطوط القرمزي»، التي عبقت بالحب والعشق وبنفح الأندلس عبر شخصية أبي عبد الله الصغير كتب لنا أنطونيو غالا روايته الثانية، «الوله التركي» التي لم تستطع أن تبتعد كثيراً عن مؤثرات ثقافته ودمه الأندلسيين، عبر لقاء شخصية الرواية الرئيسية، كيلا نقول بطلتها، دسيدريا بزميل سوري لأرتورو في الجامعة وعبر قراءاتها عن تاريخ هذا البلد في أمانة سرّ معهدها وزيارتها له: «كانت سورية بالنسبة لي في غاية الإدهاش. قرأت في أمانة السر، الهادئة عادة، كثيراً عن تاريخها. كنّا نطير من أقصى المتوسط إلى أقصاه الآخر. من بلادٍ هي ذيل لأوروبا لا ينسلخ عنها وفيها الكثير من أفريقيا، (هو بالنسبة إليّ نوع من التمرين العام) إلى بلاد أخرى، هي أيضاً على حافة أوروبا وعتبة آسيا. من مساجدنا التي تحولت إلى كاتدرائيات إلى كاتدرائياتهم التي تحولت إلى مساجد. من تراكم ثقافاتنا إلى تراكم ثقافاتهم. قال لنا طبيب سوري رفيقٌ لأرتورو في الجامعة بينما كان يحدّثنا عن بلاده:

ـ أشكر لكم ردّ زيارتنا لكم الذي ستقومون به. فقد جئنا نحن السوريين اليوم لنتعلم من أجدادنا الاسبان.

الصحيح هو أنهم أجداد الجميع: هناك مهد الإنسان، في وقت لم تكن قد تمايزت فيه اللغات والأعراق في بابل. هناك المدن الأولى في العالم، وعلى شرف المدينة الأولى تتنافس حماه ودمشق وحلب وثلاثتهنّ مدن سورية.

في حماه، التي تعاقبت على أرضها نيّف وعشر مدن، أبكاني أنين النواعير التي تلعب بنور العاصي ومائه. كان مساءاً وردياً، ولخرير الماء هذا اللون وكان نور الغروب مسموعاً. هضبة حلب الرماديّة (الشهباء)، حيث خيّم ابراهيم، تقوم على أنقاض حضارات أقدم منه بكثير. ودمشق المتقلّبة، التي لا تتبدّل، الحيّة كالحياة والمتكيفة معها أكثر من روما وبيزنطة (ارتعشت يدي وأنا أكتب بيزنطة) هي الحيّة المنبعثة من ذاتها...

هذا تقريباً كلّ ما قرأته. اليوم يقوم في مقبرة حلب الأولى ملعبٌ لكرة القدم، وفي قلعتها المجيدة مسرحٌ. أمام لوحة سور دمشق من حيث هبط القديس بطرس، بعد عودته إلى رشده، توجد مدينة ملاهٍ... على الرغم من كلّ شيء فكلُّ شيء باقٍ في الأعماق. زرنا في يوم دافئ الشمس أوغاريت: بين أنقاضها تغفو ثلاثة آلافٍ وخمسمئة سنة، ومن هناك خرجت الأبجدية الأولى. اشترت لاورا نسخة عنها: نوعاً من السبّابة الصلصالية، نُقِشَ عليها ثلاثون حرفاً. انفجرت لاورا المكتبيّة وبين يديها النسخة بالبكاء.»

الحقيقة هي أن الذي جرى معه هذا إنما كان الكاتبُ، أنطونيو غالا، وليس دسيدريا، ومن هنا يأتي التداخل الجميل لسيرة الكاتب الشخصية مع بنائه الروائي أو الشعري، فهو قد كتب أيضاً: «قصائد سورية».

كان ذلك في العام 1986 خلال زيارته الأولى لسورية كرئيس لجمعية الصداقة العربية الإسبانية. أتذكّر وكنتُ معه خلال الزيارة أنه وقف وقفة خشوع وتأمل في رأس شمرة فسألته: «أوَتُصلّي، ياأنطونيو» وجاء جوابه مشحوناً بكلّ جلالة التاريخ ومشاعر الشاعر المرهف حتى التلاشي في الحالة: «أنا في حضرة التاريخ، يا رفعت، ومدينٌ لهذه المدينة بأنّني كاتب». نعم صلّى أنطونيو غالا لأوغاريت صلاة شكرٍ وحده يعرف عمقَ دلالاتها وعمق توغّلها في الروح.

وشخصية دسيدريا، التي خرجت من أعماق أنطونيو غالا لترسمَ

حالة من العشق والوله على حافّة التفرد، وحافة الجنون خرجت في الحقيقة من تراكم الموسيقى والشعر العربيين والغناء العميق الأندلسي في ذاكرة الكاتب.

إنها قصة المرأة التي ينسيها عشقها لجميع الأسئلة التي تعبر في الحالة الطبيعية في ذهن الإنسان حين يدخل في علاقة مع آخر، فهي تراه، تهيم به، تموت هياماً، تنسى محيطها وناسها، لا ترى في معشوقها غير تماهي الروح مع الجسد. لكنها ما إن تطرح سؤالاً فرضه الواقع، حتى تبدأ سلسلة من لأسئلة التي تبقى دون جواب أو جوابها يؤدي إلى الخروج إلى هذا الواقع والاصطدام بقسوته، المؤدية حتماً إلى النهاية التي انتهت إليها الرواية.

يبدو أن أنطونيو غالا الذي جُبِلَ على الشعر والموسيقى والحبّ، أصيب بلعنة هذا الموضوع حتى جاءت روايته اللاحقة «ما وراء الحديقة» التي صدرت عام 1995 لتشتغل على هذا الموضوع الخالد نفسه وهذا ما نشعر به منذ العنوان الفرعي لها: «امرأة تبحث عن ذاتها». إنها قصة بالميرا غاديا، الأرستقراطية الإشبيلية التي عاشت في فيء حديقتها المشغولة بأقصى حدود الدقّة والعناية، وهذه الحديقة ليست حديقة أزهار وأشجار ونباتات غريبة وعجيبة، إنها حديقة الحياة والموقف من الحياة وفيؤها هو عراقتها وثروتها، زواجها وتلميحاتها التي تموّه الحقيقة العارية، فهل يكفي هذا للاستمرار بصلابة في حياة جوّها العام هو الفوضى؟ طبعاً لا، فقسوة الواقع تجعل أسوارَ الحديقة تتضعضعُ وتشكل خطراً على ما وُجِدَت أصلاً لحمايته: الداخل. وهنا تكتشف بالميرا غاديا أنها أصبحت عزلاء وعليها أن تبحث عن خلاصها في الخارج، لتصطدم بسؤال طالما أقلق الإنسان على عتبة العمر الداخل في الموت: هل يمكن للإزهار في الخريف أن يُعتبر ربيعاً؟ أم أن المرأة (الرجل أيضاً) في خريف العمر لا يليق بها ثوب العرس الذي تتألق فيه ابنة العشرين؟ هذا هو سؤال هذه الرواية الكبير، التي سنقدمها للقارئ العربي قريباً.

أمّا روايته الرابعة «قاعدة الثلاثة» فهي تعالج جانباً آخر من

الحب، مختلف تماماً، حب كاتب يذهب إلى جزيرة يريد أن يكتب كتاباً يمكن أن يكون عنوانه: «المرض القاتل» فيقع في حب امرأة لا يلبث أن ينقله إلى نوعٍ ثانٍ من الحب شكّل مجمل حبّه السابق. يكتشف نوعاً ثالثاً من الحب ليس هنا مجال الدخول في ماهيته.

اليوم ونحن نقدّم أنطونيو غالا إلى قرّاء العربية نعتقد أننا نقدم كاتباً روحه تنتمي إلينا، إلى شرقنا الجميل بكل تناقضاته التي تشكل زهرة التنوّع.

رفعت عطفة

تنبيه

يتضمَّن هذا الكتابُ حياةً ـ نتفاً من حياة ـ بِسيدِريا أوليبان، وهو مؤلَّفٌ من أربعةِ دفاتر وما يشبه الخاتمة.

كُتِبتْ هذه الدفاترُ بيدها وخطِّها، هي القارئة العظيمةُ والمولعة الجيِّدة بالكلمات المتقاطعة. وقد احتُرِمَت بدقَّة كبيرة حتى تناقضاتها وبعض التكرار الناتج عن الإهمال وعدم الترابط. لم تصحَّح إلا بعضُ الأخطاء غير المهمَّة، كتسمية سيمئون استيليتا بسيمون أو الخلط في مناسبتين بين قرن الذهب والبوسفور.

الصفحات التي ينتهي بها الكتاب مصدرها ما رواه بابلو أكوستا، صديق بِسيدِريا أوليبان الوفيّ.

وصلت الدفاترُ الأربعةُ إلى يد الناشر في العلبة ذاتها التي أُحضِرَت فيها إلى إسبانيا: علبة حلوى تركيَّة كبيرة.

الدفتر الأوَّل

أنا نفسي اقتنعتُ بأنَّ زواجي كان تامًّا. ما عدتُ أطرحُ المسائل التي طرحتُها في البداية. لم تُحلّ لكّنها لم تعد نصب عينيّ طوال الوقت. كنتُ أنظرُ إلى جانبٍ آخر، أفكِّر بأنَّ الحياة كبيرة كالعالم أو بالأحرى أكبر من العالم. المصيبة ـ كنتُ أكرِّرُ ـ تأتي أو تتضخَّمُ من أنَّ المرءَ لا يكون عالقاً إلاَّ بحرمانٍ واحد، بخيبة أملٍ واحدة، توقٍ واحد. إذا كان البستان لا يعطي خِسّاً، فهذا لا يعني أنَّ علينا أن نتركه بوراً، بل أن نزرَعه بخضراواتٍ أُخرى ونجدَ فيها تعويضاً عنه.

كان راميرو يُعْتَبَرُ أجملَ شباب وِشقة. يبدو لي هذا الآن غير مبالَغ فيه، بينما بدا لي آنذاك أنَّ فيه ما يكفي من المبالغة. وكان أخاً لأدِلا، القبيحة وثقيلة الظلّ، غائرة الذقن، بارزة الفكّين، صغيرة وحادَّة الأسنان، شاحبة اللثة حين تضحك، وهذا لحسن الحظ أمرٌ نادرٌ. كانت أَدِلا زميلة صفٍّ في المعهد، لا أحتفظ عنها بذكرياتٍ طيِّبة جدّاً. رُبَّما جعلتها قباحتُها حنقةً، نمَّامةً، تحشو دماغها بالدروس، ومع ذلك لم تكن تحصلُ على علاماتٍ جيِّدة. كنتُ أنا ولاورا وفِليسا أكثر الناس مقتاً لها: هذه الكراهية هي التي جمعتنا منذ اللحظة الأولى.

كان راميرو قد قرَّرَ ألاَّ يضيعَ الوقت في دراسة اختصاصٍ طويل. عمل بعض الدورات في إدارة الأعمال بينما كان يشتغِلُ في شركة ضمان افتتحت توّاً فرعاً لها. وكما في كلِّ مكان بدأ يعزِّزُ وضعَهُ هناك

أيضاً. كلّنا كنّا نعرفه، وحين نعبرُ به في الذهاب والإياب إلى بورتيثِس دِه غاليثيا، قبلَ أو بعد السينما، مُتَأبِّطات أذرعنا نحن الثلاث، كانت تداخلنا ضحكة رخوة ومتواطئة تجعله يبتسم. كان طويلاً وأشقر، فاتحَ لون العينين. عرفناه رسميّاً في زياراتنا لـ ثِرّو دِه سان خورخِه. كان نيسان في نهاياته والنهار دافئاً مما جعلنا نفكّ أزرارَ بلوزاتنا؛ وكانت العقاعِقُ تحوم بين سرو وصنوبر السفح ونرى المدينةَ، التي يصلنا ضجيجُها مخففاً، غافيةً مع كاتدرائيّتها في العمق. كنّا نسمعُ من حينٍ لآخر زعيق الطواويس الحادّ، الذي يشبه الهبوط من أعالي السماء الزرقاء. كنّا نحضّرُ، أنا ولاوْرا وفِليسا، العصرونيّةَ حين مثلت أدِلا وراميرو. قدّمته لنا بلا رغبة. دعتهما لاورا لتناول العصرونيّة معنا فقبلا. وكان أوّل ما قاله:

- هل تعلمنَ أنَّ هذه الصومعة كانت حصناً بطوليّاً للدفاع عن وِشقة خلال الحرب؟

- نعم - أجابت لاورا -، كُتبَ هذا على الباب، لكن بماذا أفاد...

كنّا ندرسُ آنذاك في سرقسطة وبدأنا نملك أفكارنا الأخلاقيّة! والسياسيّة الخاصّة. أظنُّ أنّه لم يتحقّق أيٌّ منها. وكان أكثرها عناداً ردّة فعلنا على الزيجات القديمة، صليبُ نساء أسرتنا اللواتي كنَّ يكتفين بالإذعان للزوج وترتيب البيت والعيش دون أيّة شخصيّة. أردنا، نحن الثلاث، أن نكون حرّات، نعمل فيما يخصّنا وتكون لنا أراؤنا. كنت، أنا ولاورا، ندرس الآداب على الرغم من أنّها كانت تميلُ إلى علم النفس، بينما فليسا تدرس الصيدلة. كنّا نوائمُ، دون أن ندري، بين تقدّميّتنا، التي كنّا نقدّرُ أنّها متطوّرة، وبين حلمنا بالأمير الأزرق...

أتذكّرُ الآنَ الحوارات التي كنّا نقيمها في شقّة الطلبة الصغيرة - لا أدري هل أتذكّرها كما هي أم أنّني أُضيف إليها شيئاً من غلّتي - الأكثر دقّة أن أقولَ أنّني كنت أنا وفليسا نصغي للاورا. كانت تطلق، بين الفينة والأخرى، العنانَ لاسطوانتها المكابيّة وتدعونا لمراجعة موضوعاتها بصوتٍ عالٍ. كنّا في طريقنا لأنْ نصبح بطلات، نطرقُ نحاسنا نيابة عن مثيلاتنا، نرفع رايةَ الأنوثةِ ومكاسبَ جنسنا المضطهد.

ـ إنَّ ضعفَ الجروِ البشري ـ كانت تبدأ لاورا بينما تحضِّر الشاي ـ تجبرنا على رعايته وتدريبه سنواتٍ كثيرة. وهذا ما يجعله يتفوّق على الأنواع الأخرى، ويحافظُ على الفضول والقدرة على المباغتة الخاصّين بالطفولة على امتداد حياته. هذه الفضائل هي التي تُلهِمُ الشعراء والعلماءَ، لأنَّ الشعر والعلم ينبعان من الحيرة.

ـ إذا كان الأمرُ كذلك ـ تقاطعها فِليسا، التي كانت أوّل من يبدأ بأكل الحلوى والمعجّنات ـ، سنتحوّل نحن الطفلات، بما أنَّنا أضعف وأكثر تبعيّة من الأطفال، إلى نساء أكثر ذكاء من الرجال.

ـ على الأقل بحسب التربية التي ربّونا عليها ـ كنتُ أتدخَّلُ ـ تعلّمنا أن نتذوّق، نُغري، نخدع الذكورَ ونعرف داخلهم، وبالتالي نراهم يأتون فنسيطر عليهم.

كانت لاورا المنزعجة تعودُ لتمسك بخيط خطابها:

ـ إناثُ الثدييات، بنات عمومة لنا...

ـ لا أعتقد أنّك تقولين هذا بسببي: فأنا لم آكل سوى قطعة حلوى واحدة ـ كانت تقاطعها فِليسا.

ـ لا شكَّ أنَّ هؤلاء الإناث أذكى من فحولها. لأنّها ببساطة تُصارِع من أجل حياتها وحياة أولادها أكثر من الذكور، وتعرفُ تماماً متطلّبات القطيع.

ـ وإذا بدا لك ذلك قليلاً ـ كانت تقاطعها فِليسا من جديد ـ فإنَّ الذكور توقف نفسها للصراع عليها، فلتتخوزق.

ـ في الحقيقة ـ توضِّحُ لاورا ـ، إنَّها تتصارع على الغذاء والأرض. بل تتصارعُ حتى دون ذريعة الأرض، لا الإناث ولا الطعام. الذكور تتصارع بشكل عام على السلطة.

ـ يا للخيبة! ـ كنّا نهتفُ أنا وفِليسا في وقتٍ واحد.

ـ لحظة، لحظة، الأنثى لا تمنح الذكرَ إلاّ حقَّ المجامعة. تستسلمُ للأقوى وما إن تحبل حتى تتراجع وتتفرَّغ لنفسها وصغارها ـ حتى أنَّ هناك لحظاتٍ ـ كانت تضحك بخبثٍ ـ تتنصارع فيها الفحول متوسطة العمر على الأوّل بينما تختارُ الأنثى غريزيّاً الأفتى، وتستسلم إليه من وراء ظهر الفحول المتصارعة بينما... هذا ما يحدث كثيراً مع

الرجال: يهزمُ المهيمنَ تحالفُ الضعفاء، الذين يفرضون قانونهم الجديد فيخيِّبون أمل المنتصر. المهم بالنسبة إلى الطبيعة هو البقاء.. ولذلك فالأمومة هي ما لا غنى عنه.

ـ حسن، لكنَّ الوصول إلى الأمومة يتمّ من خلال... ـ بدأت فِليسا.

ـ اسكتي وخلّصينا، فأنتِ تقطعين عليّ خيطَ أفكاري. من الغريب أنّه وكما تربطُ الأمومةُ بين كلّ أنثى ومثيلاتها، لأنّها تعني تضامن النوع وتفويضاً من الطبيعة فإنّ الأبوّة تُفَرِّدُ الرجل، ليس في مواجهة بقيّة فحول الحيوان وحسب وإنّما في مواجَهَةِ بقيّة الرجال أيضاً. وبما أنّنا أمّهات فنحن أكثر حيوانيّة، والرجل لأنّه أبٌ فهو أكثر بشريّة. الأبوّة ليست حاسمة عند الحيوانات: فهي تنتهي مع الإخصاب أو بعده بقليل.

ـ هل تريدين أن تقولي إنّ المرأةَ الأم ليست بشريّة؟ ـ كنتُ أسأل مندهشةً.

ـ لا أريد أن أقول أيّ شيء من هذا، ذلك لأنّها تلد بشراً. ما أريد قوله هو أنّه ومنذ أن أنزلت الأبوّةُ الأمومةَ عن عرشها، ابتعدت البشريّة كثيراً عن حيوانيّتها ورحنا نفقد الرئاسةَ والقوّة والاستقلال. في السابق كانت قيمةُ الفحول (أيّ فحل، لا همّ) في ما تقوم به وانتهى، الآن نجد أنفسنا نحن النسوة مقتصرات على القيام بوظيفة الأمّهات. يجب أن ترين أيّة عمليّة غش هي الأبّوة. لا أدري ما إذا كنتما تفهمانني: توزيع المصالح أوجد الملكيّة الخاصّة، والأخلاق واحترام الأسرة أوجدا العهر، وأوجد النظامُ الفحولي الجديد اللامساواة والفوضى، والبحثُ عن الأخوّة خلق كلّ أنواع الاختلاف، ووضع القانون تسبّب بالمراتب، والديانات بالخطيئة والتوبة، وحاجاتنا الغراميّة والحفاظ على الذرّيّة أحدثت عبادة الأبّوة... وهذا ما يسمى بالمجيء بعكسِ المطلوب. فلم يبق أمامنا من مصير غير الأسرة: نحن بنات، زوجات وأمهات لا أكثر. وبدل أن تربّى الطفلات كي يرغبن تلقائيّاً وعلى مسؤوليّتهن، يُرَبَّيْنَ كي يرغبن فقط بأن يصبحن مرغوبات.

عارضنا أنا وفِليسا هاجرتين فنجاني الشاي.

ـ يجب النضال ضدّ هذا ـ كنّا نصرخ ناهضتين.

ـ صعبٌ جدّاً. لقد خسرنا هذه المعركة ذات مرّة... طبعاً يجب أن نأخذ بالحسبان ما كتبته بوفوار: أن تجعلي من نفسك مرغوبة شيءٌ مختلفٌ تماماً عن أن تكوني شيئاً سلبيّاً. العاشقة لا تعرف السكينةَ أبداً: تجدّدُ نفسها. تحت الإهمال الأنثوي الظاهري يوجدُ توق حقيقي؛ إذا اختيرت الواحدة فلأنّها سبقَ واختارت خفيةً. فالغاوي مُغْوَى به سلفاً، حتى وإن لم يعِ ذلك. لعبة الغرائز هذه لصالحنا، لكن هناك أشياء ضدّنا. مادّيّةُ الجنس ذاتها، مثلاً، الجنس الملموس ـ كنّا أنا وفِليسا نتبادل النظرات في آنٍ معاً خجلتين وفخورتين بتهتُّكنا ـ عضو الرجل واضحٌ، خارجيٌّ، سهل الاستخدام ونظيف، يلتقي فيه الهدف والاستعداد والرغبة، أي أنّ الوظيفة خلقت العضوَ بشكلٍ مرئيّ. على العكس منّا، فعضونا خفيّ (ونخفيه أكثر، لأنّ الخجل على ما يبدو فضيلتنا الرئيسيّة) وأكثر تعقيداً، وهو كحدٍّ أدنى ثنائي.

ـ ثنائي؟ ـ كنّا نسأل أنا وفِليسا في أوج الدهشة.

ـ بلى، يا سيّدتيّ، ثنائي. لا تتظاهرا بالغرارة. البظر والمهبل، نظراً لشكلهما:، بسلوكهما: الفعّال كما السلبي: كلّي الحضور، الرعشة في مكان والجنس في أماكن كثيرة جدّاً...

ـ هكذا أفضل ـ ردّت فِليسا وقد هدأتْ ـ الرجلُ أكثر بساطة: ما إن يتمتّع حتى يُستهلك. خطيبي...

ـ صحيح، لكنَّ هذا لا يعني أنّ عضونا بسيط. البسيط هو القضيبُ والصَفَنُ، عضونا توقُّعٌ، دعوةٌ، وعاءٌ تخزّنُ فيه بذرة الحياة، وأكثر من ذلك فيه تتشكّل الحياة، ليس مجازيّاً بل مادّيّاً.

حتى ولو لم نتكلّم عن الأطفال الذين سنحملهم ذات يومٍ بين أذرعنا، أو نتكلّم عنهم بالمجرّد، فقد كانوا وراء كلّ تفكيرنا. وسواء أقلنا إنَّ استقلالنا هو غاية الحياة أو إنَّ عملنا سيشغلها بالكامل فقد كنّا نحن الثلاثة نسمع، دون إرادةٍ منّا، أصوات الأطفال الذين بوعيٍ منّا أو دون وعيٍ، كنّا نفترضهم. كان هذا ما لخّصته فِليسا حين هتفت:

ـ هَهْ، المسألة أنَّ هذا أكثر أهميّة من الجماع، يا بُنَيّتي.

ـ وأطول وأكثر جهداً.

ـ أنا لست مستاءة من كوني امرأة ـ كانت تؤكّد فِليسا ـ فسيكون لي،إذا أردتُ يوماً، قضيب.

ـ طبعاً لا ينقصك إلاّ هذا. إنَّكِ تملكينه، يا خبيثة. لكن اتركينا نفكّر الآن. لأنَّ ما كنّا نتحدّث عنه...

ـ ما كنتِ تتحدَّثين أنتِ عنه.

ـ ممّا كنتُ أتحدَّثُ عنه يُستخلص نقيصة ذكوريّة، نقيصة كبيرة: كون المرء رجلاً ليس هبةً بل مكسباً. لا يقتصر على امتلاك القضيب الذي تقولين، فالرجلُ يجبُ أن يجرِّب رجولته: ليس أمام المرأة وبقيّة الرجال وحسب، أي أمام المجتمع بل أمام نفسه أيضاً. بينما نولدُ،نحنُ النساء، نساءً، ولا يتوجَّبُ علينا أن نتعلَّم كيف نكون كذلك.

ـ كيف لا؟ ـ كنتُ أنطُّ، متطرّقة دائماً لموضوعي ـ الجنسُ عندنا دائماً مقموعٌ ومتحكَّمٌ به إلى أن تحين ساعتنا، التي لا نعرفها أبداً، وبعدها أيضاً. لقد هزمتنا التربية التي فرضها علينا الرجال، وحوَّلتنا إلى متاع لهم. اقتنعي يا لاورا.

ـ آخٍ، يا بُنيّة، ولا بشكلٍ من الأشكال. كيف يلاحَظُ أنَّكِ ما زلتِ عذراء. ـ تلك كانت فِليسا بالطبع ـ لماذا لا نذهب لنغنم مثلهم، بالتنافس معهم، ككائنات بشرية كما نحن، تاركاتٍ الأمومة جانباً؟

ـ لأنَّهُ لا يمكنُ للأمومةَ أن تُترَكَ جانباً، أو أنَّ من سيُترَكُ جانباً هو نحن ـ كانت تصرخ بها لاورا ـ انظري، يا حلوة، عملُ الرجل على امتداد حياته هو تحويل ضعفه إلى قوّة (إلى أيّ نوع من أنواع القوّة)، والقوّة الأوّليّة إلى قوّة ذكيّة أي إلى سلطة والسلطة إلى فرضٍ على البقيّة، أي إلى قانون. طبعاً ليس إلى قانون الغابة السابق كثيراً عليه، بل إلى قانون عقلاني، مصطنع وإنساني، يتعارض دائماً مع الأوّل، مع قانون البقاء الطبيعي. تصوّري ما أبعد المسافة بين تدمير الأقل كفاءة وبين القول بأنّ الأخيرين هم الأوائل أو أنَّ عليكِ أن تحبّي الغير كما تحبِّين نفسك.

ـ هذا صار ديناً.

ـ الدين هو أكثر القوانين إنسانيّةً.

ـ لستُ متأكِّدةً من هذا. أعتقد أنّها الأكثر فائدة بالنسبة لبعض المجموعات ـ كانت تدمدمُ فِليسا.

ـ كلُّ قانون مفيدٌ لمن يفرضه.

ـ طيّب، طيّب ـ تدخّلتْ خوفَ أن تتشابكا ـ. لكن إذا كانت هذه هي مهمّة الرجل فما هي مهمّة المرأة في كلّ هذا؟

ـ الأعمال المادّيّة، الأعمال الجسديّة: الحمل، الولادة، التربية وكلّ ما يترتّب عن ذلك. من وجهة النظر هذه الرجلُ كسول، فهو يقوم بكلّ شيءٍ خارج نفسه. عمله، يمكن أن نقول، زخرفي. كان باستطاعة الطبيعة أن تنظّمَ نفسها دونه بطريقة أخرى. ونشاطه مهما كان صارماً في إنسانيّته فهو سطحيٌ بالنسبة إلى النوع. من الصعب جدّاً إقناعه بذلك، لكن هكذا هو.

ـ والفن؟ ـ كنتُ أسألُ، أنا المُهتمّةُ دائماً.

ـ تريدين أن تقولي الإبداع، أظنُّهُ... أحد الألغاز التي لم تُحل ـ كانت تجيبُ لاورا، الهاوية قليلا للتمثيل، وكلّ ما تجهله ألغازٌ لم تحلّ ـ المبدع مثل كائنٍ ثنائيّ الجنس. ليس لأنَّ عنده الجنسين أو يمارسهما، وإنّما لأنّهما يتراكمان في داخِله. إنّه يملك، كما المرأة، مَلَكَتَها بتوليد مشاعره من خلالِ الكلمات أو الألوان أو الأشكال، ويملك كما الرجل، دافعاً مستأثِراً ينظّمُ ويدير الجمال. لأنَّ كلّ تنوُّعات الإبداع التي يمكن تصوُّرها تقتصر على الطيبة، الحقيقة أو الجمال. والفن هو ما هو، لا يطمح لأكثر ولا يحقّقُ أكثر. فإذا أراد أحدٌ أن يجعلَ دموعَهُ مفيدةً سيكفّ عن البكاء...

أتذكّرُ يوماً أنّبني فيه والدي وعاقبني لا أدري اليومَ لماذا ولا كيف. بكيتُ مستندةً إلى جدار الحديقة في بانتيكوسا، أردتُ أن أملأَ بدموعي جُريساً قطفته من إحدى المتسلّقات. وهكذا ـ فكّرتُ ـ يستطيعون أن يروا كلّ بكائي دفعةً واحدة. لكن السيّئَ في الأمر أنّني ما إن عزمتُ على المزيد من البكاء وحسابه حتى ما عدتُ أبكي.

كانت لاورا تتابع:

ـ إذا ما ألحّ أحدٌ على غاية مختلفة عن التسلية، صار العملُ الفنيُّ غرضاً للسوق وبالتالي عابراً. الفنّان مثل مركَبَة، كائنٌ يصلحُ للأفكار التي لا يستطيع هو نفسه أن يُعدّدَها: ثملٌ وما من حسابٍ يجدي في الثمالة. لذلك أجدُ أن الإبداع يشبه الحمل والإنجاب.

ـ لكن يُستَخلَصُ من كلّ ما تقولينه أنّ المرأة هي الطبيعة والرجلُ

هو الثقافةُ. ألا تستطيع المرأة أن تُبدع بشيءٍ آخر غير الجنس؟ ألا نستطيعُ نحن أن نعملَ فنّاً؟

ـ أكّدتُ لك أنَّ المبدعَ ثنائيُّ الجنس. والإبداع دائماً على هامش تقسيم الوظائف بين الذكور والإناث.

ـ لا تناقضي نفسكِ الآن، يا لاورا ـ تدخّلت فِليسا ـ بزعمك أنّ وظيفتنا هي الإنجاب.

ـ حذارِ، ليس هذا وحسب. فالقدرة على الإنجاب تنتقل أحياناً إلى المرتبة الثانية: تستطيعُ المرأة أن تشجِّع رجلَها في عمله، يمكن أن تعظّمه وتمنحه أهميّة يطمح إليها. وهكذا تكون مثل محرِّكٍ خفيٍّ للتاريخ...ثمَّ إنَّ الإنجاب لا يكفي أبداً، الغريزة لا تكفي، هناك الحبُّ، حبُّ الرجل الذي جعلنا ننجبُ الولدَ الذي نلدُ ويمثّلُنا. ـ كنّا نضحك نحن الثلاث مقهقهاتٍ.

ـ الخلاصة ـ كانت فِليسا تختم كلامها ـ كلُّ شيءٍ يقتصر على التبادل: علينا أن نمنحه الإعجابَ والطاعةَ والاحترامَ مقابل قضيبه، عمله وماله. يا لها من بانوراما.

ـ أمَا من طريقةٍ للإفلات من هذا الزقاق المغلق؟

ـ أرى طريقة واحدة على المدى الطويل: أن يتخلّى أولادنا الذكور عن كونهم ذكوراً، كما كان الحال بالنسبة لأجدادنا، وأن تكفَّ بناتنا عن برودتهن وحسدهنّ لأخوتهنّ، ويمتنعن عن التضحية بكاملهن لرجلٍ واحد وألاّ يتبلبلنَ بالنظر إلى أنفسهنّ بعين ذكوريّة. حولَ هذا يوجدُ كلامٌ كثير... وإلاّ فإنَّ التبادليّة بين الجنسين ستبقى يوتوبيا. كلّ كائنٍ بشري، رجلاً كان أو امرأة، يجبُ أن يتصالحَ أوّلاً مع جسده، مع حياة وموت جسده، فإن لم يفعل، لن يتصالح أبداً مع أيِّ كائنٍ بشريٍّ آخر، سواء كان من الجنس الآخر أو من الجنس ذاته. سيبقى الرجلُ لا يرى في المرأة موازياً له أو متعاوناً معه، لن يرى فيها إلا العدوّة الكامنة التي تدفعه نحوها الرغبةُ وعليه أن ينسحب منها ما إن يُرضي حاجته كي يقف في منأى عن الخطر. الرجلُ العاشقُ يعرفُ أنّه قابلٌ للعطب، وضعيفٌ كما في البداية: لم يفعل شيئاً، لم يرتقِ، وأنّه أعزلُ، مهجور (أي أنّه مُباع) مُتبدّل (أي صار آخر) فيداهمه الخوف.وحدها ردّةُ الفعل الباردة، المبتعدة، الصوريّة، أي الكلبيّة ستعيد إليه السكينة، لكنّها

تقتلع منه الحبّ... هذه هي قصّة الكثير من الرجال وما يكفي من النساء، يفضّلون القوّة الاقتصاديّة، القانون الاجتماعي، دعوة الآخرين إلى الحبّ، من هنا كان أنّهم يحوّلون الحبَّ، الذي هو الطريق الوحيدة العزلاء للخلاص، إلى شعورِ نساءٍ شقيّات وجاهلات.

ـ كيف حالك مع خطيبك، يا لاورا؟ ـ سألت فِليسا بينما هجمت على آخر ما تبقّى من المعكرونة.

ـ كما ستعرفن لم أتكلّم معه عن هذا قط.

ـ طبعاً، طبعاً، طبعاً ـ أنهت فِليسا وملء فمها طعام ـ: العظة شيءٌ والواقعُ شيء آخر.

يقشعرُ بدني اليومَ حين أفكّرُ أنّه مضى كل هذا الزمن على ذلك، على الرغم من أن الذي أمضى أو مضى عليه كلّ هذا الزمن ربّما أكون أنا.

مهما يكن مظهره، فالأمير الأزرقُ كان راميرو أيّزبِ تماماً. استنتجتُ في ذلك المساء بجانب صومعة سانِ خورخِهْ أنّه كان يعجب لاورا وفليسا حتى الجنون. ولو أظهر تردُّداً طويلاً لمحق صداقتنا. لكنَّ هذا لم يحدث؛ فسرعان ما اتضحت نيّته حين اقتربَ منّا: اقترب لأجلي. أظنُّ ـ الآن، من بعيد ـ أنَّ اختياره ذاك هو الذي دفعني، بعد سنوات، للزواجِ منهُ: كيف كنتُ سأرفضُ رجلاً يسحر بقيّةَ النساء؟

بعدها شعرتُ بالخيبة تجاه بعض الجوانب لديه؛ لكنَّ جسده كان حاضراً ولا يخدعُ. وإذا كان فيه شيءٌ لم يتبدّل فهو ما اعتبرته ـ ويعتبره هو أيضاً ـ فضيلته الرئيسيّة: كان لطيفاً، طليق اللسان، عذبَ الصوت رائع اليدين، يحرّكهما بحدود الضرورة كي يكون مقنعاً. وما إن يمرَّ وقت قصير على الثرثرة معه، حتى ينتبه محدّثُهُ أنّه كان منذ البداية موضوعَ الحديث وهو ما يهمّه، كما يشعر محدّثُه بأنّه كان في النعيم لأنّه ردَّ عليه بنعم أو لا، بحسب ما يحبُّ راميرو، وبالامتنانِ لسماحه له بإبداء الرأي. أدهشتني دائماً تلك المهارة الغريزيّة، خاصّةً حين استطعتُ أن أنظر إليها من بعيد، مثلاً حين كان يمارسها لإغراء رؤسائه وزبائنه المحتَمَلين.

لو خطر لي الآن أن أسألَ نفسي متى وكيف أعلن لي راميرو عن حبّهُ لما عرفتُ الجواب. أفكِّرُ أنَّه لم يصرِّح لي به أبداً. بالتدريج وجدنا نفسينا خطيبين. وكذلك صديقتاي. مهما أجهدتُ نفسي فإنَّني لا أتذكَّرُ أنَّني علَّقتُ قائلةً لهما: «قاله لي»، على الرغم من الثقة الكبيرة بيننا، والواحدة منّا تحكي للأخرى كلَّ شيء، وكلُّ شيءٍ كان مناسباً للاستمتاع.

أراهما الآن تماماً كما كانتا... أغمض عينيَّ فأراهما. لاورا تكبرنا وإن لم يكن بكثير،كان شعرها الأحمر، المضطرم وبشرتها الشفيفة، الورديَّة، الرقيقة، النمشة، يضفيان عليها روحاً تتراوح بين الغرابة والطفولة وتستثمرها. كان أنفُ فِليسا صفيقاً - أعني أفطس جدّاً -، ووجهها مستديراً وتنزع كثيراً نحو البدانة. تجرِّبُ منذ ذلك الوقت كلَّ أنواع المنُحِّفات التي ترى إعلاناتها في مجلاّت الصيدلة وأظنُّها هي التي خرَّبت معدتها. كانت تقولُ ضاحكةً: «بدينة وأعاني من معدتي». كانت أفضلنا مزاجاً وأشعر بميل خاصٍّ نحوها، على الرغم من أنَّ احترامي للاورا أكبر، كانت أفضل تأهيلاً ودرايةً. تزوّجتا في عامٍ واحد: الأولى في أيّار والأخرى في تشرين الأوَّل. كان زوجاهما رفيقيهما في الجامعة، أقاما بإلحاحٍ منهما في وشقة قبل ذلك بعام. كان مارثِلو، زوج لاورا مُحامياً عمّالياً وأرتورو، زوج فِليسا، طبيبَ أطفالٍ. لم يكن أمامهما عائق للاستقرار، فأسرتاهما كانتا موسرتين ولم يفعلا شيئاً تقريباً سوى ما خطَّطتا له: لاورا فتحت مكتبة في شارعٍ مركزيٍّ، غير بعيدٍ عن أفضلِ فندق، وفِليسا فتحت صيدليَّةً في حيٍّ جديد سكّانه موسرون. طريقي، كما هو متوقَّعٌ، كان مختلفاً تماماً.

كان والدي - لم أكد أعرف أُمّي - قد خسر ثروته، التي لم تكن يوماً كبيرة جدّاً، منذ زمن طويل. وبذل جهداً كافياً حتى استطاع أن يغطّي نفقات دراستي خارجَ المدينة. وما إن أنهيتها حتى شعرت بالندم إذ بقيتُ أعيش على نفقته. ضايقني أنّني لم أجد عملاً ينسجمُ مع مؤهّلاتي. أعطيتُ دروساً في الأدب في مدارس الراهبات، ولم أستمر هناك سوى ثلاثة أشهر: أظنُّ أنهنَّ وجدن فيَّ امرأة عصريّةً أكثر من اللازم وربّما هدّامة. حاول والدي أن يشجّعني.

- تعالي معي إلى مشغل الشمع، فقد أصبحتُ بحاجة لمن يساعدني.

ولم يكن هذا صحيحاً، فمشغل الشمع، الذي افتتحه يومَ أضحت الأسرة بلا مال، صار الناس الذين يدخلونه في كلّ مرّة أقل، وأنا لا أحرِّكُ ساكناً، لا دور لي هناك أبداً.

- أشعر بنفسي لكنّاً. لا بدَّ لي من وجود شخصٍ في البيت - كان والدي يلحُّ كي يجعلني أشعر بفائدتي، فلا تنهار معنويّاتي.

- شكراً، لكنَّ هذا ليس صحيحاً. قضيت خمسَ سنوات في الخارج تدبَّرتَ فيها أمركَ بشكلٍ رائعٍ بدوني.

كان أخي أغوستين قد دخل في التأمينات ويعيشُ معَ خطيبته؛ ويعملُ تحت إمرة راميرو، على الرغم من أنَّ راميرو لم يكن يأمر كثيراً آنذاك.

كان الجميع يقولون:

- لهذا الـ أيّرِب مستقبل، مستقبل كبير. سيصل إلى حيثُ يشاء.

ربّما هو من كان يلمحُ إلى ذلك وردّده الآخرون دون انتباه. اعتبروه دائماً شابّاً نموذجيّا: معبود الأمّهات اللواتي عندهنَّ بنات في عمر الزواج ومعبود هؤلاء البنات أيضاً. لذلك لمتُ نفسي لبرودتي معه، وبعضهنَّ - عليَّ أن أقولَ - لمنه لبرودته معي. وهذا ما عزوتُه لتديُّنه: فهو شديد الورع؛ يذهب إلى الصلوات كلَّ صباح ويدفعني للذهاب معه. يزورُ في كلِّ مساء إحدى الكنائس قبلَ أن يلتقي بي أو قبل أن آخذه من باب الكنيسة التي يحدِّدها. قبّلني في بعض المناسبات، لكن على شفتيَّ فقط وعلى خدَّيَّ حين يودِّعني. كثيراً ما أخذ يديَّ بين يديه، وراح يتحدَّث عن أشيائه، إلى أن أسحبها خفيةً وقد نمَّلت، دون أن ينتبه.

بعد عامٍ من البحث غير المجدي عن عمل، وأنا أشعر بالضجر والمهانة سألني ذاتَ ليلةِ سبتٍ لدى خروجه من صلاة في سان لورِنْثو - وكان تشرين الأوّل والطقس بارد - بطبيعيّة هي من التفخيم بحيثٍ بدت مزيّفة: لماذا لا نتزوّج. كانت عينايَ في الأرض، المليئة بالأوراق أُمسك

بيدٍ تنورتي التي كان الهواء يرفعها. في المساء ذهبنا، بينما الشمس تضطرم في رؤوس أشجار الكستناء الصدئة، إلى قسم الورد من الحديقة العامّة، حيث ينزوي العشاق عادة ليخلوا بأنفسهم تحت أزهار الورد غير الموجودة آنذاك، وكنتُ أتساءل لماذا نحن أنا وراميرو هناك... رفعتُ عينيّ عن الأرض، نظرتُ إلى عينيه وقلت له بطبيعيّة أيضاً:

- أنتَ على حقّ، لماذا لا نتزوّجُ ونرتاح؟

لم تستحوذني أيّة عاطفة وهذا ما واجهتُ به نفسي في داخلي، لأنَّ كلّ شيء كان يجعلني أظنُّ أنَّنيُ عاشقة. أو على الأقل كلّ الذين كانوا حولي، بكلماتهم ومواقفهم.

في الأعراس قليلٌ من التكلف دائماً، خاصّةً حين تغالي في التقليدية. ما من واحدة لا تقعُ في التجربة بعد سنوات قليلة. من الصعب أن تبدو الواحدةُ عاديّة حين تمضي مقنّعة، تسير وتتحرّكُ بطريقة غريبة جدّاً. رتّبَ راميرو عرساً من أكثر الأعراس تقليديّة في العالم.لم يبغِ أن يقيمه في سان لورنثوَ لكثرة الذين يتزوّجون هناك وأراده أن يكون مختلفاً قليلاً. لم يبغِ أن يقيمه في سان بيدرو إلبييخو، كنيستي، فرجال الفكر والتقدميين الذين لم يكن يشاطرهم الأفكار، يتزوّجون هناك.

اختار الكاتدرائية - هكذا قال - لأنها تمنحه إحساساً بالقوة والثقة، لكن الإحساس الذي منحته له في أعماقه هو الوصول إلى حيث كان متأكداً أنه سيصل مغمض العينين.

ما إن وطأتُ الفناءَ قبلَ أن تبدأ العلامات الأولى لموسيقى الزفاف حتى تذكّرتُ دون أن أعرف السبب جرنَ ماءِ سان لورنثو المباركَ المنبسط، بوقوبه الصغيرة المصفوفة بشكل منحنٍ ووقب آخر في كلّ طرفٍ، حيثُ تلوذُ المياهُ التي كنتُ أُبلّلُ فيها وأنا بين ذراعي والدي كاملَ يديَّ تقريباً. كما تذكّرتُ رواقَ سانِ بيدرو إلبييخو الجهم والمتناسق جدّاً،حيث لم يكن يخرب منه إلاّ ما أُضيفَ بعد قرون...

رفعتُ نظري فسمعتُ الأُرغُنّ. رأيتُ زخرفة الرخام المتأجّجة والفاخرة. ، تقدّمتُ بين الأقواس المدبّبة كما في مسرح، لم أشعر، على الرغم من كلّ محاولاتي الداخليّة، بالورع أو العظمة. الماضي هو الذي شدّني وليس الحاضر. نظرتُ إلى اليسار لأنَّ سيّدة رفعت يدها بالسلام عليَّ فرأيتُ القديسة لوثيّا المنحوتة من الرخام الأبيض فتعثَّرتُ فجأة بالطفلة التي كنتُها، وكأنَّها وضِعَت أمامي، على السجّادة في الممر. طفلةُ عيد الميلاد الذي أخذني فيه أبي إلى إحدى قرى سومونتانو، غير البعيدة عن بارباسترو، حيث كان عليه أن يسلّمَ شموعاً كبيرة وصغيرة من أجلِ عيد القدّيسة، وسمعتُ الطفلات الأخريات، الشقراوات والسعيدات، ينشدن العيديّة:

القديسة المباركة لوثيا

جاءت لزيارتنا

عيناها في الصحن

تطلب صدقة.

ملائكة نحنُ

قادمات من السماء

لنطلب لحماً وبيضاً...

ماذا جرى لتلك الصغيرات اللواتي كنَّ يصحنَ من بابٍ إلى باب؟ كنتُ هناك أتزوّجُ لا أميِّز بين واحدة وأخرى من قصص اللوحة المعقّدة. جهدت في التركيز وفي إبعاد كلّ ما ليس له علاقة بالاحتفال. أخيراً وجدتُ نفسي أمام راميرو ففكّرتُ: «ما أجمله.» وتصوّرتُ من سيمائه أنّه فكّر بالشيء ذاته تجاهي.

ثوبي ـ هديّته وبحسب ذوقه ـ كان بالنسبةِ إليَّ مدهشاً أكثر من اللازم، لا شكَّ أنَّ ما أراده منه راميرو هو الإدهاش وقد أحرزه؛ زينات وحواشٍ وذيلٌ مفرط الطول. الشيء الوحيد الذي أكّدت نفسي فيه هي التسريحة، إذْ لم أبغِ أن أبدو في ذلك المساء امرأة مختلفة، غريبة اللباس، شيء مقبول، لكنّني أنا نفسي.

زوّجنا الأب ألونسو، عرّافُ زوجي ولا يكبرنا إلا بسنواتٍ قليلة. خطر له في عِظته القصيرة أن يتكلّمَ عن شيكاتٍ ويقارنَ كلَّ شيءٍ

بالسندات المصرفيّة. قال إنَّ الزواجَ مثلِ شيك أبيض، يمكن أن تُكتَبَ فيه مبالغ هائلة، لكن لا شيء يجعله فعَّالاً غير توقيع صاحب الحساب، الذي ليس غير الرّب.

ـ وشيك اليوم ـ أضاف ـ حصل على هذا التوقيع مقدَّماً. وستزيدُ بِسي وراميرو عددَ الأصفار مع اضطراد حاجتهما إليه، لأنَّ الأطفال وهم زهرة وثمرة الزواجِ سيأتون كما ستزداد هذه الأصفارُ بناءً على الإيقاع الذي يضعانه لكلّ شيءٍ بانسجام هو في كلِّ مرَّة أكبر، لأنّهما منذُ اليوم اثنان في واحد.

فكَّرتُ أنَّ الأبَ ألونسو هو أوَّلاً وأخيراً رئيس جبل الرحمة وأنَّ تلك الاستعارة ليست غريبة عنه.

جميعُ المدعوِّين أثنوا على الزوجين الطيِّبين اللذين كنّا نشكلهما وعلى الروعة التي ستكون عليها حياتنا المشتركة. جاء رؤساء راميرو برفقة زوجاتهم الرسميّات بأبهى ملابسهنَّ، وصديقتاي الحبلاوان إلى هذا الحدّ أو ذاك مع زوجيهما. بدا الإعجاب على معظم الوجوه، والحسد على بعضها: على وجه أخت زوجي مثلاً. والدي الذي كان الإشبين، انفجر بالبكاء وسط السهرة. انحنيتُ نحوه، على الرغم من أنَّ أمّ راميرو، إشبينتي، لكزتني بمرفقها مؤنِّبةً. سمعتها يفصلني عنها خطيبي تقول:

ـ لو رأتكِ أمُّكِ...

قذفتُهُ بقبلة من يدي، استطعتُ من خلالها أن أجعله يبكي بقوّة أكبر. في اليوم التالي كتب مُحرِّرُ الأحداث الاجتماعية في الصحيفة أنَّنا تزوَّجنا: بمباركة الملائكة وتهليل العنادل. لم أتأخر لأعرف أنّه أخطأ.

أسمع المفتاح. إنّه يمام، أخيراً لقد جاء. مباركٌ هو.

منذُ عدَّة أيَّام وأنا أتساءل لماذا اندفعتُ لكتابة هذا الدفتر. تزاحم في رأسي حشدٌ من الأسباب، ما من واحدٍ منها ينفع. في السابقِ (كنتُ سأكتب في حياتي الأخرى) قرأتُ كتباً كثيرةً، قرأتُ كلَّ ما وقع

تحت يدي، تغلّبتُ به على مللي وحاولت سلوانَ آلامي،إلى درجة نفيي وجودها في نفسي. والآن لا كتب عندي هنا، لا رغبة بالقراءة ولا آلام: أنا سعيدة. أستطيع القول إنّني أكتبُ كي أملأ الساعات الطويلة التي أكون فيها وحيدةً - أو التي أشعرُ بها طويلةً جدّاً -، لكنّني أعرفُ أنّني لست وحيدة: ربما وحدي - مثل الكثيرات في هذا البلد - لكن لستُ وحيدة. كما لا أعتقدُ أنَّ السببَ الحقيقيَّ هو التمرّن على لغة ربّما - وأنا لا أطرحُ هذا على نفسي - بدأتُ أنساها. نعم، أعرفُ أنّني لا أتكلّمُ، ولا أرغبُ بالتكلّم هنا أبداً بلغةٍ أخرى غير لغتي، ومع الشخص الذي أكلّمُه بها الآن.

الصحيح هو أنّني بهذا الخط المشوّه لكثرة ما كتبتُ من محاضراتٍ في الجامعة وأسرعت، لا أكتب لشيءٍ محدّدٍ، لا أكتبُ لأحدٍ، ولا حتّى لنفسي. لا تحاولُ هذه الصفحات، غير الموجّهة لأيّة أيدٍ، خاصّة كانت أو عامّة، أن تجعلَ أحداً يحبّني أكثر أو يغفر لي، هذا إذا كنتُ بحاجة للغفران، ولا أن يتفهّمني قارئٌ مُحتَمَلٌ. لا أحاولُ أن أجلو مشاعري أو الأحداثَ التي قادتني إليها لأعرف نفسي أفضلَ. ما أكتبُه لا يُعوّضني عن شيء، لا يعوّضني عن أيّة خسارة، كما لا يضاعف التعبيرُ عنها أيَّ مكسب أو يثبته؛ ولا يحاول بوعي أو دون وعي أن يرفعَ معنويّاتي. ببساطة لا أعرفُ لماذا أكتبُ، هذا إذا كانت الكتابةُ تحتاج لدافعٍ...

أو ربّما تحتاج. ربّما أكتبُ لأشعر أثناءَ غيابه بأنّني لستُ وحدي ماديّاً. وربّما لأنَّ إعلانَ المحِبِّ عن الحبِّ، حتى ولو أمام نفسه فقط، يُشَكّلُ من الرضى ما يكادُ يوازي الحبَّ. الحبّ الذي لا نشعر بالاعتزازِ به ونخفيه بين الصمت والعتاب، لا يكادُ يكون حبّاً ويبقى على كلّ الأحوال بلا صدى وبالتالي لا يتجاوزُ كونه حكاية طريفة. الحبُّ بالنسبةِ إليّ مثل رحمة الله التي كان يحدّثنا عنها الراهب الذي درّسنا الديانة في المدرسة، diffusivum sui (لا أدري ما إذا كانت تُكتَبُ هكذا) شيء ينزعُ إلى الانتشار مثل الصوت، الرائحة أو النور. لذلك يخطر لي أنّه قد يكون هذا الدفتر مثل كتاب صلاةٍ مكرّسٍ له (أعني ليمام، الذي هو الحبُّ بالنسبةِ إليّ) مثل مفكّرة يشكّلُ فيها اسمه شغلي اليوميّ في غيابه. لأنّ حضوره مفكّرتي.

على كلّ الأحوال أعرفُ أنّه ليس لهذه الصفحات شخصٌ ولا عنوانٌ

تُرسَل إليه، على العكس منّي. أو ربّما أخدعُ نفسي (أبغي التعبير هنا عن كلّ شكوكي) وفي سرِّي آمل أن يقرأها ذات يوم. ومع ذلك إذا حدث هذا فسيكون دون إرادةٍ منّي، على الأقل دون إرادةٍ منّي اليوم، وهي دافعي إلى كتابتها.

لم أملك دائماً الصراحةَ العاريةَ التي أتطلّع لأعكس نفسي بها على هذا الورق العاديّ الذي اشتريتُه من حانوت قرطاسيّة للأطفال، ولا الرغبةُ بإخفاء أيّ شيء عن غيري وعنّي. أتذكّر أنّني صادفتُ بعد يومين من عودتي من رحلة الزواج وأنا في الطريق إلى مكتبة لاورا الأبّ ألونسو. كان ذلك في ساحة إلغوبييرنو (الحكومة) والكستناء أزهرت ونسمة دافئة تحرّك أشجار الموز القويّة، لم نكن بعيدين عن سبيل الماء الحديديّ، الجاف الآن، الذي كثيراً ما توقّفتُ بجانبه طوال المرحلة الثانويّة أثناء العودة من المعهد إلى البيت. كانت مياه المطر الأولى متجمّدة في حوضه... سألني الراهب كيف كانت أموري. أعطيته يدي فأبقى عليها برهةً طويلةً بين يديه. نظر إليّ باهتمام بالغ بانتظار جوابي. بقيتُ ثوانيَ لا أعرف ما أقول له. أخفيتُ عينيّ في السبيل، الذي صار صدئاً لا نفع منه. ألحّ:

ـ هل كلُّ شيء يسير على ما يرام؟

قرَّرتُ في تلك اللحظة ـ حسنٌ، لا أدري ما إذا كان في تلك اللحظة أم قبلها ـ ألاّ أقولَ بعد الآن الحقيقةَ لهُ ولا لصديقاتي ولا لأيٍّ كان حتى لنفسي. صوَّبتُ ابتسامةً.

ـ نعم، كلُّ شيءٍ على ما يرام ـ أجبتُه.

ـ من غير الممكن أن يكون غير ذلك ـ علّقَ هو.

ـ نعم من غير الممكن ـ قلتُ ملتفتة بعينيّ إلى السبيل.

من بين عددٍ من الاحتمالات اخترنا أنا وراميرو، دون دراسة، أن نُمضي شهرَ العسلِ في الكاريبي. نبدأ بكولومبيا لنصل إلى المكان الذي تسمحُ لنا به ميزانيّتُنا. أصابني حماسه بعدواه. كانت محطّتُنا الأولى

مدريد، حيث علينا أن نترك السيّارةَ (كان راميرو يحبُ قيادةَ السيّارة كثيراً: «يمنحني القوّةَ والثقةَ، والطمأنينةَ») ونأخذ الطائرةَ إلى بوغوتا. لكنّنا خرجنا متأخرَين جدّاً وتعبَينِ من الحفلة والعرس والتحضيرات. اقترح راميرو أن نُمضي ليلةَ العرس ـ أتذكّرُ أنّه قال ليلة فقط ـ في المونَاستيريو دِه بْييدرا (دير الحجارة). في السيّارة أخذتُ بذراعه ورأسي على كتفه.

ـ هل أتركك تقود السيّارةَ جيّداً؟

ـ اليومَ فقط عرفتُ هذه الطريقةُ. القيادة سويّاً أمتع ممّا كنتُ أتوقّعُ.

كان يُقبّلُني مَيْلاً دون أن يتخلّى عن النظر إلى الأمام، وأنا أريحُ يدي على يده فوق المقود. كانت قد تجاوزت الثانية عشرة حين وصلنا إلى نْوِبالوس. تذكّرتُ في الظلمة، في العمق، الأقواسَ شبهَ الإيطاليّة لبيتٍ جداره أزرق رماديّ، سحرني منذ أوّل مرّة رأيته فيها. كان الليلُ دافئاً تماماً، والظلمةُ تلفُّ كلَّ شيء في الدير. انتابتني قشعريرة عند المدخل حين رأيتُ شجرةً ضخمةً، صامتة، جافّة وباردة. لذتُ براميرو، ومع ذلك تعثّرتُ وأنا أهبط الدرجات العريضة.

أتذكّر الجلبةً التي أحدثتها خطواتنا في الأروقة ذات القبب القوطيّة التي تطلُّ على فناء معتم. كنّا نمضي آخذاً الواحدُ منّا بخصر الآخر، خطواتنا تدوّي معاً وتُسمع خلفنا خطواتٌ أخرى أقصر وأثقل، التفتُّ برأسي فرأيتُ فتىً يحملُ أمتعتنا.

ـ منذ اليوم سنستخدمُ الحقائب ذاتها ـ قال راميرو ومرَّ بذراعه على كتفيّ.

في الفناء، هذا إذا كان فناءً، سمعْنا الهواءَ يمرّ ويعود فيعبر بين الأشجار.

خرجتُ من الحمّام بذلك القميص الداخلي والدثار، المفرط بالرسوم غير الضروريّة التي تحملها معها المتزوّجات حديثاً. حين ارتديتهما سبَّب لي الأطلسُ قشعريرة.

ـ أنتِ رائعة هكذا.

حملني على الدوران دورة كاملة ثمَّ عانقني. عرفتُ ما سيحدث بعد ذلك، لكنّني بقيتُ هادئةً: كنتُ أثقُ براميرو.

ـ سأعودُ حالاً ـ قالَ ودخلَ بدوره إلى الحمّام.

تردّدتُ بين انتظارِهِ واقفة، متظاهرة بعمل شيءٍ أو بالبحثِ عن شيءٍ في حقيبة الزينة، وبين انتظارِهِ جالسة أدَخِّنُ سيجارةً، أو مستلقيةً في السرير. كلُّ موقفٍ من هذه المواقف الثلاثة يعبِّر عن حالة داخليّة وما يشبه طريقة المرء في الحياة. بدا لي الأخيرُ أكثر منطقيّة ومباشرة. تركتُ الدثارَ على كرسيٍّ ودخلتُ بين الملاحف. كانت باردةً ورطبةً قليلاً. شعرتُ بقشعريرةٍ جديدة. قلتُ لنفسي بصوتٍ عالٍ:«لا شيء يحدثُ، أيّتُها الغبيّة». فكّرتُ بأمّي وتساءلتُ لماذا أُفكِّرُ بها. ودِدتُ لو كانت بقربي «ربّما هي كذلك» أو أن تكون لاورا وفِليسا في غرفةٍ مجاورة. «صَبيّنات وحماقات. فخلف ذلك الباب زوجُكِ. بعد لحظةٍ سيفتحه ويخرج منه، سيضمُّكِ بين ذراعيه ويمتلككِ. ربّما تألّمتِ قليلاً في البداية، لكنّك تعرفين كم من الكلام ينسجُ حول هذه الأشياء». كنتُ أرغبُ براميرو وأرغبُ بضمِّ جسده أيضاً، أن أراه عارياً وأن يُعرِّيني. «ياللسعادة الكبرى: ها هو الواجبُ يلتقي أخيراً مع الرغبة.»

وبالفعل فتحَ بابُ الحمّام. لم يُطْفِئ راميرو نور الداخل. رأيته على خلفيّته. لم يكن يرتدي شيئاً.

ـ هل تطفئين من عندكِ بقيّة الأنوار؟

أطعته. بقي راميرو بلا حراكٍ. كنتُ أرى طيفه الزاهي، بساقيه المنفرجتين ويده المرفوعة قليلاً. مددتُ له ذراعيَّ. اقتربَ. جلسَ على السرير. تعانقنا بعذوبة ودون استعجال. ثمَّ رمى عند قدم السرير بالثياب التي تُغطِّيني.وبرقّة فكَّ رباطي كتفي القميص الداخلي وأخرجهما من تحت ذراعيَّ سانداً إياي. فكّرتُ أنَّ من الأسهل له لو خلعه عني من الرأس، لكنّني فكّرت بذلك بشكلٍ مُبهم. فما كانا لينفصلا الواحدُ عن الآخر. كان يداعبُ ظهري، وركيَّ، فخذيَّ. وأنا أداعب ظهره الذي بدا لي أعرض من أيِّ وقتٍ مضى. صدري يحتكُّ بصدره، انحنى لتقبيله. ضباب الرغبة لم يسمح لي برؤية أيِّ واقع ـ كما أنّني لم أرغبْ برؤيته ـ ولا بقياس الزمن الذي كان يمضي... لا أدري لماذا انفصلت

عنه وفتحتُ عينيَّ، ربّما لإحساسي بشرودٍ عنده، كما لو أنّه قام بوقفة دنيا في غير أوانها. كانَ يبتسم ابتسامةَ طفلٍ خجول، مثل طفلٍ بوغت في إحدى شقاواته.

ـ أُحبُّك إلى حدّ أنّني غير قادرٍ على البرهان لك عنه. لكن لا تهتمّي، حالة وتزول. وأنتِ هل تُحبّينني؟ ـ كان يداعب شعري.

ـ تعرف جيّداً أنّني أحبّكَ. أريدُ أن أكونَ الآن لك. تعال ـ قلتُ له تقريباً في أذنه.

ـ هذا ما أريده، لكن...لم يحدث لي هذا من قبل قط. لا بدَّ أنّ السبب هو التعب.

عندها فقط فهمت ما كان يلمّح إليه. كان باستطاعتي سؤاله ما هي المرّات الأخرى ومع من مارس الحبَّ. ومع ذلك فضّلتُ أن أقول له:

ـ لا يهمّني. حقيقةً. قبّلني.

لم أدرِ كم مضى عليه حتى دخل في النوم. تظاهرتُ بالنوم قبله بكثير، بل شككتُ بأنّه يتظاهر أيضاً. كنّا قد نسينا أن نغلق الستائر. نور هو في كلّ مرّة أكثر لؤلؤيّة دخل من النافذة العليا التي كانت تُطلُّ على رواقٍ فسيح. سادَ الغرفة كلّها جوٌّ شبحيٌّ. كنتُ أسمعُ تنفُّسَ راميرو الموقَّع. ومن جديدٍ فكّرتُ بأمّي فنمت على هذه الفكرة؛ كما لو أنّني أسندتُ جبيني على ركبتيها وهي تغنّي لي، بعيداً وفي داخلي في آنٍ معاً، أُغنية مهدٍ شعبيّة.

نامي، يا طفلتي

فالغول ياتي

ويأكلُ الصغيرات اللواتي

ينمن قليلاً.

كان نيسان، لكن الحرّ في قرطاجنة أمريكا شديد. كنّا نقيمُ في فندق كبيرٍ مطليٍّ بالزهريّ ونوافذه بالأخضر؛ وغرفتنا تُطلُّ على ممرٍّ مكشوفٍ تظهر منه حديقة بنباتات رائعة؛ وأوراق الأشجار الرشيقة والغريبة لامعة بخضرتها الكثيفة والأزهار يتكدَّسُ بعضها فوق بعضٍ بالوان غير متوقَّعة. بعضُ الببغاوات وشبيهاتها تثرثرُ من فوق عيدانها أو أغصان الأشجار المزهرة. كان الفندقُ قريباً من البحر، لكنّنا لم

ننزل إلى الشاطئ، المليئ بالباعة والمستحمّين وبسطات العربات، سوى مرّتين. كنّا نكتفي بالنزول إلى المسبح. نتمدّدُ في الأسرّة المعلّقة، ودون أن نشعرَ تمرُّ ساعاتُ الكسل والعطر بين بربطة قصيرة وأخرى وبعض الجمل المبهمة، ممسكاً الواحدُ منّا بيد الآخر إلى أن يزلقها التعرّق. في المساء نذهب في سيّارة أجرة إلى المدينة القديمة، نشرب بعض الكؤوس على السور، نزور مروراً بعضَ الكنائس أو الفناءات العائدة للمرحلة الاستعماريّة. وذات مرّة ذهبنا إلى معبد بوبّا. أخذنا هناك صورة مع الأي،أو الكسلان، الحيوان شديد البطء الذي بدا لي مريضاً ومهاناً. انتابتني رغبة بالبكاء حين رأيته يرتاحُ بين أذرع السيّاح، يؤجّره لهم رجلٌ داكن البشرة أعور.

كان راميرو يشتري لي في كلّ مكانٍ أزهاراً ذات أسماء تعني في إسبانيا أشياء أخرى وأنا أسأل عن أسماء بعض الأشجار خاصّة الجميلة. أتذكّرُ الآن الأشجار وليس الأسماء التي يطلقونها عليها. باستثناء واحدة يسمّونها مطر الذهب.

وذات يوم خرجنا باكراً إلى جزر الروساريو في سفينة صغيرة هشّة. أزواجٌ آخرون رافقونا بعضهم كبير في السن معه أطفاله. زوجان منهم، عجوزان تقريباً، كانا ينظران إلينا برقّة متكهّنين أنّنا زوجان حديثا العهد.

- هل تعتقد أنّه يظهرُ علينا إلى هذا الحدّ؟

- هل تلاحظين أنتِ عليّ ذلك؟ - أجابني راميرو.

كان في عينيه حزنٌ كبير. أسندتُ رأسي إلى كتفه وقبّلته على عنقه. مررنا بحرٍّ شديد، إلاّ أنّ اليوم كان جميلاً. شاهدنا طيوراً غريبةً، بجعاً رماديّاً (عرفتُ أنّها تدعى بجعاً)، مياهاً تصبغُها أنواع المرجان المختلفة بألوان بديعة، حوضاً من الماء بأسماك مذهلة وسلاحف كبيرة وأسماك قرشٍ صغيرة. رأينا حيوانات تشبه النباتات، نباتاتٍ تشبهُ الحيوانات. أكلنا بشكلٍ سيّئٍ ومزعج لكنّنا كنّا متحدين ومتحمّسين أكثر من أيّ وقتٍ مضى في نوعٍ من الكوخ النقّال. سبحَ راميرو حتى صخرة قريبة، وراح يرميني من هناك بالقبل. بقينا المساء كلّه يمسك الواحد منّا بيدِ الآخر، كنّا نتصبّبُ عرقاً، إلاّ أنّنا لا نبالي. في طريق العودة، بين نباتات القرام التي يحرّكُها مرورُ السفينة

مثل مرجِ هزّه زلزال، بينما ينظرُ الواحد منّا إلى الآخر بتوقٍ وصلَ إلى حدٍّ صارَ فيه العالمُ نحنُ فقط. كنتُ أشعرُ بيده تنزلقُ بمنتهى النعومة على شحمة أُذني، جيدي، ذراعي وفي قلبي أيضاً. لم أعرف ما معنى الرغبة حتى تلك اللحظة. تجمّعت في داخلي لحظة ذاك رغبات كلّ الليالي السابقة المليئة بالخيبات. شيءٌ ما كان ينصهر في داخلي ويتركني مغمضة العينين بلا تنفّس ليجبرني بعدها على التنفس فجأةً بعمقٍ...

أخيراً امتلكني راميرو في تلك العشيّة. لكنّ ما شعرتُ به لم يكن ليقارن بما شعرتُ به في سفينة العودة.

في الليالي اللاحقة عادَ كلُّ شيءٍ كما في الليالي الأولى، إلاّ أنّ راميرو ما عادَ يتأسّف ويطلب العفوَ منّي. كلانا قَبِلَ الحالةَ على أنّها عاديّة، مع أنّ صوتاً في أعمقِ أعماقي كان يقول لي بأنها ليست كذلك. لم نتكلّم عن هذا وحين يتمكّنُ راميرو من الولوج فيَّ أجدُهُ في غاية التسرُّع والضيق وبدأتُ أفضّلُ ألاّ يفعل. بل وانتهيتُ إلى أنّني صرتُ أرغبُ بانتهاء رحلة شهر العسل. كنتُ آملُ أن يخفّفَ الأصدقاءُ المُشتَرَكون والأمور في وِشْقة من إحساسي المخيفِ بالوحشة التي لم أستطع منعها من السيطرة عليَّ في هجعة الليل.

ـ هل كلُّ شيءٍ يسيرُ على ما يرام؟ ـ سألني الأب ألونسو.

ابتسمتُ ما استطعتُ، وعينيَّ على السبيل الحديديّ في الساحة وأجبتُ:

ـ كلُّ شيءٍ على ما يرام.

ـ لا يمكن أن يكون إلاّ كذلك.

ـ لا، لا يمكنُ ـ قلتُ له.

قضينا الصيفَ الأوّل في وِشقة: فقد أنفقنا ما يكفي على العرس.

ـ هذا هو الأفضل ـ كان يقول الناسُ لي ـ:معاً، وحيدان في العشّ مثل زوجين من القماري. سيكون عندكم الوقت لتحلّقا في الخارج.

كانت الشقّة التي نقطنها في وسط المدينة وتكفينا، ومع ذلك كان راميرو يطمحُ إلى أخرى أفضلَ بكثير. ألقى نظرة على بيتٍ في طور البناء، أراني ذات ليلة مخطّطاته باعتزاز، كما لو صار لنا. نشرها على طاولة الطعام، مبعداً بقايا العشاء. غرفة نوم رئيسيّة، غرفتان للضيوف، ثلاثة حمّامات وآخر للمدعوّين وصالة هائلة.

- سنُزَارُ كثيراً. فالنجاحُ يتطلّبُ القيام بالكثير من الحياة الاجتماعية؛ والارتقاء يطبخُ دائماً خارجَ المكاتب...

- والأطفال؟ سألتُ بصوت واهنٍ.

- أيّ أطفال؟

- الذين سيأتون.

- آه، - راحَ يضحك - هؤلاء سيأتون بخبزهم تحت آباطهم. علينا ألاّ نستبقَ الأمور.

كنّا متوائمين. وهو لطيفٌ معي. بل إنّه كان رهن إشارتي أكثر من اللازم، وبيننا، وقد صرنا زوجين، منطقةٌ محايدة عليه أن يشغلها بلطفه.

كانت صديقتاي قد سافرتا مع زوجيهما لقضاء العطلة في صقلّيّة.

- لو ذهبوا إلى الأندلس التي تشبه هذه الجزيرة أساساً لكان أرخص لهم - قال راميرو.

عرضتُ، خشيةً أن أبقى وقتاً أكثر من اللازم وحيدة في الشقّة، أن أتعهّدَ أمرَ مكتبة لاورا التي خطّطَتْ لإغلاقها في آب. كان عندها عامل في الثامنة عشرة أو العشرين من عمره، لكنّا أكثرَ من اللازم، يَضيعُ باستمرار دون أن يدري أين. وبما أنّ المشترين الذين يدخلون قلّةٌ فقد كنتُ أقضي الصباحات والمساءات بجانب المروحة أقرأ الكتبَ، الواحدَ تلو الآخر. كانت مكاتبُ راميرو قريبةً فيمرُّ قرابة الثانية عشرة ويأخذني لنتناول القهوة معاً.

- أجملُ متزوّجة في وِشقة - كان يقول أصدقاؤه أحياناً، فيأخذني من خصري كصاحبٍ وقعي عنده جيّد.

كان يعود ليأخذني حين أغلقُ. نعرّجُ على البيت، نبدّلُ ملابسنا

ونتناول عشاءنا في أيِّ مكان مع معارفه الذين يتواعد معهم أو مع من تبقّى من أصدقائه وزوجاتهم في وشقة إن لم يذهبوا.

وأنا كنتُ أجدُ نفسي غريبةً، دون أن أعترف، لم أتمكّن من هضم كوني متزوِّجة. أتوق وأنزعجُ في آنٍ معاً من البقاء وحدي مع راميرو. كنّا نعودُ عندَ منتصف الليل باتجاه شقّتنا.

- تُصْبحين على خير، يا حبيبتي - كان يقبّلني بخفّة وقد صرنا معاً في الفراش - هل ستقرئين أكثر؟ هل عندك من النور ما يكفي؟ انتبهي، يا حبيبتي. ستخلفين عينيك، هاتين العينين الجميلتين، في الكتب...

أيضاً كان يُقبّلُ أهدابي بخفّةٍ؛ ثم يدورُ نصفَ دورة.

فأقولُ له:

- أتمنّى لك الراحة.

كان راميرو يلجني أيّامَ السبت بعدَ جهدٍ مضنٍ يجعله يتصبّبُ عرقاً، وكأنَّ الأمرَ يتعلّقُ بواجب قُبِلَ مسبقاً، وبعد إعداداتٍ طويلة (لو لا وضوح نهايتها لكانت أكثر ما أشكره عليها). كنتُ أحاولُ إطالةَ الحالة، الشعور به، لكنَّ النيّة الطيّبةَ تظهر عليَّ - أنا على الأقلّ كنتُ ألاحظها على نفسي - ما من لحظة واحدة فقدنا فيها وعينا، ربّما لأنّنا كلينا نعرف أنّنا وضعناه حيث يجب ألا نضعه. بعدها ينامُ راميرو أو يحاول أن ينام وأنا أدخّنُ بصمتٍ سيجارة في الحمّام فور إزالتي لعرقي بالدوش، دون أن نخصِّصَ كلمةً واحدة لما انتهينا من فعله سويّة تقريباً. قليلون هم الذين يتذكّرون حرارة بارتفاع حرارة ذلك الصيف.

في أواسط الشهرِ هتفت لي لاورا صباحاً لتعرف كيف تسيرُ أمورنا.

- هل من جديد؟

- لا، قليلون هم الذين يأتون.

- أقصد ما يتعلّقُ بكِ.

- ما يتعلّقُ بي؟

- يا امرأة، أقصد ما إذا كنتِ تنتظرين طفلاً.

ـ كم أنت مستعجلة. حتى الآن لا. ـ تضاحكتُ ـ الشيء الوحيد الجديد هو أنَّ أدِلا، ابنة حموي، ستتزوَّج من ذلك الأرمل اللِريديّ الذي يعمل في الحكومة المدنيّة. هل عرفتِ من أقصد؟

ـ لكنّه كبيرٌ جدّاً وعنده أربعة أو خمسة أولاد.

ـ أفضل، هكذا سيقدّمون للمسكينة أدِلا كلَّ شيءٍ جاهزاً.

ـ لا، كلّ شيء لا. لماذا تظنّينَ أنَّ الأرملَ يتزوَّج؟

بحسبِ ما حكت لي كان الأربعةُ سعداء ولم يكفّوا عن طلبِ الأطفال.

تزوَّجت أدِلا بعد قليلٍ من عودة لاورا وفِليسا. وذهبَ أولاد الأرمل الخمسة إلى العرس بحسب الأصول وبقليلٍ جدّاً من الفرح سبَّب لي حزناً رهيباً. انتابتني رغبة بالجلوس معهم إلى طاولة بست كراسٍ. كانوا أولاداً وسيمين وفطنين، كبيرُهم في الثانية عشرة من عمره. تسلينا كفايةً، أكلنا حلوى كثيرة وضحكنا من الناس الغلظاء. رقصتُ مع سوسو، ابن الثانية عشرة ومع باكو ابن العاشرة. همست مارتا، وهي طفلة في السابعة من عمرها، طويلة وسابلة الشعر في أذني:

ـ كان عليكِ أنت الزواج من أبي.

انفجرتُ ضاحكةً.

ـ حذارِ أن تقولي هذا لأحد. عليكم أن تحبّوا أدِلا كثيراً، فهي في غايةِ الطيّبةِ وستعتني بكم كثيراً. كما لو أنَّ أمّكم عيَّنتها لتحلّ محلّها.

قالت لي أدِلا بعد أشهرٍ ونحن نخرج من مأتمٍ:

ـ حسنٌ تفعلان بعدم الإنجاب. لأنّكما ستبقيان بهذا الشكل أكثر ارتباطاً وأكثر حرّيّة بكثير لعمل ما يحلو لكما ولتذهبا إلى حيث تشاءان. زوجي ثقيل ليس له عينان إلاّ لأشيائه.

شعرتُ بصفعةٍ من الغضبِ وفكّرتُ: «سيراك بهذا الشكل أقل، وستكونين أنت الرابحة.» المسألة أنَّ المسكينة أدِلا صارت أبشع مِمَّا هي عليه: مُهمَلة، أكثر بدانة، أسوأ لباساً وقبيحة فعلاً.

كانت لاورا وفِليسا تذوبان في مدح صقليّة. لقد رأوا كلَّ شيءٍ،

وكلّ شيء كان تامّاً وسعدوا كثيراً. زوجاهما كانا متولّهين بهما فلا يريان إلاّ من خلال عيونهما

بالمُحصّلة لقد عوّضهما القدرُ جرأتهما بالذهاب حبلاوين في مثل تلك الرحلة. الأولى كانت تنتظر مولودها في نهاية العام والثانية في أواسط كانون الأوّل. تعاهدنا على أن نقوم مع أزواجنا برحلة سياحيّة كلّ صيف.

كنتُ أضحك، أمزحُ مثلهما، كنتُ سعيدةً أيضاً «في شقّتي التي جهّزها لنا مابلِ، طابق ثانٍ إنما بمصعد»، أيضاً كان زوجي يعبدني وأعجبه ويعجبني في كلّ يومٍ أكثر.

ـ حتى الآن مرّتين في اليوم ـ أضفتُ مُبَالِغَةً كثيراً.

ـ رُبّما ـ كنتُ أُفكّرُ في داخلي ـ ما كان يحدثُ معي يحدثُ لجميع النساء. ألا أتصرّف أنا مثل هاتين أمامهما؟ فهما لا بدّ يحدثُ لهما مع زوجيهما ما يحدثُ لي مع زوجي. أم أنّ الثقة التي كانت بيننا سابقا لنثرثر حول كلّ شيء تلاشت؟ هناكَ أشياء مفروغٌ منها، هي كما هي وانتهى الأمر، حتى أنّها لا تُذْكَر. لا يخطر لأحدٍ أن يسرّ لصديقه عند الظهيرة أنّ الوقت بالنسبة إليه ظهيرة. عندما كنّا نخرجُ مع الأزواج الثلاثة ـ مارتِلو، أرتورو وراميرو ـ كنّا نتصرّف نحن الثلاثة بالطريقة ذاتها: نتعلّق إلى بأذرعهم، نتغامزُ غمزات وقحة، نتناجى، نُلمِحُ، عن عمدٍ أو غير عمدٍ، إلى علاقاتنا الحميميّة...

لكن والحب؟ أين كان الحبُّ؟ «سيصلُ، سيصلُ...» لا أحدَ قال لنا أن الزواج هو هذا. أو على الأقل نحنُ لن نُذعنَ لأن يكون هذا... هل المسألة أنّه لا يوجدُ شيءٌ آخر غير الفراش؟ «طبعاً، يوجد ـ كنتُ أنهي تفكيري ـ هناك عمل راميرو وتَطَلّعاته، سيكون هناك أطفال سيسبّبون لي إزعاجاتٍ كثيرة وعليّ ألاّ أضيع الوقت بالتفكير بهذه الغباوات...» لكن والسعادة التي تصوّرتُها، أين هي؟ لا أعني ما يسمّيه الرهبانُ اللذة الجسديّة فأنا ما عدتُ أشير إلى هذا، بل تحقيق شيء آخر: الثقة بأنّ شيئاً سيكمّلُنا قد حدث، وهو جوهري وللأبد... «ما زال الوقت باكراً للخروج بنتائج. آملُ ألاّ يستمرّ الأمر دائماً على هذا المنوال...» لا. لا تنتظري، انطلقي، لا تنتظري من أحدٍ أن يُكملكِ، يُحقّقكِ، فهذا ما سيكون كما كان دائماً شأنكِ أنتِ... لكن. «سترين الأشياءَ بوضوحٍ أكبر،

فالوقتُ ما زال مبكّراً...» ومع ذلك، هذا الانطباعُ بالفشل، بالفراغ، هذا الانطباع بأنّني أخطأتُ... «راميرو طيّبٌ، جميلٌ، ولطيف. كلّ العالم يعلم ذلك. ولن يصدّقني أحدٌ إذا ما صرختُ بأنّه ليس زوجاً مثاليّاً، ولن أصرخ..» لكنّني على الأقل أودُّ معرفة كيف هم أزواج صديقاتي وذلك كي أقارن، كي يكون لديَّ نقطةُ علاّم: الأرمل، أرتورو، مارثِلو. فأرتورو ينظرُ أحياناً بطريقة... وتظهر عليه ابتسامة معوّجة قليلاً... لا، لا أدري كيف هم، ولا أريدُ أن أدري. إذا هنَّ لم يكلّمْنني بوضوح، فلماذا سأفعل أنا هذا. أو ربّما كنَّ منسجمات فعلاً، من يدري؟ لا أظنُّ أنَّ من صالحي أن أُظهر هذا الحديث.

سرعان ما انفجرت فوقيَ الرتابةُ القاسية التي ستضيِّعُني. كنتُ أذهب مع راميرو إلى الصلاة في الثامنة والنصف أو التاسعة، نتناول الخبزَ المقدَّس معاً كمثلٍ حيٍّ للجميع، وإن كنتُ أطرح على نفسي فائدة ذلك كلَّ يوم، كنتُ أمكثُ وحيدةً في البيت إلى أن يأتي لتناول الغداء ثمَّ أعودُ وأبقى وحيدةً من جديد بانتظار تناول العشاء مع الوجوه ذاتها والمزاج ذاته، وجهاً لوجه مع راميرو، وفي نهاية كلّ يوم عملٍ يرسم صليباً على جبيني ـ «أرجو لكِ أحلاماً سعيدة» ـ قبل أنَ يُقبّلني قبلة أخويّةً. ألمحَ في مناسبتين أو ثلاث أنَّ عليَّ الاعترافَ أمام الأب ألونسو، لكنّني قرّرتُ ألاّ يكون لي معَرّفٌ ثابت، ليس لإخفاء الحقيقة ـ من الأسباب الأخرى أنّني لم أكن أعرف ما هي الحقيقة ـ، بل كيلا أجدَ نفسي مجبرةً على تحمُلِ أسئلةٍ حميميّة أحاول ألاّ أطرحها حتى على نفسي، ولا أستطيع أنا نفسي الإجابة عليها.

كان بطنا الفتاتين، لاورا و فِليسا قد أصبحا ثقيلينَ على التحايلَ. صرنا لا نرى بعضنا بعضاً إلا قليلاً، بعض أيام السبت ساعةَ العشاء، أو عند الخروج من صلاة الثانية عشرة ظهراً أيّام الأحد، قبل أن نذهب سويّةً إلى دكّان الحلويات. وفي دكّان الحلويّات يوهم بعضُنا بعضاً بأنَّ الزمن لم يمر في السنوات خمس العشرة الأخيرة. اجتمعنا ذات ليلةٍ لنحتفل بترفيع راميرو إلى رئيس منطقة.

ـ لن تشتكي ـ قالتا لي ـ المسألة أنَّ المتزوّج يبعثُ على الطمأنينة أكثرَ من العازب.

خطر لي أن أفكّر ما إذا كان قد تزوّج منّي لهذا السبب وحده. كنتُ أشعر بفراغٍ حولي، كما لو أنَّ أحداً وضعني في غلافٍ زجاجيٍّ شفّاف وبأنّني ما أزال عازبة... «حسنٌ، إذن، ممَّ تشكين؟». فأجيبُ نفسي: «يبقى لمن ما يزال يعاني وحشةَ العزوبيّة أملٌ أمّا من يعاني وحشة الذي يعيش برفقة آخر فلا يبقى له إلاّ اليأس.» «مبالغات - وأجيبُ نفسي، لأنّني أكثر ما كنتُ أتحاور مع نفسي -: أنتِ دائماً كنتِ تُحبّين أن تُبالغي...» ثم ومن جديد العودة إلى الرتابة. والعودة إلى الرغبة بمجيئ عيد الميلاد لأنتظر أن يطرأ تغيّرٌ ما، أو مرافقة لاورا إلى دروس الولادة دون ألم، كي أكون مستعدّة حين تأتي فرصتي، التي لم تكن تأتي، أو زيارة مشغل شمع والدي من حين لآخر... فينتبه إلى أنَّ شيئاً يحدثُ لي، علّمني، كي يُلهيني، صناعة الشموع، الشيء الذي لم أسمح به من قبل، لأنّه يوحي إليَّ بحتميّة العزوبيّة فأتصوّرُ نفسي في الأربعين أو الخمسين من عمري، وحيدةً أبيعُ شموعاً خلف طاولة العرض الخشبيّة القاتمة المتآكلة من الاستعمال. تعلّمتُها - بشكلٍ سيّئ - خلال عدّة أيّام. اقترح عليَّ أن أهدي في عيد الميلاد شموعاً لكُلِّ الأصدقاء.

- أبي، أُريدُ أن تُعلّمني صناعة الشموع الجعداء، والمجدولة بألوان عدّة وتلك الأجراس الشمعيّة التي كنتَ تصعدُ بها إلى البيت ما إن يمنحونني عطلة عيد الميلاد في المدرسة.

- تحت أوامرك، يا حضرة الرقيب. في كم من الزمن تريدين أن تتعلّمي ذلك؟ أم الأفضل أن تأمري بأن أصنعها لك؟ هذا أكثر نظافة دون شكّ.

حضرتُ إلى مشغل الشمع بمنديلٍ كبير كيلا ألطّخ نفسي؛ فضحكَ منّي والدي، ومع ذلك تصوّرتُ حماسه، كدتُ ألمسه. كان يقولُ لي أحياناً «كم كان بودّي أن تكوني وريثتي».

- لنبدأ بالدروس النظريّة. هذا هو القِدْرُ الذي يُصنَعُ فيه السائل؛ ومنه يستخرج بهذه المغارف التي تبدو مقالٍ بمقابض طويلة. هذا هو الجرن الذي يُملأ بالسائل ويوضع في هذا الخزّان المحاط بالماء الساخن للحفاظ على درجة حرارته المناسبة.

ـ وما هذا؟ ـ قاطعته وأنا أنظر كما هي العادة دائماً إلى حيث لا يجب.

ـ إذا لم نمضِ بنظام فلن تتعلّمي أبداً. هذا لصنع ثريّات الكنائس. إنّهُ الأسهل، لكنّه ما عاد يُستعمل، فالرهبان يفضّلون الثريّاتِ الكهربائيّة. كلّ لوح من هذه الألواح يحتوي على مئة فتحة، تمُلأ بالسائل...

ـ لكنّ بأيِّ سائلٍ، يا أبي؟ سائل الطبخ؟

ـ قليلاً من الاحترام، يا دِسي. بالسائل الشمعي. مع أنّه لا يحتوي من الشمع إلا القليل. في الأعلى يوضع الفتيل وهذه الحديدة ذات القوائم الأربعة. بعدها يُبرّدُ كلّه بالماء البارد كي يجمد، وحين يرفع الغطاء عنه تخرجُ الثريّات مقلوبة.

ـ ما أسهله.

ـ نعم؛ كلُّ شيءٍ سهلٌ قبل الشروع بعمله... لنتابع من حيث توقّفنا. هذا الإطار السباعي، أي ذو الأضلاع السبعة...

ـ الشيء الوحيد الذي تعلّمته حتى الآن.

ـ هذا الإطار هو القرط أو الدوّامة. كما ترين، هي معلّقة إلى السقف وتدور. في كلّ جانبٍ منها هناك جَبيرة فيها عشرون حلقة تعلّق إليها الفتائل التي تشدُّ بهذا الثقل الموازِنِ الحديديّ. كلّ فتيل يُغطَّسُ مرّتين أو ثلاثاً في شمع الجرن. بعدها تُدَوَّر الحلقة وتُغطّس فتائل الجبيرة التالية ريثما يبرد شمعُ سابقاتها. وهكذا حتى الجبيرة السابعة. تستطيعين أن تصنعي حتى مئة وأربعين شمعة دفعة واحدة. بعدها تعودُ الجبيرةُ الأولى وتُغَطَّسُ من جديد. ثم تعود وتدور حتى تكسب الشموع الثخانة التي تريدين.

ـ وما هذه الصفائح الحديديّة ذات الثقوب هنا في الأسفل؟

ـ هذه هي السحبة. تصعد وتهبط. ثقوبها التي تنطبق على فتائل الجبيرات في الأعلى تفيدُ في توحيد الثخانة التي تريدين على طولها. فلولا السحبة ما كان باستطاعتنا أن نقول هذا مستقيم كالشمعة. هل تفهمينني؟

ـ أفهمك. هل ندخل في الموضوع؟

أطلق والدي العنان للضحك. في البداية ببطءٍ ثم قهقهةً في كلّ مرّةٍ أكبر. وَضّحَ لي حين استطاع الكلام:

ـ كلّ ما قلته لك لا يفيدُ في شيء. الفعلُ للتجربة. مثلاً، عندما تكون الشمعة بقطر معينٍّ، لا أعرف كيف أحدِّده لك بالضبط، يمرُّ الشمعُ بخطرٍ ألاّ تصل برودته إلى الدرجة المناسبة. يجبُ التحلّي بالصبر؛ يجب الانتظار حتى تبرد، وإلاّ فإنّ المغاطس التالية لا تعلق. عندما يكون الشمعُ بارداً تماماً تأخذ الشمعة حجماً أكبر، وإذا لم يكن بارداً كفاية تأخذ حجماً أقل. ذلك هو جوهر المسألة...وإذا كان هناك تيّارات هوائيّة، و هو أمرٌ معتاد هنا جدّاً (لذلك ترينني في حالة رشحٍ دائم)، من الضروري أن يحتاط المرء وإلاّ فإنّ الفتيل سيتذبذب والسائل سيذهب جانباً والشمع سيسيل... لكنَّ شيئاً من هذا لا يُعَلَّم، يُتَعلَّم مع الزمن والمثابرة فقط.

ـ طيّب، هيا بنا، أين الشمع؟

عودة إلى ضحكات والدي، الذي كان يضرب كفّاً بكفٍّ مثل طفلٍ صغير.

ـ الشمع يعطي نتائج معاكسة، يا بُنيّتي، تماماً كما تقولون أنتم، ورطة هذا الشمعُ أنّه ليس شمعاً، يُستخدَم البارافين، بنسبة أقل للثريّات وأعلى للشموع العاديّة والكبيرة. في أزمنة أخرى كانت الكنيسة تشترط ستين بالمئة شمعاً، لكن حتى في ذلك الوقت كان الرهبان يبحثون عن الأرخص يطلبون شمعاً أقل شمعاً. أخيراً الآن، لا تكادُ تُستَخدَم الشموع.

ـ وهذا الشمع القاسي جدّاً؟

ـ ليس شمعاً، بل كراندايٍ[1] دعيه هناك. يكادُ يكون بلوراً. كي أصهره عليَّ أن أستخدم البارافين القوي، على نار مباشرة... لكن لا شيء من هذا يستخدم الآن. لا من هذا ولا من غيره. أظنُّ أنّني صانع الشمع الوحيد في المحافظة. و إن لم أجهِّز شموعي لن يكون لي ضوء شموع في ليلة السهر عليَّ، عند موتي.

---

(1) الكرانداي نوع من النخيل الأمريكي يستخرج منه نوعٌ من الشمع (المترجم).

أراهُ الآن بحاجبيه الكثين («دعني أشذّبهما لك. عندك شعرات تصل إلى وسط جبينك» «لا أريدُ» «إذن سأسرّحهما لك على الأقل وأضع لهما لكّاً.» «ستحجمين عن لمسهما كما عن البول في فراشك.»)، أراهُ بيديه الماهرتين وجسده المنهك المفعم بالحبّ والفرح، لأنّني، ـ أنا الجامعيّة والذكيّة في البيت ـ كنتُ أسمحُ لنفسي أن أدخل معه إلى خلفيّة الدكّان كي أستمع إليه وهو يتكلّمُ عن مهنته وأتعلّمها.

ـ انظري إليّ وأنا أصنعُ هذه الشمعة الجعداء. لكن اتخذي وضعيّة مريحة كيلا يداخلك استعجال، لأنّ الاستعجال يخرّبُ كلَّ شيء... هل أنت جاهزة؟ نشعل شمعة هذا الشمعدان. على لهبها سنسخّن الشمعة التي سنجعّدها. ليس كثيراً، مفهوم؟ فقط المنطقة التي سنعمل عليها. هل تتابعين معي؟ هل ترين تلك الزرديّة؟ بها يقرص الشمعُ. هكذا. هل ترين؟ ويبقى هناك بروز ناعم جداً ومُخدَّد، عمودي أو أفقي، بحسب ما ترغبين... آخر بجانبه، ثمّ آخر. جرّبي أنت الآن... لا، انتظري. يجب وضع ماء صابونٍ على الزرديّة كيلا ينصبغ، وإلاّ تشكّلت طبقة غراء فظيعة والتصق كلّ شيء. على مهلٍ، على مهلٍ... لقد خرّبته. لنبدأ العمل بشمعة أخرى.

ـ هذا محال. يا له من عمل شاق، يا إلهي.

ـ لا شيء محال. ألا أقوم به بيديّ؟ أعرفُ، منذ سنين وأنا أفعلُ ذلك وأنت منذ ثلاثة أرباع الساعة. المحال هو عمل ذلك في ثلاثة أرباع الساعة.

ـ والأجراس؟

ـ هذا هو الأسهل. تؤخذ هذه القوالب الخشبيّة...

ـ لكنّها مُصمَتة.

ـ الأجراس لا تُصبُّ من الداخل بل من خارجها. توضعُ القوالبُ في ماء الصابون أوّلاً، ثمّ في السائل الملوّن مرّتين أو ثلاثاً. ثم توضع في ماءٍ بارد فتنفصل قوالب الشمع.

ـ نعم، نعم، شيء سهل... يجب معرفة تغطيسه، يجب معرفة ما إذا سيُغَطّسُ مرّتين أو ثلاثاً. يجب تركها متناظرة من كلّ الجهات يجب أن نعرف كيف نفصلها كيلا تنكسر... لن أستطيع فِعْلَ هذا أبداً.

ـ لا أحبُّ أن تقولي حماقات. أعرف أنَّ باستطاعتك ذلك، سَنُسعدُ كثيراً معاً. وسيحصل أصدقاؤك على أجمل شموع العالم. سنضع وسط كلِّ شمعة أربعة أو خمسة أجراس وعلى الأطراف أخرى أصغر. بهذا القالب سنصنعها. حمراء وبنفسجيّة و خضراء فاتحة اللون تماماً. هل أنت موافقة؟

ـ طبعاً موافقة، لكنَّني لم آتِ كي تصنعها أنت.. أريدُ أن أصنعها بمفردي.

ـ ستكونين من يصنعها، لكنَّهم علّموني وسأعلِّمك... انظري، الأكثر سهولة هي الشموع المجدولة التي تكلّمت عنها. ها هو قالب البرونز ذي المفاصل، الذي أوصيت على صنعه بنفسي. يُفتَّحُ من الأعلى، أترين؟ من الوسط ثم يسقط. توضع الآن الفتائل التي تُشد بهذه العتلة، ثمّ تُغلق ويسكب السائلُ من هذه الثقوب. ثمَّ يُترك ليبرد بهدوء... ولكي يُزالَ أثرُ التصاق القالب، يطلى مرَّة أو مرَّتين وتصبغ بهذا الأنيلين بالشحم واللون الذي تختارين. ثمّ ننهيها بنوع من البرنيش الذي هو واحد من أسراري. أصنعه من مطاط السندروس والكحول ذي الست والتسعين درجة. يدهن على البارد. هذا آخِرُ ما يُفعَل ويعطي لمعاناً جميلاً.

كان مثل ملك سيتنازل عن العرش ويسلِّم الوريثَ سلطاته العجيبة. رقَقتُ.

ـ صبرك.

ـ من عليها أن تصبر معي ومع الشموع هو أنتِ، يا بُنَيَّتي.

ـ ولماذا لا تُريني قوالبَ الجصّ التي كنت تصنع لي بها شموع الحيوانات في صغري؟

حملني إلى زاوية. كان له وجه طفلٍ في ليلة بابا نويل وإصبع على شفتيه. كانت القوالب الصغيرة التي خرجت منها شموع رائعة تجثم مكدَّسة على رفٍّ منخفض، وبجانبها النذور: أذرع، حناجر، أطفال، أيدٍ، صدورٌ، سيقان... كومة من المعجزات الباهرة. أخذت بين يديّ القوالب الخشنة من الخارج والمربوطة بخيوط القنّب، وقد كتب والدي بقلم كوبيا: كلاب، قطط، فرس بحر، زرافة...

ـ منذ ذهبتِ للدراسة ما عدتُ لاستعمالها.

قبّلتُها دون أن أفتحها. نظرتُ إلى والدي كمن يشاطره سرّاً، أنا أيضاً رفعتُ إصبعي إلى شفتيّ. تعانقنا. ضمر والدي إلى حدّ أنّه صار بطولي فقط. بقيت عيناي قريبتين من أذنيه.

ـ عليكَ أيضاً أن تتركني أقصُّ لك هذه الشعرات الهائلة التي تخرج هناك، تبدو حراجاً.

ـ سنرى ما إذا كنتُ سأتركِكِ عندما تتعلّمين صنع كلّ أنواع الشموع. لكن ولا بأيِّ شكلٍ من الأشكال قبل ذلك.

وبالفعل فقد حصل أصدقائي في تلك السنة على أروع الشموع في هذا العالم. لكن الصحيح هو أنّني لم أكن من صنعها، ولم يكن لي من عملٍ غير تخريب هذه الشمعة أو تلك وقصّ شعرات أذني والدي.

في عيد ميلاد تلك السنة جاء بابلو أكوستا إلى وشقة. وقد ورثَ من أبويه بيتاً في ساليينث دِه غالييغو، يقضي فيه بعض الوقت على الرغم من إقامته في مدريد. التقيته صباحاً، وأنا أجتازُ الحديقة العامّة ـ كان البرد رهيباً والضبابُ كثيفاً ـ وكان هو يجري مرتدياً بِزّة رياضيّة خضراء وبنفسجيّة. كان بساط الأوراق عالياً وخفّت الرؤيةُ والضجيجُ. تعثّر بي بابلو دون أن يعرفني عند كشك الموسيقى حيث استمعنا في بعضِ آحاد مراهقتنا إلى الفرقة العسكريّة. «لا يعرفون عزف شيءٍ آخر غير حصار سرقسطة»، هكذا كان يقول بابلو، هاوي الموسيقى الكلاسيكيّة آنذاك... بدا لي أنّني لم أر ذلك الكشك بعدها حتى ذلك اليوم ذاته واكتشفت أنّه كان مُثمَّنَ الأضلاع وليس دائريّاً ويقوم على أزواجٍ من الأعمدة الرشيقة. (صحيح، لكن كم، يا إلهي؟ لا أعرف؛ اليوم لا أعرفُ. ربّما ثمانية أزواج وربّما عشرة.)

ما إن وصل بابلو في اليوم السابق حتى هتف لي. اتفقنا على أن يأتي ذات مساء إلى بيتنا ـ في اليوم التالي إن أمكن ـ ليتناول كأساً. وحين رأيته وسط ذلك البرد المجمّد تذكّرت أصيافَ الطفولة. كنّا ما نزال نملك في تلك السنوات، التي صارت من البعد وكأنها لم توجد قطّ،

بيتَ بانتيكوسا، الذي اضطرّ والدي لبيعه فيما بعد ليسدِّد بثمنه نفقات تعليمي وأشياء أخرى كثيرة. إنَّهُ بيت ماخين، غير البعيد عن الكنيسة الضخمة والرماديّة بدوريه المقبَّبين. على البابِ ذي العضائد الرخاميّة الرماديّة أيضاً. كان يزهو الشعار الذي يمسكُ به ملاكان بلا أجنحة. (كان بابلو يوبِّخني قائلاً: «إذا كانا بلا أجنحة فما الذي أدراك أنَّهما ملاكان؟») وكان للبيتِ بستان صغير مسيَّجٌ بسورٍ من الحجارة العريضة المليئة بالطحالب والعوسج. اعتدتُ أن أسمع في مساءات الصيف جلبةَ الجلاجل وهديرَ الماء الصاعد من النهر. كما اعتدتُ على الكلام مع ديكْ، كلب الراعي السيبيري، بصوتٍ خافتٍ كيلا أكسر الصمتَ. كانت تذهلني الجبال السامقة التي سرعان ما تعلو قمَمَها الثلوجُ، ولم أستطع النظر إليها كصديقة، لشعوري وأنا تحت حراستها، بأنّني أكثر تفاهة وأقلّ قيمةً ممَّا كنتُهُ.

كان لبيتِ بابلو ـ وما يزال على ما أعتقد ـ في ساليينتْ دِهْ غاليِيغو ـ الذي يسمُّونه بيت بوريا ـ حيِّزٌ للورد تعتني به أمُّه ـ هذه فعلاً ما عادت موجودة ـ كما تحفظ بؤبؤَي عينيها. يصعدون إليه عبر شوارع متعرِّجة وأرصفة متدرِّجة للتغلُّب على الانحدارات الرهيبة. كانت واجهته تحمل تاريخاً محفوراً عليها: 1817 («أقدم من واجهة بيتك» هكذا كان يُغيظني بابلو). وعندما كنَّا نصل، يتظاهرُ الدرواسُ العجوز جدَّاً بوردون بالنهوض («كلبكَ فعلاً أكبر عمراً من كلبي»، كنتُ أردُّ عليه)، يحرِّكُ ذيله قليلاً برهاناً على التعرُّف، بل ويطلقُ أحياناً نباحاً يُعلم به من في الداخل بمجيئنا. لم يتأخر بوردون المسكين حتى مات، وقبرناه تحت شُجيرات الورد ذاتها.

كنتُ أذهب في مساءات بعض العطل مع أغوستين على الدراجة بحثاً عن بابلو، وكان هو من يأتي في طلبنا أحياناً أخرى، استعداداً للصعود إلى نادي السباحة. في الطريق الضيِّق إلى ساليينتْ كنَّا نُخلِّف وراءنا البويّو واسكارّيليا، ونعبرُ النفقَ الذي تسقط علينا منه قطرات ضخمة وباردة تُخيفني وسدَّ لانوثا وقريته الصغيرة المهجورة على ضفَّته. لنصل أخيراً إلى ساليينتْ، التي رأيناها من الأعلى قبل ذلك بكثير، ونتحمسُ لرؤيتها ونشعر بالتعب والفرح. كانت أمُّ بابلو تنادينا برجال البنادق الثلاث (وتقول: «ما أخبثكم، يالكم من خبثاء» بينما

نخبط بأقدامنا على الدرجات والأرض الخشبيّة) وتقدّم لنا عصرونيّة لذيذة جدّاً، نستمتع بها أكثر بكثير من تلك التي تعملها لنا خادمتنا العجوز مارينا، التي بقيت عندنا بعد وفاة أمّي.

أتذكّر نهايةَ أسبوعٍ طويلة من بدايات أحدِ أشهر تشرينِ الثاني (أظنُّها المرّة الأخيرة التي اجتمعنا فيها في بانتيكوسا، وأنا مُرَيّاةٌ تكاد تكون مدّعية المعرفة) صعدنا خلالها أنا وبابلو وحيدين إلى نادي السباحة. كانت البحيرة تفيضُ بماء الثلج وأنا ما أزال أراها هائلةً ـ بعدها ما عدتُ أراها كذلك ـ وليس لها لون خاصّ بها، بل الألوان المنعكسة فيها، أخضر، أحمر قانٍ، وأسود. أتذكّر هديرَ الماء المُصم والحزن والهجران الذي كان يلفُ كلّ شيءٍ: النادي، البيوت، الفنادق. أخذتني قشعريرة، فقال لي بابلو مشجّعاً:

ـ ياللخراب، يا دِسي، يا للخراب. انظري: «ممنوع تناول العصرونيّة في الممرّات»، وليس هناك عصرونيّات ولا ممرّات؛ «ممنوع دوسُ الأحواض» وليس هناك أحواض؛ «بار أَوْرِليو ـ مفتوح» وهذا كذب.

ما إن وصلنا حتى راح قطٌّ أبيض وأسود اللون صغير قليلاً يموءُ خلفنا (قال بابلو: «إنّه جائعٌ ووحيد») مثلَ متسوّلٍ صغيرٍ أو دليلٍ سياحي لا عمل عنده، ولا يكفُّ عن تعقّبنا. ما بين مواء القطّ والرطوبة والصمت المريع بدأ الخوف يُداخلني فلذتُ ببابلو؛ لكنَّ بابلو راح يُطلق بين الفينة والأخرى صرخة ليزيد من خوفي وألوذَ به أكثر.لم انتبه قط قبلَ ذلك المساء بمثل ذلك الوضوح إلى أنّ بابلو كان فتىً وكنتُ أنا فتاة. أخذتُ القطَّ معي إلى البيت.لم يبقَ هناك إلاّ أيّاماً، فما أن أكل كفايةً حتى ذهب ولم يعد.

بابلو الآن فارع الطول، شديد السمرة، له وجه هو من الإسبانيّة بحيثُ يبدو إعلاناً سياحيّاً: وجه متطاول، أنف معقوف، وجنتان بارزتان، ذقن مشطورة وشفتان غليظتان بشكل غير متوقّع. عانقني بفرحٍ في الحديقة وقبّل وجنتيّ، فبلّلهما بالعرق على الرغم من درجة الحرارة المنخفضة. تذكّرتُ شيئاً آخر: عندما كان يُغيظني بشدّي من جديلتيّ أو بوضع السجائر في مريولي أبكي بعجزٍ حانقٍ ويضحك.

وها هو الآن هنا، لاهثاً، مبتسماً يفرقعُ أصابع يدين هما من أكرم ما رأيتُ في حياتي. كانت أدِلا تقول لي: «إنّه في منصبٍ عالٍ في الشرطة» وهي طالما عشقته فأفكّرُ بينما أنظرُ إلى قامته: «وعالٍ جدّاً».

ـ لم أستطع حضورَ عرسكِ لأنّني كنتُ أمارسُ الغباء في نيكاراغوا.

ـ ومتى ستتزوّجُ أنتَ، يا قليلَ الحياء، أتصوّرُ أنَّ لديك خطيبة على الأقل.

ـ أربع أو خمس ـ قال لي وبدّل الموضوع. ـ سآتيكِ بهديّةٍ هذا المساء، سأبقى على أحرّ من الجمرِ حتى أسلّمَكِ إيّاها. لو تدرين الرحلة التي اضطرّتني إليها. الله وحده يعلم ماذا تفعل الآن في الفندق.

ـ لكن، ما هذه الهديّة السيّئة إلى هذا الحد؟

ـ سترين.

تـوادعنا لنلتقي في المساء وتبادلنا القبلَ من جديد. بعد عشرة أو اثني عشر متراً التفتُّ لأراه يجري. كان ما يزال واقفاً ينظرُ إليّ. لوّح لي بيده الكبيرة مثل هندي أحمر.

في المساء جاء إلى بيتنا يرتدي بدلة من الفانلا الرماديّة تليقُ به تماماً ومعه كلبٌ صغيرٌ ربطه بسير رفيع أخضر.

ـ سجق! ـ قلتُ.

ـ ليس تماماً، ابن عمٍّ له يدعى تِكِل. له شجرةُ نسب جيّدة، لكنّها لا تفيده في شيء: إنّه قذر. ـ ومدّ يده إليّ بالسير ـ. خذيه، إنّه هديّتك. في طفولتك دائما كنت تتمنّين كلباً تستطيعين حمله بين ذراعيك. سيكون هذا صديقاً جيّداً لأطفالك فأنا لا أتصوّرُ طفلاً دون كلب بجانبه... المحزن هو أنَّ عليك تربيته بنفسك وتهبطي به إلى الشارع كي يقوم بأشيائه وتنزّهيه.

أخذته وأنا في غاية السرور بينما راح يلعقُ أنفي، عينيّ، أُذنيّ وكأنّه قام بأروع اكتشافٍ في حياته. جلستُ وتركته على الأرض. قفز عليّ وقبع في حضني مطلقاً تنهيدةً. كان بابلو يبتسم برضى ويداه على خصريه. أحضر راميرو بعضَ الكؤوس والثلجَ والمشروبَ؛ نزل الجرو وذهب ليتشمّمه، طاف طويلاً في الغرفة ثمّ قبع يريد أن يبول قليلاً.

ـ ما أقذره... توّاً فعلها في المدخل ـ قال بابلو.
راح الجرو ينظرُ إليه وقد لوى رأسه وقُمَيران أبيضان في عينيه.
ـ يجب صفعه بصحيفة على قفاه كي يعتاد على أن يكون نظيفاً.
ـ يجب صفعه بهويّته ـ قال بابلو وهو يناولني كرّاساً.
قفز الجرو مرّةً أخرى فوقي وكأنّه يريدُ أن يصادق على ملكيَّة.
ـ كم هو نشيط ـ علّقَ راميرو بينما كان يحضّرُ الأكواب.
صحيح ـ قلتُ ـ: سيكون هذا هو اسمه. ستُدعى نشيط.

داعبتُ رأسَهُ فرفع وجهه وكأنّه فهم ما أقوله، نظر إليّ، استراح بين ساقيّ واستعدّ لينام مسنداً عنقَهُ إلى ساقيه الأماميّتين المطويّتين.

نشيط هو من جاء ليُخَفِّفَ من الرتابة عندي وليشغلَ جزءاً من الفراغ المتزايد الذي كنتُ أشعرُ به.

وَلَدَت لاورا في يوم الملوك. وعدتُ لآخذ على عاتقي إدارة مكتبتها خلال شهر كانون الأوّل. كان العمل منهكاً لأنّها فترة أعيادٍ وهدايا على الرغم من وجود فتاة إضافيّة لمساعدتي، إلى جانب الفتى الذي كان دائماً غير ذي فائدة. ذهبنا أنا وفِليسا وهي في أواخر حملها، إلى العيادة. حملنا أزهاراً وسكاكر استهلكتها فِليسا ما إن فتحت العلبة. كان الوليدُ من السمرة بحيثُ لا يُعقَلُ أن تكون لاورا قد ولدته. لو رسمنا له شارباً بفلّين محروق ـ الشيء الذي اقترحته أمّهُ ـ لصار مثل مارثِلو، يستطيع والده أن يكونَ مُطمئنّاً.

ـ نعم، أنا هنا لآتي بأولادٍ من آخرين. يكفيني مارثِلو البليد: لا بدَّ أنّه يتضوّر رغبةً الآن بعد شهر من الصوم. على الأقل من الرغبة التي يُحبُّها. أكادُ أخاف العودة إلى البيت. لحسن حظّي أنَّ الطفل سيكون متراساً. سيكون ذريعة لي لأرفض حين لا تكون بي رغبة.

ـ هل يعني هذا أنَّ مارثِلو ما عاد يُعجبك؟ ـ سألتُها.

استوت فوق الوسائد، عليها اتخذت وضعيّةً مريحة، أشعلت سيجارةً غير منصوحٍ بها، قامت بحركة تسوية وضعيّة نظارة وهميّة، فرحنا أنا وفِليسا نضحكُ مستنتجتين أنّها ستقذفنا بواحدٍ من خطاباتها.

ـ اسمعيني، بِسي، يا بنيّتي: ما يهمُّ الزوجين هو أرض منبسطة لا يستطيع الأطفال التدهور فوقها (أرفضُ أن أقولَ لك ما يهمُّني أنا). الزواج موجَّه لهذه الغاية وليس للحظات النشوة ـ قلبت لاورا عينيها بشكلٍ مضحك ـ التي هي في كلِّ مرَّة أقل وأقصر. يقولُ مارثِلو إنَّ الزواج هو ذروة الإغواءات وأقصى السهولات لتلبيتها. هذا التعريف ليس جيِّداً، ليس هناك إغواءات كثيرة: فالتكرار والرتابة تقضي على كلِّ شيءٍ... يجب أن يملك المرء الوقت والمقاومة ليبتدع وضعيَّاتٍ جديدة، أساليب جديدة، لكن الثقة والـ هنا أمسكُ بك وهنا أقتلك تمنع ذلك. ثمَّ إنَّ الواحدة تصل إلى الفراش منهكةً ولا رغبة عندها للقيام بمآثر. نعم، يحدث هذا من حين لآخر. لكن فقط بين حين وآخر متباعدين: من خلال بعض المحرِّضات الخارجيّة: كثيرٍ من الكحول، أو ما أدراني...

» ولتعلما أن العلاقات خارج إطار الزوجيّة (أو الثنائيّة، أقول) أيضاً مستعجلة وقلقة ولا تستسلم لها الواحدةُ فعلاً وهذا ما ينعكس على المتعة. أنتِ، يا بِسي، التي وصلتِ إلى المذبح عذراء، بلهاء ولن تعرفي هذا، لكنَّني أقول لك: الممارسات خارج الأسوار أكثر جاذبيَّة، لكنَّها في الأعماق أقلّ جلالة. لأنَّ الزواجَ، وعلى عكس ما قلته لك من قبل، يسمحُ بالتعمُّقِ والمعرفة والتجاوب، الأمر الذي يستبعده الجديد والاضطراب... المسألة أنَّ الأجساد مادَّة «راسيّة: يجب دراستها، تعلُّمها وإرشادها. تُجاز الواحدةُ ثمَّ تحصل على الدكتوراه. ولا أقول إنَّ الرجال يصلون أكثرَ مهارة، فمغامراتهم السابقة تفيدنا نحن اللواتي نحصد الغلال. أنا أسمّي النساء اللواتي يشكين من قرون سابقة، بلهاوات، إذ بفضل هذه القرون يتمتّعن.

» بشكل عام يجبُ عدمُ الخوف أبداً من شيءٍ في الزواج. يجبُ الاندفاع إلى القبر المفتوح، وإذا لم توفّق، تُحلّ الضربة بمزحة مناسبة. لأنَّ التهيّج الجنسي داخل الحظار الزوجي (وأنا جريئة بالكلام بهذه الطريقة) مثل التهيُّج في بيت للعاهرات بجانب كنيسة عليه الحفاظ على واجهته صارمةً وكريمة. لكن ماذا يحدثُ في الداخل؟ السيقان إلى الأعلى دون أدنى خجل والأزواج ينتكاحون... هذه هي المخالفة

الوحيدة الممكنة وتكاد تكون خياليّة. كلّما زادت الزلازل وكثر اللعب كلّما زادت الجدّية في الخارج. هذا التناقض ينظِّمُ، حين يجدُّ الجدُّ، شراكة بين الاثنين اللذين يعملان كما في فيلم. كما لو كنّا ممثّلين يمكثون ساعتين على الخشبة أمام الجمهور، لكنّهم في مقصورتهم وحيدين يمارسون أشياءهم خارج إطار الدور الضيّق.

›› ما يحدثُ هو أنَّ علينا أن نتعلّم كيف نلعب الطرّة والنقش: نتظاهر بالشبع، بآلام الرأس، نُظهِرُ وجهاً مذعوراً من سماع نكتة بذيئة تعرفين جيِّداً أنّها تحمّي زوجك... يجب التلميح والتحريض والغمز والتعاون خلال النهار أمام الناس، حين لا يستطيع أن يمدَّ يده ويتضخّم هكذا، مؤجّلاً الرغبة وكلّ ما عداها... يجب ابتداع طرق للانتهاك بأيِّ ثمنٍ. يا لها من كلمة يا بُنَيَّتي: أعظم الكلمات جميعاً لأنّه لايوجدُ تهيّجٍ جنسي ولا المسيح الذي ابتدعه دون انتهاك. الكنيسة قضت على كلِّ شيء: أحرقت الساحرات، لكنّها تركت أتعس العاهرات كي يعشن ليجسدن الشر ويسببن التقزُّزَ، وباركت بخاصّة الزواج، الذي خوزقتنا به: ولنرَ من سيتجرّأ على المقدّسات. ما عاد هناك من يحتفظ بفكرة الخطيئة الضروريّة... ومع ذلك والحمدُ لله بقي شيءٌ منها في داخلنا وسنتأخر كثيراً في طرده، مبارك الشيطان. إذ كثيراً ما يكون علينا أن نلجأ إليه؛ وأنا ألجأ إليه مع ميلي إلى البذاءات... كم أنتما حمارتان، ألا تعرفان ما هذا، التلفّظ بالبذاءات... علينا أن نطلب المساعدة من شيء ما يسمح لنا بالاعتقاد بأنّنا نتخطّى الحدود البرجوازيّة ونخرج عن القاعدة. (حسنٌ، لننقل عن العادي كيلا يختلط علينا الأمر.) أنا أقولُ لزوجي أشياء بمنتهى الرّقّة مثل: «أحبُّ عضوك، يا ديّوث. آه، كم أحبُّه... آه، لا تقذف بهذا الشكل، ستقتلني...هكذا، يا ابن العاهرة»، وأخرى من هذا القبيل. أعتقد أنّكما تفعلان الشيءَ نفسه، ماذا سنفعل؟ مهما يكن فهذا أسهل وأكثر عمليّة من أن تذهبي مع زوجك إلى نزلٍ أو إلى خارج المدينة وتضعي البهارات على الطبخة داخل السيارة.

›› على كلِّ الأحوال ما أصعب الاحتفاظ بالزوج وما أصعبَ أن يحتفظ بك زوجكِ بوهم واحتدام الليلة الأولى. فالكائن البشري ينزع إلى نكح أيّ شيءٍ باستثناء الزوج: كم هو مملٌ هذا البائس. أنا أظنُّ أنّ

الأطفال إذا جاؤوا إنّما يجيئون ليلهوننا، فلا نقعُ في الضغائن. آه ما أذكى أمّنا الطبيعة...

كانت قهقهات فِليسا تشي بأنّها تفكّر وتمارس ما تمارسه لاورا. ضايقني التأكّد من أنّ حياتيهما أكثر مرحاً بما لا يقارن من حياتي. ومع ذلك ضحكتُ ظاهريّاً مثل فِليسا.

كان أيّار، وذهبنا إلى مدريد لحضور مؤتمرٍ دولي حول التأمينات. سافرنا في السيّارة ليس لنزوة لدى راميرو، بل لدي، فقد أردت أن آخذ معي نشيطاً، الذي صار بيتي ورفيقي. كان راميرو يقول لي تكراراً: «إنك تبدين غريبة الأطوار قليلاً» منذ أسبوع أو أسبوعين صار نشيط يجلسُ على كفليه ويقفُ على قدميه - لا أجدُ طريقةً أخرى للتعبير عن ذلك - ويداه متدلّيتان. آه كيف كنّا نضحك ويكرّرُ هو ظرافته دون توقّف.

- سآخذك إلى سيركٍ، يا صغيري القبيح.

- يبدو مثل صبيّ القدّاس - كان راميرو يقول بإكليريّته المعهودة دائماً.

- سأفصّلُ له بزّة من قماش البندقيّة الأسود وأضع أمامه صينيّةً يترك فيها الزائرون بطاقاتهم.

كان رائعاً فذيله الطويل اكتسى بالشعر، نما شعر أذنيه وحنجرته وسيقانه ومتنه كثيراً، صار في غاية النعومة، تموّج وصار ناريّاً، واسودّ في نهاياته. كان يلفت الانتباهَ في الشارع ويحصل مني على كلّ ما يريد. - تُدلّلينه كثيراً - كان راميرو يؤكّدُ بمناسبة وغير مناسبة.

- لا، إلا إذا كنتَ تريد أن يكون عندي كلب أضربه.

وهكذا قرّرتُ أن آخذه معي إلى مدريد.

صادقنا هناك المُساهمَ الرئيسيَّ في شركة راميرو وزوجته اللذين كانا من عمرنا تقريباً - لم أكن قد تعرّفتُ عليهما بعد -. كانا

زوجين لطيفين، منعزلين قليلاً عن الآخرين، ومع ذلك وقعتْ منهما موقعاً حسناً. كان عندهما ثلاثة أطفال: اثنان شقراوان والثالث أسمر، والثلاثة في غاية الجمال. قال زوجي عندما قدَّمني إلى الزوج الذي يُدعى فِرمين:

ـ بِسي، زوجتي.

ـ ما مصدر بِسي؟ ـ سألني.

كدتُ أُجيبه لكنَّ راميرو سبقني وقال دون تردُّد:

ـ من بِسيرِه.

نظرتُ إليه فالتقط نظرتي دون تلكّؤ. فهمت أنَّ اسم بِسيدِريا يبدو له قرويّاً جدّاً بالنسبة إلى مدريد ورؤسائه. بينما الأمر سيّان بالنسبة إليّ: أذعنتُ أيضاً لتسميتي بـ بِسيرِهْ مبتسمة، فهو أكثر رقّة.

ـ يا له من اسمٍ جميل ـ علّقت خوليا، زوجته.

كانت ترافقني خلال الجلسات للقيام ببعض المشتريات ومشاهدة الواجهات ولمصارعة الثيران في أحد الأيام. وكلّما سنحت لي الفرصة كنت أُخرج نشيطاً ليتعرَّف على مدريد.

ـ هنا وُلِدْتَ أنت. فأنت مدريدي. انظر ما أجمل بلدك.

وإذا ما بقي في الفندق كنت أترك له خفّافتيّ بجانب السرير وأضع فوقهما قميص نومي كي ينام على رائحتي ويكون واثقاً من عودتي.

في نهاية إحدى الجلسات التقيت مصادفة في مكان المؤتمر ببابلو أكوستا.

ـ ماذا تفعل أنتَ هنا؟

ـ أوّلاً وأخيراً أنا من الانتربول وفي مثل هذه المؤتمرات دائما هناك ما يجب متابعته ـ أجابني مبتسماً وهو يشعل غليونه ـ. هل أخرجكِ نشيطاً للتنزُّه؟ ـ أضاف وهو يداعبه، لأنَّ الجرو عرفه ـ إنّه جميلٌ جدّاً. طبعاً هناك من يتشبّه به... وماذا عن الطفل الذي سيصبحُ صديقه؟

ـ حالياً عليه أن يقنع بي.

ـ أسرعي، لأنّه إذا ما اعتاد على الاستئثار بك شعر بعدها بالغيرة.

كان بابلو دائماً يولّدُ عندي انطباعاً بأنّه لم يمض على رؤيتي له إلاّ ساعات معدودات حتى ولو مضى وقت طويل دون أن أراه. لم تكن الصداقة وحدها هي التي تتجدّدُ معه بل والأحاديث أيضاً وبأسرع وأبسط طريقة. كان يملكُ هذه الفضيلة.

ـ هل تُريدين أن آخذك إلى مكانٍ ما في مدريد؟

فجأةً قلتُ له مفاجِئةً نفسي:

ـ نعم، أُريد أن تأخذنا أنا ونشيط إلى حديقة الحيوانات.

ـ نشيط ربّما لن يدعوه يدخل، أمّا أنت فربّما وافقوا إذا أبرزتُ لهم هويّتي.

ـ ما أظرفك. لا أظنُّ أنَّ هناك حاجة لأن تبرزَ شيئاً، فأنتَ تذهب إلى بيتك.

ذهبنا في مساء اليوم التالي. أمام الباب غرز الجرو سيقانه في الأرض رافضاً التقدّم، وقد أخافته الرائحة. نبّهنا البوّاب بأنّه لا يستطيع الدخول وستكون مخاطرة غير مجدية. بقي نشيطُ في غاية الرضا في السيّارة. رحنا أنا وبابلو نتنزّه بين الأقفاص والأطفال دون نظام ولا ترتيب. بدا أنّنا نفضنا عن كاهلنا سنواتٍ كثيرةً، حين كنّا نُدهشُ سويّةً مع الأطفال أمام الزرافات أو حين نتحمّسُ أمام الأمعاز الجبليّة أو ألوذُ بين ذراعيه أمام نظرة الأسد الثابتة. كان بابلو يقودني ويده على كتفي فأشعر بالأمان والسعادة. قلتُ لنفسي: «لو كان راميرو مثل بابلو» لكنّني فكّرتُ أنّه لم يكن هذا ما أردتُ قوله، فبيني وبين بابلو شعور بالأخوّة والإخلاص. فجأة رأيتُ لافتة وسهماً: «مكاك صائد السرطان ـ حيوان خطير.»

ـ هيّا بنا لنراه ـ قلتُ مفعمةً بالفضول.

كان المكاك وأنثاه يعيشان في قفص يعادل غرفةً صغيرة؛ وأنثاه تروح وتغدو طائشةً بلا توقُّف، مثل امرأة مجتهدة يومَ سبتٍ في بيتها. كانت تصعد وتهبط وحين تتقاطع مع ذكرها يحاول أن يمسك بها لغاية

واضحةٍ جدّاً فتواجهه دون عناءٍ وتكشِّر عن أسنانها لتتابع مسيرتها الحمقاء. والمكاك يمسك قضيبه بإصبعين غير مبال بالازدراءات المتواصلة، يفركه لثوانٍ و يا عين، يا ليل! الحقيقة لم يكن في مظهره أيّ شيءٍ استثنائي: قصير، أشْعَر، يشبه القردة وله لونه المعروف عند نوعه. ما لم يكن متوقَّعاً هي أعضاؤه التناسلية: لخصيته لون فيروزيّ بديع، تظهران منتفختين وموبّرتين لهما هالة وبريق بعض الثمار على أشجارها، وللقضيب الصغير لون الحليب. خلال الوقت القصير ـ قصره مبرِّر تماماً ـ الذي بقيناه أمام القفص تكرَّر لعب المكاك والمكاكة إلى حدِّ أنّه لم يكن أمامي إلا أن أعلن:

ـ الآن عرفت لماذا هو حيوان خطير. فأيُّ إنسان سيشعر بالمهانة أمام هذه الخصوبة الزائدة والمثيرة.

أطلق بابلو وهو يضغطُ على ذراعي قهقهةً.

أعربتُ لخوليا ليلاً دون مقدّماتٍ عن رغبتي بمراجعة طبيب نسائيّة بينما كنّا نرمم مكياج أنفينا في مغاسل المطعم الذي تناولنا فيه عشاءنا. قلتُ لها إنّني بدأت أشعر بالذعر لأنّني لم أحمل. فضحكت هي.

ـ ولماذا كلّ هذه العجلة؟ ألستما أفضل هكذا؟

ـ ربّما، لكنّني أريدُ التأكُّد من أنّني لستُ عاجزة عن الإنجاب. فالأطفال هم أكثر ما أحلم به في هذا العالم.

ـ عندنا صديق حميم وهو مولِّد رائع. إذا كان الأمر يشغلك إلى هذا الحدّ سأهتف له غداً وسنذهب لرؤيته.

بعد ثلاثة أيّام وبينما كنّا نتناول طعامَ الغداء في بيتِ خوليا وفِرْمين هتفَ لي الطبيبُ الذي عرف بوجودي هناك.

ـ أنت على أتمِّ حال، امرأة نموذجيّة. قليلاتٌ هنَّ اللواتي رأيتهنَّ في حياتي طبيعيّاتٍ ومؤهَّلاتٍ للأمومةِ مثلك. ـ ثُمَّ أضاف بشيء من المزاح ـ إذا كنت لا تملكين أطفالاً تستطيعين أن تطمئنّي أنّكِ لستِ السبب. لذلك عليكِ ألاّ تفقدي الأمل، فالأمر يتعلّق بالمثابرة.

شكرتُهُ وأغلقتُ الهاتف. تأخَّرتُ عدّةَ دقائق حتى تجرّأتُ على

العودة إلى غرفةِ الطعام، أسندتُ رأسي إلى الجدار، كان العالم ينهارُ فوقي. يبدو أنّني انقطعتُ عن التنفُّس وشعرتُ فجأة بالاختناق، فتنفّستُ بعمقٍ وتنهّدتُ. كان بجانب الهاتفِ مرآة، نظرتُ فيها إلى نفسي فوجدتنيُ شاحبةً. ما كنتُ أمرُّ به كان شيئاً في غاية الالتباس ولا أستطيع توضيحه. لقد غشّوني. شيءٌ ما أو أحدٌ ما استهدفني بالنصب المريع، في لعبةٍ ما أجهلُ قواعدها، قامرتُ بحياتي وخسرتها...«بهذه السرعة، بهذه السرعة...» فتحتُ حقيبتي التي حملتُها معي دون أن أنتبه، وضعتُ قليلاً من اللون على وجهي وعدتُ إلى القاعة. بحثتُ خوليا عن عينيّ.

ـ من كان؟ ـ سألني راميرو.

ـ أخي، من وشقة. كنتُ تركتُ في الفندق خبراً بأنّنا قادمان إلى هنا.

ـ هل كلُّ شيءٍ على ما يرام؟

ـ بلى، بلى ـ أجبتهُ وأنا أنظرُ إلى خوليا ـ. كلُّ شيء على ما يرام. كلُّ شيءٍ طبيعيّ.

الشمسُ تغيب. كلُّ ما أراهُ رصاص رمادي، باستثناء مزقة ورديّة في الغرب. رماديُّ المدينةِ داكن أكثر. فوق الغيوم المُهدَّبة التي تُغطّي الشمسَ، هناك رماديٌّ فضّيٌّ يكتسب زرقة باتجاه الشرق. خطُ الأفقِ واضح تماماً، فيه تلتقي انحناءات وزوايا ومآذنُ الكَفْرِ. تكسرُ أنوار الكهرباء الأولى وحدة الرمادي. يذهبُ نور الشمس. يتأخّر يمام. لا أريدُ أن أكتبَ أكثر.

حاولتُ خلال الأشهر اللاحقة التأقلمَ مع مأساتي، لكنّني لم أستطع الامتناع عن النظر إلى راميرو بريبةٍ وتجريمه بها. ومع ذلك كان واضحاً أنَّ كلَّ شيءٍ متعلّقٌ به، عليّ أن أستسلم إليه بولهٍ، أحاولَ أن يلجَني ويمتلكني أكبر عددٍ ممكنٍ من المرّات. هو أيضاً بدأ ينظرُ إليّ بريبةٍ، لا يقول شيئاً، لكنّني فهمتُ من بعض انزعاجه أنّه يجدني شبقةً

لأشبع. كيف أوضّحُ له السبب دون أن أشعره بالإهانة، وأبيِّنَ له أنَّ ما يهمّني ليس جسده بل ما عليه أن يمنحني إياه لإخصابي؟

حدثَ ذلك في الذكرى الثانية لزواجنا. كنّا دعونا عدداً من الأصدقاء للعشاء. وما إن انتهى العشاء حتى ذهبتُ إلى غرفة نومي لتفقُّد ابنَي لاورا وفِليسا اللذين تركناهما هناك بين الوسائد، وعدتُ إلى القاعة أحمل واحداً في كلِّ ذراع، بينما نشيط يقفزُ من حولي يريدُ أن يطالهما. كان الطفلان يبتسمان نصفَ مستيقظين على جلبة الجرو وجلبة الحياة.

- يا لكِ من أمٍّ مُدَلَّلة - قالت فِليسا بفمٍ مليءٍ - طالما أنّك تُحبّين الأطفال (أكثر منّي دون شكّ) لماذا لا تُقرّرانِ دفعةً واحدة انجابَ واحدٍ وتُخلِّصانا؟

بدت لي مناسبة مؤاتية، فلم أتردَّد ثانيةً واحدة في الردِّ.

- لا أستطيعُ الإنجاب. هذا ما قاله لي طبيبُ نسائيّة استشرته في مدريد. حان الوقتُ كي تعرفوا هذا جميعاً.

بوجود أخت زوجي أبِلا هناك كان لا بدَّ أن وشقة كلّها عرفت بالموضوع. سادَ صمتٌ كثيفٌ، قطعته بكلامي مع الطفلين، بهذا الصوت الغبي الذي نتصنّعه حين نتوجّه للرّضّع.

وما إن ذهب المدعوون، حتى اقترب مني راميرو الذي تقلّصت مشاركته في الحوار كثيراً بعد مداخلتي (الحوار الذي تعاود بجملٍ متوقّعة: «هذا ما لا يُعرفُ أبداً. فوسائل الإنجاب متوافرة الآن أكثر من اللازم»، «سترين كيف ستملّين من الأولاد»، إلخ...) رفع ذقني وأجبرني على النظر إليه قائلاً ببعض الوقار:

- هل موضوع الطبيب حقيقة؟

- نعم.

- أولاً عليكِ ألاّ تيأسي؛ فالله فوق الأطباء جميعاً. ثانياً وإذا ما حدث الأسوأ، فلن ألومك أبداً. تكفيني أنتِ كي أكون سعيداً. هل تسمعينني؟

- بلى أسمعك.

- بيننا أشياء كثيرة مُشتركة، أشياء كثيرة علينا العمل لأجلها معاً، وأشياء كثرة علينا تحقيقها. وأحلام كثيرة مشتركة. ودون الذهاب بعيداً (والمصادفة كالمعجزة)، عرضوا عليَّ تمثيلهم في كامل منطقة الحكم الذاتي. لم أقل لكِ شيئاً عن الموضوع من قبل لأنَّني أحاول الحصول على الإقامة في وشقة، التي أعرف كم تُحبّينها، لكنَّني أعتقد أنّه أمر حاصل - داعب ذقني -. هل أنتِ مسرورة؟

- مسرورة جدّاً. مبروك. أنت تستحقُّ كلَّ شيء، يا راميرو. مبروك.

طفرت دموعي. كنتُ أموتُ في داخلي وحشةً ورغبةً بالصراخ. كم يُثْقِلُ السرُّ... لكن راميرو وعلى الرغم من خداعي له كان من اللطف والحنانِ بحيث أنّني لم استطع ألاّ مبادلته ذلك. ثمّ من قال إنّه لم يكن على حقّ؟

مارس الحبَّ معي في تلك الليلة أفضلَ من أيّة مرّة سابقة. كنتُ بين ذراعيه أُفكِّرُ - لم يكن باستطاعتي تجنّب التفكير، لكن كم جهدتُ كيلا أفعل - أنّه من المحتمل أن يكون لكلّ شيءٍ علاج. تحت راميرو وبعيداً عنه، رحتُ أتصوَّرُ نشيطاً واقفاً على ساقيه الخلفيّتين ينظرُ بفضولٍ إلى شيءٍ متورِّدٍ يتحرَّكُ في مهدٍ، يطلب طعامه صارخاً صراخاً مجروحاً.

لا، لم يكن هناك من علاج. فراميرو الذي كان مقتنعاً بلا جدوى المحاولة - وبالطبع عازياً السببَ إليَّ - أسلم نفسه للعناية الإلهيّة. كنّا نطلبُ، أنا وهو، بعد القدّاس بأيدينا الملمومة «صالِح الذرِّيّة». لكنّه كان في الحقيقة يطلبُ ذلك بقناعة وحماس هما في كلِّ مرّةٍ أقل، حتّى كاد يكفُّ عن المحاولة تقريباً. أظنُّ أنّه يرى أنَّ من الغلمة والإفراط ممارسةَ الحبِّ دون توافر إمكانيّة الإنجاب، فأجدُ هذا منطقيّاً عنده. رحتُ أنزوي أكثر وأكثر في ذاتي. أخيراً طلبتُ منه السماح لي بالنوم مع نشيط في واحدة من غرف نوم الضيوف في حال عدم وجودهم. عارض معارضة معتدلة وعاديّة، لكنّنا نمنا في تلك الليلة، أنا ونشيط - الذي كان ينام قبل ذلك في المطبخ - في فراشٍ واحدٍ. لم يخلُ الأمر من راحة؛ فقد بدأتُ أسأمُ من الأوهام، وأعظمها لم يكن قد بدأ بعد.

حاولت الخادمة مارينا، التي كانت ما تزال تعيشُ مع أبي، مع أنّها شارفت على الثمانين، أن تحلّ مشكلتنا بكل الوسائل المتوافرة لها. كانت تأتني بالحمحم المخزني لآكله، مؤكِّدةً فعاليته على الإخصاب. كنتُ أفكّر في نفسي أنّ عليها أن تعطيه لراميرو، ومع ذلك كنت آكلهُ لأنّني أحببته دائماً. حَضَرَتْ ذات يوم في ساعة القيلولة ومعها دورقٍ من ماء الينابيع السبعة المختلفة المشهورة كلّها ـ وهي برأييها أفضلُ وسيلةٍ لحصول الحمل ـ: ماء أيْنْسا، بويْرّويغو، مونتانّي السحريّة، سان بِنيتو دِهْ لوثان، سانتا إلِنا دِهْ بييسكاش، سان إلِيّاس دِهْ بالكارثِ، وسان بلاس دِهْ بيليانُوبَا دِهْ سيخِنا. شربته حتى آخر جرعة دون نجاح. وإذا ما بدا هذا قليلاً، فقد عدتُ وشربت في ليلة سان خوان ماء الوهاد التسع التي استطاعت الخادمةُ مارينا جمعها بجهد كبير منها ومعروف من آخرين.

لم يكن ذلك الصيف حارّاً. كثيراً ما اجتمعتُ فيه مع صديقتيّ ووالديهما لأنّهما لم تسافرا في ذلك العام نظراً لسنّ الطفلين. رأيتهم من شرفتي في أحدِ صباحاتِ أيلولَ حين بدأت أغصانُ أشجارِ شارِعنا تكتسب لونها الذهبيّ. كنتُ أنظّفُ البيتَ، حسن ليس البيت، بل كلّ ما لا يخطر للخادمة أن تنظّفه أبداً: أطر اللوحات، الكتب، حواف الكؤوس على طاولات الجلد. كنتُ أمضي من غرفةٍ إلى أخرى يتبعني نشيط، وقد ربطت منديلاً على رأسي وحملتُ آخر في يدي.

ـ لماذا لا تبقى ساكناً في مكانٍ مُحدَّد؟ تأتي خلفي وكأنّك كلب. اتركني، يا رجل، أنا أعمل.

نظرَ إليّ دون أن يرفع رأسَهُ، رأيتُ قمريه البيضاوين تحت عينيه، فرحتُ أضحك. بعدها جلستُ القرفصاء على مستواه.

ـ هل تدري ماذا سنفعل؟ سنذهب لنبحثَ عن عملٍ كيلا نبقى نضيّع الوقت بالمهازل. عمل أستطيعُ أن آخذك فيه معي. وعملك سيكمن في أن تكون حسناً وهادئاً. ـ ينظّفُ نشيطُ وجهي ـ. لا، لا تهتم، لن أتركك تنتظر هنا: ستذهب معي وسيحبُّك الجميعُ كثيراً. لكن عليك أن تعدني بألاّ تبولَ أو تُشغِلَ أو تلهي الرفاق في حال لم يعطونا مكتباً خاصّاً بنا، الشيء الذي لا أظنّهم سيفعلونه.

عندما جاء راميرو لتناول الغداء أخبرته بالأمر دون لفٍّ أو دوران كنتُ بحاجة إلى عملٍ، بحاجة إلى الشعور بفائدتي وأملأ ساعاتي. سيبحث عن عملٍ يسمحُ لي بمرافقته في أسفاره وبحمل نشيطٍ معي.

ـ سيكون هذا صعباً للغاية ـ علّق.

ـ أنا لا أتطلّع لأن أصبح رئيسة دولة أو أحصلَ على راتب عالٍ، بل عنْ شيء متواضع.

ـ اسمعيني جيّداً، يا بِسي: أنتِ تقومين بعملك. تساعدينني أكثر مما يمكن أن تتصوّري. الفضلُ بترفيعاتي يعودُ إليك بقدر ما يعودُ إليّ. تُحسنين الاستقبالَ بشكل رائع، أنتِ ساحرة، تتصرّفين كالملاك مع الجميع، رؤسائي يعبدونكِ ولن أقول عن زوجاتهم شيئاً. هتف لي فِرمين هذا الصباح ونسي نفسه وهو يمدحُك. يقول إنّه يودُّ لو تكونين له لعلاقاته العامّة وكم يحسدني لأنّك معي...هاأنت ترين.

ـ راميرو، يا بُني، أنتَ لستَ بحاجة للعلاقات العامّة، فأنتَ أفضل مع فارقٍ كبير.

ضحكنا مستنداً الواحد منّا إلى الآخر، حصلتُ أخيراً على إذنه ووعده بمساعدتي في الحصول على عمل. لكنّه لم يكن من وجده لي. اضطررت مصادفةً للذهابِ إلى المعهد الذي درستُ فيه الثانويّة ليمنحوني وثيقةً، أو ليطلبوها لي عبر الأمانة من كلّيّة سرقسطة، فربمّا استجابوا لهم أكثر منّي. كنتُ بحاجة إليها لاستخدامها في أيٍّ مكان أتقدّم للعمل فيه. نظرت إليّ أمينةُ المعهد بدهشة، وكانت امرأة بيضاء الشعر، شديدة الاعتناء بتسريحتها.

ـ لكن ما هذه المصادفة: الأسبوع الماضي تزوّجت الفتاة التي كانت تساعدني. إذا قبلت هذا الشاغر فلن تحتاجي إلى الوثيقة. ـ هل أستطيع أن آتي بكلبي معي؟ إنّه صغير الحجم وفي غاية التهذيب ـ كذبتُ.

ـ هل يُحسن الكتابة على الآلة؟

ـ لا، إنّه يتلكّأ، لكنه يملكُ بالمقابل موهبة من يحسن التعامل مع الطلاّب.

- إذن مقبول، جيئي به، بشرط ألاّ يكون علينا منحه الضمان الاجتماعي.

منذُ اللحظة الأولى كان واضحاً بأنّني سأنسجم مع تلك السيّدة. كان مكتباً فرحاً وكثير النور، تخفّفُ أرضه الخشبيّة من زمهرير الممرّات، ومزدحماً دائماً بفتيةٍ في مقتبل العمر، يطرحون مشاكلهم المستعصية التي يمكن حلّها بخمس دقائق من الاهتمام؛ ويذكّرونني بأيّامي في ذلك المعهد بقبحه المستعصي، عند حافّة تلك النوافذ الصغيرة ذاتها، أحاولُ أن أمنع متذاكي الدور من الانسلال أمامي، أنا التي تفيض عنيّ المشاكل المستعصية. كان الأرشيفُ إلى جانبي، وفيه جوهرة الدار: ملفُّ السيد سانتياغو رامون إيْ كاخال، الذي يحمل المعهدُ اسمه. يجب أن أعترف أنّني لم أره قط.

كنتُ أصلُ كلَّ صباح ومعي نشيط الذي ما إن يرى البابَ الرئيسيَّ مفتوحاً حتى يكسب خببُهُ بهجة. نقطع الدهليز بجنديّه الرخاميّ الأحمر وأفاريزه الرخاميّة الأخرى الورديّة والرماديّة ودرجه، الذي بدا لي في الطفولة عظيماً وصار الآن عتيّاً، ننحرف نحو اليسار فنأخذ الممرَّ العريض الذي تُطلُّ نوافذه الكبيرة على الفناء بأرضه ذات البلاط الأبيض والأصفر الذي طالما أعجبني، لأجري متزلجةً في تلك السنوات التي يوشكُ المرءُ دائماً أن يصل فيها متأخراً إلى كلِّ مكان. وما أن أسمعُ أصداء أصوات وجري الأطفال الجدد يدوّي حتى أنتقل من المرحلة والرغبات والآمال.

ما إن مضى عيد العذراء، حتى حضرتُ توزيع الجوائز في قاعة النشاطات. كان عليّ ألاّ أفعل: خيّبني إلى حدّ أنّني اضطررتُ للخروج. كنتُ قد مثّلتُ هناك مسرحيّة دينيّة لكالدرون، لعبتُ فيها دورَ الأرضِ، أحد العناصر الأربعة «للحياة حلم». فذلك المكان والمشهد اللذين كنتُ أراهما سماويين صارا مرعبين؛ الأعمدة العشر التي طالما اعتبرتها بقيمة أعمدة البارثينون أراها الآن بدائيّة وثقيلة وغير رشيقة. تصدرُ عن القاعة رائحة رطوبة وهجران،وفكّرتُ وأنا أخرجُ كم نسترجعُ أماكن طفولتنا، هادفين باللاوعي لاسترجاعها هي والاستمرار باعتبارها دائماً فردوساً باهراً طُرِدنا منه ذات يوم. لأنَّ فقدان الفردوس يُحتملُ أكثر من انعدامه.

الحقيقة أنَّ ما كنتُ أكسبه في المعهد بائس، لكنَّ العمل بالمقابل

لم يكن قاتلاً ـ فمرحلة التسجيل انتهت ـ، على العكس جدَّدتُ شبابي وفتوّتي ولم أذهبْ إلى القدّاسات مع راميرو بحجّة الدوام: من هذا الجانب خرجتُ رابحةً أيضاً. كنتُ أذهب إلى المعهد دون إفطار، فأفطر مع إليسا، أمينة السرّ: العانس، رائقة المزاج ومحبّة القطط التي طالما أسفتْ لأنّها لم تستطِع حملها معها إلى المكتب، وتتساهل مع نشيط «لأنّ فيه شيئاً من القطط:أليف جدّاً وأنانيّ. ومن يريد معرفة ما هو كلب الحضن فليأتِ إلى هنا ويراه».

ذات صباحٍ اختفى نشيط. بحثتُ عنه في كلِّ مكان حتى في أقلها احتمالاً. الجلبة التي سمعتها في إحدى القاعات غير البعيدة عن أمانة السرّ دلّتني أخيراً على مكانه.كان الفتية ينادونه باسمه، يلعبون معه لعبة الثور وينتهزون الفرصةَ للصعود فوق المقاعد بينما الأستاذ، مدرِّسُ التاريخ، يطالبهم بالصمت والانتباه دون جدوى. ما إن فتحتُ البابَ حتى هُرِع نشيط نحوي دون أيّ إحساس بالندم محرّكاً ذيله ولحق بي إلى الخارج. عند الظهيرة زارني رئيسُ كرسيّ التاريخ، الذي طالما أثار حماسي حين كنتُ طالبة. كم سنة مرَّت على ذلك؟ سبع عشرة سنة أو أكثر. إذ وبعكس ما هو متوقَّع، سوّى الزمنُ بين عمرينا، رأيته وقد صار عجوزاً. كانت إليّسا قد قالت لي إنّه ما زال عازباً.

ـ اعذرني لما حدث هذا الصباح، يا سيِّد ماريانو. ـ لم أتردَّد في مغازلته ـ: أنت أفتى منكَ يومَ كنتُ أختبُ في هذه الممرّات.

ـ ما زلتِ تخبِّين فيها. أعني ما زلتِ نفسكِ: البرهانُ هو أنّك هنا، لكنّك الآن برفقة هذا الكلب، المسكون بالشيطان. دائماً يعود الإنسان إلى الأماكن التي ينتمي إليها: هذا هو الشيء الوحيد الذي تعلّمته من التاريخ. لذلك يُؤكّدُون أنَّ المجرمين يعودون إلى أماكن جريمتهم.

ـ أإلى هذا الحدّ كنتُ تلميذةً سيّئة حتى تقارنني بالمجرمين؟

كان ينظر من فوقي وكأنّه يرى أحداً يقترب ورائي...

ـ كنتِ فتاة عجيبة. عيناك مفتوحتان حتّى كان باستطاعتك أن تلتهمي بهما العالم. لم أعرف قط من همّني من أمره غير أن يعرف أو لا يعرف الدرس (وقد مضى عليّ سنون كثيرة وأنا أعطي الدروس). أما أنتِ فكنتِ فوق النصوص.

كان يضحكُ، وعيناه ما تزالان تنظران خلفي.

ـ ربّما ما كنت تلاحظه هو عشقي لأستاذ التاريخ بجنون.

ـ لا، عشقي لا. ببساطة كنتِ عاشقة لكلّ شيء. كانت الحياة هديّة قُدِّمت إليك توّاً، ولا تعرفين كيف تتمتّعين بها بشكلٍ أفضل. القواعد التي وضعوها لكِ كي تستخدميها لم ترضيكِ... رأيتِ فيَّ شخصاً متمرِّداً قليلاً، لا أكثر. التشابه هو الذي شدَّك.

ـ إذن لاحظتَ ذلك، أليس كذلك؟ ـ حنى رأسه كما لو لينظر إلى أحدٍ أقصر قامةً ـ وهل كنتُ متمرِّدة، يا سيِّد ماريانو؟ ـ سحب حركة رأسه.

ـ وما زلتِ، وإن كان لا يبدو عليك. بالمقابل إذا كنتُ أنا كذلك ذات يوم، فاليوم ما عدتُ. بينما ستبقين أنت متمرِّدة حتى النهاية...في العمر الذي عرفتُك فيه كان هناك كثيرون يتمرَّدون في الظاهر؛ نحن المعتادين على التعامل مع المراهقين نعرفُ أنَّ الذين يستمرُّون نادرون جدّاً. غالبيّتهم أنانيّون وقليلو أدب.

ـ ها أنتَ تراني هنا ببرنامجٍ صارم ومكتب وكلب. قل لي هل من إمكانيّة لتمرّدٍ أقل.

ـ بِسي، بِسي أوليبان، أليس صحيحاً؟: هناك مناسبات غير متوقَّعة يصبح فيها من الضروري رمي الصابورة وبرنامج العمل والكلاب من حافة السفينة... إذا ما سُنِحت لك فرصة من هذا النوع فارمي كلَّ شيء: لا تتردّدي. أنا تردَّدتُ، انظري إلى ما انتهيتُ.

ابتعد يكادُ يجرجرُ قدميه على بلاط الممرِّ الرمادي والأبيض.

أيضاً تمكّنت من جعل راميرو لا يذهبُ للبحث عنّي في نهاية الصباح. كنتُ أعودُ إلى البيت بخطواتٍ خفيفة في الشتاء، وببطء حين عادت الشمس زاهية بعد انقضاء أعياد القديسين الجهمين: القديس أنطونيو والقديس فابيان والقديس بيثنتِ الذين يُحرِّكون الهواء بأدثرتهم ويحملون معهم الضباب. كان نشيط فاقد الإحساس أمام الطقس يتشمَّمُ كلَّ شيءٍ، يجوبُ أرضاً بلا حدود ويتلهّى بأشياء غير معقولة. كنتُ أحاول ألاَّ أصطدم بالناس الذين لا أراهم، أفكّر بشيءٍ من الشرود وأفهمُ أنّني، لن أملكَ أبداً شكلَ السعادةِ التي حلمتُ بها، وربّما أعددتُ نفسي لها مدى الحياة. ومع ذلك وبما أنّني لم أمت كان عليَّ أن

أعيش ومن المفضّلِ أن أعيش بأفضل ما يمكن، طبعاً دون أن أجرح نفسي. ربّما ما حدثُ لي، يحدثُ لكلِّ النساء تقريباً: جميعهنّ ولا شكّ يشتقن لشيءٍ حلمن به... كان عليّ أن أملأ غياباً راح يتقلّصُ حجمه. رحتُ، دون أن أنتبه أو أتقصّدَ، أصبحُ أكثر ودّاً مع راميرو: أنفض له كتفيه عندما يخرج، أنكُتُ معه للشعر الذي يُخلّفه على الأمشاط والفراشي، أقيسه بحياديّة إذا رأيته في الشارع، وبقيتُ أحكم عليه أنّه رشيق وجذّابٌ أكثر من بقيّة الرجال. وجاء يومٌ فوجئت فيه أضحكُ مقهقهةً لا أدري من أيٍّ من ملاحاته.

ـ أنت تهملُ خطابك الداخليّ، يا راميرو، وتصبحُ ظريفاً: تشغلك أُمور الآخرين.

كان يزعجه موضوع هذا الخطاب الداخلي. ولم أُلمح إليه منذ ما قبل زواجنا.

ـ في رأسك فكرة تؤثّرُ عليك بمفردك ولا تتكلّم عن سواها. وإذا قاطعك أحدٌ ما ليشير إلى شيءٍ آخر، سمحت له بلطف وأظهرت له وجه المنتبه، لكنّه ما إن يهفو حتى تعود إلى موضوعك، عند النقطة التي تركته فيها. هذا التكتيك تستطيع استخدامه من عشرين إلى ثلاثين مرّةً في اليوم. أنا واثقة تماماً من أنّك لا تفهم على الإطلاق ما كلّموك به، وبالأخصّ كلامي.

ـ لا تقولي ترهات ـ كان يردُّ عليّ ـ فمهنتي تقوم تماماً على الإصغاء لترهات الآخرين.

ـ أو على التظاهر بالإصغاء. فخطابك الداخلي يفيض عنك.

للأسف أنّ خطاب راميرو الداخلي كان قد حدّدَ معالم حياتي.

نادراً ما كنتُ أرى لاورا وفِليسا. كنّا ننفصل دون شعورٍ منّا تقريباً؛ كنّا ننتمي في عالم وشقة المحدود ـ «التي تنظر إلى الغرب وليس إلى الشرق» كما كان يقولُ مارثِلو ـ إلى قطّاعات مختلفة: ربّما زوجاهما أكثر منّا، لكنّهما يملكان إضافة إلى ذلك مهماتهما الأموميّة. (كلاهما وعدتني بأن أكون إشبينة ولديهما اللاحقين.) كانتا تأتيان بين الحين والآخر إلى الأمانة؛ فأشعر بوخزٍ مؤلم قليلاً وأنا أراهما أو

أرى واحدةً منهما ومعها عربة الصغير. نثرثر برهةً. ندخّنُ سيجارة ثمّ تمضيان إلى عالمهما. ومع ذلك كنّا قد وقّعنا عهداً: الصيف القادم سنسافر سويّةً مع أزواجنا إلى مكانٍ زاهٍ.

ـ أنا لا أريدُ بلداً شماليّاً ـ كنتُ أقولُ لهما ـ لا أريدُ سويسرا. فكلّ هذا موجود عندنا وبشكلٍ أجمل. أريدُ بلداً غريباً، يمكن أن تحدث لنا فيه مغامرات رهيبة.

وافقتا تماماً باستثناء ما يتعلّق بالاغتصاب. كنتُ خلال لحظات فراغي أراجعُ بعض أطالس المعهد، أفكّر بالإيجابيّات والسلبيّات، بل وأقدّرُ الحسابات الاقتصاديّة، وأستقصي عن درجات الحرارة والتواريخ الأفضل التي لا تتصادف أبداً مع تموز أو آب. وحين أعلمتهما بنتيجة استقصاءاتي انفجرتا بقهقهاتٍ مدوّية.

ـ يا بنت، يا دِسي ـ كانت فِليسا تضحكُ ـ لم أرَ في حياتي واحدةً تقليديّةً مثلك. ظننتُ أنّه سيخطر لك بعدَ شهرين من الدراسة بلدٌ جديد، من تلك التي تُدشّنُ في أفريقية كلّ يوم. إذ يكفي لاختيار مصر أن ينظر المرءِ إلى الخلف قليلاً: كلّ شيء جاء من هناك...

ـ كلّ شيءٍ لا ـ رحتُ أُدافِعُ عن نفسي ـ فهناك أيضاً اليونان وسورية ومراكش...

ـ لا توليها أهميّةً، يا دِسي ـ تدخّلت لاورا ـ طرحنا نحن الموضوعِ من قبل: مصر قبلَ أيّ مكان آخر. ثلاثتُنا متفقات. لم يبقَ أمامنا الآنَ إلاّ أن نقنع أزواجنا الفارغين.

أقنعناهم. كُلّف مارثِلو بالتنظيم. توصّل مع وكالة السفر لأن يجعلنا نقوم برحلة غير مريحة كفاية، لكن نظراً لرغبتنا بالمرح ولنهمنا الإسفنجي فإنّنا لم نذكر الأمر بعد ذلك إلاّ بسرور. أنا على الأقل. أثقل علينا مارثِلو وراميرو بكاميرا تصوير الفيديو. كانا مقتنعين بأنّ مالم يصوّراه لم يتمتّعا به ولم يوجد. بالمقابل كانت فِليسا وأرتورو قد جهّزا كدليلٍ كتاباً مفصّلاً يقرآنه بحياءٍ أمام النُصُبِ التاريخيّة، التي لا يكادان ينظران إليها. كان يكفيهما التأكّد أنّها كانت دون شك تلك التي يشير إليها الكتاب، يقرآن النصّ ثمّ يبحثان عن الذي يليه. بينما أنا ولاورا لا نكلّ ولا نملّ.

في البداية اتفقنا، حتى قبل أن نسجِّلَ أمتعتنا في المطار، على أنَّ رفاقنا في الرحلة كانوا بكلِّ تأكيدٍ كئيبين، مكتبيّين بائسين ونساؤهم المجهولات غير مثقفات.

ـ هذا بالذات ما يفكرون به نحونا ـ نبَّهتنا لاورا ـ وبما أنَّنا سنقضي غصباً عنّا ثلاثة أسابيع معاً فمن الحكمة أن نواجه الزمن الرديء، هذا إذا كان رديئاً فعلاً، بوجهٍ حسن.

اكتشفنا بعد ذلك أنَّ المكتبيين وزوجاتهم كانوا بشكلٍ عام أشخاصاً بسيطين، يحرِّكهم الفضولُ أو الاهتمام بالتعلُّم، يسألونَ دون عقدٍ عمّا لا يفهمون بل وأحياناً يضعون دليلتنا ـ فتاة رقيقة، مُؤهَّلة، لكن ما إن تخرج من جوِّها حتى تتحوَّلَ إلى دجاجة منتوفة ـ في حرجٍ حقيقيٍ.

كان بين مرافقينا بعضُ الأشخاص المُمَيَّزين جدّاً. مثلاً سيِّدة طاعنة في السنّ ترافقها ابنتها وصهرها، راحت تحتجُّ منذ البداية في المطار، كان لمصر عندها وقعُ الرصاص حتى قبل أن تراها.

ـ ناسٌ وسخون، لا أسس صحيّة عندهم: زنوج، فما الذي ستطلبه منهم؟

لأنّه كان بودِّها الذهاب إلى إيطاليا كي ترى تمثالَ موسى لمايكل أنجلو، فقد كان عندها في البيت ألبومٌ صور عنه، وتعبده حسب اعترافاتها. بينما كانت لاورا تصرُّ على أنَّ موسى الذي تريد السيِّدة رؤيته إنَّما هو المهد الذي تربى فيه مايكل أنجلو.

كما رافقنا ثلاث أخواتٍ عازبات، متقدِّماتٍ قليلاً في العمر، منسجمات فيما بينهن بشكلٍ رائع، كنَّ ودوداتٍ ومهذَّباتٍ، جئن من مركز محافظة غير بعيدٍ عن وشقة، وكنَّ يتيمات طبيبٍ معروفٍ ترك لهنَّ اسمه وقليلاً من المال.كان يخرجُ معهنَّ عادةً صحفيٌّ شبه أعمى، مشهور في مرحلة الدكتاتوريّة، يسجِّلُ أسعارَ كلِّ شيءٍ كي يدخلها في تعليقاته التي يرسلها إلى صحيفةٍ طبعتها قليلة النسخ.أمّا التي كانت تقيم حرباً لحسابها فهي بدينة لها مشية إوزّة وقدمان رقيقتان جدّاً، ضاعت في خان الخليلي لتشتري هدايا رخيصة وطبلاتٍ لكلِّ أصدقائها. كان هذا الحيُّ فاطمي الأصل والتخطيط، بُنِيَ، على الرغم

من متاهته كنسخة عن المدن الرومانيّة، فيه شارعٌ رئيسيٌ وآخر معترض، لكن بتفرُعات وتنوُعاتٍ كثيرة تذهبُ بالعقل.

- مثلٌ جيّدٌ على التوافق - كانت تنهي.

الأمر الذي لم يفدنا في العثور على البدينة. احتجنا إلى الله والمساعدة وساعة طويلة حتى استطاعت الأخوات الثلاث، اللواتي توزّعن بشكل استراتيجيٍّ، العثورَ عليها.

بينما استسلم الأربعة الآخرون لنزواتهم، رحنا أنا ولاورا نتأمّلُ الغروبَ على النيل، حيث تبرزُ خيالات المجذِّفين الرشيقة في الفلوكات ببنطلوناتهم السوداء الأنيقة المشدودة على سيقانهم على خلفيّة السماء منعكسة في الماء. كنتُ أشعر بشيءٍ غريبٍ يشدُّني ويقودني إلى أولئك الأشخاص ذوي العيون العميقة والبرّاقة والأهداب الكثة، إلى تلك النسوة الضخمات اللواتي يتقدّمن على الأرصفة مثل البلدوزرات، وعليك أن تبتعد عنهنّ إلاّ إذا أردتَ أن تموت مسحوقاً، إلى أولئك الأطفال الباسمين المتسوّلين، وأولئك البلديين الذين جاؤوا لا تعرفُ من أين إلى القاهرة ليتعالجوا في القاهرة أو ليضيعوا نهائيّاً فيها. كنتُ أحسُّ وأنا محاطة بفوضى المدينة بنبض حميميّتها في راحتيَّ مثلَ قلب عصفور صغير لايدري كيف وقع في يدي. بعد أن جابَ السماء.

الإحساسُ بالعظمة والتواضع ذاته أحدثه عندي ضريحُ رمسيس الثاني في المتحف. من كان سيقول إنَّ جبروت الفرعون ترقدُ في تلك الجثوة الغريبة - المغطّاة بالقطيفة الزرقاء الداكنة الباهتة التي خيطت عليها ثلاث نبتات لوتس من قماشٍ أصفر، واحدة منها بلا زهر، وشدّت بسلكٍ خُتِمَ بالرصاص كيلا يستطيع أحدٌ رفعها في مفترق من الممرّات - وإذا عرفنا هذا أنا ولاورا فذلك لأنَّ كاتباً إسبانيّاً كان يزور المتحف برفقة أحد المدراء. إنّه كاتب أجلّه انتابتني حين رأيته رغبة جامحة بالسلام عليه. جمعتني به في مصر الجنسيّة، وسمحت لي المصادفة بالاقتراب منه. كان يتأمّلُ تلك الكتلة ويقول شيئاً لمن عرفنا منه فيما بعد أنّه سكرتيره، بينما كان يأخذُ بعض الملاحظات من كتاب صغير. قاطعته معتذرةً فقال لي وكأنّنا نعرف بعضنا بعضاً من قبل:

- هنا، في هذا التقاطع، بين هذه الخزائن الفارغة، يرقدُ رمسيس الثاني. يبدو أنّه ذهب إلى معرضٍ عنه وعن جنونه في باريس. هناك

خلّصوه من التلوُّثِ وعقّموه في معهد باستور. وعند العودة وضعوه مؤقّتاً حيث هو الآن، ولم يحرّكوه بعدها. ما أرهب تدابير ناس الجنوب بمن فيهم نحن. بعد هذا هل من مكان للخيلاء، يا صديقتيّ؟

ودّعنا وتابعنا الزيارة في طريقين مختلفين. لاورا تجلُّ أيضاً هذا الكاتبَ، لكنّني أظنُّ أنّها تجلّه كصاحبة مكتبة لرواج كتبه أكثر مما لكتابته. طبعاً ستنكر هذا.

أذهلت أهرامات الجيزة راميرو، لكن بعكس ما توقّعَ بدت له أصغرَ ممّا كان يتصوّر بكثير. أكّدت فِليسا والدليل في يدها أنّ التلفزيون يضيعُ نهاية «لمتعة الأسفار»، ففيه يبدو كلّ شيء، بعد عزله وتصويره، أكثرَ جبروتاً ونظافة. بعد يومين كانت لاورا تقول عن الأهرام الكبير: بما أنّنا لا نتعذّبُ لرؤيته، فإنّنا لا نكاد نراه. حين ينضمُّ شيءٌ للعادة (ونحنُ في هذا سريعون جدّاً) يتحوّلُ إلى صورة. جئنا من أجله، وهاهو هناك: صار ملكنا. لكن هل حقّاً ملكنا؟ عمره أكثر من أربعة آلاف عام، شوّهوه، جذموه، حوّلوه إلى نصب للاجدوى. ليس له أيّ فائدة من الفوائد التي بني لأجلها، ما لم يكن قد بُني للتحدي أو الفرجة. لا نعرفُ شيئاً عنه... إنّه أيُّ شيءٍ لكنّه ليس لنا. الشيءُ الوحيد الذي نستطيع عمله هو النظر إليه، لن نفهمه أبداً.

في سقارة (أتذكّرُ فجاةً هديل حمائم صاخب فوق مدرّج الأهرام) ركبنا جملاً، طبعاً من أجلِ أنِ يصوّرنا مارثِلو وراميرو بكاميرته. انزلقت فِليسا التي كانت في كلِّ مرّةٍ أكثر بدانة عن جملها ببطءٍ شديد وارتطمت بعجزها على الرمل ارتطاماً قويّاً، بين ضحكات أصحاب الجمالِ وبدينة خان الخليلي والأيتام الثلاثة.

ـ كان من الممكن أن ينكسر عجزي ـ قالت ذلك وهي مستاءةٌ جدّاً ولم تتوجّه إلينا بكلمة واحدة طوال الصباح.

سأل راميرو في اليوم التالي وكان يوم أحد، أين يستطيع أن يحضر قدّاساً، فأرسلوه ـ أرسلانا ـ لأنّني ذهبتُ معه دون اهتمام به إلى كنيسة قبطيّة في شارعٍ ضيّقٍ جدّاً تتقدّمه حديقة صغيرة. طبعاً لم يكن فيها قدّاس، لكنّ راميرو اكتفى بالصلاة راكعاً وبحضور احتفالٍ غريبٍ فيه إنشاد كثير وبخور أكثر.

ـ يحتفظُ الأقباط في أماكن عبادتهم أفضل منّا بالفضاء الصوفي الذي يرتقي بالروح إلى الربِّ بسرعة أكبر.

وحين عرف أنَّ العائلةَ المقدَّسة سكنت، بحسب التقاليد، في ذلك المكان، أثناء هروبها إلى مصر، التقط بكاميرته حتى نسيج العنكبوت في آخر زاوية. كان هذا بالنسبة إليه أفضل ما في الرحلة.

ذهبنا في رحلة طيران يسمّونها داخليّة، بدت لي خالية من أي شيءٍ داخليّ، إلى أوّل شلاّلٍ على النيل كي نصعد من هناك في زورق إلى الأقصر. اتفق أرتورو وفِليسا معاً على أنَّ القذارة كانت غير مُحتملة ومن الممكن أن نصاب بما ليس عندنا. كانا يعتنيان بطعامهما، يذبّان الذباب دون توقّفٍ، يحتاطان للالتهابات ويعيشان في شكٍّ دائم. انتهيا إلى البقاء في السفينةَ حيث كانا سعيدين وإلى تحديد المعابد والتعرف عليها من هناك، بعد الرجوع إلى الدليل، بينما كنّا نحن نهبط إلى الضفّة.

كانت المساءات والليالي على سطح الماء والضفاف المليئة بالنباتات الجميلة والمنثنية تعزِّزُ من حبي لتلك البلاد التي كنتُ أرى فيها نوعاً من المصالحة بالنسبة إليّ أو كلقاء جديد (أظنُّها الآن كانت تحذيراً.)

كنّا نجلسُ نحن الستَّة ليلاً، حين يخفُّ الحرُّ، تحت النجوم الساطعة على سطح الباخرة في أسرّتنا المعلّقة، منعزلين قليلاً عن الآخرين ونثرثر بنوعٍ من التواطؤ المستعاد. في الليلة الثالثة تحدَّثنا عن الحبّ قبلَ أن تنسحب فِليسا ولاورا اللتان أفادتهما الرحلة كمقوٍّ فعّال للباه لتمارساه مع زوجيهما في قمرتيهما. ألمحتا لهما حافيتي الأقدام بوقاحة وجدها راميرو محزنة، وحسدتهما أنا عليها وسررتُ بها كثيراً. كانت لاورا قد اقترحت لعبةً: كان علينا أن نستقصي مَنْ المحِبّ ومَنْ المحبوب ليس بيننا نحن الأزواج الثلاثة وحسب بل أيضاً بين من جاؤوا في الرحلة وآخرين نعرفهم جميعاً. بحسب رأيها نحن نولد ودور المحبّ والمحبوب مقسّم، وهو الدور الذي نلعبه خلال حياتنا كلّها.

ـ لا أريدُ القول إنَّ بعضنا سارخٌ طوال اليوم بينما الآخرون هادئون، مستلقون على ظهورهم. طبعاً المحبوب محبٌ قليلاً، متجاوبٌ قليلاً، لكنَّ الموقف المسبق والجوهري مطبوع عند كلٍّ منهما. في كلِّ علاقة حبٍّ يوجدُ أخيراً عابدٌ ومعبود، سيّد وعبد، هناك من ينفجر بالكلام ومن يردُّ. كي نبدي رأياً علينا أن نأخذ بالحسبان ما نعرف وما نحدس: النظرة الأولى مهمّة.

فكَّرنا بُرهةً وبدأنا نصوِّتُ. لا أذكرُ النتيجةَ بالنسبة للأزواج الآخرين. أعرف أنَّني أوقفتُ التصويت لحظة متسائلة.

ـ وماذا لو كان الزوجان محبَّين، أو محبوبين؟

ـ من الصعب أن يحدثَ هذا ـ أجابت لاورا ـ لكنَّ الزوجين المحبّين، على كلِّ الأحوال، عنيفان، يتطايران شرراً، ومن غير المحتمل أن تدوم علاقتهما زمناً طويلاً؛ فما أن يظهر محبوبٌ حتى يذهب واحد من المحِبّينْ معه. بالمقابل فإنَّ حياة محبوبَين يمكن أن تطول لأنَّهما سهلا العراك ـ قامت بحركة ازدراء من فمها ـ لكّنها ستكون تافهة، أو بالأحرى ثقيلة.

كان الاستقصاء بحسب لاورا لا يناسبها: خرجت كمحبوبة، ومارتِلو كمُحِبّ. سُمّيَت فِليسا محبّة، وأرتورو الذي كان يشكو من التصويت، كمحبوب. أمَّا بالنسبة إلينا والتي كنتُ أنتظر تشخيصها على أحرِّ من الجمر، فقد صُنِّفَ راميرو كمحبوب وأنا كمُحِبَّة.

ـ هذه اللعبة سمجة ـ قال راميرو.

كنتُ أتساءل لماذا ما من أحد يريد أن يُعْتَبَرَ محبوباً. ثمَّ بقيتُ بعد انتهاء السهرة على السطح ووجهي إلى السماء الفسيحة المماثلة لتلك التي طالما رآها ويراها الكثير من المحبّين والمحبوبين وسيذهب معها أحدُ المحِبِّين. تذرَّع راميرو بالاستيقاظ باكراً في اليوم التالي لينسحب مودِّعاً. رحتُ أفكِّر ببرهان هذا الحب الخطير. سمعة المحِبِّ أفضل، إنّه المعذَّب الأكبر، الخاسر الأكبر؛ على الغطاء الأخضر يُقامِرُ بنفسه كاملةً مقابل بعض البيزيتات:ربحهُ بعض البيزيتات على حساب حياته ليس ربحاً. إنَّه المساعد، المحرِّضُ، الكريم... وماذا لو كان أيضاً المطالِب، الذي ما إن يُفتتح اللعبُ حتى لا يعود يتطلَّعُ إلاَّ

للبيزيتات التي يخاطرُ بها الآخر، وما إن يكسبها حتى يتطلّع للمزيد والمزيد، ثمّ المزيد؟ وماذا لو أنّ المحبّ امتلكَ في لحظة معيّنة الكفاية الذاتيّة؟ المحبوبُ ذريعة الحبّ وباعثه، ها قد بدأت المشاعر مسيرتها، وما عاد المحبوب ضرورياً، تكفي آثاره. الألم، الذكرى، رعشة الذكرى، لقد استُعمِل. المحِبُّ لا يحتاجُ إلى البراهين، يفيض عنه حبُّه، حبُّ المحبِّ ذاته، المحبُّ يصلُ، يُقلِّدُ ويكسو المحبوب بملابس يأتي بها معه: أدثرة، مطرّزات، ذهب، شموع، كما لو كان على بعدِ خطوة من عذراء أندلسيّة. ما إن ينتهي ذلك حتى يجمع ثرواته ويمضي بحثاً عن صورةٍ أخرى يغطّيها بالجواهر، بالذهب، يعبدها... المحبُّ ـ كنتُ أفكّرُ ـ يتعافى ذاتياً، لأنّه يستخرج قوّته من ذاته. بينما المحبوب الذي يتلقّاها من الآخر، يفقدُ هويّته، ويتآكل إيمانه بالعالم وبالوعود اللامتناهية. المحبوبُ لا دواء له، لأنّه انعكاس ضوءٍ، لأنّه تابعٌ. إذن من هو المعبودُ ومن هو العابد؟ من هو الجلاّدُ ومن هو الضحيّة؟ كان يذهب بالنوم عنّي موضوعٌ لا يؤثّرُ في النهاية عليّ. أولم يكن يؤثّرُ عليّ آنذاك.

قبلَ أن نغادرَ السفينة التي رسونا عليها ليلتين، قدّموا لنا حفلةَ وداع. نصحونا بالحضور مُقنّعين كمصريين ووضعوا تحت تصرّفنا أدوات الزينة والملابس. كان راميرو في غاية الجمال، على الرغم من أنّ وزنه ازداد بضعة كيلوغرامات منذ تزوّجنا، يرتدي لباساً مختلطاً، كان يجسّدُ بجلده الأسمر وشعره الأشقر الخلاسيّ حُسن الطلعة. بتأمُّلِهِ فكّرت أنّ مصر بالنسبة إلينا كانت أطهر من اللازم. ربّما فكّرتُ بالشيء ذاته كليوباترا ما، اعتقدت أنّها تتخفّى تحت قناع، ولم تكن غير بدينة خان الخليلي. داعبتْ راميرو طوال الليل، مُلحّةً وعارضةً نفسَها عليه، على الرغم من أنّه استخدمني كترسٍ واقٍ. تفرّغت فِليسا ولاورا، اللتان بدتا كمنشدتين في أوبرا عائدة، على محاصرة فتيين لم يقبلا قط الانضمام إلى بقيّة المشاركين من المجموعة، وكانا بالنتيجة اثنين من اللوطيين منسجمين مع بعضهما بعضاً بشكل رائع، وكان بودّي أن أعرف من المحبُّ ومن المحبوب ـ لأنّ جسديهما لا يتكشّفان عن ذلك ـ.

في صباح اليوم التالي وبينما كنّا ننتظر الطائرة في المطار الصغير واللطيف خطر للاورا أن تحدّثنا عن خطاب أرسطوفانس في وليمة أفلاطون. وكان الذنب ذنب راميرو ونحن نتناولُ قهوة مريعة حين علّقَ باشمئزاز عزوناه إلى الطعم الكريه:

ـ يااللاشمئزاز الذي يسبّبه لي هؤلاء اللوطيون. أكرههم كراهية جسديّة.

كان الفتيان يتسلّيان للتغلّب على الانتظار متأبّطاً الواحدُ منهما ذراع الآخر، دون أن يزعجا أحداً.

توقّفت لاورا التي كانت تتهيّأُ لتبلّل قطعة حلوى مشكوك في أمرها بالقهوة الشهباء وقالت:

ـ شيءٌ واضحٌ، يا بُني. إذ حين بزغ فجرُ العالم، كان الجنس عند الإنسان ثلاثة: رجال ونساء ومِخناث، والمِخناث رجل وامرأة في آنٍ معاً. كان للإنسان آنذاك شكل كرويّ، كما لو كان اثنين من إنسان اليوم متحدين من جهة الصدر، مستديرَ الظهر والخصرين وله أربع أذرعٍ وأربع أرجل ووجهان. كان الجنسان متماثلين تماماً إلاّ عند المخناث، فقد كان جنسهما موجود على الجوانب الخارجيّة من الكرة، لكنَّ هذه المخلوقات لم تحسن السلوك فقرّرت الآلهةُ معاقبتها مقلّصة قوّتها. شطرتها من المحور، بالمعنى الصارم للكلمة، فخرج من ذلك الإنسان انسانان، رجلٌ وامرأة. واضطرّ زيوس وأبولو أن يُجريا عمليّاتٍ جراحيّة تشكيليّة معقّدة لاستئصال ما كان زائداً: أوجدا السرّة كترقيعٍ يجمع الجلد وأدارا الرأسَ، لكنّ ونظرا لشطر تلك الطبيعة شطرين، كانَ يعانق كلُّ نصفٍ النصف الآخرَ ويموتان جوعاً وخمولاً، إذ ما من أحدٍ منهما قَبِلَ القيامَ بأيِّ عملٍ بمعزلٍ عن الآخر. وهذا ما أجبر زيوس على الإشفاق لحالهما فنقل من الظهر أشياء كلٍّ واحد إلى حيث نراها اليوم، على الرغم من أنّهما لا يكادان يسمحان لنا برؤيتها. منذ تلك النقطة والساعة راح يبحث كلُّ نصفٍ بمتعةٍ عن نصفه المتمّم: مثل نصفي برتقالة. وبالنتيجة فإنَّ من كان مخناثاً يبحث عن الجنس المختلف، لكن من كانوا رجالاً فقط، أي أكثر رجولة من الآخرين ومن كانوا نساءً فقط فإنّهم يبحثون عن النصف الذي ينقصهما من الجنس ذاته. أي أنّني، يا راميرو، لا أجرؤ على تجريدهم من الأهليّة، لأنّهم ليسوا رجالاً

أو ليسوا نساء بما يكفي، والذي يحدث لهم هو أنّهم مختلفون عنك تماماً من الناحية المعاكسة...ثُمَّ وبما أنّكَ كاثوليكيّ تماماً يجب أن تكون أكثر تفهُّماً. أظنُّ أن الإنجيل يقول إنَّ منازل الأب كثيرة. ولن يكون الأبُ أقلّ من زيوس.

كنّا قد انتهينا من تناول إفطارنا، هذا إذا كان ذلك إفطاراً وكانوا على وشك مناداتنا بصوت عالٍ للصعود إلى الطائرة حين خلص راميرو إلى:

ـ هذا ما يجب أن يكون قد قاله أفلاطون أو أيّ كان على أرضيَّةٍ وثنيَّته. لكنَّ هذه الرذيلة الفاحشة مدانة من الكنيسة. وحتى لو لم تكن كذلك ومهما برّرتها، فستبقى تسبّبُ لي الاشمئزازَ الكثير.

نظرتُ إليه مندهشةً.

الطفلان في نهاية هذا الأسبوع حزينان. ألحظُ هذا في وجهيهما: الطفلُ الأشقرُ وأبيضُ الجلدِ كفايةً يراقبُني حين يظنُّ أنَّني لا أنظرُ إليه. أراهُ عبر مرآةٍ أمامَ الأريكة عالقاً بي. أناديه فيخفض عينيه ويتظاهر باللعب بشاحنةٍ صغيرة. الطفلةُ الأكثر سمرة تُعانقُ دميتَها كما لو أنَّها لا تملكُ في هذا العالم شيئاً غيرها. أشفِقُ عليها. جلستُ على الأرض وناديتهما ليأتيا إلى جانبي. إسبانيَّتهما ضعيفة جدّاً، ومع ذلك حاولت أن أحكي لهما حكاية، ومن ألف ليلةٍ وليلة بالضبط، مُعيدةً إليهما بهذا الشكل شيئاً هو لهما أكثر ممّا هو لي. ألاحِظُ أنَّهما لا يعيراني انتباهاً وأنَّ عيونهما تتّجه إلى بابِ الشقة. ينتظران والدهما. أودُّ لو أستطيع القول لهما كم أنا متلهِّفة إليه أيضاً. أظنُّ أنَّني لا أعني لهما شيئاً، أو ما هو أسوأ من هذا: أُجسِّدُ سببَ آلامهما الصغيرة ـ ولماذا صغيرة؟ ـ آلام ابني أبوين مُنفصلين. كذلك بودّي لو أقول لهما إلى أيّ حدٍّ كانا وما يزالان بالنسبة إليّ مثلَ قرحةٍ مضنية، وكم سأكون سعيدة لو لم يوجدا (كما يقولان لي بإشاحة وجهيهما عنّي.) لكنَّني أراهما اليومَ في غاية الحزن. وحزنُ الأطفال يسبّبُ لي كآبةً رهيبة... آخذُ الصغيرة وأشدُّها إليّ كما تشدُّ هي لعبتَها. لا أدري ماذا أفعل كي أُسلِّيهما. بجلوسنا، نحن الثلاثة، على البساط بألوانه التي لنبيذٍ بورديٍّ

شعرنا بأنّنا معاً ووحيدان. ما كانا ليعرفاني ولا أنا لأعرفهما لولا يمام. إنّه أداة اتصالنا الوحيدة: ليس عبثاً أنّ اسمه يعني الفريد.

كم أشعر بهذا المساء طويلاً. أُطِلُّ من نافذة الصالون المستطيلة، فأرى المرآبَ غير مزدحم كثيراً هذا اليوم السبت.

ـ هنا كانت حديقة ـ قال لي يمام في أوّلٌ يوم.

من كان سيظنُّ أن مشهدي اليوميّ في هذه المدينة التي حلمتُ بها وتملؤها هالة جلالة وغموض، المحسودة أكثر من مدن التاريخ كلِّها، سيكون مرآباً؟ أبتسمُ، لأنّني لا أستطيعُ عملَ شيءٍ آخر. أفتحُ النافذةَ، أرفع الطفلين إلى كرسيين ونبدأ باختيار سيّاراتٍ، نفاضِلُ بينها ونبدّلها. لم نسمع البابَ يُفتَحُ بسبب الضجيج في الخارج. يصلُ يمام ويعانقنا نحن الثلاثة.

تَطاولُ ساعات الفراغ الرهيب هو الذي جعلني أُقرِّرُ العملَ في وشقة، والذي عليّ أن أُقرِّره سريعاً هنا.

مَللُ تلك المدينة وأمانة سرِّ المعهد (التي كانت لها صواعدها ونوازلها، توتّراتها وصعوباتها، لكن فقط إذا ما نظر إليها عن قربٍ ويوماً بيوم) جعلت العام التالي لزيارة مصر يمضي سريعاً. إذ حينَ جاءت عطلة الصيف الجديدة باغتتني. يبدو أن الملل يمطُّ الوقت كما لو كان من مطاط، ويجعله غير محتمَل. هذا إذا ما تحمَّلته ريثما يجري، وما إن يجري حتى يبدو كأنَّ شيئاً خطراً لم يحدث، ينصهر مللٌ بمللٍ وآخر فتنتجُ قطعةً فريدةً، على طريقة المرَقَّعيّة التي تلفّنا دون أن نميِّزَ بين القطع فتجري الأيّام كما الأسابيع وكما الشهور.

أبرز ما حدث في تلك المرحلة هو أنَّ نشيط مارس وظائفه الجنسيّة لأوّلِ مرّة. استطاعت طفلة في الطابق الأول من البيت الجديد، متحمّسة للكلب الصغير، أن تجعل والديها يهديانها كلبة من نوع تِكِل. كانت حجّتُها في ذلك زكاماً طويلاً تحوّل في وقت قصير إلى التهاب رئويٍّ خفيف. وبما أنّه كان عليها أن ترتاح وتقوم بنزهاتٍ طويلة في الصباحات أصرّت على أن تكون لها رفيقة صغيرة. سألني الأب على

الدرج، في فترة الإخصاب الثانية، بحذرٍ مُفرطٍ، عما إذا كنتُ لا أُمانِع في تلقيح بِرْتا (هذا هو اسم كلبة التِكِل، لا اسم الطفلة) من نشيط. صعدت بِرْتا بوجهها الخبيث وعلقت بنشيط، الذي سرعان ما شعرتُ بالاعتزاز به وكأنّه ابنٌ لي، حتى قبل أن نتناول أنا وصاحبها فنجان قهوتنا الأوّل. ربّما خفتُ، لا أدري لماذا - أو أدري - أن نُصبحَ أنا وهو أضحوكةً لآخرين. أنجبت الصغيرة بِرْتا أربعة جراء، كانت من الظرافة بحيثُ كنتُ أذهب في الضحى من المعهد كي أتمتَّع بها ويتعرَّف نشيط على ذرّيّته. لكنَّ نشيطاً كان يتشمَّم الجراء بلا مُبالاة. بعد شهرينِ اخترت ذكراً منها - لي الحقُّ به - وقدَّمته لوالدي. افترضت أنّه في كلِّ مرَّةٍ أكثر سيكون وحدة في مصنع شموعه وبيته وأقلّ ضرورة. ربّما وجود كائنٍ صغيرٍ، تابعٍ تماماً له وحاجته للرفقة، يخفّفُ من وحدته. وبما أنَّ الجرو جاء مثل أمّه وكان أشقر، أسماه والدي بكثير من البلاغة تواسون.

منذُ الجمعة الحزينة خطّطنا نحن الأزواج الثلاثة لرحلة الصيف المشتركة. قرّرنا بغالبيّتنا، على الرغم من احتجاج المهووسين بالصحة، أن نذهبَ إلى سوريّة. كانت تشدُّني حلبُ منذ قرأتُ في المرحلة الثانويّة غُطَيل التي تتحدّثُ عن تركيٍّ يذبح نفسه. وكانت دمشق إحدى مدن طفولتي المبجّلة... وكأنَّ القدر راح يشدُّني، مثل حلقات الجذع، إلى حيث ينتظرني جالساً. عندي من جهة أُمّي دمٌ أندلسي، ربما هو الذي كان يدفعني إلى هناك أو ربّما دمي ذاته مستبقاً الحدث: فالدم يعرف أكثر بكثير ممّا نظنُّ، لكنّنا لا نسمح له بأن يقودنا بنبضه إلاّ في مناسباتٍ قليلة.

كانت سوريّةُ بالنسبة لي في غاية الإدهاش. قرأتُ في أمانة السرّ، الهادئة عادةً، كثيراً عن تاريخها. كنّا نطيرُ من أقصى المتوسّط إلى أقصاه الآخر. من بلادٍ هي ذيلٌ لأوروبا لا ينسلخُ عنها وفيها الكثير من أفريقيا، (هو بالنسبة إليَّ نوعٌ من التمرين العام) إلى بلادٍ أخرى، هي أيضاً على حافّة أوروبا وعتبة آسيا. من مساجدنا التي تحوّلت إلى كاتدرائيّاتٍ إلى كاتدرائيّتهم التي تحوّلت إلى مساجد. من تراكم ثقافاتنا إلى تراكم ثقافاتهم. قال لنا طبيبٌ سوريٌّ رفيقٌ لأرتورو في الجامعة بينما كان يحدّثنا عن بلاده:

ـ أشكر لكم ردَّ زيارتنا لكم الذي ستقومون به. فقد جئنا نحن السوريين اليوم لنتعلّم من أجدادنا الإسبان.

الصحيحُ هو أنَّهم أجدادُ الجميع: هناك مهدُ الإنسان، في وقت لم تكن قد تمايزت فيه اللغات والأعراقُ في بابل. هناك المدن الأولى في العالم، وعلى شرف المدينة الأولى تتنافس حماه ودمشق وحلب وثلاثتهنّ مدن سوريّة.

في حماه، التي تعاقبت على أرضها نيّفٌ وعشر مدن، أبكاني أنين النواعير التي تلعب بنور العاصي ومائه. كان مساءً ورديّاً، ولخرير الماء هذا اللون وكان نور الغروب مسموعاً. هضبةُ حلب الرماديّة (الشهباء)، حيث خيَّمَ إبراهيم، تقوم على أنقاضِ حضاراتٍ أقدم منه بكثير. ودمشق المتقلّبة، التي لا تتبدّل، الحيّة كالحياة والمتكيّفة معها أكثر من روما وبيزنطة (ارتعشت يدي وأنا أكتبُ بيزنطة) هي الحيَّة المنبعثة من ذاتها...

هذا تقريباً كلُّ ما قرأتهُ. اليوم يقوم في مقبرة حلب الأولى ملعبٌ لكرة القدم، وفي قلعتها المجيدة مسرحٌ. أمام لوحة سور دمشق من حيثُ هبط القديسِ بطرس، بعد عودته إلى رشده، توجدُ مدينة ملاهٍ... على الرغم من كلِّ شيءٍ فكلُّ شيءٍ باق في الأعماق. زرنا في يوم دافئ الشمسِ أوغاريت: بين أنقاضها تغفو ثلاثة آلافٍ وخمسُمئة سنة، من هناك خرجت الأبجديّة الأولى. اشترت لاورا نسخة عنها: نوعاً من السبّابة الصلصاليّة، نُقِشَ عليها ثلاثون حرفاً. انفجرت لاورا المكتبيّة، وبين يديها النسخة، بالبكاء.

ـ لا تكوني غبيّةً ـ قال لها مارثِلو. انظر ماذا حدث لها الآن... لو عرفتُ ما كنّا أتينا.

ما هزَّ مشاعر راميرو كان العمود الذي عاش فوقه القديس سمعان الصحراوي العمودي، هذا القذر الذي عاش اثنين وأربعين عاماً وهو يُلقي بقاذوراته على أمثاله. إنّه بين معابدِ واحدةٍ من المدنِ العديدة الميتة.

ـ هذا كلّه يشبه بعضَ التمارين الروحيّة ـ كنتُ أُتمتِمُ ـ. مثل قراءة الكمبيس. كلّ شيءٍ يمرّ «مرَّ السحاب، السفن والظِلال» كنتُ أقول هذا بتفخيم وكأنّني أنشدُ شيئاً لآمادو نيرفو، بينما أُفكّرُ بأولئك العمالقة

الذين أشادوا أبنيتهم للأبديّة. لأنّه ما من شيءٍ ـ لا الحبُّ ولا الحروب ولا الحياة ـ كان سيختلف عن أشيائهم... ولم يبقَ شيءٌ مما فعلوه غير الإدهاش. كيف لم ينتبه راميرو إلى أنَّ الآلهة مضت، ذهبت، الواحد بعد الآخر، دون أن تترك أثراً غير ما صنعه بعضُ البشر باسمها: بعض البشر الفانين مثلها، لكن ليس أكثر منها.

هذا ما بقيتُ أفكر فيه حين نهضنا قبل الشروق في تدمر، لنرى خيوطَ الشمسِ الأولى تداعب الآثار الرشيقةَ والذهبيَّة في تلك الواحة. معبد بعل، المقابر البرجيّة، القبور، القصور المتهدّمة، الشوارعُ، السوق، الساحة العامّة، المسرح، الصحراء المتربِّصة حولها... ما الذي بقي من كلّ هذا؟ الشمسُ والريح. البشرُ ابتدعوا آلهتهم ومنحوها أسماءً وطقوساً ـ كنتُ أقولُ لنفسي دون أناقش ذلك مع راميرو ـ وفي النهاية كلُّ الآلهة كانت إلهاً واحداً: تعطُّش عَبَدَتِها في مواجهة تعطّشِ أعدائهم، لأنَّ الإنسانَ، لا الآلهة، أسوأُ عدوٍّ للإنسان، ابتدعها ليحمي نفسه من نفسه.

انتبهتُ إلى شيءٍ أخويٍّ تماماً في تلك الرحلة. كأنَّ العربَ الأندلسيين يهمسون في عروقي بصلوات مبهمة. لا شيء يموت كلّيّاً، لا وجود للنسيان. آمنت آنذاك وما زلتُ أومن بأنّنا مجبولون ممّا ننساه ظاهريّاً.... كنتُ أنظرُ إلى نفسي في مرايا حمّامات الفنادق وأتساءلُ: من أين لك هاتان العينان السوداوان، هذه الانحناءات الفريدة في الأجفان، هذا الفم النهم، الشعر الفاحم، هذا التوقُ المتأجّج للانتصار والاستمرار على الرغم من الكروب؟ فهمتُ زنوبيا ملكة تدمر، وأحسستُ بها خالدةً أكثرَ من أعمدة بيتها المنهارة، حيّة أكثر منّي، أنا نفسي. عندئذ كنتُ أنظرُ إلى عينيَّ بثقةٍ:«ما زال أمامك متسع من الوقت ـ كنتُ أردِّدُ بصوتٍ منخفضٍ جدّاً ـ: انتظري.» كان راميرو بطريقةٍ ما على حقٍّ: فقد كانت تلك الرحلةُ مفيدةً لي أيضاً كنوعٍ من التمارين الروحيَّة.

لم أستطع قط أن آكلَ وحدي: أشعرُ بغصّةٍ في معدتي. وحين لم أكن أجدُ بدّاً من ذلك في وشقة، كنتُ أسلق من حينٍ لآخر نيِّفاً وعشر بيضات، وعندما تحين الساعةُ أتناول بيضة وكأسَ لبنٍ وقوفاً كيلا

أنتبه إلى أنَّني آكلُ. لم أرضَ قط أن أستغلَّ وجود ثقبٍ في وجهي لأدخل فيه أشياء بالشوكة أو الملعقة أو الكأس. وإذا لم أجِد أمامي من أكلِّمه أو أهتمّ به فإنَّني لا آكلُ. كنتُ أنا ونشيط نأكلُ كلٌّ واحد حصَّتَهُ، ونشيطُ يأكلُ وقوفاً مثلي، ينتهي فيلعقُ كأسَ لبني. هنا يحدث معي الشيء ذاته... بل أسوأ، لأنَّ نشيطاً ليس معي. أشتاقُ إليه حين أكون وحدي. أشتاقُ إليه وإلى يمام، لكنَّ كلبي لن يأتي ويمام يأتي مع أنَّه يتأخَّر دائماً، ويأتي بعد الانتظار، حين ينفد صبري لكنَّهُ يأتي أخيراً. الآنَ مثلاً.

راميرو، زوجي، الذي صارت تربطني به صداقة مقبولة، بدأ يفقد شعره ويسمن. بهاءُ سنواته القليلة الماضية بهت قليلاً. بقي الذين عرفوه فيما بعد يجدون فيه نموذجاً رائعاً، لكنَّنا نحن الذين عرفناه في أوجه كنَّا نلتفت إلى الوراء، نتذكَّرُ كيف كان فلا نخلو من الإحساس بالتأسّي، كما قالت لاورا ذات ليلة:

ـ الأشخاص الذين لهم أجسادٌ مثاليّة، يسمنون إذا ما أهملوا أنفسهم. سرُّ الجمال في معيار الأشكال الدقيق، فلا يكون الواحدُ ناحلاً مثلَ مِلْوَقٍ، ولكي تكون الأشكالُ جميلة عليها أن تلتحمَ؛ إذ ما إن تجمحَ حتى يظهر التشوّه.

ـ إذا كنتِ تقولين هذا لي فإنَّني أشكركِ ـ علَّقت فِليسا، التي كانت تَعْتَبِرُ دائماً بأنَّها المعنيَّة ـ لكنَّها ملاحظة جاءتني متأخِّرة. ـ تنهَّدَتْ ـ على كلِّ الأحوال شكراً لك على تذكيرك لي بأنَّني كنتُ منذ زمن غير بعيد مثلَ قطار.

على الرغم من أن راميرو كان سبّاقاً، فهناك عمر يتطلَّعُ فيه الرجالُ إلى أن يتلذَّذوا بالطعام ويحاطوا ببعض الترف المتيسِّرِ إلى هذا الحدِّ أو ذاك. ربَّما استسلم راميرو لهذه الملذَّات لعدم وجود أخرى. كان يهتمُ جدِّيّاً بأن يكون البيتُ حسن التجهيز، فيه أزهار ـ خاصَّة حين يكون عندنا مدعوّون ـ والطعامُ طيِّباً والنبيذُ حسنَ الاختيار.

- الشيء الوحيدُ الذي تبقّى لنا في هذه الحضارة الماكرة التي كانت من نصيبنا هو نوعيّة الحياة.

كلُّ ذلك بدا أحياناً صادماً بالنسبة إلينا، نحن الذين كنّا نعرف بعضنا بعضاً منذ زمنٍ بعيد. كانوا يتّهمون راميرو بأنّه متحذلق. لم أكنْ أعيّره بهذا الموقف، فقد آمنتُ دائماً بأنَّ على كلّ إنسانٍ أن يعمل في كل لحظة ما يحلو له، على ألاّ يضرَّ بأحدٍ.

في تلك الفترة اشترى تلك السيّارة، الملفتة للانتباه جدّاً: علامتها، حجمها ولونها الفضيّ، الذي جعل منها وحيدة نوعها في وشقة وفاضحة. «رأيتُ زوجَكِ في ساحة لوبِّثْ أليوّ.» أو «راميرو كان أمام الفندق.» فأتساءلُ ماذا كان يفعل هناك. حتّى انتبهت إلى أنَّ ما يراهُ الناسُ هو السيّارة. الحقيقة أنّني لم أكن أحبُّ أن يُعْرَفَ مكانُ وجودي في مدينة مثل وشقة، التي يصعب التخفّي فيها أصلاً، لكنّني لم أعترض على نزوة راميرو - بل لم يخطر لي ذلك -.

أسوأُ ما في تلك السيّارة هو أنَّ باستطاعتها السير بسرعةٍ شيطانيّة. أعرفُ هذا الانتشاء بالسرعة - بمدلوله الواقعي والمجازي - شعرتُ به مع راميرو في بعض المساءات التي كنّا نخرجُ فيها من المدينة في الطريق إلى أوربِسا أو الحدود، أو حين كنّا نصل في أقلّ من نصف ساعة إلى سرقسطةَ، مُخلّفين وراءنا مقالعَ المدور، التي نراها ولا نراها، بحجّة فيلمٍ أو عصرونيّة أو زيارة، فأتوسّله دائماً ألاّ يسرع إلى ذلك الحدّ، مع أنّني في أعماقي أحبُّ السرعةَ مثله.

إلى جانب كلّ هذا جاءت فِليسا تحدّثني - حتى الثمالة - عن قارئة ورق لعبٍ أستوريّة، تدعى ثِلينا، التي كانت تستشيرها في بعض المناسبات. وبما أنّه لم يكن عندنا الكثير من التسليات بدا لي مسلّياً أن يتنبّؤوا لي بالمستقبل. لا يعني هذا أنّني أومن بالتبصير، لكنّني أيضاً لا أتخلّى عن الإيمان به، أقبل بإمكانيّة أن يكون هناك من يستطيعُ أن يُطلّ من فجوةٍ ما على المستقبل، أو أن يملك طاقة أكبر من غيره أو أن تكون أوراقُ اللعب أو أيّ إجراءٍ آخر وسائلَ يُنْقَلُ إلينا من خلالها بعض

النصائح. قادتني فِليسا إلى البيت. وحين أشارت إليّ ثِلينا بالدخول إلى غرفة المقدَّسات، مكثت هي بانتظاري في الصالة ـ المفرطة في التكلّف والمليئة بالجلود المزيَّفة والأقنعة ـ.

كانت قارئة الورق امرأةً نظيفةً، صغيرة الحجم، بيضاء، قصيرة الشعر، متورِّدة البشرة، ترتدي لباساً أسودَ يعلوه بعض اللمعان، عاجيّة العنق واليدين. كانت الغرفة التي قرأت فيها حظّي صغيرة أيضاً: تتّسع لطاولة طيٍّ وكرسيَّين صغيرين وأشياء أخرى قليلة. في جانب منها رفٌّ عليه قلب يسوع وشمعتان مشتعلتان، على الطاولة غطاء مستدير من المكرميه ومصباح طاولة. تكلَّمنا لعدّة دقائق. سألتني عما إذا كنتُ من وشقة، وأؤمنُ بالورق وعما إذا كانت أسرتي كلّها أراغونية... ثمّ وبعد أن حقَّقت انطباع الفطنة والملاءة التي تريدها، أطفأت نور السقف وتركت المصباح الذي ينير الطاولة، فرأيت يديها بشكلٍ أفضل، كانتا شاحبتين جدّاً وغليظتين، زرقاوي العروق مشذّبتي الأظافر المطليّة بطلاء شفّاف، تضعُ في اليمنى خاتماً مربّع الياقوتة. أخرجت الورق الذي لفّته بحريرٍ بنفسجيٍّ، رفعت الغطاء وغطّت الطاولة بقطعة حريرٍ أخرى مماثلة. أمرتني بخلط الورق، أخذَتْهُ وسوَّته بضربتين متقنتين جدّاً.

ـ اقطعيه بيسراكِ ـ فعلتُ ـ. المسي المجموعتين.

ثمّ وزّعت الورق إلى عددٍ من المجموعات وراحت تكشف الورقةَ الأولى من كلٍّ منها.

ـ اسمحي لي أن أقول لكِ، يا آنسة، (أو بالأحرى، يا سيِّدة، أليس كذلك؟) أنّكِ لستِ سعيدة جدّاً. لكن لن يمضي وقتٌ طويل كي تتبدّلَ الحالة... في حياتك شخصٌ أشقر وآخر أسمر. صدِّقيني، هذا ما يقال دائماً، لكن في حالتك واضحٌ تماماً، أنا نفسي أرتبكُ من رؤيته بكلّ هذا الوضوح... ثم إنَّ هناك امرأة أو سيكون هناك امرأة قريبة منك لا تكنُّ لك ودّاً كبيراً. أرى أسفاراً. يظهرُ في واحدٍ منها الرجلُ الأسمر. سيصيبُ الأشقر شيءٌ ما ـ كما لو في سفرٍ آخر ـ. هناك خطر، لكنّك تتجاوزينه. حسن، في الحقيقة يوجدُ خطران، الماديّ تتجاوزينه، أما الآخر فهذه الورقة تقول لي إنّك لن تستطيعي ذلك ـ كانت في يدها ورقة خمسة سباتي ـ، لأنَّ هذه الورقة له، وليست لك. آس البستون يُحدِّدُ

مرحلة جديدة في حياتك: هاهي. ستحصلين على كثيرٍ من الرضى، وستبدو لك حياتك الحالية التي تعيشينها مثل الكذب... هذه ـ ترفعُ شابّ الكوبّا ـ لا تعجبني كثيراً. عليك أن تكوني حذرةً جدّاً في الحياة التي سترمين بنفسك فيها... مرافَقَة ـ شدَّدت على الكلمة ـ أليس عندك أولاد؟ أقرأ هنا بأنّك ستملكينهم. لا تعجبني هذه الورقة ـ أصرَّت لامسةً بإصبعِ ورقةَ الشاب ـ اقتصاديّاً حظُّك كبير، سيأتيك زمن رائع جدّاً. الصحةُ رائعة أيضاً ـ ترفع أوراقاً بوقار ـ آس آخر ـ آس سباتي ـ حياتك لا تعرف الحدود الوسطى، يا سيّدة. ستعرفين أقصى الأشياء ـ كانت تنظر إلى عينيَّ ـ: نأملُ أن يكون لصالحك. لكّنك تمضين إلى أقصى النتائج دون تبصُّرٍ: ما أشجعكِ. انظري، خرج الآس مقلوباً. هذا يعني أنّه سيكون لك ذرّيّة.

ـ هل سيتأخَّرُ هذا كثيراً؟

ـ الابن؟ هذه الورقة تقول لا. ومع ذلك عليَّ أن أقولَ لك إنَّني لا أقدِّرُ الزمن بدقَّةٍ كبيرة. في الوقت الذي أستطيعُ أن أضمنَ لكِ بأنَّ ما أقوله لك سيحدث، لا أستطيع التنبّؤ فيما إذا كان سيتأخَّر سنة أو أكثر بقليل. الشاب كوبّا يؤكِّدُ أنَّ الولادة سهلة. دعينا ننسَ تسعة البستون هذه...

ـ ولماذا؟

ـ لأنَّ الورق لا ينسجمُ دائماً بعضه مع بعض. إنّه مثل الأشخاص: يتناقضُ في بعض الظروف... هل عندك سؤال محدّد تسألينه؟ ـ وأضافت دون أن تنتظرَ جوابي ـ اخلطي الورق من جديد.

ـ هل تستطيعين أن تتوسَّعي قليلاً حول الرجل الأسمر؟ ـ سألتُ وأنا أكرِّرُ العمليّة الأولى.

كشفت ثُلثينا عن حصان كوبّا وأبقت عليه في يدها:

ـ ستتعرَّفين عليه في أحد الأسفار. سيؤثر في حياتك. وكم سيؤثِّرُ! ليس من هنا كما أظنُّ. ـ رفعت سبعة الدينار ـ إنّه إيجابيٌّ بالنسبة إليك، وسيظهر هذا سريعاً في الجانب الاقتصادي. ـ شاب بستون ـ أسمحُ لنفسي بأن أقول لك بأنّ الأمر يتعلّق بشخص خاصٍّ جداً، يا سيّدة: خاص جدّاً وقطعيّ. على الأقل بالنسبة إليك. ـ ثمانية كوبّا ـ هل أتجرَّأ؟ نعم، أتجرَّأ على القول بأنَّ حبّاً سيقوم بينك وبينه. بالتأكيد. ـ خفضت

صوتها ـ مرّة أخرى أس السباتي؟ والآن؟ حبّ، نعم... وحتى النهاية. حتى النهاية. ـ نظرت إليَّ بفضول. كان في عينيها شرر يشبه شرر الإعجاب. ابتسمت ـ قد نكون جعلنا دونيا فِليسا تنتظر أكثر من اللازم. ـ ختمت جامعةً الورق قبل أن تنهض.

في الحادي والعشرين من آذار، بداية الربيع تماماً هتفوا لي من المشفى: وقع لراميرو حادث خطير. كانت السيّارة محطّمة على يسار الطريق، بالقرب من مقالع ألمُدوّر، عرفه بعضُ الجيران، كانوا قادمين خلفه فهتفوا لسيّارة إسعاف. خرجتُ تاركة نشيطاً في غرفة نومي. لم يكن الليلُ قد خيَّمَ بعد.

في المشفى استقبلني أرتورو، الذي أعلمه بعض الأصدقاء بالخبر.

ـ إنّه في أيدٍ أمينة. فترة النقاهة ستطول فهو مصابٌ في عموده الفقري. لا تخافي من جرح الوجه، فهو الأقل أهميّة: الجراحة التجميليّة تقوم اليوم بالمعجزات وستحلّ المسألة... ولا تعكّري مزاجك، ياعزيزتي دِسي، فخلال فترة قصيرة سيعود إليك زوجك.

دخلت إلى غرفة العناية المشدّدة. كان راميرو ما يزال فاقدَ الوعي، مغمض العين الوحيدة الظاهرة؛ الضمادات تغطي رأسه، كأنّه ينام على فراش من جصّ. أمسكت بيده، كانت مليئة بالخدوش. تولدٌ عندي انطباع بأنّه لم يبق شيء سليم في جسده.

ـ هل أستطيعُ البقاء هنا؟

ـ من الأفضل أن تخرجي، يا سيّدة. لن تستطيعي فعلَ شيءٍ هنا. سنهتف لكِ حين يعود إلى وعيه.

في الممرّ كانت تنتظرني لاورا وفِليسا. عانقتني فِليسا وراحت تبكي فأجابتها لاورا.

ـ غبيّة. ستظنُّ دِسي أنَّ راميرو أسوأ حالاً ممّا هو عليه. ـ داعبتْ وجهي ـ. تحدَّثتُ مع ثوريتا، خبير الجروح في المشفى فطمأنني. عنده عمليّة، لذلك هو غير موجود هنا. لكنّه كلّفني بنقلِ ثقته المطلقة بأنَّ كلَّ

شيء شيجري على أحسنِ وجه. فالحادثُ كان من الممكن أن يكون أسوأ.

ـ الأطباء يقولون هذا دائماً.

ـ وهم دائماً على حقّ.

كان الوقت فجراً حين خرج من غيبوبته. كان ما يزال مليئاً بالأنابيب والأمصال والضمادات. لكنّه كلّمني.

ـ لم يحدث شيءٌ، يا بِسي. لا أعرف كيف حدث ذلك. كان طريقاً مستقيماً...

ـ دعكَ من هذا الآن. ارتحْ. ليس عليك الآن إلاّ استعادة عافيتك.

تركتُ عملي في المعهد. كلّمت نشيطاً بجدّيّةٍ، هو الذي لم يعتد على البقاء وحيداً. فأرسلته مع والدي، على الرغم من إزعاجه لهُ، لأنّ قليلَ الحياء راح يعلّمُ ابنَه كلّ أنواعِ الغشِ والخيانة. كنتُ أُمضي الوقتَ بجانبِ سرير راميرو.كانت أيّاماً طويلةً لم أستقرّ فيها عمليّاً في مكان.

سمحوا لي أخيراً بحمله معي إلى البيت. كان، وهو الذي لم يمرض قط، مريضاً سيّئاً جدّاً: معتكر المزاج، مُضْجِراً وشكّاءً؛ لا يصبحُ ساحراً إلاّ عندما يأتي رؤساؤه لزيارته ويتظاهر بالإذعان. وكذلك حاله مع الأب ألونسو الذي أخذ على عاتقه الاهتمامَ به منذُ البداية ـ طبعاً روحيّاً فقط ـ وجعلَهُ يستمع إلى قدّاس الأحد في التلفزيون. أمّا أنا فقد نصحني بصوته اللين بالصبر.

ـ وعليك أن تنصحي به راميرو. فهو أقل المرضى الذين رأيتهم في حياتي صبراً.

وضعنا له في الغرفة سريراً متحرّكاً كي أستطيع إجلاسه دون أن يتحرّك. جرت الأسابيع والشهور ثقيلةً كأنّها قرون. يُفهم من ذلك أنّنا لم نقم في ذلك الصيف برحلتنا السنويّة. تضامنت لاورا وفِليسا جزئيّاً مع ركوني وقررتا قضاءَ عطلتهما في قادِش، نصف في الجبل ونصف على الشاطئ. عادتا تحكيان العجائب.

ـ يجب أن يجبرونا على معرفة بلدنا قبل الخروج منه ـ كانتا تقولان للجميع.

ولكي أفسح المجال للأطبّاء والخوارنة (الخوارنة بكلّ ما في الكلمة من معنى) حملتُ كلّ أشيائي إلى غرفتي: ثيابي، كتبي، ذكريات ما قبل زواجنا... فتحوّلت إلى غرفةٍ عازبة أمارسُ فيها حياتي، أثناء راحة راميرو. تحوّلتُ إلى ممرِّضَةٍ مُضَحِّيةٍ، تستفيد من ساعات فراغها القصيرة لتستعيدَ عافيتها (بكل ما في الكلمة من معنى أيضاً: عافية الراحة والعودة للقاء). إذا نام راميرو، خرجتُ على رؤوس أصابعي من غرفته،وإصبعٍ على شفتيّ كي أحذّر نشيطاً - الذي عاد إلى البيت - كيلا يحدث ضجّةً، وذهبتُ إلى غرفتي، مملكتي وملاذي، فلا أشعر بنفسي أفضل إلاّ عندما أدخلها.

ما كنتُ لأستبدلَ تلك الساعات أو اللحظات من الوحدة بشيء، ففيها همتُ مثل طفلة لم تبدأ بعد طريق الحياة الشاق، أبتدعُ أشخاصاً وأحلم يقظةً، مستندة إلى الكتب التي أقرأها بنهم أكبر من أيّ وقتٍ مضى. بحثتُ عن كرسيٍّ هزّاز، لا يعني هذا أنّني أغفو مع اهتزازاته، بل أدخلُ في بلدٍ سرّيٍّ، خاصٍّ بي، لم أحدسه حتى تلك اللحظة، أعلي من قيمته أكثر كلّما تقلصت لحظات تمتّعي به - اللحظات الضائعة -. كنتُ أتحرّكُ إلى الأمام وإلى الخلف ونشيط عند قدميّ متكوّر وغافٍ، والكتاب لحظة في يديّ وأخرى في حضني؛ مرّة أنحني برأسي فوقه وأخرى على ظهر الكرسي، خارج نفسي قليلاً وقليلاً داخلها، حتى إذا سمعتُ نشيطاً أو شعرتُ بحركةٍ في الغرفة المجاورة نهضتُ من جديد لأعودَ إلى عملي.

كان في سمع نشيط حدسٌ تكهّني أكثر من أيِّ شيءٍ آخر. كثيراً مايستيقظ راميرو لحظةَ وصولي فيعتقد أنّني لم أتحرّك من عند رأسه.

- عليكِ أن تخرجي، تستقبلي صديقاتك. فأنت تذبلين هنا، عند قدميّ.

هذا ما كان يراه الجميع:

- بِسي تتصرّف بغيريّة منقطعة النظير.

الأبُ ألونسو نفسه قال لي رابتاً على يدي:

- أنتِ قدّيسة. قدّيسة صغيرة. أعطيكِ مثلاً للتائبات عندي.

جميعهم كانوا يجهلون أنّني لم أشعر، منذ مراهقتي، بنفسي أكثرَ

رضا وأكثر اكتمالاً ممّا أنا عليه. مثل دودة قزٍّ في شرنقتها قبلَ يومٍ من تحرّرها الغامض.

صحيح أنّه كانت تنتابني فجأةً ودون أدنى شعورٍ بالسبب، لحظات فتورٍ ورغبة بالقذف بكلّ شيء. لحظات لا أرى فيها شيئاً يستحقُّ العناء، وأرى حياتي مبعثرة مثل حبّات طوقٍ انقطع خيطه فتحاصرني قضايا بدت لي مرفوضة للأبد، وتستيقظ أكثرُ مشاعري بدائيّة وأنثويّة: يقيني بأنَّ أحداً ما كان ينتبه إلى غيابي ويبحثُ عنّي بولهٍ ـ لم أكن أعرفُ من هو لكنّه لم يكن راميرو ـ، ومن الضروري أن أظهر له، بينما تسقطُ في بيت الموتِ ذاك أوراقُ زمن لا يستعاد ويضيع؛ الرغبة العميقة بأن أعرف أنّني مرغوبة وأرى رغبة جامحة تبرق في عيني ذكر، رغبة تلمسني كيدٍ، حاجتي لأن أفرغ شحنة مأساتي ووحدتي على كتفين قويّين...

تلقيتُ رسالةً من بابلو أكوستا. كتب إليَّ من أمريكا الشماليّة بعد أن علم بالحادث، إذ هو لأسبابٍ تتعلّقُ بعمله، يقلّلُ فيها من أهميّة ما حدث ويشجّعني. أرسل قبلاته لنشيط «مُمَثّلي بجانبك، وأنا متأكّدٌ من أنّه سيحسن معاملتك، على الأقل كما بودي لو أستطيع أنا».

عندما تحسّنَ راميرو واستطاع النهوضَ، صرتُ آخذُ نشيطاً وأهيمُ معه طويلاً في الشوارع. حتى أنّني اضطررتُ دائماً لأن أسألَ أحدَ المارّة من أين سأعود إلى البيت. كانت الشوارع مبلّلة بالمطر وأرى انعكاس الأنوار كأنّها مسامير ملتهبة، أو أرى الشمسَ تشظّي الغروبَ بألوانٍ برتقاليّة على بلّور الواجهات المطلّة على الغرب. شعرتُ كما لم أشعرُ من قبل بفتنة الشارع: حريّة السير بجانب خبب نشيطٍ فقط، المفتون بهذه الحياة الجديدة، الإحساس بأنّني مجهولة في تلك الأحياء المجهولة يقطعها أحياناً أحدٌ يحيّيني أو أحدٌ يُعلّقُ ـ أظنُّ ـ على جنوني في المشي والمشي دون أيّ هدفٍ.

كنتُ أتوجّهُ أحياناً على غير هدىً إلى مناطق يسمُّونها سكنيّة رأيتها دائماً من السيّارة. وأحياناً أخرى إلى أحياء أكثر تواضعاً، أهبطُ مثلاً إلى بورتينا سان بيئنتٍ، ناظرة إلى الأرضِ كيلا تتقصف

رقبتي، وأتوجّه من السور الذي ما عاد موجوداً بعد عبوري النهر إلى حيّ بِرِبِتوو سوكورّو، حيثُ لم أذهب من قبل أبداً، أتسكّعُ هناك على أرصفته العريضة غير الأنيقة. أو أزورُ والدي في معمل شمعه ونستمتعُ برؤية الكلبين يتسلّى واحدهما مع الآخر، حتى أسمع قرع نواقيس دير انتقال العذراء القريب، أو أجوب دروب طفولتي المفضّلة: التي تتعرّج في الأزقّة التي تصعد وتهبطُ حول الكاتدرائيّة: دونيا بِترونيلا، دونيا سانتشا، ألفونسو أراغون... حيث لا يكاد يعيش إلاّ الغجر وتنبحُ كلاّب كثيرة عند مرور نشيط. طالما أحببت رؤيةَ الموزَ في زاوية ساحة لوس فُورِوس وساحة ليثاما بأكاسياتها الست وعمود إنارتها المثلث الشكل، التي كنّا ننزل إليها من بيدرو الرابع لنخرج عبر شارع سانتشو أباركا إلى ساحة السوق القديمة...

ما أغرب أنّني وأنا أتذكّرُ ذلك الآن أنتبه إلى ما كنتُ أفعله وإلى وضعي النفسي في ذلك الوقت، أو اكتئاباتي ونتائجها. لم أُحلّل شيئاً خلال تلك الأشهر، كان عليّ الاكتفاء بالعيش كما يسمحون لي والدفاع عن نفسي بأفضل ما أستطيع. وتعلّمتُ من الكتب ـ استنتاجاً أكثر ممّا قراءةً ـ حقيقتين: كم من الرجال كتبوا عن روح المرأة دون أن يفهموها مع أن ظروف معظمهنّ مثل ظروفي. كلّ الموجودات يدرن عيونهنّ حولهنّ ليرين ما إذا كنّ سيجدن هبةَ الحبّ. ويفعلن ذلك دون انتباه. إذا كنّا عاميّات وقعن في أيدي هؤلاء أو أولئك ـ وإذا كنّ ـ أتجرّأ على القول ـ مثلي، فهن من يرمي نفسه ليحبّ باتقاد وإذعان ومطالبة وحدها يمكن أن تفسّرَ حظّها العاثر السابق. وهؤلاء لا يكدن يحتجن إلا لذريعة كي ينهضن ويتقدّمن باتجاه ما تفهمن أنّه مصيرهنّ: ذريعة يستطيع أيّ إنسان أن يمدّهنّ بها.

كنت أعرف الخطر الذي تمثّله هذه الحالة وتلك الظروف. لذلك كنتُ أبتسمُ بصمت حين يمدحني الآخرون، وانتهيتُ بالابتعاد عنهم غائصة في أعماق نفسي. جزء واحد فقط من حياتي أعتبره مشابه كفاية لما كان يجري: حين جاءني الطمث لأوّلِ مرّةٍ فاضطلعتُ وحدي بحتميّة الخطر المرعب ـ وحيدة بين والدي وأخي دونما أيّة صديقة حميمة حتى ذلك الوقت ـ ألوذ بأمّي الميتة توّاً فلا ألقى أيّ توضيح. وعندئذٍ عرفتُ كما في هذه المناسبة، أنّني معزولة، وحيدة وقويّة في

آنٍ معاً، كريمة وأنانيّة، وشيء في داخلي ـ صوتٌ فكّرت أنّه صوتُ أمّي ـ يلحُّ عليّ: «عيشي، عيشي. هذا هو الواجب الأساسي لأيّ كائن حيٍّ. لا تسمحي لأحدٍ أن يمنعك منه.»

استطاع راميرو أخيراً أن يعودَ إلى عمله. استعمل خلال أشهرٍ عكازاً يمنحه الثقة بنفسه. فقد جاذبيّته قبلها والآن فقدها كلّياً. بدا لي حين رأيته واقفاً على قدميه أنَّ حاله ساءت. فاجأتني في ضوء الخارج القاسي بطانتا عينيه، خدّاهُ اللذان حفرتهما التجاعيد، الندبة الكبيرة التي قطعت وجهه والاستدارة الخفيفة في وركيه لم ألاحظ ذلك خلال وجودي في البيت في مشهد التضامن اليومي.

كان أوّلُ مرّةٍ خرج فيها يوم خرج ليسمع قدّاسَ شكرٍ أقامه الأب ألونسو في سان بيدرو إلبييخو محاطاً بأقربِ الأصدقاء الذين دعوناهم. كان ذلك في بداية الخريف، في صباحٍ رائق، وما تزال تطفو في الهواء نسمة فاترة من تلك التي يقدّمها الصيف قبل رحيله. كنتُ أمسكُه من ذراعه ويبدو لي أنّني أرافق رجلاً طاعناً في السنّ، تربطني به روابطُ عاطفة عميقة، لكنّني لم أعش معه حبّاً متبادلاً قط.

هكذا كان الأمرُ وكان عليّ تقبّله، فهو لا يحتاج للفّ والدوران.

الدفتر الثاني

اليومَ أبدأُ دفتراً ثانياً وأعرف السببَ أقلَّ من أيِّ وقتٍ مضى. لم أُعِد قراءة ما كتبتُ، لكنَّني أظنُّهُ يشبِه تحليق واحدة من فراشات الليل حتى تحترق في الضوء الذي شدَّها من بعيد.

كنتُ جالسةً البارحةَ على مقعدٍ تحت شجرة موزٍ كبيرة، قربَ حدائق الجامعة بجانب شارع باعةِ الكتب القديمة، فسمعتُ كيف كانت الريح تثير احتكاك الأغصان وتحدثُ صوتاً صارّاً. خطر ببالي شيءٌ مماثل: ما كانت تحدثه أرجوحةٌ من أراجيح طفولتي الريفيَّة، في صيف ذهبيٍّ صار مُحالاً، نصبها لي والدي بالقرب من باب بانتيكوسا الخلفي... بينما تنُّورتي ترتفع وتنخفض مع رواح وغدوِّ الأرجوحة فأضحكُ بعصبيَّةٍ وأرى الأغصانَ، وجهَ أبي وجدارَ السياجِ تقتربُ وتبتعدُ، إلى أن أُفلِتَ الرباطُ الذي أربط به شعري وحلَّق لثانيةٍ في الهواء وسقطَ مثل فراشةٍ ميتَةٍ أيضاً. ومع ذلك فالأحداث التي تقع معنا لا تكتسب معنى إلاّ فيما بعد، حين لا يعود بالإمكان تعديلها وتكون قد قالت لنا وداعاً للأبد. هل من علاقةٍ لي بتلك الطفلة؟ هل كانت تلك الطفلةُ سعيدةً فعلاً؟ ترى ما رأيُ بابلو وأخي أغوستين بها؟ هل أنا سعيدةٌ الآن؟ ربّما كنتُ اليوم في واحدة من لحظات الخمود والقنوط، التي غمرتني في مرحلة حادث راميرو، لكنَّني لن أدري بها حتى تنقضي. عندئذ لن تجدي معرفتها، فكونها كانت عابرة لن يعزِّيني. ما من

سعادة غداً تستطيع أن تمحو شقاء اليوم، واقعيّاً كان أو متخَيّلاً.

هذا ما فكّرتُ به البارحة أيضاً، عندما نهضتُ لأعود وقطع عليّ ذكرياتي حادثٌ مؤسف. كان يخرجُ من الجامعة بضع وثلاثون طالباً يحيطُ بهم بعضُ الشرطة. عبروا بي شباباً وشرطة دونَ ما أيِّ عنفٍ في موقفهم أو وجوههم وركبوا في باصٍ، أقلعَ ممزِّقاً الهواء بصفّارة إنذاره وفي الحال عادَ صوتُ المؤذّن ليمزّقه بدعوته للصلاة. لم تتأثّر الحمائم التي كانت تغطّي رؤوسَ الأشجار كالثمار ولا الباعة الكثيرون لما هبَّ ودبَّ بتوقيف الشباب أو دعوة المؤذّن؛ الهواءُ، وحده الهواء تأثّر.

كانت وظيفتي في أمانة سرِّ المعهدِ قد شُغِلَت؛ ما عاد لديّ وقت لنفسي. تعلّمت قيادة السيّارة بكثيرٍ من الجهد، لأنّني لستُ مؤهّلة للأمور الميكانيكيّة. اشترينا سيّارةً عاديّة وصرت أحمل راميرو من المكتب إلى البيت وبالعكس. كانت من أكثر المراحل التي تنزّهتُ فيها؛ تمرُّ أيّامٌ أبقى أسيرُ فيها منذ دخول راميرو في التاسعة وحتى الظهيرة عندما آخذه. حتى أنَّ نشيطاً نفسه، المعتاد على التشرد في الشوارع، كان يتذمَّرُ بعينيه أو بنباحه. تحوَّلتُ إلى سجينٍ يُمنح حريّةً في ساعاتٍ محدَّدةٍ وعليه أن يمثل في أخرى ثابتة أمام السلطات التي تؤشِّرُ على أوراقه. قليلون هم الذين كنتُ أتكلّمُ معهم، اخترتُ شوارعَ لا يعيشُ فيها أحدٌ أعرفه. أدخلُ أسواقاً بعيدةً عن المركز أو دكاكينَ قديمة ما عاد أحدٌ يشتري منها شيئاً، أو أذهبُ إلى سوق الأحذية الصغير أو الأقمشة في ساحة توثينوس. وقد أمرُّ أحياناً بمكتبة لاورا، التي عرضت أن تدفع لي راتباً إذا ما ساعدتها في الصباحات، ورفضتُ: أردتُ البقاء وحيدةً، التحرّك بمفردي، عدم النفاق أكثر. ولم أكن أدري لماذا ولا أسأل نفسي لماذا؛ لم أكن أعرفُ بماذا أُفكّرُ، أو حتّى أنّني أُفكّرُ... ما عدتُ أشعر بذلك السأم. كنتُ وكأنّني تحرَّرتُ ـ ليس بهزّة كتفين بل بتفكيرٍ ـ من ذلك الحمل الثقيل جدّاً الذي كان ما يزال يُثْقِلُ عليّ، واثقة

من أنّه راح يتناقص. كأنّني نفذتُ القسم الأكبر من عقوبة ورحتُ أتأمّلُ عبر القضبان عالمَ حرّيّةٍ كانَ قبل ذلك صعب الإدراك ـ أو ببساطة لم يُرَ أو يُتَصوَّر ـ لكنّني لا سابقاً ولا الآن أستطيعُ القول ما هو سبب تلك الأحاسيس. فللقلبِ أسبابه التي يجهلها العقلُ.

كانت فِليسا قد أنجبت ابنها الثاني. إنها طفلة. لم تتردَّد في تنفيذ وعدها بأن أكون اشبينتها؛ ويكون راميرو بالتالي اشبينها. هو اختار اسمَ دِسيرِهْ.

ـ أولاً وأخيراً يعني ما يعنيه اسم دِسيدِريا.

لم أزعج نفسي بتوضيح أنّ الأمر ليس كذلك، وأنّ أيَّ اسم كان سيبدو لي جيّداً. لكنّني كنتُ على وشك القول لراميرو أنَّ اسمه كانَ صادماً في مدينتنا أكثر من اسمي: فراميرو هو اسم الملك الذي نظّمَ حفلةَ الرؤوس المقطوعة المعروفة بالتسمية الساخرة «ناقوس وشقة»، راميرو الراهب، وهو في هذا يشبه أيضاً زوجي قليلاً. ومع ذلك لم أقل شيئاً. كنتُ في ذلك الوقت كثيراً ما أختارُ الصمتَ، فإذا ما خطرت لي جملة ساذجة أو جوابٌ سريعٌ أو أيُّ تعليق، سكتُّ عليه. تعلّمتُ الحوار مع نفسي وصرتُ في كلِّ مرّةٍ أقل اهتماماً بالآخرين.

اضطُرّتْ فِليسا وأرتورو لقضاء ذلك الصيف في المدينة بسبب المولود الجديد. اقترحت علينا لاورا ومارثِلو الذهابَ إلى تركيّا ـ طالما أنَّ مهووسَي النظافة سيبقيان هناك ـ. ولكي أرفضَ تذرّعتُ بضعفِ صحّةِ راميرو. لم تكن تشدّني تركيّا، بل وأكثر من ذلك شعرت لأوّل مرّة في حياتي بالكسل للخروج من عاداتي: بيتي، غرفتي السرّيّة، كتبي ونزهاتي. لكنَّ مارثِلو ألحَّ: وجد مأوى لنشيط في بيت فِليسا التي كانت تعبده. راميرو من جهته أراد أن يعوِّضني عن تضحياتي برحلةٍ غريبة من تلك التي يَعرفُ أنّها تثير حماسي. منعوني من التذرُّع بأيِّ موضوعٍ محدَّد ضدّ الرحلة أو تركيّا، التي لم أكن أعرفُ عنها شيئاً تقريباً. ولم أحدِّد موقعها كاملاً على الخريطة إلا بشقِّ النفس.لكنّني شعرتُ في لاوعيي بعداء الأوروبيين التاريخيِّ الناتج عن الجهل الذي يقود مباشرة إلى جهل أكبر. كان التركيُّ بالنسبة إليَّ مفهوماً مشوَّوماً،

ومتوعِّداً مجبولاً على الافتراءات غير المتوقَّعة... لكنَّ كان لا بدَّ للزمن أن يبرهن سريعاً أنّه كانت لي أسبابي الكثيرة.

يقضي يمامُ يومين في الخارج. لم يبغِ حملي معه. كان الأمرُ يتعلّقُ، حسبِ ما قاله لي، برحلة عملٍ خاصّة. كما لم يبغِ أن يجعل الطفلين اللذين كان دورهما في المجيء إلى بيتنا، لا يأتيانِ، وبذلك لن أكون وحدي. استطاع يمام إبقاء الطفلين وحيدين معي وأنا وحدي معهما.

قضيتُ قسماً كبيراً من المساء ألعبُ بالكلمات المتقاطعة التي يرسلها إليَّ بعضُ زبائن البازار من أوروبا. التعريفات الذاتيّة تناسبني أكثر من الكلمات المتقاطعة. لا أدري في الحقيقة ما إذا كنتُ أريدُ هذه الكتيّبات كيلا أنسى لغتي، أو كي أتسلى بهذه الصعوبات السهلة، لأنَّ الحلول تأتي في الصفحات الأخيرة، أو لتذكّرني التعريفاتُ بذكرياتي المتسلسلة. كيف يقود بعضها إلى بعض بروابط غير متوقّعة، وكيف تقود مراقبة هذه الروابط بدورها إلى أخرى. لكنّني أتساءلُ بماذا تفيدني الذكريات؟

«هي أحياناً تجارة نظيفة تغطي أخرى قذرة» من خمسة أحرف، لا بدَّ أنّها «تغطية». تخطر ببالي دون ما سببٍ ظاهر دكّانُ سجّادي الصغيرة في الكوسو، فتهرب روحي مني إلى تلك المرحلة التي جمّل فيها السرُّ وأملٌ رقيقٌ، أيّاماً كثيرةً من حياتي... «كلمة تُعبّر مادّيّاً عن الودّ» مؤلّفة من خمسة أحرف. لا، ليست أعطية وأشرعُ أفكّرُ بالكلمة الأخرى، بالبرهان الذي تلقّيتُهُ عليه ـ قبلات ـ وأغتاظ أحياناً حين يصيبني الإعياء من إيجادها، كما في هذا المساء ذاته. كنتُ أقرأ: «ليس معناها الحقيقي، لكن قد تكون مقرون» من المجال على أيِّ شخص التفكير بـ مركوب. ولا يخطر لي أن أكتبَ إلى المحرِّر لأوبّخهُ إلاّ عندما يكون عدد الأحرف أو الترتيب خاطئاً. وبذلك يبدو لي أنَّ العوائق أمام المتقدّمين المصدّقين للعب تزدادُ جرّاء خطأ المحرِّر. أفكِّرُ: يا له من إفراطٍ في الثقة. أشردُ أيضاً بالإفراط بالثقة: من الذي لم يرتكب مثل هذا الإفراط؟ وكلّما كانت الثقة أكبر وأكثر رسوخاً، كلّما

كان الإفراطُ أكبر. ومع ذلك فضميري لا يؤنّبني

تصرخُ الطفلةُ صافية من غرفتها... ذهبتُ، أخذتُها بين ذراعيّ، هززتُ لها ورحتُ أغنّي لها أغنية مهد:

نامي، ياصغيرتي،

نامي، يا طفلتي،

جسدي مهدٌ أهزّه لك.

لم أنجح. فسماعها للغة غريبة أيقظها أكثر. لذلك كلّمتُها بصوت خفيضٍ جدّاً، وكأنّني أحكي لها حكاية غامضةً مهدّئة. ربّما رأت كابوساً، أعرف جيّدا معنى هذا. شيئاً فشيئاً راحت تنام، وأنا رحتُ إلى كلماتي المتقاطعة. والآن أعود إلى هذا الدفتر، الذي أُخْضِعُ فائدته للشكّ ومزيدٍ من الشكّ، على الرغم من أنّ المنفعة ليست هي التي تدفعني إلى كتابته.

يومان دون يمام شيء زائد. بودي أن أنام الآن لأستيقظ يوم الاثنين.

من سالونيك كلُّ شيء كان ورطةَ بِخارٍ، جزرٍ وأشباهِ جزر. أغمضتُ عينيّ. وما إن وصلت حتى كنتُ قد مللْتُ تركيّا تماماً.

حين شرعتْ الطائرةُ بالهبوط في استنبول كان كلُّ ما تبقّى منّي قد انهار. فالطيرانُ كانَ صعباً بسبب عصف الريح ومطبّات الهواء التي جعلتني أئطُ ومعدتي تصعدُ إلى فمي. كانت تسافر في الجناح السياحي مجموعة آنسات من جنسيّاتٍ مختلفة، تمّ اختيارهنّ في مسابقة للجمال في مدريد وجئن للنهائي في استنبول. ملكة الظرافة، ملكة الأناقة، وملكة ما لا أدري ماذا... كنّ قد بدأن منذ نصف ساعة بالتزيُّن، والطلاء وإعادة الطلاء وتضع كلُّ واحدةٍ وشاحها. كنّ في لباس كأنّه للرقص، لأنَّ التلفزيون بانتظارهنَّ في المطار. طبعاً جميعهنَّ شابّات جدّاً، جميلاتٍ جدّاً وغبيّاتٍ جدّاً.

كانت استنبول من الجوّ خالية من السحر: كتلٌ من الاسمنت البارد مكدّسة ومتناظرة مثل الأبنية العسكريّة، مثل أبنية أيّة مدينة كبيرةٍ أو

أسوأ منها، تلال بائرة وجافّة، قوافل من السيّارات على الطرقات... على الأرض علامات وإشارات بلغةٍ غريبة، لكنّها مكتوبة بأبجديّتنا، في حين ظننتُ أنّها ستكون بالعربيّة، فشعرتُ بإهانة شخصيّة. كان ينمو في داخلي استياء مسبقٌ غيرُ عادل: لن يعجبني ذلك البلدُ. تعاظمَ هذا الحكمُ المسبق مع إجراءات الدخول، وبشاعةِ المنشآت وندرةِ عربات الأمتعة وتأخرِ هذه في الوصول على الحزام المتحرّك. كان توتُّري يزداد لحظة بلحظة.

ـ لم أرك قط بهذا الشكل، يا بُنَيَّتي. لا أدري ماذا يجري لك ـ قالت لاورا ـ. فالسفر إلى أيِّ مكانٍ، مهما بلغت فظاعتُهُ، كان بالنسبة إليكِ عيداً. انتظرتِ دائماً عجائب البلد، لكنّك في هذه الرحلة...

ـ لا بدَّ أنّني كبرتُ ـ أجبتُها بشيءٍ من الفجاجة.

ـ مثلي أنا ـ ضحكتْ وأدارت لي ظهرها.

بعد تأخُّرٍ بدا لي دهراً نُظِّمَ الموكبُ. تمكّن مارثِلو منِ تبديل بعض العملة ودفعِ مبلغٍ متوجبٍ يبدو أن وكالة السفر لم تحلّه في إحدى الكوّات. في الخارج لم يكن الباص الذي سيقلّنا إلى المدينة موجوداً. نصف ساعة أخرى من الانتظار. أقنعتُ راميرو بالجلوس فوق إحدى الحقائب. وحين وصل الباص تدبّرنا أمرنا كيفما اتفق. أخذ مارثِلو على عاتقه أمر متابعة تحميل الأمتعة فيه. ساد جوٌّ منِ التوجُّسِ والريبة بيننا نحنُ الأربعة وكذلك البقيّة، مع أنّهم كانوا شباباً وظرفاء. جلست لاورا ومارثِلو أمامنا. أغمضتُ عينيَّ وأسندتُ رأسي إلى ظهر المقعد، لكن بشيءٍ من الحذر. أقلع الباصُ. اجتزنا الأراضي القاحلة التي رأيناها من الجوِّ. عدتُ وأغمضتُ عينيَّ. كان الباصُ صامتاً...

فجأةً ملأهُ صوتٌ ذكوريٌّ ساحر وعميق بقشتاليّةٍ غير محدَّدَة النبرة.

ـ مساء الخير.

كان يتكلّم بمكبِّر صوتٍ، ومع ذلك فوجئتُ بنفسي أُجيبُ «مساء الخير». نظرتُ إلى الأمام. رأيتُ السائقَ وبجانبه رجل آخر. عنقٌ مستدير ونقرة قويّة، ومنبتُ شعر شديد السواد. عاد الصوت الكثيف والحار للكلام.

ـ نحن في بيزنطة، في القسطنطينيّة، في استنبول...

لم أستطع أن أرفع نظري عن تلك النقرة، عن ذلك العنق وذينك الكتفين. بدوْوا جولة، لمحتُ وجهَ صاحبِ الصوت. كنتُ أسمع تنفسي المضطربِ ذاته. بلعتُ لعابي بصعوبة. ماذا كان يجري لي؟ فكلُّ شيءٍ ابتعدَ، كلُّ شيءٍ صُمَّ.

ـ أهلاً بكم.

أصابني دُوار. تقيَّأتُ. جاءني صوتُ لاورا بعيداً جدّاً:

ـ داخت. لاحظت أنّ وضعها غريب...

وجهٌ فوقي، يدان قويّتان على كتفيّ، ابتسامة.

ـ ليس شيئاً ذا أهميّة أليسَ كذلك؟ ـ قال الصوت قريباً جدّاً.

كنتُ وحدي معه. أحسستُ أنّني أذوبُ، اعتقدتُ أنّ تنوّرتي لا تستطيع إخفاءَ ذلك. أغمضتُ عينيَّ خجلاً. اجتاحني يقين بأنَّ أهمَّ ما في حياتي حدث توّاً. كيف يمكن معرفة شيءٍ ما بجلاء كبير؟ كان يقيناً حيوانيّاً، أساسيّاً، سابقاً على أيّ تعقّل، بل ومناقضاً لكلِّ تعقُّلٍ. فتحتُ عينيَّ، ونظرتُ إلى عينيه. نظرتُ إليهما كمن يطلب رحمةً. لم يتوقَّف الباصُ، لكن أين ذهب راميرو؟ كانت ذراعُهُ بجانب ذراعي. تنفّستُ بعمقٍ أو أجهشتُ، لا أدري بينما لاورا تدلكُ بمنديلٍ ورقيٍّ لطخةَ القيء. ظننتُ أنّني سمعتُها تسألُ:

ـ لستِ حاملاً؟

نفيتُ برأسي أنا العالقة بتينك العينين.

ـ شجاعة تحسَّنتِ، شجاعة ـ قال الصوتُ.

لامست يدُهُ خدّيَ الأيسر، رفعتُ يدي إلى المكان الملموس فابتعد في الممرّ إلى الأمام.

كنتُ أصغي إلى الصوت كما إلى موسيقى لا تقولُ إلاّ ما يرغبُ المستمع بسماعه. لم أكن أرغب بسماع شيءٍ مُحدَّد: يكفيني الصوتُ وحده، كثافة ذلك الصوت المدمج الذي يكلّمني وحدي وهو يُطلق في مسمعي جملاً مبعثرة عن تاريخ استنبول:كلامٌ سوقيّ رائع أتلقّاه باضطراب وأبتسمُ. داعبَ راميرو يدي بنعومة.

ـ أرى أنّك استعدتِ عافيتك.

سحبتُ يدي مذعورةً.

ـ نعم.

كان الدليلُ ـ لأنّه فعلاً الدليلُ، ثمّ إنَّ هذا ما قاله: الدليل الذي سيرافقنا خلال الرحلة كلّها ـ يدعى يمام.

ـ ويعني الفريد ـ أضافَ مبتسماً بدوره.

كانت ابتسامته أكثر الابتسامات التي رأيتها في حياتي انفتاحاً وجاذبيّةً. تُعدي، وتجعل الجميع يبتسمون، خلفها صفّان من الأسنان البيضاء والصلدة جداً. فكّرت: «هل يعضّ»، «هل يؤلم إذا عضّ» كان ظهره بعكس اتجاه سير الباص، باتجاهي، واقفاً يسندُ يده إلى ظهر المقعد الأوّل ويمسك بالأخرى مكبّرَ الصوت، مفتوح الساقين قليلاً...

ـ سمّى قسطنطينُ السابعُ ملكُ الشرق آسيا الصغرى أناضوليا وتعني المكان الذي تبزغ منه الشمسُ... أريد لفتَ انتباهَكم أنّنا، نحن الأتراك، أوروبّيون مثلكم ـ ابتسم أكثر، لم يبدُ ذلك ممكناً، لكنّه ابتسم أكثر ـ عليكم ألا تخافوننا. فأوروبا تذبذبت دائما بالنسبة إلينا بين الخوف والاندهاش، وقد جذب الخطر أوروبا دائما... هنا كانت ولادة الحضارة الغربيّة، مع تال ميليتوس، مع أناكسيماندروس، وهيراقليط. هنا وُلِدَت الآلهة، الأبطال والرسل المسيحيون، الإلياذة والأوديسة. وهنا قامت اثنتان من معجزات العالم السبع...

ينظرُ إليّ، أنا واثقة من أنّه ينظرُ إليّ وأنا لا أستطيع إلاّ أن أنظرَ إليه.

ـ القهوة، الرشفة، المُتّكأ، الديوان، الزبيب، كلّها إبداعات تركيّة. ثمّ من هو الذي لم يسمع أو يتذوّق الحلوى التركيّة؟ حمّاماتنا، ياسادة، مشهورة في العالم كلّه. ـ بلى، كان ينظرُ إليّ ـ فحين كنتم ما تزالون في ظلمات العصور الوسطى كنّا نحن نعيشُ في الملذّاتِ والشهوات... طبعاً، ليس الجميع.

ضحك المسافرون.«لماذا يضحكون؟ ـ فكّرتُ ـ فهو يكلّمُني أنا».

ـ استنبول اليوم هي ما لم تكنه قط ـ كان يقول وهو ما يزال يبتسمُ ـ فناطحات السحاب كما سانتا صوفيا، الجامع الأزرق

والتوبكابي هي استنبول التي جئتم لرؤيتها. إنّها على جوارٍ بين عالمين، بين بحرين، بين قارّتين. قرّرنا، نحن الأتراك، أن نسمي القسطنطينيّة بثلاث كلمات يونانيّة إيس، تِنْ بولين، استنبول، التي تعني داخل المدينة، حيث نحن الآن كما ترون. مع أنّ هناك من يؤكّدُ أنّ استنبول طريقة متعثّرة للفظ الرومانيين لقسطنطينوبلا: متعثّرة ومتسرّعة.

كنتُ أسمع نثراتٍ من كلامه وأسمعُ ضحكات السياح. كنّا قد توغّلنا في منطقةٍ من الأشجار، عبرنا نهراً أو قناةً. لم أكن أنظرُ إلى الخارج، بل إلى عينيه العميقتين، أهدابه الكثيفة، تفّاحة آدمه التي تصعد وتهبط في ذلك العنق المستدير، إلى يديه، يديه... لم يكن مفرط الطول، ويرتدي قميصاً بنصف كمٍّ، يتكشّف عن ذراعين مفتولين وزغبٍ قاتم. القسمُ العلويُّ من صدره مُغطّى بهذا الزغب أيضاً. يُكبّح الباصُ فيبرز فخذاه تحت البنطلون. ـ سنصل الآن إلى الفندق. سترتاحون قليلاً، أو تفعلون ما تشاؤون... هل تحسّنتِ؟ ـ سألني أنا، بلى أنا. لم أستطع الإجابة ـ متأكّدة؟ أكّدت برأسي ـ تماماً؟ ـ لم أستطع الإجابة.

راحوا ينهضون فأخذني راميرو من ذراعي.

ـ دع عنك، دعْ عنك ـ أفلتُّ منه.

وصلتُ بابَ الباص. كان هناك على الرصيف مبتسماً. رآني فمدَّ يديه.

ـ هل تسمحين؟

هبطتُ بمساعدته، ناظرةً إليه دون ابتسام. قلتُ:

ـ شكراً. اعذرني.

فكّرتُ: «كلُّ شيءٍ عاديّ مثل إعلانٍ عن نوعٍ من الكولونيا في التلفزيون.» عند باب الفندق التفتُّ:

ـ نعم؟ ـ قال هو، الذي كان يراقبني واقترب.

لم أدرِ ما أقول له.

ـ يمام؟

ـ بلى.

ـ وأنا أدعى بِسيدِريا.
ـ اسم جميل.
ـ لا، لا، ـ نفيتُ بحركةٍ من يدي.
ـ مثلُكِ، إسبانيٌ تماماً ـ قال...
ـ تتكلّم لغتي جيّداً.
ـ لا، بل ببطء.
ـ لم أسمع أجنبيّاً قط يتكلّمها أفضل منك.
بقينا صامتين، مشدودين الواحدُ إلى الآخر.
ـ أهلاً بك ـ همس بصوت ساحر، الآن فعلاً كان لي وحدي.
ـ أهلاً بكَ ـ همستُ بدوري.
وفهمت في الحال أنّها كانت حماقة. اقترب راميرو بالأمتعة اليدوية.

منذُ تلك اللحظة راحت استنبولُ تدور حولي مثل دوّارةٍ محورها يمام. أو مثلَ زلاّقة أنزلق فيها فاشاهدُ دائخةً مساجدَ، مناظر، شوارعَ، فسيفساء، كلّ شيءٍ على الجانبين، بأملِ أن يكون ذراعا يمام بانتظاري في نهاية السقوط. كان تأثراً ليس باستطاعتي العيش دونه، توتّراً لا يُحتمَلُ يجبرني على ترصُدِ نظرتهِ، كنتُ رهن شفتيه اللتين تتكلّمان عن أشياء تافهة بالنسبة إليّ، أو لا تهمُني إلاّ لأنّه هو من يقولها. لم أستطع معرفة المشاعر التي تملؤني ولا ما إذا كان شعوراً وليس حاجة. بدا لي أنّنا وحدنا، أنا وهو، مُناران على خلفيّةٍ مُعتمة والآخرون جميعاً فيها مثل أشباح خرساء. أرى فمَ لاورا أو راميرو يتحرّكُ ولا أتمكّنُ من سماع ما يقولانه. فقط في نهاية اليوم، بعد أن يودّعَني يمامُ حتى صباح اليوم التالي أستطيعُ أن أسمعَ، كما لو من مسافة بعيدة: «هل أنت بخير؟» «هل تجدين صحّتك جيدّة؟» «كيف قضيتِ اليوم؟» فأردُّ: «تعبة، أنا تعبة» وأدخلُ في فراشي أستجمِعُ إيماءاته، عينيه، يديه، ابتساماته كي أحاول الخروجَ بمعنى ضمنيّ، رسالة ما تخرجني من حيرتي التي تحرق قلبي؛ كي أهجر نفسي وحيدةً مُحْتَضَرَة على ضفّةِ نهرٍ يبتعدُ فيه يمامُ سابحاً... وإذا ما نمتُ حلمتُ بجسده، شعرتُ به مستلقياً بجانب جسدي وذراعه تحت رقبتي،

فأتلاشى، أتبخَّرُ على صدره، ولا أعود أنا نفسي. ما كنتُ سمَّيته خاصَّتي حتى تلك اللحظة لم يعد موجوداً.

كنّا نزور الصهاريجَ بجانب سانتنا صوفيا. في الخارج يهطل مطرٌ ناعمٌ. هبطتُ الدرج مع الصفِّ الأوّلِ، خلف يمام تماماً. تنعكِسُ أنوار السرداب القليلة في الماء وتتطاول الأعمدةُ. تتردَّدُ الأصواتُ، ويستسلم الجوُّ الحارُّ والرطب للخفاء. كان يرينا قاعدةَ عمود مقلوبة عليه رئةُ بحرٍ منحوتة في الرخام: بقيَّةُ قصَّةٍ مخصَّصة لدعم قصَّةٍ أخرى. انحنى فانحنيتُ أيضاً. لمس خدِّي حين أشار إلي بيده كيف يجبُ أن أنظر. تبادلنا النظرات، لم أبتسم وكان يبتسم، وقلبي يخفق بطريقة استغربتُ أنَّ الآخرين لا يسمعونه.

حين صعدنا من الصهاريج إلى السطح قدَّم آخر ملاحظة وأشارَ إلى الأعمدةِ الأخيرة. وحين التفتت المجموعة كلّها قبّلني على عنقي بسرعةٍ غير مُتوقّعة.

منذ تلك اللحظة قام بيننا، أنا وهو، تواطؤٌ عذب ومتواصل. كلّ ما كان يقوله، يقوله لي: إذا فتح المظلّة فلكي يلمسني حين يعطيها لي، أو يظللني بها، وإذا ما قال: «تعالوا إلى هنا» فلكي يضع يده على كتفي ويوجِّهني. وإذا استشرته في شيء أو طلبتُ منه توضيحاً فلكي أذوبَ أمامه دون أن أسمع جوابَهُ. وإذا ما تظاهرت بتعثّرٍ، فلكي أطلب يده وأمسك بها بقوّة أكثر من اللازم. في كلِّ مرّة صعدتُ فيها أو نزلتُ من الباص لقيتُ مساندته. لم أكن أرى غيره، كما لم يهمُّني غيره أو معرفة شيءٍ أكثر. بين احتكاك وآخر تبدو المدينة غريبة كما في فيلم سينمائيٍّ. كان الفيلم يغزو الشاشةَ بينما نحنُ في الصالة على المقاعد، غير آبهَيْنِ به، يشدُّ الواحدُ على الآخر، ويبحثُ عنه، يرغبُ به، دون أن ينطقَ بكلمةٍ واحدة.

هناك لحظات، كنت أبقى فيها وحيدةً، فأؤنِّب نفسي: «تنقلين إلى روح يمام كلَّ مشاعرك. تفعلين ما يفعله المحبُّ عادةً. وتخطئين كما يُخْطِئ.» لكنَّني كنتُ أهتزُّ دون أن أصدِّق هذه التأنيبات.

اقترح في مساءِ اليوم الثالث على المهتمِّين بالفن البيزنطي

المسيحي الذهابَ إلى كنيسة سان سلفادور في قورة، التي تحوّلت إلى متحف قريّة. وستكون الزيارة في ساعة غير مناسبة كيلا نؤثّر على خط الرحلة العام. فضّلت لاورا الخروج إلى البازار المصري مع زوجها للقيام ببعض المشتريات، وأقنعتُ راميرو بالبقاء للراحة في الفندق. شكّلنا نحن المهتمّين مجموعة صغيرة جدّاً.

ـ تحكي الحكاياتُ عن وجود دير هنا قبل إشادة الأسوار خلال حكم تيودوسيوس الثاني، عام 413 .

بعد مشاهدةِ الرواق الخارجي انتقلنا إلىالرواق الداخلي، الضيّق جدّاً. على يمين المدخل يوجد قَطْعٌ استند يمام إليه وظهره إلى الجدار، وبقي قابعاً كي يترك لنا منظوراً أكبر لتأمُّل الفسيفساء المقابل. وقفتُ أمامه وتهيّأتُ للاستماع لشرحِهِ، إلى هذا الحدّ أو ذاك. كان ذلك المكان الدقيقُ في الظلّ أكثر من غيره، لأنّ موقعه يمنع وصول النور المباشَر، الطبيعي منه والكهربائي. كان يمام يُريني الكوّة التي تطلّ على الغرب فوق مدخل الرواق الأوسط.

ـ تمعّنوا بالمتبرِّع تيودور مِتوكيتِس. إنّه يقدِّم للمسيح مجسَّمَ هذه الكنيسة. وأكثر ما يميّزُ لباسَه هو القبّعة التي على شكل عمامة...

أمسك يمامُ وجهي بنعومة من الخلف، رفعه كي يريني الفسيفساء. تركّزَ جسدي كلّه في ملمس تلك الأصابع، حتّى شعرتُ بجسده يضغطُ عليّ بكامله من الأعلى إلى الأسفل. تراجعتُ بجسدي ضاغطةً جسده على الجدار. كانت بقيّة المجموعة مرفوعة الرأس تتأمّل الفسيفساء، صدره على ظهري، حرارته على حرارتي، ضغطٌ لا اسمَ له على وركيّ... عضّني في نقرتي وأنا مذعنة للأمر الصامت، زلقتُ يدي إلى الخلف وداعبته له. أصبتُ بدوار لذيذ، خلّف بين أربيّتيّ أثراً رطباً. تردّدتُ، أوشكتُ على السقوطِ مغمضةً العينين. سندتني قوّته من خصري، بينما إبهاماه يقسّيان حلمتيّ. لم ننبس بكلمةٍ واحدة.

عندما خرجنا من الحديقة الخلفيّة الصغيرة إلى المسجد عبر بعض الأشجار تكشّفت لنا استنبولُ أخرى غامضة ومختلفة تماماً عن تلك التي أرونا إيّاها من الجانب المعاكس. اقتربتُ من يمام كي أطلب منه معلومة، فاستبقني.

ـ استنبول يجب أن تُرى من الجوانب كافّة ـ قال متوجِّها إلى

المجموعة بعامّة ـ نحن نراها هنا من الجهة الخلفيّة. لكنّها كلّها جميلة، ومن أية زاوية رؤية ـ توجّه إليّ ـ أؤكّد لكم. صدّقوني.

قال بعد عودتنا إلى الفندق:

ـ ما زال هناك نصف ساعة حتى تجتمع بقيّة المجموعة.

دعا سائقَ الباص بصوتٍ عالٍ لتناول فنجان قهوة.

ـ في البار المقابل، وسألحقُ بك على الفور.

انتابني إحساسٌ بأنّه يخبرني بشيءٍ. عدتُ من باب الفندق إلى الباص قائلةً بأنّني نسيتُ شيئاً.

ـ انتظري، سأساعدكِ بالبحث عنه.

صعدنا. أغلقَ الباب بقوّةٍ. أخذني من خصري، حناني على المقعد الأوّلِ وعضّ شفتيّ. ثمّ ودون أدنى كلمة ولجني في الممرّ. كان رأسي يتحرّكُ بلا نظام ولا إيقاع. لم أكن أرى شيئاً، ولا أعرف ما إذا كنت مفتوحة العينين، كنتُ أموتُ سعادةً ـ ليس لذّةً، بل سعادةً ـ مرّةً وأخرى. سمعتُ نفسي أجهشُ... كلُّ شيءٍ كان على ما يرام: العالم وحياتي يبرّرهما أنّني وصلتُ إلى هناك... حين خرجَ منّي، مال رأسي على كتفي. رفعني بين ذراعيه. كنتُ أسير متسرنمةً، ويصعبُ عليّ فتح أجفاني. كان بودّيَ لو أبقى للأبد هناك.

لم أتأخر عن الشعور بالألم والسعادة في عنقي، وركبتيّ، فخذيّ، وكأنّني قمت بجهد عنيف. في زاوية من زوايا ردهة الانتظار انتظرتُ، على كرسيٍّ ورأسي مرتاحة إلى ظهره، نزولَ راميرو. كان من المحالِ ألا يُلاحظ في وجهي ما حدثَ. كنتُ أشِعُّ سعادةً، لاحظتُ ذلك حين دخلتُ إلى المغاسل لأصلِحَ هندامي. ومع ذلك لم يلحظ راميرو شيئاً.

ـ هل تستحقُّ الرحلة المعاناة؟

ـ بلى، بلى تستحقُّ.

عرفتُ أنّني ضعتُ ولن أستطيع بأيِّ شكلٍ من الأشكال إلاّ أن أضيع.

منذُ تلك اللحظة، اقتصرت الرحلةُ على إيجاد مناسبة أخرى أشعر

فيها بجسده مختلطاً بجسدي وبجسدي منصهراً تحت جسده. كان يراقبُ الواحدُ منّا الآخرَ مثل ضاريتين في دورة الإخصاب ينقل له توقاً ثابتاً وأكيداً. ما عادت تؤثّرُ بي حالات السرور والحزن والمتعة والقلقلة التي كانت تؤثر بي في السابق. التعب والحاجات التي قد تحزنني ما عادت تهمّني، ما دام معي. حاولتُ إنقاذَ ماء وجهي، لكني لم أطرح هذه المسألة على نفسي عندما يجدُ الجدُّ، فقد هُوِسَتُ بتلك اليد اليمنى التي تتحرّك بكفّها ممتدّة نحوي، تمنحني لا أدري يقينَ اللقاء من جديد أم النصيحةَ بالحكمة.

كان الليلُ قد حلَّ ونحن على متن السفينة، نبحر في البوسفور (لا أدري إذا كان ذلك قبلَ أو بعدَ الرحلة إلى كابادوسيا. نعم قبلها) والمجموعةُ تغنّي الأغاني المعتادةَ التي يعرفها الجميعُ. أومأتُ برأسي ليمام، وهبطت إلى المغاسل. لم يتأخر. قبّل واحدُنا الآخر بجانب نافذة، وأرجلنا متشابكة. كنتُ أضغطُ على عضوه المنتفِخ ـ فكّرتُ: «إنّه صولجاني». كان يدلكُ فمه على صدري. ثم تبادلنا القبل على عجلٍ وصار طعم فمي طعم فمه، لحستُ وعضضتُ لسانَه؛ فركتُ لساني بلثّته وأدخلته حتى سقف حلقه، ومن فوق كتفه رأيتُ، قبل أن يغشى عليَّ، القمرَ بدراً. ثم لم أره بعد ذلك. كنّا ندور. شفتاي المعضوضتان، أجفاني الرطبة، عنقي ونهداي ما عادت لي، لي فخذاه القاسيان، عضوُه، خصرُه النحيل، فمُهُ تحت شاربه الذي كان يخزني وشاربه أيضاً... أحدٌ كان يهبط الدرجَ. انفصل عنّي، حاولتُ منعه، لكنّه نبذني والقمرُ ما يزال هناك خلف النافذة، عادياً وجميلاً أكثر من اللازم. لم أقل شيئاً. بعد أيّام كثيرة كلّمني أخيراً بخفّةٍ.

ـ القمر بدرٌ، هل ترينه؟

شابان من المجموعة عبرا بنا ودخلا إلى المغاسل.

ـ كيف الحال؟ كيف تقضيان الوقت؟

عند الصعود إلى السطح كانت ساقاي ترتجفان بشدّة فاضطررتُ للتوقّف ممسكة بدرابزين الدرج.

عندما ساعدني هذه المرّة على الهبوط من الباص ترك ورقةً في

يدي: «ابقِي وحدكِ غداً في البازار.» لم أفكِّر عندما استطعت النوم ـ ولا في نومي ـ بشيءٍ آخر. لم أتردَّد لحظة بالامتثال إليه. كما لم أهتمّ بالكيفيّة التي سأتملّصُ فيها من راميرو والآخرين. كنتُ أُسرُّ بما قد يحدث، حين أبقى في الحقيقة وحدي معه.

ما إن وصلنا إلى البازار الكبير، حتى كلّمتُ لاورا جانبيّاً: أريدُ أن أشتري لراميرو زوجَ أزرار قميص دون أن يدري، سأغيبُ لدقائق. «اهتمّي به أنت» ابتسمت مُتفهِّمَةً. سمعتُ صوت يمام:

ـ من الأفضل لنا أن نتفق على اللقاء عند هذا الباب ذاته خلال ساعة لنتجنَّب إضاعةَ الواحد منّا للآخر. إنَّه يحمل اسم الجامع المجاور. اسمه نورعثمانيّة، النور العثماني. تذكّروه... وهكذا يشتري كلُّ واحدٍ ما يحلو له دون أن يتحمّلَ مشتريات الآخرين. الرجاء أن تساوموا جيّداً. سيحاول تجّار هذا البازار غشّكم حتى عندما يهدونكم شيئاً. لا تثقوا بهم. ـ ابتسم ـ تمعّنوا جيداً أين تذهبون ولا تبتعدوا كثيراً، لتعرفوا كيف تعودون. مثل عقلة الإصبع. إلى اللقاء.

راح يمشي دون أن ينظرَ إليّ. تبعتُهُ. وبعد عددٍ من المنعطفات دخلَ متجراً صغيراً وانتظرني في داخله بجانب الباب. شدّني باتجاه درجٍ ضيقٍ. في أوّلِ منبسطٍ للدرج بابٌ آخر. دخلناه، أغلقه. على الأرضِ كومة من السجّاد، رماني فوقها، يُعرّيني وأعرّيه. هذا آخر ما أتذكّره. ما تلاه كان بئراً مضاءً، هل أطللتُ من فمه؟ هل غصتُ في أعماقه؟ لا أعرفُ، لا أعرف أكثر من ذلك.

هكذا يحدث دائماً. في كلِّ مرّةٍ نتشابك،أنا ويمام، يبدو كأنّنا نريد أن نمحو الحدودَ الخفيّةَ التي تفصلنا. تخلّصنا من ملابسنا بطريقة هي من الضراوة بحيث أنّني لا أستغربُ الانتهاء ذات يوم إلى أن نقتلع جلدنا. نأكلُ، أو نستريح أو نتكلّم بموضوع مبتذل، فجأة وإذا بنظرةٍ، أو كلمةٍ أو ضحكةٍ تُرنّح الواحد منّا فوق الآخر لنبدِّدَ مسافة تبدو لنا غير محتملة.

كنتُ أتساءل أحياناً ما إذا كان يطفَحُ كلُّ منّا، بطريقته، سائلاً أو

مزاجاً يتطلّب إراقته في الآخر كي يتخلّصَ منه للوصول إلى الهدوء. لكن لا: إنّه أكثر من هذا. ينقضّ كل منّا على الآخر وكأنّ حياته متعلّقة بهذا الانقضاض وعلينا الدفاع عنها بضراوة... ومع ذلك فهذا ليس صحيحاً أيضاً، لأنّ ما يحدثُ في الحقيقةِ يشبه الإبادةَ. كلُّ واحدٍ يختفي أو يُحتَضَرُ بين ذراعي الآخر، يتقصّى فيه، مستبدلاً حياته بحياته حتى الوصول إلى الحشرجة الأخيرة. الاحتدام الذي هو خليطٌ، ضياعٌ متبادَل، يعود بعده كلّ واحد إلى نفسه شيئاً فشيئاً، مختلفاً من جديد عن الآخر. كم هي محزنة العودةُ، لا بدّ أنّها لحظة جيّدة للموت. يقالُ: «الموت ولعاً»، يقال ولا يُمارَس. لا يفاجئني الكلام عن الحزن بعض الجماع، فقد تبخّرت لحظة مجدٍ فريدة، ومع أنّها قد تتكرّر ألف مرّةٍ، فكل لحظة فريدةٌ... من فتحة القفل وعبر الباب السرّي شوهدت الجنّةُ، قطعة من الجنّةِ مختلفة في كلِّ مرّة...

عندما يتوقّفُ كلُّ شيءٍ، لا أتذكّرُ شيئاً. فقد طار الطائر السعيد. وكبرهانٍ على أنّه كان هناك لا يخلّف لي غير ألمَ الجهدِ، الوضعيّاتِ اللامعقولة التي ينصاع لها الجسدُ راضياً. كيف عشتُ كلَّ هذه السنوات دون هذا الدافع بالوجود. كيف سأستعيدُ القناع اليومي الحقير؟

وللتحقُّقِ منه صمّمتُ منذ المعركة الأولى ألاّ أستسلم كلّيّاً، أن أكون يقظةً، ألاّ أُجَنَّ وأصعد ـ أو يصعد جزءٌ مني ـ إلى زاوية في سقفِ الغرفةِ، وأُراقب من هناك لأعرف ماذا يجري. لكنّني لم أستطع قط تحقيقَ ذلك. أظنُّ أن معرفتي بما أفعلُ وما أعاني وأتمتّعُ لن تسعدني مثل هذا الغرق في عباب النهر الذي هو يمام. خروجي كاملةً من ذاتي، دون أن أدري، نحو يمام، الذي أفترض أنّه خارج نفسه أيضاً لنمضي معاً إلى بلد الاندهاشِ، الصخبِ والحيرة، عدمِ الاحترام وانعدامِ القوانين. بلد لاثنين لا يتسع إلاّ لواحد، دون محرّمات ولا ممنوعات، دون منطقٍ ولا كرم، إسرافٍ، تبذيرٍ، لواحدٍ شكّاك بكلِّ سماءٍ ليست سماءه وكلّ جحيمٍ ليس جحيمه...

ومع ذلك أفهمُ حين أفكّرُ بهدوء بأنّ الوحدة الحقيقيّةَ لمحبّين يجب أن تقومَ خارج الفراش، خارج إفراغ هذا الجنس، الذي يصادرنا ويُفرّغنا كيلا نعود ونسكن جسدنا ونقيم في جسد الآخر. لأنّني

أضاجع يمام عندما لا يعود يماماً، وكذلك حاله معي. صرنا صدفتين، لَشَكين مجهولين، محجمين متبادلين بلا مشروعٍ مشترك، بلا ماضٍ ولا مستقبل ولا ذاكرة أيضاً... وهكذا، ما الوحدة التي يمكن أن تقوم؟ لكن إذا لم يكن هكذا، ما الوحدة الأخرى الممكنة؟

لم أعمل في تلك الأيّام الأولى في استنبول لأيّ هدفٍ، أو لصالح أيِّ شيءٍ؛ تجرفني موجةٌ أشدّ قوّةً منّي، لا يخطر ببالي مقاومتها. آنذاك فهمتُ كلّ الذي قالته لاورا، في بعض الظروفِ المختلفةِ تماماً، عن الانتهاك. أو شعرتُ به أكثر ممّا فهمته. هذا الاحتدام المجهول، هذا الاضطراب، الانتقال ـ بكل المعاني، بما فيها الانتقال بالسيّارة ـ هذا الانفصال عن الذاتِ للاستجابة للآخر، وفسح الطريق للذي يستجيبُ: كان معركةً وسلاماً غريزيين.

ما من أحدٍ تعاملَ معي ويَقتنع بأنَّ دِسي الرصينة، دِسي التقليديَّة تحوّلت إلى مجنونة خارجة على العرف، أنا نفسي أجهلها، ولا أُصغي إليها حين تصرخُ بمطالبها ورغباتها. مجنونة ـ أعنِّف نفسي ـ تُخيفُ أحياناً يمامَ، مبعث جنونها... فوضى عواء، حركات عنيفة، تلذُّذٍ، من يراها مصوَّرة ـ بكاميرا أرتورو أو راميرو السينمائيّة مثلاً ـ سيخافُ ويتقزَّزُ. ما يحدثُ زلزالٌ: يكفيني الخروجُ حيَّةً. أنسى نفسي ثمَّ أنسى الخطوبَ كلّها ـ هذا إذا توصّلتُ إلى معرفة ذلك، الأمر الذي أشك فيه ـ على الرغم من أنَّ قلقاً أخيراً، بقيّةً من طعمٍ أخيرة يبقى في داخلي. جلدي يعرفه وأركاني الخفيَّة تتذوّقه. للجسد وحواسّه ذاكرةٌ جيِّدة. لذلك أعتبر أنَّ الأمرَ يتعلّقُ بنشوةٍ إلهيّةٍ، متاخمة للآلهة ومن عملها. بطريقة أشعرُ فيها بنفسي فوق ظرفيٍ ذاته، ظرف ما قبل وما بعد التأجّجِ والرعشة. الآن صرتُ أومنُ فعلاً بواقع ذلك التوضيح في وليمة أرسطو فانس: الكائن يتكامل.

وشخصيَّتي ـ أريدُ أن أقولَ المرئيّة، الرسميَّة ـ تبقى خارجاً. أُصِرُّ: أنا، التي أكتبُ هذا، أبقى خارجاً. وإذا ما تصادفتُ لثانيةٍ مع تلك المجنونة في الفراش ـ أو بوجهي على جدار أو على كرسيٍّ أو داخل السيّارة ـ، أشكُ بأنَّ المجنونة ستستعيدُ عقلها فجاةً واللذّةَ ستنتهي. لابدَّ أنّه كذلك: تُحطِّمُ الرغبةُ الأسيرة، حين تفلت من عقالها، جدارَ

التقليد والحياء وينسلُّ كلُّ ما نحتفظُ به مكبوتاً عبر التشقّقات فيصرخُ ويصخبُ ويتمطّعُ على هواه دون حياء، قبل أن يُعادَ بناءُ جدار سجنه من جديد. لأنّنا سجنٌ - عرفتُ هذا جيِّداً -. هربتُ منه جزئيّاً، أو بالأحرى أنا في حالة تحرُّرٍ منه، في حرِّيّة مشروطة، لأنّني فعلاً لا أهرب إلاّ عندما أكون في عناقٍ مع يمام ونسيانٍ لنفسي.

رُبَّما يعني هذا أنَّ تقرُّحات القيود والأغلال ما تزال في رسغيَّ وكعبيَّ. بقايا، امتعاض وتوقٌ لشيءٍ لم أتجرَّأ بعد على إفلاته. مباركٌ الجنسُ وفوضاهُ والوله الذي يعتقنا. فهو يعتقنا من تعقُّلِنا ومن أنفسنا. مع أنّني أفترضُ أيضاً أنّنا لو لم نكن خاضعين للسجن - لو كنّا دائماً جامحين وخالعي العذار - لما تمتَّعنا إلى هذا الحدِّ بالحريَّة المؤقَّتة التي أشرتُ إليها، بهذه الحريَّة الفرورة والمتقاسَمة، التي تقودُ من الزنزانة المشتركة إلى الهروب المشترك. فالإنسان يشتاق إلى كلِّ ما لا يملك وتمضي عيناه خلف ما هو بعيد أو مفقود. لو بقينا أنا ويمام، كما في تلك البداية الغامضة التي ربطت بيننا آخذَيْنِ الواحدُ بيد الآخر، متعانقين طوال اليوم، لكان ما يشدّنا هو الذهاب لمشاهدة استنبول، أو السير في فناء المسجد الأزرق آخذين الواحد منّا بخصرِ الآخر.

لا أدري إن كنتُ كتبتُ ما سبقَ كي أُرَوِّحَ عن نفسي. لكنّني اليوم - وهو بالنسبة إليَّ دائماً يتأخَّرُ كثيراً - أظنُّ من الجيِّد أنْ يعمل، وأبقى هنا متلهِّفةً لعودته، ويعودَ أخيراً ليأخذَني ونحصل معاً على مكافأةِ انتظارنا وأكونَ أنا - لستُ أنا، بل المجنونة التي أتحوَّلُ إليها - مكافأته والسجنَ الذي يدخله بمحض حرِّيّته ويكونَ هو مكافأتي وسجني.

ما رأيتُه ممّا تبقى من تركيّا فيما بعد رأيتُهُ بعيني يمام.

لم تبدُ كابادوثيا لأيِّ سائحٍ غيري غامضةً وفاتنةً بمنظرها النحتي. هناك وادٍ بالقرب من قفوسين حيثُ لا بدَّ من رؤيةِ مداخن

الجنّيات، ولم أر غيرقضبانٍ ذكوريّة، بينما يمام يضحكُ مني متراكضاً بينها. ما من سائحٍ يمكن لمساكن أورتاهيسار الكهفيّة الشامخة أن تفاجئَهُ أكثر مني، هذا إذا كنتُ أتذكّرُ اسمها جيّداً. وما من أحدٍ آخر ستدهشه آثار باموكال، قلعة القطن، هيرابوليس أو إيفيسو مثلي.

ـ حبُّ الرجال أشادَ المدنَ، وكراهيتهم هدّمتها: ربّما كان الزمنُ أسوأ طريقة للكراهية، لكنَّ كلَّ ما فيها ما يزال فيها: في العمود الذي ما يزال منتصباً من معبدِ أرتيميسا ما تزالُ أرتيميسا...

كنتُ أُصغي إلى صوته وتوضيحاته كمن يُصغي إلى أُغنية. لم تزعجني رحلات الباص، التي تستنفدُ رفاقي، ولا برنامج الرحلة الصارم، ولا الطعام عسير الهضم. وحين كان يشيرُ بإصبعه لافتاً الانتباهَ إلى شيءٍ ما، لا أدري إذا كنتُ أراهُ بعينيه أم بعينيَّ. لم أشعر بمثل انعدامِ الوزن ذاك قط. كنتُ أتقدَّمُ في عالمٍ هفهافٍ، جميل، جديدٍ وسحري لأنّه ينبثق من تحت قضيبِ يمام وأوامرِه اللطيفة. لا أعتقدُ أنّه وُجِدَ معلّمٌ قط ـ أظنُّ ذلك ـ عنده تلميذة بوفائي وخضوعي.

هكذا هي الأشياء، فزعتُ رابطة الجأش في مواجهة النفاد والإبكار والسهر، حين سمعتُ راميرو وقد عاد إلى فندق استنبول:

ـ أخيراً انتهى هذا. كانت تجربة أقرب إلى القسوة الشديدة بالنسبة إليَّ؛ أعترف لك بذلك الآن.

كنّا سنخرجُ إلى إسبانيا ظهيرةَ اليوم التالي. أخذتُ كأساً فتحطّم على الأرضِ.

كانت لاورا قد جمعت من أعضاء المجموعة مبلغاً كي تهدي يماماً شيئاً. رفض الإجابةَ على كلِّ التلميحات حول ما يحبُّ وكذلك قبولَ أيِّ شيءٍ. قال أمام إصرار لاورا مربكاً الجميع إنّه سيشكرهم لو أهدوه دميةً كبيرةً من تلك التي يسمّونها في إسبانيا أربع أو خمس حماقات. ظنّته لاورا يمزحُ، ولم يكن مازحاً ولم يجرؤ أحدٌ على سؤاله عن سبب هذا النزوة.

كلّف العثور على الدمية جهداً كبيراً، لأنّها مستوردة ونحن قليلو

خبرة في استنبول؛ جاءنا بها سائقُ الباص الذي أعطيناه بقشيشاً جيّداً. وتمَّ اختياري «نظراً للاستلطاف الذي أظهرتماه كلٌّ للآخر» لتسليمها له. كانت المرّة الأولى تقريباً التي أتبادل فيها الحديث مع يمام بشكل عاديٍّ.

قلتُ له: شكراً على كلِّ شيءٍ. كنتَ لطيفاً جدّاً. لتكن هذه الدمية ما يجعلُكَ تتذكَّرنا بالودِّ ذاته الذي سنتذكَّرُك به نحنُ. مع أنَّ المسكينة لن تعرف أن تقول لك ما نريدها أن تقوله. شكراً جزيلاً.

فتح الهديَّةَ مبتسماً بطبيعيّة وقال:

ـ إنَّها رائعة ـ وقبّل وجهَ الدميةِ، وهو ينظر إليَّ.

من المحالِ عليَّ أن أستطيعَ التعبيرَ عن القنوط الذي شعرتُ به عند انتهاء مُغامرتي. لم يكن ألماً محدَّداً، كما لم يكن روحيّاً فقط: جسدي كلّه كان يؤلمني، وأنا واهنة القوى، كما لو أنَّهم سكبوا فوقي كلَّ التعب المتراكم بغتةً. منذ اليوم السابق على خروجنا ما عادت معدتي تقبلُ شيئاً، كانت كيساً شدَّ أحدٌ أربطتَهُ، صرتُ أتقيّأ حتى الماء، دون أن أسمع من يكلّمني، وأشعرُ بالحياة تهرب منّي ماديّاً، مثل محكوم بالموت في ليلته الأخيرة. قال إنَّه لن يرافقنا إلى المطار، وودَّع أفراد المجموعة واحداً واحداً، بمن فيهم لاورا ومارثِلو وراميرو. أمّا أنا فلم يخصّني بأيّةِ جملة فيها وداع... لم تعرف عيناي النومَ في تلك الليلة، وبقيتُ تقريباً حتى ساعة الخروج إلى المطار في السرير، عاجزة عن الخروج بنتيجة من جسدٍ كان وفيّاً لي طوال الرحلة.

هبطتُ إلى قاعة الانتظار مريضةً ومُفكّكةً، أضع نظّارةً كبيرةً وداكنة على عينيّ، وبينما كان راميرو مشغولاً بالحقائبِ، لمس أحدهم كتفيَّ. إنَّه يمام:

ـ بما أنَّك أظهرت كلَّ هذا الحبِّ والاهتمام ببلدي، اقبلي هذين الكتابين. واحدٌ عن سجّادِنا. ربّما أردتِ أن تفتتحي دكّاناً لها في إسبانيا. سأكون، إن سمحتِ لي شريككِ هنا، ومستعدٌّ لضمان نجاحكِ الاقتصادي. ناقشي الموضوعَ مع زوجكِ. إذا تشجّعتِ، فإنَّ صداقتنا التي ولدت توّاً ستكبرُ وتتعزَّزُ.

لم أعد أسمعه. كنتُ أتأمّلُ حركةَ شفتيه بتركيز الأصمّ الأخرس، فحضوره أفضل هديّةٍ قدّموها لي بالإطلاق. الدكان التي عرضها عليّ كانت طرف حبل لغريقٍ يختنق.

ـ بلى، بلى، طبعاً. كان يجبُ أن يخطر لي هذا.

شعرتُ بطعم ملوحةٍ عند لحمة الشفتين. لا شكَّ كنتُ أبكي.مدَّ كلٌ منّا يده للآخر، دأعب راحتي بسبّابته، ككلمة سرٍّ، وانطلق يسير هابطاً الشارع دون أن يلتفتَ برأسه.

عندما فتحتُ كتاب السجّاد في الباص، قرأتُ الإهداء: «إلى بِسيدِريا، التي ستعودُ دائماً». في الأسفل كتب اسمه، عنوانه وهاتفه، المعلومات التي أنسنته، بطريقةٍ ما، في عينيّ وشكرته عليها، لكنّها أيضاً انتزعت منه الأبعاد الغامضة التي كانت له خلال تلك الأيّام العشرين التي لا تتكرّر.

كانت العودةُ إلى جوّ وشقة وجوّ البيت بالتحديد كما لو أنّهم قطعوا رأسي وأضافوه إلى رؤوس لاكاميانا.

كنتُ أجيبُ على أسئلة فِليسا بأنَّ لاورا تستطيعُ الإجابةَ عليها أفضلَ منّي. لم أكن أحكي أو أتذكرُ شيئاً. كان عقلي قد صار صفحةً بيضاء بالنسبة إلى كلّ ما لم يكن هوسي. المساءاتُ تقصر، وأبقى جالسةً، دون أن أدري بانسحاب النور حتى يصل أحدٌ ما ويُنبّهني. كنتُ أتقصّى داخلي وكتابٌ بين يديَّ أو في حضني، مستحضرةً كلّ ثانيةٍ، كلّ إيماءة، كلّ شظيّةٍ، كلّ خليّةٍ في جلدٍ يمامٍ سنحَ لي الوقت برؤيتها. وإذا ما حاولتُ أن أعمل شيئاً خرّبتُهُ. تسقطُ الأشياءُ من بين يديَّ: المغرفة، المملحة، الإيصالات... كما لو أنّني لا أُقدّرُ المسافات جيّداً أو لا أملك قوّةً كافيةً في أصابعي. هكذا علّقت ذات يومٍ أُختُ زوجي في حضوري، ولم أولها أدنى أهميّة.

ـ لقد تغيّرت. إنّها شاردة الذهن. هائمة دائماً. لا تُقدّرُ مكانَ الصوت.

ما كان يحدثُ هو أنّني لم أكن أجلجلُ حيث هي تظنُّ. فجأة وحين أتذكرُ أيّ شيءٍ تافهٍ يصعدُ من بطني ارتعاش هو من الضخامة بحيثُ

يضطرّني للجلوس حيثُ أكون أو للاستناد إلى أثاث ما. وكنت أردّدُ لنفسي: «إنّهم يلاحظونه عليّ، لا أستطيع أن أداري بمثل هذا السوء». المسألة أنّني كنتُ أسمع ما كانوا يعلّقون به عليّ، على عينيَّ الزائغتين، على الابتسامة التي تظهر فجأةً دون إذن منّي على وجهي، على يديَّ المتقاطعتين والمنسيّتين. كنتُ أسمعُ ذلك، لكن من بعيد ومن خلال مِخفاتٍ.

ـ بماذا تراها تُفكِّرُ؟ تراهم يا بُنيّ راميرو سحروها في ذلك البلد،؟

هذا ما كنتُ أفكِّرُ به أيضاً وأُضيف أنّ من الضروري التخلّي عن الركود في الماضي، أن أحطّ على أرضٍ ثابتة وأعود إلى حياتي السابقة، أرضى بما منحوني وأغلق الباب على تلك القصَّةِ. لكنّي لم أكن قادرةً إطلاقاً على إطاعةِ نفسي.

كنتُ قد قرأتُ في أحد كتبِ راميرو النادرة بأنّ الصوفيين يستحثّون فراغ العقل والروح ببعض آليّات التركيز البسيطة جدّاً، كي تملؤهم فكرةُ الله بالكامل دون أن تترك أيّ فراغ. أنا لا أدري ماذا جرى لي: ما إذا كان هذا الفراغُ جاهزاً عندي ويمام لم يفعل شيئاً آخر غير أنّه جاء وشغله كاملاً، أو أنّني كنتُ أتجهز بفراغٍ جديد لكلّ ما حولي، كي أصعد درجةً أعلى. مهما كان الأمر كنتُ أكتبُ ليمام رسائل متوهّجة: بعضها أضعها في البريد وأخرى لا. وما إن أبقى وحيدة حتى أحتجّ عليه بصوتٍ عالٍ احتجاجاتِ حبٍّ حارّة...

حاولتُ الاتصال به بالهاتف أيضاً. ذهبتُ إلى مكتب الهاتف خشية أن تنكشف مكالماتي في الفواتير. أُغلقُ على نفسي غرفة المكالمات فتخور ساقاي ويجفّ فمي. ردّ عليّ في المكالمتين الأوليتين بالتركيّة صوتُ امرأة فجٍّ وذكوري، فأغلقتُ الخطّ. في المرّة الثالثة فقط حين استسلمتُ إلى أنّني لن أعودَ أبداً لسماع صوته رفع يمامُ الهاتف. وعلى الرغم من الضجيج وتداخل الخطوط لم أشك بأنّه ليس هو.

ـ أنا دسيدريا.

كانت حنجرتي تحكّني، وصوتها لا يكادُ يخرج والهاتف يرتجف في يدي.

ـ كيف حالك، يا يمام؟

ـ جيّد وأنتِ؟ والدكان الصغير؟

ـ هل تُحبُّني؟ هل تشتاقُ إليَّ؟

ـ بلى، وأنتِ؟

ـ أكثر من أيِّ شيءٍ في العالم. لا أتمكن من الاعتياد على العيش دونك.

ـ والدكّان؟

ـ هذه الليلة سأتكلّم بموضوعه.

ـ أبقني بالصورة. سأعرِّفُكِ على ممثّلينا في مدريد.

ـ ممثّلوك؟

ـ طبعاً.

ـ هل تلقّيْتَ رسائل منّي؟

ـ حتى الآن لا. البريد يتأخّر كثيراً... حرّكي موضوع الدكان.

ـ لكن هل تحبّني؟

ـ ولماذا تظنّيني أتكلّم عن الدكان؟

ـ من المرأة التي تردُّ على الهاتف عادةً؟

ـ أُمّي. من الأفضل أن أهتفَ لكِ أنا من البازار.

أعطيته هاتفي.

ـ لكن لا تهتف لي قبل أن يبدأ عمل الدكان... ولا تنقطع عن التفكير بي.

ـ هذا ما أفعله.

ـ في كلِّ الساعات كما أفكِّرُ أنا بك. أُحبُّكَ.

ـ وأنا أيضاً. وداعاً.

تهيّأتُ في تلك الليلة ذاتها للكلام مع راميرو. قدّرتُ المبادرة بدقّة. كان ذلك بعد العشاء والصحنُ الثالثُ ما يزالُ على المائدة. بدأتُ بنبرةٍ وقورة.

ـ يا راميرو، عليّ أن أتكلّم معك... أنتَ تعرف جيّداً أنّني وعلى أثر الحادث الذي أصابك فقدتُ وظيفتي في المعهد ومعها استقلاليَ النسبيّ الذي كانت تعنيه لي. أفضلُ صديقاتي عندهنَّ أعمالهنّ التي تجعلهنّ يشعرن بالملاءة والفائدة أكثر منّي... منذُ مدّة طويلة وأنا أُفكّرُ باستئجار محلٍّ للأزهار أو بوتيك للهدايا. لا أقول قاعة عرض، ولا قاعة ملبوسات، فأنا لا أفهم بمثل هذا، لأنّني لا أحبُّها. على أثر الرحلة إلى تركيّا خطرَ لي بأنَّ محلاً صغيراً يكون مستودعاً للسجّاد والبسط غير الغالية جدّاً يمكن أن تكون تجارة جيّدة. لا تقلْ بأنّها ستأخذُ مني وقت الاهتمام بالبيت وبك فهذا ليس صحيحاً، لكن حتى لو كان صحيحاً فإنّها ستعودُ عليّ بالنفع أكثر من الراحة التي تعنيها بالنسبة إليك. ولا تقلْ إنّنا لا نملك مالاً، في الوقت الذي كنّا نملكه للسيّارة التي كانت السبب بكلّ شيء؛ ثمّ إنّنا لن نحتاج للكثير، فأنا أتكلّم عن محل نستأجره، لا عن محل نشتريه. ثمّ لا تقُلْ لي إنّني لا أفهم كلمةً واحدة في موضوع السجّاد، فهذا أوّلاً ليس صحيحاً، وثانياً سأكون على احتكاك بمساعدين لي في استنبول سيمدّونني بالمواد. ولا تقل لي ما من أحد في وشقة يريد هذا، لأنّهم دون شك ما إن يرونها مع الطقس الذي عندنا، حتى يتحمّسوا لها؛ ولا تنسَ أنّه لا يوجدُ ما يشبهها ولا من بعيد، وما عليك إلاّ أن ترى نجاح المخازن الكبيرة في تلك الأسابيع الشرقيّة أو الهنديّة التي ينظّمونها. لا تقلْ لي...

قاطعني ضاحكاً.

ـ بِسي، يا جميلتي، أنا لم أقل لكِ شيئاً، وأنتِ تكلّمين مُقْتَنِعاً. إنّها تجارة أصيلة وأنيقة. ويمكن أن تزدهرَ من خلال صداقاتنا بشكلٍ رائع؛ كلُّ شيءٍ يتعلّق بتحويل الشيء إلى موضة. لذلك هيّا ابدئي. سنحاول العثور على محلٍّ مركزي وجيّد الإضاءة. وإذا لم يكن سعره عالياً فمن الأفضل أن نشتريه.

ارتبكتُ تماماً فلم أستطع أن أقول غير «شكراً».

انقطعت الكهرباء منذُ برهة. كان العطلُ عامّاً. توقّفتُ عن الكتابة ورحتُ أفكّرُ في الأشياء التي راحت تحدثُ. تذكّرتُ حين نهضتُ

للبحث عن شموعٍ في العتمة الوقتَ الذي علّمني فيه أبي صناعتها. كم من الزمن مضى... أبي، الذي ما زال طويلاً، نحيلاً، شاباً ـ إذا ما نُظِرَ إليه من الخلف ـ على الرغم من شعره الزرزوريّ، كما كنتُ أقولُ له ساخِرةً، فيهدّدني هازّاً ذراعه:

ـ إذا أمسكتُ بك...

ماذا عنه. ما رأيه بي. لم أعد التي كنتُ حين أتيتُ... في ذلك الخريف كان يمسكُ يدي بيده، يأخذها.

ـ لا، هكذا لا. لا تكوني عنيدة. تعلّمي أوّلاً. فأنت نافدة الصبر مثل طفلة...

دائماً كنتُ طفلةً بالنسبةِ إليه. لا شكّ أنّني لم أعد كذلك بعد أن فعلتُ ما فعلته.

مشغل الشمع القديم، بميزانه البرونزي الكبير المتدلّي من السقف، حيث كان يَزين أرباع الشمع التي تشتريها القرى للأموات، بخشبه الداكن، وطاولة العرض اللامعة العريضة والثقيلة، الخزائن الممتدّة حتى السقف، أرضه الخشبيّة، كراسي الزبائن... وكوّته التي تعطي نوراً مُغَرْبَلاً ورمادياً للغرفة الخلفيّة، التي تُصنع فيها شموع ما عادت تُصنَعُ تقريباً.

دكّاني الصغير على العكس منه تماماً. فالواجهة كلّها بلّور، وكذلك الباب، على يمينها نُشِرَت سجّادةٌ تُبَدّلُ باستمرار، الجدران بيضاء، وكذلك الرفوفُ والأرضُ، الكراسي الصغيرة المنجّدة بقطع من البسط القديمة، وفي طرفٍ منها طاولة عرضٍ من البلور والميتاكريليت. كنتُ مرتاحة هناك ونشيطةً أيضاً. صارت الشقّة مجرّد عنوان والدكّانُ بيتي، بيتي الحقيقي؛ تأتي إليه صديقاتي السطحيّات اللواتي يخرجن كلّ صباحٍ إلى الشارع بمناسبة وبغير مناسبة، فأدعوهنّ لتناول فنجانٍ من القهوةِ أو الشاي، كما يفعلون في بازارات استنبول ـ كان هذا هو اسم الدكّان.

ـ أيْ، يا بِسي، أيّتها الرائعة، آهِ كم تُعلِّمُ الأسفارُ. كنتُ أظنُّ استنبول تُكتب بالألف الموصولة والميم. ميم أمام الباء. أم أنّه ليس كذلك؟

ـ هل وصلتك أشياء جديدة؟

ـ هذه قطعة جميلة جداً. هل تدرين من ستكون بالنسبة إليها كالخاتم للإصبع؟ فابيانا، التي عندها صالون بتدرجات الأزرق.

كانت الدعاية تمضي من فم إلى فم والتجارة أفضل ممّا حلمتُ به. أمّا الأعمال المُنغّصة ـ نشر وطيّ السّجاد ـ فيقوم بها فتى مناسب، قريب راميرو نصحتني به حماتي. كان ظريفاً، نبيهاً، مهذّباً، خدوماً، ويدعى لورِنْثو. لسوء الحظّ لم يبق أمامي إلا كبحُه. ففي أحد المساءات ونحن على وشك الإغلاق، حين أطفأنا الأنوار توجّه إليّ بصوتٍ متكسّرٍ، أخذني من يدي قبل أن أضع القفّازين وقال:

ـ أنا أُحبُّكِ، ياإيسي،. لا أدري ما إذا كنتِ... أُحبُّكِ كما لا يمكن أن يحبّكِ أحدٌ أبداً.

فضّلتُ ألا أُظهر استنكاري كيلا أستاء جدّيّاً. ارتديتُ قفّازيّ، أخذتُ حقيبتي وقلتُ له بكلّ طبيعيّة:

ـ شكراً جزيلاً، يا لورِنْثو. أعتزُّ بشعورك نحوي. عمرك ثلاثة وعشرون عاماً وهو عمر يُحسَدُ المرءُ عليه، كلّ شيءٍ فيه يسحرنا. لكن إذا كنتَ تتطلّع للاستمرار معي هنا، سيكون من الضروري أن تبدأ تُحبّني أقل أو بطريقةٍ أكثر عاديّة. وسترى كيف ستسيرُ أمورنا بشكلٍ جيّد. والآن أغلق المحل من فضلك.

رأيته في مناسباتٍ أخرى ينظرُ إليّ بعينيْ فحلٍ، لكنّه لم يصرّح لي بحبّه بعد المرّة الأولى. حاولتُ ألاّ يترك هذا الحبُ الأوّل، الخائب نتائجَ وخيمة لديه، هذا إذا كان حبّاً. بل إنّني في بعض المساءات الشتويّة التي يخاف فيها الناس الخروج إلى الشارع وإذا خرجوا مرّوا سريعاً على الرصيف، كنتُ أُبدي له، ونحن في حالة ودّيّة، حارّة ومريحة، رأييَ بحرّيةٍ حول الحبّ، وكأنّني أُفكّرُ بصوتٍ عالٍ. قال لي في أحد هذه المساءات:

ـ كم هو محظوظٌ ابن العم راميرو لأنّه يجعلك تشعرين بهذه الطريقة.

ـ هو كذلك، هو كذلك ـ أجبتُ ضاحكةً.

كانت إرساليّات السجاد تصلني من استنبول عبر مدريد. بدا لي

ممثّلو يمام، أو من تعرّفتُ عليهم، أثرياء جدّاً، وفي غاية التهذيب، ويبدو ليس لهم علاقة كبيرة بالسجّاد. ربّما كانت واحدة من تجاراتٍ أخرى. كانوا يرسلونها إليّ في شاحنة توزيع، دون تغليف (وأظنّهم فتحوها في الجمارك) وعلى كلّ واحدة ورقة كُتِبَ عليها قياسها، مصدرُها، ميّزاتها الخاصّة في حال وجودها، وإشارة صغيرة مُرَمَّزة تدلّ على السعر التقريبي. جاء في أحد الصباحات شرطيٌّ، تكلّم مع لورِنثو، بعد أن أبرز هويّته، عن تلك الطريقة في استلام السجاد، إلى أن تدخّلتُ.

ـ لماذا لا يرسلونها مباشرةً؟

ـ أظنّ لأسباب تتعلّق بالمركزة الجمركيّة ولأنّ الهيئة في مدريد تفضّلُ هذا. في وشقة لا يوجدُ جمارك ولا ميناء ولا مطار.

ـ هل أنتِ على اطلاعٍ تامٍّ عمّا إذا كان النوع المخصّص لهذه الدكّان يأتي مفصولاً عن غيره من استنبول؟

ـ أجهل هذا. أنا أستلم ما يتعلّقُ بي والسلام. فهذا الدكان تشبه ما يمكن أن يُشكّلَ فرعاً صغيراً لا أهمية له من فروع المركز في مدريد.

ـ هذا ما فكّرنا به نحنُ في البداية. لكنّ الذي يحدثُ هو أنّه لا يوجدُ في مدريد أيُّ مركز.

أعترفُ أنّ ما قاله لي ذلك الرجل أرعبني قليلاً، حتى أنّني عزمتُ على استشارةِ بابلو أكوشتا. ومع ذلك اطمأننتُ نظراً لعلاقة يمام بالأمر ولم أعد للتفكير به. استمرّ كلُّ شيءٍ يسيرُ بشكلٍ طبيعيٍّ. وحين هتف لي يمامُ لأولِ مرّةٍ بعدها، ناقشتُ الأمرَ معه؛ فقالَ لي ألاّ أنشغل لأنّ الأمر يتعلّقُ بدفع الضرائب والشرطة في كلّ أنحاء العالم تريدُ الخروج رابحة من أيّة جهة كانت.

كنتُ سعيدة بدكّاني، وأعتبرُ كلّ بساط وكلّ سجّادة رسالة من يمام، جسراً متحرّكاً بين استنبول ووشقة، بين قلبه وقلبي. تلقيت ذات صباحٍ على أبواب الربيع ـ كان من الصفاء بحيث أنّ المسافاتُ لا تُعكّرُ النظر ومن الممكن قراءةَ لوحةَ الطبيب في البيت المقابل ـ رسالةً حقيقيّةً

من تركيّا. لا أدري كيف لم يلاحظ لورِنْثو اضطرابي. فتحتها كيفما استطعت. كانت منه. كان مشتاقاً ـ كتب واواً بعد الميم وسيناً بدل الشين ـ للأيّام الماضية، ويهنّئني على سير العمل الرائع ـ والمركز، ـ الذي لم يوجد قط بحسب الشرطي ـ يعبّرُ عن رضاه التام. وينهي رسالته بأنّه ربّما استطعنا اللقاء في الصائفةَ ـ كتب الصائفة ولم يكتب الصيف ـ المقبلة. وافقته على الاشتياق وليس على الصائفة.

وذات أحدٍ أشرقَ رائقاً وراح يغطّيه الغيم شيئاً فشيئاً سألني راميرو عند الخروج من القدّاس، ونحن ننتظر الأصدقاء في الساحة لنذهب ونتناول الفيرموت، كم شهراً مضى عليّ دون أن أتناول القربان وهلُ أعاني من أزمة ما، ونصحني، على كلِّ الأحوال، بدردشة مع الأب ألونسو، الذي يحبُّني كثيراً.

ـ دخلنا في عيد الفصح. خَتَم عبارته.

كنتُ أستعدُّ لإنكار أنّني في أزمة، حين سمعت قهقهة فِليسا، التي تأخّرت مع أرتورو، عند الخروج من مصرفه سقطت فِليسا سقوطَ كيس على طفلة، راحت تصرخُ قبل أن تنتبه إلى ما حلَّ بها. كانت فِليسا حاملاً من جديد وهي في حملها دائماً نزّاعة للسقوط.

ـ لا تهتمّ ـ توجّهتُ إلى راميرو بين السيف والجدار ـ ليس هناك ما يدعو للقلق.

وتخلّصتُ من الحرج.

خلال شهر أيّار وقد توقّعتُ أنّنا على أبواب الحرّ كلّمتُ راميرو عن نيّتي بقضاء بعض الوقت في استنبول. كان الدكان على عاتق لورِنْثو وعليّ مقابلة مموّنيّ لأرى إذا كان من المناسب استيراد سجّاد أعلى سعراً، وأكثر حبكاً وربّما حريريّاً. وهي إجراءات من الأفضل أن أقوم بها شخصيّاً. ثمّ إنّني لا أستبعدُ إمكانيّة أن تصبح العلاقات مع تركيّا مباشرة، وبذلك تنتهي عمولات الوسطاء في مدريد.

ـ لكن من المحال عليّ مرافقتك الآن ـ أجابني راميرو.

ـ وأنا لا أتطلّع إلى ذلك. سيكون شركائي بانتظاري في المطار، مثل يمام الدليل كمترجم (ألا تتذكّره؟). لن أتعثّر بأيّ عائق، لا تهتم.

ـ أرى أنّكِ تحوّلت إلى مُرَبّاةٍ تجارة. لا همّ ما دمتِ لم تتحوّلي إلى الإسلام... لأنّني مصرٌّ على أنّك، منذُ عدّةِ أشهرٍ، باردةٌ جدّاً في القضايا الدينيّة.

ـ قلتُ لكَ لا شيء مهماً. أشياء تمرّ، دون أدنى أهميّة. أنت تعرف لو كان هناك أزمة لكنت أوّل من يعلم بها.

ـ هذا ما آمله من كلّ قلبي.

حاولتُ أن يردّ يمام على الهاتف، لكن دون جدوى فقد كانت أمّه هي التي تردّ دائماً، وأظنّها تشتمني بالتركيّة. لم أجرؤ على أن أهتفَ له باسمي الشخصي خشية أن أترك دليلاً على المخابرة. وأمام الفشل بالهاتف، أرسلتُ إليه برقيّةً قبل وقتٍ كاف، أخبره فيها بوصولي ورقم الرحلة. بعد ثلاثة أيّام تلقيت برقيّته، سيكون بانتظاري دون تأخّر.

عندما سلّمتُ جوازَ سفري في المطار راقبه الشرطيُّ الإسباني بفتور، وفجأة استيقظ عنده قبس من الاهتمام. تشاور مع آخر كان موجوداً في الخلف وتمتما فيما بينهما.

ـ هل تستطيعين الدخول قليلاً إلى هنا من فضلك؟

عبرتُ إلى ما وراء الطاولة دون أن يعيد إليّ الموظّف الجواز. اقترب مني الذي كان واقفاً وهو يحمله في يده.

ـ هل أنتِ ذاهبة إلى استنبول؟ من سترين هناك؟ من تنتظرين أن تلتقي؟

تلعثمتُ بهدف رحلتي وارتبكت، لكن وبما أنّه لم يكن أمامي مخرجٌ آخر، وأنا لا أعرف أحداً، سوى يمام لذا أعطيته اسمه وكنيته.

ـ هل تعرفينه جيّداً؟

ـ عمليّاً هو شريكي في تجارة سجّادٍ صغيرة في وشقة.

ـ منذُ متى؟

ـ قريباً سيصبح عاماً.

ـ شكراً، يا سيّدة، تستطيعين أن تمرّي ـ وناولني جواز سفري.

عبرت جهازَ التفتيش والتفتُ إليهما وهما ما يزالانِ ينظران إليّ ويقولان شيئاً لا أعرفه، لكنّه يتعلّقُ بي. وبما كنتُ أرفضُ تصوّر أن

طيفيٍ أو ساقيٍّ يثيران تعليقاً، على الأقل بين الشرطة، فكّرتُ ربّما استنفر زوجي شرطياً سرّياً خاصاً على اتصالٍ معهما. لكنّني سرعان ما عزوتُ مثلَ هذه الفكرة الوحشيّة للمسلسلات التلفزيونيّة، رفضتها خَجِلةً من نفسي ونسيتُ الحادث.

الرحلةُ كانت قصيرةً وطويلة في آنٍ معاً. كنتُ أشتعلُ رغبة بلقاء يمام ـ ليس هناك تعبير أفضل ـ؛ لكن ماذا لو لم تعد الحالة ذاتها؟ ماذا لو كان كلُّ شيءٍ مغامرةَ صيف؟ لم أتبادل معه في الماضي ثلاث جملٍ متتالية ومنسجمة بمعزلٍ عن حبّنا قط. كما لم أتصرّف معه قط، لنقل، بطريقة محترمة. كنتُ أتوجس مخافة النظرة الأولى عبر طاولة الجمارك، نظرة الإجراءات التافهة للمجتمع الذي نعيشُ فيه، أكثر من هرواةٍ خضراء. ضميرُ الملكية: نا ـ والآن حتى ضمير الملكية: نا، يسبب لي القشعريرة، إذ ربّما كان فقط ياء الملكية ـ يكمن في الإبحار عبر بحرٍ دافئٍ، في مقتِ ملابسِنا وفي إحساسنا الواحد بالآخر والتخمين بعرينا تحتها. كلُّ ذلك، ولمزيدٍ من السخرية، دون أيِّ تصريحٍ سابقٍ أو علاقة ثقة متنامية. فقد حدثَ تعشُّقٌ ـ مرّة أخرى لم يكن هناك من تعبير أفضل ـ تحت السطوح المرئيّة، بطريقة طائشة وحيوانيّة. كيف لن أشعر بالخجل عندما سأعود وأراه، وقد صرت سيّدة جيّدة اللباس، ومعي مجموعة حقائب فاخرة، تعرف أين تضعُ قدمها، وتسيِّر تجارةً هو شريك جيّدٌ فيها بشكلٍ ما، ستعيشُ في فندق بِرا بالاس، ليس تماماً لأنّه حديث، بل لأنّه مريح وتقليديّ؟ المرأة الغرور والجموح التي عرفها صارت أخرى أكمل، بقبّعتها التافهة، وتحرّرها من الزوجِ والأصدقاء، مستعدّة لأيّ شيءٍ مهما كان ـ دون أن تدري بماذا يتعلّق هذا الأيّ شيء كان ـ والذي تواصلت معه في المرحلة الأخيرة عبر ملحوظات أسعار وفواتير وبرقيّاتٍ باردة. كانت الفرصة بالنسبة لي صعبة وربّما بالنسبة إليه أكثر. كان تبادل النظرة الأولى سيحدِّدُ نموذج التعامل بيننا. ومع ذلك هل سأكون قادرة على التحكّم بنظرتي وتفسير نظرته؟ حطّت بي الطائرة في مطار استنبول وأنا في هذه المتاهة المعقّدة.

كان يمام عند قدم السلم. مدَّ ذراعيه لمساعدتي على هبوط الدرجات الأخيرة. أبعدني نحو اليمين هامساً في أذني«أنتِ أجمل من أيّة مرّة على الإطلاق»، ووقعنا الواحد بين ذراعي الآخر يقبّلُه مثل زوجين عاشقين لم يلتقيا منذ زمن. بعد هذا الاندفاع:

- صرتُ خبيرةً في القسطنطينية - كذبتُ عليه - عندما رآها قسطنطين وكانت ما تزال بيزنطة قال: «هاهي حاضرةُ الإمبراطورية» هذا فكّرت به حين رأيتُك.

عادَ وقبّلني.

أخذنا الطريقَ إلى المدينة في سيّارة مستعملة كفايةً، ملتصقين تماماً. وضعتُ يدي على فخذه. لم يكن لدى أيٍّ منّا تجربة بالحوار.

- هذا الربيع غريبٌ جدّاً: ففي اليوم الواحد ترين الطقسَ حارّاً ثمَّ غائماً وماطراً ويعودُ فيصبحُ حارّاً - لم أشعر أنا بأيِّ اهتمام بالطقس - تُوفّيَ والدي في نهاية العام... - إذن ليمام، كما هو طبيعيٌّ، أبٌ أو كان له أبٌ - أخذ أخي محمّد دكّان المجوهرات، وأنا دكّان السجّاد. أخي وهو أكبر منّي، لا يشبهني بشيء. - تكهّن بتفكيري - إنّه بدينٌ وأشقر مثل أمي

- ما أغربَ الأمر، تركيٌّ وأشقر!

- هناك أتراك من مناطق وأعراقٍ كثيرة. ومن جميع الألوان - أضافَ ضاحكاً.

تأكّدتُ أخيراً أنَّ ليمام أسرة، حدّدت موقعه، رأيت من أين وصل إليّ بين الناس. وكان ما يزالُ هناك الكثير مما تجبُ معرفته منذُ طفولته وحتى الآن، ربّما لن يكونِ كلُّ شيءٍ بهذه البساطة.لم أبغِ معرفةَ المزيد. كان صوته، الحلقيُّ قليلاً، عميقاً وآسراً، وتركته يأسرني. يداه على المقود حازمتان وأتوق لتكونا معي كذلك. مرّت بخيالي يدا راميرو لحظةً يقودُ فيها سيّارته في بداية زواجنا. ما عمر يمام؟ ربّما ثلاثون سنة، أصغر من راميرو بقليل: «من الصعبِ جدّاً تحديد عمر شخصٍ من عرقٍ آخر» فكّرتُ «حسن، يمامُ ليس من عرقٍ آخر، أعني من عالمٍ آخر، جوٌّ آخر، ثقافةٍ أخرى مختلفة.» عندئذٍ حدثَ أن وقعتُ عمليّاً على هذا التمييز: لم يكن يمام ينتمي إلى عالمي أو ثقافتي أو لغتي أو

ديني، وليس له الطريقة نفسها في فهم معظم الأشياء. رفعتُ يدي عن فخذه ووضعتُها على كتفه، مداعبةً عنقَه وأنفَه الذي طالما شدَّني إليه. كان نوعاً من طلب المعذرة عمّا فكّرتُ به.

ـ يقول الأجانبُ إنَّنا، نحن الأتراك، كي نحكَّ أُذننا اليسرى نستخدم يمنانا وأكثر من ذلك من خلف الرأس. إنَّها طريقة لوصفنا بالمعقَّدين. ـ ضحكنا معاً ـ هل تعرفين إلى أيِّ فندق ستذهبين؟

عبرنا القرن الذهبيَّ ـ «هل تريد أن تصدِّق أنَّني لم أتعلَّم حتى الآن كيف أميِّزه عن البوسفور؟» ـ، ولم نتأخَّر في الوصول إلى الفندق. سيِّدةٌ بدينة صبغت شعرها بالأشقر كانت في الاستقبال أخذتْ وثائقي ونظرتْ شزراً إلى مُرافقي. قرعتْ جرساً فتولَّى نادلٌ أمرَ أمتعتي. رأيتُ بجانب المصعد عين حظ بلّوريّة، لمستها. صعدنا على مهلٍ بصمت ومعنا النادل المزيّن على الطريقة التركيّة. كلانا كان ينظر إلى الأرض وحين وصلنا إلى الغرفة:

ـ ليس معي ليرات بعدُ ـ قلتُ للفتى، الذي التفت إلى يمام هازّاً بكتفيه.

أعطاهُ يمام ورقةً نقديّةً. أغلق البابَ بحذرٍ وبقي مستنداً بظهره إليه ينظر إليَّ بصمت. فتح بعد ذلك ذراعيه دون أن يرفعهما، بحركة تنمُّ عن الاستعداد أكثر ممّا عن هي للاستقبال. ركضتُ إليهما ووضعتهما على كتفيَّ. وبينما كان يقودني إلى السرير سنح لي أن أرى من النافذةِ القرنَ تحت شمسٍ ناعمة. طرقتْ زاويةُ طاولة وركي. التكهّن الذي طالما عذَّبني خلالَ الرحلة حُلَّ دون تقاضٍ. كان يمام ما يزالُ يملك قوّة اجتياحي وتحطيمي ونقلي إلى السماء السابعة وتركي هناك في الظلمة.

عندما نظرتُ من النافذة من جديدٍ كان المساء يحلُّ. رأيتُ الشمسَ ما تزالُ تهيمن على المآذن والقبب في الجهة اليمنى، وبالتالي على المسجد الأزرق ـ عرفته من مآذنه السبعة الاستثنائيّة ـ سانتا صوفيا، سانتا إيرِنة والتوبكابي، وقد صارت دون شمس تنبعثُ ذاهلةً من الماء والأشجار. ماء هو ملتقى بحر مرمرة وبداية القرن الذهبي والبوسفور، الذي ينتهي في البحر الأسود: تعلّمتُ الدرسَ... كان القرن ورديّاً ورماديّاً. قبل جسر غالاتا، يميل إلى الأخضر ثمَّ إلى الفضّي؛ قبل جسر

أتاتورك، يميلُ إلى الورديّ ثمّ إلى الداكن. كنتُ سعيدةً، وأرغبُ بألاّ أنسى أبداً تلك اللحظة.

نهضتُ من الفراشِ دون أن أحدثَ ضجّةً. اقتربتُ عاريةً من النافذة. غيوم قليلة، محفوفة جوانبها بالذهب، تقطع السماء. سربٌ من الحمام فوق بؤسِ الأسطحة القريبة من الفندق سلاّني. كانت الأبنية قد بدأت تختلط أمامي، البيوت المتكدِّسة تعتم فيسودّ المشهد. عصير توتٍ انسكب فوق الأحياء القريبة من الفاتح وراح ضبابُ الليل ينبثقُ من بين الهضاب. عادَ القرن ذهبيّاً، يكادُ يكون أخضر ليمونيّاً، ومرمرة بزرقته الفاتحة، تشقّه زرقاتٍ أخرى أفتح منه، يخلّفها وراءها مخور البواخر. لقد اعتلى الغسقُ عرشَهُ. صارت السماءُ والماءُ بلونٍ واحدٍ. الشمسُ التي كانت قبل ذلك برتقالةً أذعنت للغوص. كلّ شيءٍ عند موتها بلون الفوشيا ويميل إلى البنفسجي من الأسفل وإلى الزرقة في الأعلى.

جبيني كان يتعرّقُ. رأيتُ وأنا أُجفّفُه يمامَ ما يزال غافياً. اقتربتُ منهُ. وضعتُ يدي على عضوه. فتح عينيه. سمعتُ نفسي أتساءل عن شيء لم يخطر لي التساؤل عنه من قبل.

ـ كيف استطاع أن ينتظرني عند حافّة سلم الطائرة؟ هل هو من ذوي النفوذِ هنا؟

ـ في تركيّا جميعنا نملكُ ابن عمٍّ يشغل المكان المناسب في كلّ ظرفٍ ـ أجابَ مبتسماً. عانقني: هل تريدين العشاءَ في الفندق أم نذهب إلى كيمكابي، إلى باب الرمل، حيّ الصيّادين القديم؟ سيعجبكِ. إنّه مميّز جدّاً. ليس هناك سياحة كثيرة الآن.

ـ نذهبُ ـ قلتُ ونهضتُ ـ سأستحمّ.

ـ وأنا معك.

دخلنا الحمّام. كان جسده رشيقاً، أسمرَ، مفتولَ العضلات، ليس مفرط شعر البدن. مستقيم وطويل الساقين، عريض المنكبين يبزغ منهما عنقه بثبات. كان يُصَبِّنُني بعذوبة وأنا أيضاً. وتثيرني إثارته وبالعكس. تعانقنا، وراحَ جسدانا ينزلق الواحدُ منهما بفعلِ الصابون على الآخر، نتبادلُ القبلَ مغمضَي العيون تحت الماء الذي يدخل في فمينا.

ـ لن نستطيعَ العشاء ـ قلتُ وأنا أبصق وأضحكُ.

رآني وهو يجلسُ على السرير أرتدي ملابسي الداخليّة. اخترتُ ثوباً بسيطاً. كان في يدي حين اقترح:

ـ ارتدي ثياباً جيّدة. المحلّ بوهيمي، لكنّه أنيق. يذهب إليه أفضلُ الناس.

بدّلتُ الثوب. فكّرتُ: «ها قد صار العالم يدخل بيننا. باستطاعتي أن أبقى في هذه الغرفة حتى عودتي إلى إسبانيا».

ـ أنت جميلة ـ تحسّستُ عينيّ وشفتيّ ـ بل وأكثر جمالاً الآن ـ عطّرتُ تحتَ أذنيّ ـ هذا ما لم يعد محتملاً ـ قبّلني هناك. ـ ليس هذا هو العطرُ الذي كنتِ تستخدمينه.

ـ ألا يعجبُكَ؟

ـ يعجبني أكثر. ـ مرّ بلسانه على أذنيّ.

ـ اختر بيني وبين العشاء.

ـ أنتِ والعشاء. ـ اختارَ.

كان المطعمُ، ذو المظهر الشعبي ونوره غير المناسب كثيراً، مؤلّفاً من طابقين. جلسنا في عمقِ الطابِق الأسفل. كانت الطاولات الأولى بجانب النافذة الكبيرة التي تطلُّ على الشارع الصاخب والضاجّ مشغولةً. طلبَ يمامُ العشاء.

ـ لن يكون كثيراً ـ وضّحَ لي ـ: طعامٌ من طعامنا المميّز، صحون مختلفة، سترين.

قدّمَ لي سيجارةً مشتعلة. لم تُعجِبني فاطفأتها خفيةً.

ـ هل ترين صاحبةَ الشعر الأحمر الملفتةَ للانتباه جدّاً والجالسة إلى أبرز الطاولات؟ إنّها أرملة شابّة. كان زوجها تاجراً عجوزاً جعلها ثريّةً جداً، وهي تُنفِقُ الآن ما وفّره العجوز. المرأة المسنّة التي معها هي نوعٌ من سيّدات المرافقة.

ـ قوّادة؟

ـ لا أعرف ما هذا.

ـ التي تبحثُ عن مشاريع لآخرين.

ـ لا، ليست بحاجة لذلك. ترافقها كي لا تذهب وحيدةً، لأنَّ هذا يعتبر عيباً هنا. الرجل الذي على يمينها مصمّمُ أزياء مشهور، ومن في الأمام نوع من المدير.

ـ والأفتى؟

ـ قد يكون خطيب مصمّم الأزياء ـ أجابَ دون أن يوليه أدنى أهميّة.

كانت الأرملة قد طلبت دخول زوج من الموسيقِيينِ إلى المطعم، يعزفان لحناً متكرِّراً وفرحاً.

ـ موسيقى عربيّة ـ وضّحَ يمام الذي كان يوقّعُ اللحن بكتفيه ويدندنُ.

شجّعتْ الأرملةُ مصمّمَ الأزياء على النهوض، وكان يرتدي قميصاً مزهّراً مفتوح الصدر تماماً كما شجّعتْ المديرَ، الرجل البدين والمتشيّبُ. كانا يتحرّكان على إيقاع اللحن أيضاً، مُبالِغَينْ بحركة الوركين. المرأتان تضحكان. نظّفوا الطاولة وطلبوا منهما الصعود فوقها. فكّرتُ: «الجميع شربوا».

ـ لا تظنّي أنهم شربوا ـ قال يمام ـ إنّهم هكذا: يتسلّون ويمرحون.

يرقصُ الرجلانِ الآنَ نوعاً من رقص البطن، ما بين المزاح والجد. المطعم بكامله يصفّق. نهضت الأرملةُ ووضعت ورقةً ماليّة بين زنّار وقميص الخيّاط. أطلق يمام ضحكةً مجلجلة. نظروا إلى طاولتنا وقاموا بإشارة دعوة.

ـ هل تريديننا أن نذهب؟

ـ أفضّلُ أن أبقى معك وحدي. هل تعرفهم؟

ـ لا حاجة للمعرفة هنا. لكن من يعملُ في البازار يعرف كلَّ العالم.

ناولَ المصمّمُ الورقةَ النقديّة للأفتى. وضعت المرافِقة ورقة أخرى في خصر الإداري المكوّر. تصبّبَ الراقصان عرقاً. رفع الموسيقيّان الإيقاعَ الذي يتابعه الجالسون بأكفّهم.

ـ ظرفاء، أليس كذلك؟ ـ قال يمام: ناس عندهم مال ومزاج جيّد.

ـ لكن أليست هذه رقصة خاصّة بالنساء؟

ـ ياله من سؤال إسباني! ـ كان يضحكُ ـ يرقصون هنا ما يطلبه الجسد، دون إذنٍ من العادات الجيّدة. كلي. ـ كان قد أحضر عدداً من الصحون المتنوّعة، كلّها باردة ـ : إنّها مقبّلاتنا.

كان يمام يعطيني بشوكته لأتذوّقَ. نزل الراقصان عن الطاولة وشربا النخبَ مع الذين لم ينهضوا. دعيا الموسيقيين، اللذين صفّق لهما كلّ المطعم؛ علماً بأنّني لم أرهما يستحقّان كلّ هذا. كنتُ شاردةً، واهتمام يمام يتوزّع في كلّ ما حولنا. كان بودّي أن أشدّه إليّ، أثبّته كما يُثَبّتُ مصارعُ الثيران الثورَ الذي يخرج شارداً من الحظار. كلّما وجدتُ نفسي مجبرةً أكثر على الانشغالِ بشيءٍ ما كلّما ابتعدَ عن ذهني أكثر. شربت؛ رفعتُ نخبَ يمام ناظرة إلى عينيه بكل تركيز العالم، لكنّ عينيه كانتا تنزلقان، تهربان منّي.

ـ لماذا شربت النخبَ أنتَ؟

ـ شربتُ نخبكِ ـ لكنّني لم أعد متأكّدة من ذلك...

ـ أتمنى أن أكون متأكّدة ـ قلتُ.

ـ نخبكِ ونخبي.

صعدتُ وحدي إلى المغاسلِ في الطابق العلوي. هل أردتُ أن أسوّي هندامي أم أن يُشتاقَ إليّ. نظرتُ إلى نفسي في المرآة. ما أصعبَ أن تعني كلّ شيءٍ بالنسبة إلى شخصٍ آخر، أن تحتكريه، تضعي له غمامة كيلا يرى غيرك وتكوني من يُريه العالم. أضفتُ «مثل دليلٍ سياحي». ما أصعبها خاصّة إذا كان هذا الشخصُ قد عاشَ ثلاثين عاماً أو أكثر دون أن يعرفكِ، ينتظرَكِ أو يتوقّعكِ...

نزلتُ. كان يمام يتكلّم مع ندماء الأرملة المشاغبين. ناداني مومئاً كي أُقبِل بدوري. رفعتُ يدي محييةً ورافضة، وجلستُ حيث كنتُ من قبل. لم آكل شيئاً تقريباً. بقيت الصحونُ على حالها لم تلمس تقريباً؛ وجاؤوا بصحون أخرى ساخنة فيها سمك. جاء يمام.

ـ أليس عندك رغبة أكثر بالطعام؟

نفيتُ ماطّة شفتيّ بقبلة في الهواء. سكبتُ لنفسي كأساً آخر. أخذه يمام، شربَ جرعة وأعاده إليّ من جديد.

ـ هل أنت تعبة؟

ـ بلى. ألا تذكر أنّني قادمة من السفر؟ حسن، ـ ابتسمت ـ أعتقد أنّه أكثر من سفر واحد.

ـ ألا تريدين الذهاب للرقص؟

ـ بلى. لكن وحدنا، نحن الاثنين فقط.

ـ في الفندق؟

ـ في الفندق.

ـ أنت تسمّين بعضَ الأشياء الغريبة جدّاً رقصاً.

كان يضحكُ. أخذني من يديَّ، قبّلهما. نهضنا. وعند المرور باتجاه البابِ قال لمجموعة الأرملة شيئاً بالتركيّة. «أريفِدِرتسي» صاح بعضُهم وقال آخرون «شياو»، واحدٌ فقط هو عشيق مصمِّم الأزياء قال «أديوس».

كان القرنُ يعكسُ أنوارَ الضفاف، وهضابُ استنبول القديمة تتلألأ مثل سماء منخفضة، بينما السماء في الأعلى صافية. تجري ريح فتمرّ الغيوم الصغيرةُ أمام القمر النامي. شعرتُ بيدي يمام تفكّان ثوبي من جهة الظهر؛ فسقط عند قدميّ مُحدثاً جلبةً ذكّرتني بحمائم الصنوبر حين تقطع طيرانها. جلبة طالما سببت لي القشعريرة في طفولتي. استدرتُ نصف استدارة وعانقته. قضى الليلَ كلّه معي. ما حلمتُ به ليالٍ كثيرة في وشقة حدث: النوم معه، يعانقني وأعانقه...قبل وبعدَ الحبّ؛ في الحبّ، الليل كلّ الليل.

كانت تلك المناسبة الأولى التي فكّرتُ فيها بما فكّرت به بعدها مرّاتٍ كثيرةً. بقيتُ غافيةً، تنفسَ فجائي أقوى من المعتاد يوقظني، لا أدري إن كان تنفّسي أم تنفّس يمام، ويعودُ بي إلى الواقع. لأنّنا نسمّي الوعي وحده واقعاً. كم نخطئ في تسمية الأشياء.

مثلاً كلّ الذي نحوّله إلى قاذورة حقيقيّة نسميه حياةً عاديّة: الخداع، الفخّ الذي ينصب لنا كي نعملَ ونكونَ وديعين ومنقادين، نصنعَ السلاح وتقومَ الحروبُ ويوجدَ الحكّام الذين يحملوننا إليها، يحملون إليها رجالنا وكأنّهم خُلقوا لأشياء مختلفة عنّا نحنُ النساء. اعتدنا الأشياء الرهيبة، بعد آلاف الأجيال من الأطفال المغبونين الذين سيغبنون بدورهم أبناءهم حين يكبرون. كأنَّ الحياة ترفٌ للموت، اضطرامٌ يتقدّمه، ويظهر الموتُ حين يأتي عدد آخر من الأشخاص إلى العالم... لقد كسرتُ القاعدة: لم ألِد، أو على الأقل لم يخرج من جسدي أيُّ كائن حيّ. لكن سيّان فالحياة، وعلى الرغم من أنّها قاعة انتظار الموت الممتعة، ليست شحيحةً، ليست محاسِبة تحاسبك بالسنتيم على ما لك وما عليك، إنّها مبذّرة وأنا أتطلّع إلى إطالة هذا الممر القصير للذّةِ العيش ـ أعرف أنّها ليست لي بل أنا لها ـ إلى أن أموت فيه أو لأجله. لكن من يموتُ في ممرٍّ؟ آهٍ، لو أنَّ اللذّةَ تقتل.

أعرف أكثر من نساء أخريات التناقض القائم بين الحياة المنضبطة، النموذجيّة، أو على الأقل المعقولة، وبين العنف الذي يتطلّبه الجنس بدوّامته الأفريقيّة اللامعقولة والمعرِّقة. لو تعلّقَ الأمرُ بي لمضيتُ دائماً عاريةً وعضوي مكشوف، أُجامع يمام هناك، حيثُ تُداخِلنا الرغبة. وإذا كنتُ لا أقترح هذا ولا أُمارسه، فلأنّنا جميعاً مخدوعين بحضارةٍ بائسة ومنوِّمة، مخدوعين بنوعٍ من الشعور الإنساني الزائف، لأنَّ الخروجَ من الخديعة في حياةٍ واحدةٍ عملٌ شاقٌّ جداً. سينتهي عضوي وردفاي وثدياي إلى ألّا تقول لها شيئاً. علّمونا العمل بالألغاز، وأن نطرح على أنفسنا، ولو مزاحاً، مع كلّ عشيقٍ لغزاً وكأنّنا نحن من يجبُ أن يكتشف لغز الآخر، والحياة تكتشف لغزنا غير الموجود ونعرفُ أنّه غير موجود.

يمكن أن يُستَنتَجَ ممّا أكتبُ ـ إذا ما قرأه أحدٌ ـ أنّني كلبةٌ مارقة. هذا ليس صحيحاً: أو صحيح لكن مع أشياء أخرى. ومع ذلك إذا كنتُ قد توصّلت إلى أنَّ أقصرَ الطرق وأسرعها للاتحاد والتفاهم بين كائنين بشريّين هو الجنس؛ لكنّه طريقٌ غير تامّة، لأنّنا لسنا تامّين. ومع ذلك فهو الأفضلُ. لأنَّ الجنس بالنسبة للحيوان لا يعني شيئاً، فالقردُ، صائد السرطان إذا لم يمارسه مع أنثاه، مارسه مع نفسه ونظرَ

إليها باحتقار، وإذا مارسه معها نسيه فيما بعد. لكنّه بالنسبة للبشر، مهما تباهَيْنا (وهو ما لا نقوم به أبداً بما يكفي) يبقى الطريق الأقل خطأً. لا يوجدُ، ما دام هذا الجنسُ موجوداً، ما يمكن أن يفصلَ بين كائنين بشريين، فهما اثنان في واحد كما كان يقول الأبُ ألونسو عن الشيكات ومونتِ ثِبيداد (جبل الرحمة) يوم زفافي منذُ قرون.

هطلَ مطر ناعم وبزغت الشمسُ. يقولون في بلدي إنَّ الساحرات يتمشّطن حين تمطر وتطلع الشمس. ربّما هنَّ الآن يتمشّطن، لكن من يدري أين؟

أنظرُ من النافذة إلى موقف السيّارات في الأسفلِ فأرى وكر نملٍ. كم نحن مختلفون زيفاً بعضنا عن بعض، أو كم نظنُّ أنّنا مختلفون أو أنّهم جعلونا أو جعلنا أنفسَنا مختلفين. نعيشُ منفصلين، مليئين بالحذر، مثل جزرٍ في أرخبيلٍ لامتناهٍ. نشكّلُ الإنسانيّةَ، بلى: لكنّنا جزر تفصلُ بيننا بحارٌ: بحرُ الأعراق، بحرُ المُعتقدات، بحرُ الاقتصاد، بحرُ العمر... الحياةُ مغامرة غامضة، على الرغم من أنّنا نُصيب للحظاتٍ قصيرة في فهم جزءٍ صغير منها. علينا أن نعيشَ هذه المغامرات وحدنا، يأتون بنا إليها وحدنا ونموت وحدنا. يمكن أن نُفهَمَ ونُرافَقَ لفتراتٍ قصيرة، وهذا في الأعماق كذب: فنحن وحدنا. كيف لن نتمسَّكَ بأوّلِ من يقترب منّا عبر كلمة الحبِّ، القبيلة، أو الابن أو المشاعر؟ وحدَهُ الجنسُ من بينها جميعاً المخلبُ الأفضلُ لاستبقاء الآخر، الخطّاف الأفضل للاقتحام. آهٍ لو استطعتُ أن أجعل من القلب والرأس جنساً، لكنّ الأمر ليس كذلك، لا يمكن أن يكون كذلك: وهنا تكمن اللعنة. فإلى الجنس يمضي الجسدُ دون رأسٍ ولا قلبٍ ولا روح. ومن يقولُ عكس ذلك لا يعرفُ الجنسَ. وحده الجسدُ، لأنّهُ جنس ولا شيء غيره، يمضي إليهِ بصدرٍ مكشوفٍ، كاملٍ وحقيقيّ. هذا هو الدرسُ الذي تعلّمتُه متأخّرةً جدّاً. نعم الأجسادُ تتماهى وتتحالف: إنّها جزرٌ تتقاربُ ضفافها وتتداخل. وأنا أذوبُ حول عضو يمام، أتلاشى فيه وهو يذوب، حين يبلغُ ما بلغته في وقتٍ واحدٍ، حولي وداخلي وينسفخُ فيَّ. ويصبحُ كلُّ شيءٍ جيّداً ومفهوماً والعالم يصل إلى الغايةِ التي خُلقَ لأجلها، هذا إذا كان قد خُلِقَ، لكنَّ الروحَ لا والقلب لا والرأس لا. إنّها أشياء مختلفة، أرفع وأذكى. كم يُغضِبُ المرءَ ويثير حنقَهُ اضطراره

للاعتراف بذلك: فالروح والقلبُ والرأسُ يجب أن تُستَحْوَذ باستراتيجيّاتٍ أخرى.

مرّت لحظات كنت ألمس فيها روحَ يمام بأصابعي، لا أدري بأيِّها خرجتُ فيها ملطّخةً بمسحوق الذهب، الشبيه بذاك الذي كانت تُخلّفه علينا في طفولتنا فراشةٌ حين كانت تهرب أو قبل أن تموت. لا أدري بأيّةِ استراتيجية ومع ذلك أعلم أنّ احتدامَ معركة الجنس يُساعدنا، يترك كلّ شيءٍ معلّقاً، لا يُعرَف لمن هذا القميصُ أو الرائحة، لكنَّه يُساعدُنا. إنَّه مشروعٍ يُشرَع به معاً. أنا واثقةٌ من أنَّ التورّط المحموم فيه لا يتلاشى كلّيّاً، وأنَّه يوجدُ شكلٌ من الاستلطاف، الألفة التي تستطيل إلى ما بعدَ الرعشة وتُطيلنا. ما أعرفه عن نفسي، هو أنّ ولهي مستمرٌّ: لا يدوم فقط دوامَ الجماع بل يقودُ إليه، يتبعه ويسبقه مثل نابض ساعة، يتحرّكُ جاهلاً الساعة التي يسجّلها. أو مثل مشتل أزهار يتسع لأنواع كثيرة، ربّما أكثرها عبقاً وطيباً وجمالاً تلك التي يسمّونها روحيّة، لكن لا يمكن لأيٍّ منها أن يستمرّ دون هذا المشتل، بل حتى دوامه في هذه الحالة قصير...

كثيراً ما فكّرتُ أنَّ ولهي أشدُّ عنفاً حتى من رغبتي الجنسيَّة، وأكثر شخصيّةً، لكن من المفجعِ أنّهَ أقل إمكانيّة للنقل إلى الآخر. يمكنك إثارة الرغبة في كائنٍ آخر، لكّن ليس الوله. الآنيُّ منه نعم، لكن ليس السابق منه ولا اللاحقِ على ثمالة الجنس. لذلك فالولهُ أقربُ إلى الموتِ من الرغبة، حين يخلطُ السعادةَ بالألم. الألم الممتع لأنّه ينبع ممّن نحبُّ ويأتي من يده، حتى وإن لم يعِ أنّه سببه فينا وليس هو أكثر ما يؤلمنا. لذلك فإنَّ الولهَ يتغذّى من ذاته ـ أعرفُ هذا جيّداً ـ مثل السرطان، وهو بالنتيجة نهم كالسرطان. ولكي يتمّ لا يحتاج إلاّ لذاته حين يستنفرهُ وجودُ أحدٍ ما. لأنَّ غياب هذا الأحد رهيبٌ، لكن يبقى لنا أمل اللقاء به، بينما إذا لم يرافقنا حضوره لا يتبقى لنا غير اليأس.

هناك أيّامٌ أبقى فيها وحيدةً وبالفعل تُصيبني الثقةُ بسهولة الحصولِ على يمام الفحل بالقنوط، وما أبعدني عن الرفيق. ما من سرّ في جسده بالنسبة لجسدي، ما من منعطفٍ لم أسبره وأقبّله. ما من أثر جرحٍ لم أجُبْ وما من شامة لا أعرفها عن ظهر قلب. لكنه الشيء الآخر، الآخَر... إنَّه بحثٌ لا ينتهي أبداً. بحثٌ أشعر بنفسي غير قادرة على

الشروعِ فيه من جديد، لأنّني لا أعرف أين أنظرُ ولا ماذا أنظر، ولا ماذا أحقّق وبأيّ الطرق.

يا للضيق في هذه الأيّام اللجوجة بطلباتها! فحين يصلُ فيها يمام أعرفُ أنّه لا يصل إلا الفحلُ وحده، الجسدُ وحده، القضيبُ المنتصب وحده، اللسان الشره وحده. كم من الوحشة تصل معه. ولكي أفكّر بيمام بكلِّ قواي أحتاج أحياناً أن يختفي. فيمامي أفضلُ من الذي يقدّمه هو لي. وأتساءل أحياناً ما إذا كان من الأفضل أن أقتله وأرتاح مرّة واحدة وإلى الأبد... ومع ذلك ألم آتِ إلى هنا ضجراً من الراحة؟ وأتابعُ:«أم أنَّ الموت أفضل!»، لكن لا وجود لهذا التوتّر في الموت، هذا الشد والرخي الذي هو أنا نفسي وأريد أن أستمر فيه. أكرّرُ في هذه الأيّام الملحاحة في طلباتها «لو امتلكتِ قلبه كما تمتلكين جسده لانصهرتِ فيه فعلاً ولصرتما شخصاً واحداً، شخصاً واحداً لاستنشاق العالم وجماله، واحداً وحيداً كما كانت تحكي لاورا عن المخناثات في بداية العالم. كي نشعر بأنفسنا معاً وبالطريقة ذاتها نشعر بالمطر والحر، كي نموت، أيضاً كي نموت ولكي نخلصَ أو نُدان، هذا إذا كان هناك خلاص أو إدانة.» شخص واحد لا يكون هو ولا أنا بل هو وأنا، مختلفان عن هذا الكائن الجديد ومنتهيان إليه.

لا أدري ما إذا كان سيواسيني الاقتناع بأنَّ يمامَ هو يقيني الوحيد، فهمي الوحيد، تفسير كلّ شيء وخلاصة الحقائق كلّها.

دونه لا أتصوّرُ إلاّ الظلمة والبلبلة والاختلاف المضني: التشتت غير المجدي... وعلى الرغم من هذا لا أملكُ قلبه ولا رأسه. لا. لا، أنا لا أريدُ أن أكون خالدة. فالجسد الخالد لا يفيدُ للوله. أُريدُ أن أموتَ فيه، في يمامي. ولذلك عليَّ أنِ أرضى بمرجل ممارسة الحبِّ هذا، وموتي لحظةً معه بين ذراعيه لأبعثَ بين ذراعيه أيضاً. ولذلك عليّ أن أرضى كلَّ يوم بمجيئهِ مُغمضَة عينيَّ على كلِّ هذه الوحشة حين يصل ويفتحُ البابَ، في الوقت ذاته الذي أفتحه فيه.

نهاري سيّئ اليوم.

أصبحت الدنيا ضباباً. نورٌ باردٌ يدخل من النافذة التي لم

تغلق ستائرها. ويمامُ ينامُ على السرير. داعبتُ صدرَه، الذي كان يرتفعُ وينخفض مع تنفُسِهِ، مررتُ بأصابعي على حلمتي ثدييه: ابتسمَ في نومه وارتعشت أهدابُهُ. تابعتُ عظمتَي ترقوته، اللتين تمتدّان من رأس العنق الغائر وحتى الكتفين، وجانبيه اللذين يتماوجان فوق أضلاع قفصه الصدري، سرَّتَهُ... لم أرَ قط سرَّةً راميرو. أو لم يهمُّني أن أراها، طبعتُ قبلةً عليها، بعدَ أن شممتُها. حككتُ خدِّي بشعر عانته، بين الفخذين شبه المفتوحين. هبطتُ حتى الكعب الذي كان يلمعُ في أنحل جزءٍ من ساقه ووصلتُ إلى القدم، التي لم يكد الحذاء يشوِّهها، وحيثُ إصبعها الثانية أطول من الأولى، مثل التماثيل الإغريقيّة، مشطه أعلى مما هو معتاد وأخمصه قاس، لامسته براحة كفّي... كان لجسده بعدَ الحبِّ والليل رائحته هو. تصدرُ عن جلده، الذي لم يكن فائق الرقة ولا فائق الصفاء، رائحةُ عرقٍ سليمة، وعن أربيتيه رائحة مني رطبةٍ ذكّرتني بأزهار الأكاسيا، وعن قدميه رائحة حموضة خفيفة على وشك التفسّخ، لكنّها ليست متفسِّخة، وذكَّرني إبطاه بأغمار الماء حيث تتكوَّمُ الأوراق في الخريف. تساءلتُ ما أغبانا حين نُبَدِّل هذه الروائح الطبيعيَّة بأخرى مماثلة تموِّهُها. اقتربتُ أخيراً بأنفي من فمه، كان مطبقاً ويخرج منه نفَسٌ استنشقتُه برهةً طويلةً، دون أن ألمسَه بفمي كيلا أوقظهُ. فكَّرتُ ربّما كانت الرقَّة هي التي جعلتني أقتربُ من ذلك الجسد الغافي. لا، لم تكن الرقَّةُ بل الامتنان، دافع معرفةِ كلّ شيءٍ عنه ـ كلّ ما يخدعني في نائم ـ، حرفيَّة المحارب الذي يلمِّع وينظِّفُ ويتفقَّد، بين معركةٍ وأخرى، سلاحه الذي سرعان ما ستتعلَّقُ حياته به.

عندما استيقظ أخيراً، استيقظ جائعاً. تظاهرت أيضاً أنني استيقظت في اللحظة ذاتها. طلبَ بالهاتف فطوراً قويّاً، ودخل إلى المغطس وأرادَ منّي أن أحشرَ نفسي معه، ريثما يصعدون له به. كانَ ضيقاً ومزعجاً، جلستُ على ركبتيّ وجسده بين ساقيّ، وهو يداعبني كي يملكني، كان يسوطني ببطءٍ فألهثُ ورأسي إلى الخلف. كانت حليُّ السقف قد بدأت تحوم فوق عينيّ. غام العالم فيهما من جديد واستسلمت للسقوط فوقه ثقيلةً، وديعة. كان الماءُ شديدُ السخونة يطفح

من المغطس؛ نادلٌ يطرقُ البابَ ومعه الفطور وأنا أمنعُ يمامَ من أيّةِ حركة... أطلقَ قهقهةً تحتي.

في هذا اليوم نفسه قرّرتُ السفرَ أثناء الغداء. كان الأمر يتعلّقُ بالتجوال في شرق وجنوب الأناضول لننتهي، حسب ما نستطيع، إلى بورسا أو أنقرة. سنزور منطقة بحيرة فان وإغريدير وبيسهير. كانت رحلة عمل، ومع ذلك سأستطيع التشبّعَ فيها من عمق تركيّا.

- هذا جنون: الذهاب في السيّارة بدل أن نستبق الزمن ونذهب بالطائرة ونستأجر بعد ذلك واحدة. جنون يشدّني ارتكابه معك.

سنأخذ البسط من بعضِ القرى حيث تركَ هو الأنوالَ والصوفَ لصنعها. كانت قرىً ضائعةً، مُدقعة الفقر، وربّما وقعنا فيها على سجّادٍ قديم يُبَاعُ بسعرٍ غالٍ لهواة جمعه، ونستطيع أن نوصي على بسط بخطوط هندسيّة تتجاوب مع التقاليد السلجوقية المغرقة في القدم، أو الصناعات التي تقوم بها نساء القبائل البدويّة ولا تقدَّرُ بثمن. سيكون علينا استخدام وسائل نقل غير مألوفة. سنستخدم السيّارة حتى أماكن محدَّدة وبعدها اللهُ وحده يعلم ماذا.

- إلهُكَ أم إلهي؟ - سألته.

- أليس إلهنا واحدٌ؟

- لا - أجبْتُ - فإلهي هو أنتَ.

- إذن إلهنا واحد - أجابني ضاحكاً.

قَبِلتُ مسرورةً على الرغم ممّا يمكن للرحلة أن تُسبِّبه لي من عناء. فبوجودي وحدي مع يمام - هذا هو أملي الكبير -، كلُّ جحيم جنّة. ثمَّ إنّنا سنبدأ بخلق ذكريات، «لأيّام أغادره فيها ولا أعود لألقاهُ بعدها...» أبعدتُ هذا الطائرَ الأسود بحركة من يدي.

في الرحلةِ تعرّفتُ على تركيّا الحقيقيّة، العزلاء والمأساويّة، على الفارق بين ما يعرضونه على السيّاح أو ما يمكن أن يروه وما لن يروه أو لا يريدون أن يروه أبداً. بينما بدا لي أنّني أرى المناظر من داخلها وأنا أجوبها شبراً فشبراً. كانت الشاحنةُ قديمة كفايةً، تتعطّلُ بتوترٍ نسبيٍّ، لكنّها تعمل. بدا عبور بعض القرى من الصعوبة بحيث أنّنا

اضطررنا لاستئجار حيوانات ركوبٍ للوصول إليها، وبعضها غير مجهّز ولا مرغوب به بحيثُ فضّلنا النوم في الأكياس التي نحملها معنا. لا يمكنُ لأحدٍ أن يتصوّر الضحكةَ العصبيّةَ التي استحوذت عليّ وأنا أمتطي مطيّةً مقلقلةً يسندني يمامُ وقد أصبحتُ على الأرضِ تقريباً، أو نتردّدَ تردّداً قاتلاً في اختيار الحصان أو الحمار، لأنَّ الحمير التركيّة قويّة الشكيمة جدّاً، أو أنَّها شوفينيّة. ليس لتركيّا التي عرفتُها علاقة بهذه. كل شيءٍ من الباص كان مختلفاً. جبنا ودياناً مسحورةً، عوّضتنا رؤيتُها عن كلّ تعبٍ، فالجغرافيا من الوعورة بحيث تبدو مصطنعة.استقبلتنا الطبيعةُ التي تكادُ تكونُ بكراً بعبقها وبهاءِ ربيعها. وحين كنّا نتخطّى بعض الضباب الصباحي نجدُ سماءً هي من الزرقة بحيث نخافُ النظر إليها: زرقاء، عتيّة، لا ترحم.

الطريقة التي أتذكّرُها بها الآن أقربُ إلى ألبوم الصور مما هي إلى السفر. أتذكّر، أنَّنا حين عبرنا مرمرة رأينا الأفاقَ البعيدة التي تتميّزُ بضبابها الكثيف المتصاعد من الوديان المتعاقبة، ثقلَ السماء في يوم غائمٍ فوق غربان قيظٍ تُحلّقُ. ثمة نسر أنوف واقف على عمود أحد التخوم، خيوط عرانيس الذرة المستهلكة تقريباً فوقَ الأبواب،أسواق الفواكه وسط الحقول، حيث يعمل جامعو المحاصيل، لعب البطّ في النهر الوديع، البيوت الزرقاء بأفاريز مغراء، أو البيوت الخضراء الفيروزية بأفاريز ليلكيّة، أو البيضاء بأفاريز سلمونيّة اللون، خشب الشرفات أو العضائد التي تدعم أبنية الآجر أو اللبن؛ النتوءات المستندة إلى عوارض منقوشة، شاهدنا عربتين في دربٍ، محمّلتين بأشياء بيتيّة بلاستيكيّة ومعدنيّة تقودهما عائلتان غجريّتانٌ، أرنبين في عتبة بيت: واحدة سمينة بيضاء والأخرى بيضاء ورماديّة، شجرة الموز الوارفة وسط جميع القرى تقريباً، شاحنة في الفجر فيها بقرتان تخوران، آجر الأسطحة المكسّر، سبل ماء الضياع، سواقي الماء الطويلة المشتركة، خلايا النحل المضطرمة، النساء عائدات من الحقول بسراويلهن الطويلة حتى الكعبين تحت التنورات، وجباههنّ المغطّاة بالمناديل وأدثرتهنّ. سمعنا عجوزاً مجنونة ترحّبُ بنا صارخة وهي تلمسنا بتبجيل، كانت هناك المواقد المرتجلة خارج بيوت من لا مطابخ خاصّة عندهم؛ ستائر النوافذ التي تتحرّك عند مرورنا: الدجاج أو الدجاج الحبشي يتنزّه حيث يشاء وينقر في الطين والروث، لمحنا مقبرة صغيرة جدّاً

وشاهدة على السياج: «لا يستأخرون ساعةً ولا يستقدمون»؛ جفون الدوالي العالية كالأشجارِ بين الزيتون؛ حقول التفّاح بجانب مزارع الخشخاش، المساجدُ المصغَّرة، المرتاحة بجانب المآذن السامقة، أزواج الترغل، ثلاثة عجائز يجلسون تحت شجرة وكلباً عجوز في الوسط، أربعتهم صامتون...

كنتُ أشعرُ بجمالٍ كلِّ شيءٍ وبقذارة وبؤسِ كلِّ شيءٍ أيضاً. تيقّنتُ من أن تلك الـ تركيّا كانت جميلة لمن يستطيع المرورَ بها عبوراً ويغادرها، وليس لمن هو مُجبرٌ على مُكابدتها.

أتذكّرُ أسماءَ الضياع، بعضها لا يزيدُ عددُ بيوتها عن بضعة عشر بيتاً، كان يمام يترجمُها لي، وتشبه الإسبانيّة: الحمّام، القرية الصغيرة، الدوري، القطن، الصنوبر الأسود، البيوت الخمسة، الكرز العالي... ورأيتُ ذات يومٍ قريةً أعجبتني من بعيدٍ، لأنّها قامت على خلفيّة أفقٍ ضبابي تحتَ بقعةٍ من شمسٍ تُذَهِّبها. كان اسمها باليساراي.

ـ ما معناها؟

ـ قصر العسل.

ـ أنتَ قصر عسلي.

عانقتُهُ دون أن أستطيع كبح جماحي وناديته هكذا طوال الرحلة: قصر عسلي.

ـ هذه نيسيا ـ قال لي بكرَةَ أحد الأيّام.

أدهشني أنّ الإيمان انبثقَ من هناك، وأنَّ الزمن اختزلها بعد أن جرَّدها من اسمها وحوّلها إلى هذه الضيعة المصغَّرة حيثُ نتناول طعامَ إفطارنا.

ـ ما بقي من طروادة أقلّ من ذلك ـ قال يمام ـ أو من هاليكارناسو أو ميليتو أو أفروديسيا.

كان هناك قرى ترابيّة وأخرى في المنحدرات مرصوفة بالحجارة للتخفيف من الوحل في فترات المطر. بعضها طليَت بيوتها بالوان حالمة: بنفسجية، نيليّة ودالية أمامها دائماً، وبعضها من الحجر واللبن، بجانب مخزن وطابق سفلي لمعمل وفوقها جذوع.

كنّا نتوقّفُ عادة في القرى الكبيرة، حيثُ يُقابل يمام المختار أو من يماثله فيقدِّم له معلومات عمّا يمكن أن نجدَهُ.

ـ أولاً علينا أن نأخذ بالحسبان القوى الحيَّة ـ كان يمامُ يردِّدُ.

كنتُ أنتظره متمشّيَةً في الشارع الرئيسي إن وُجِدَ والمحاط بالمحلاّت التجاريّة المتواضعة، حيثُ تتجرجرُ حياةٌ أكثر رماديّة ورتابة من الحياة في وشقة. سألتُه مرّةً وهو ذاهب في طلبِ شخصٍ، ما إذا كان من الحكمة السفر بكلِّ ذلك المال، الذي يجبُ أن يصرفه في هذا الكمِّ من الصفقات.

ـ أنا لا أدفع دائماً نقوداً ـ قال لي بنبرةٍ غامضة.

كان المخاتير، أو أيّاً كانوا، فمن يقابلهم يمام، يأتون ببسطهم إلى السيّارة حين تتوافر ويودعونها في القسم الخلفي، الذي كان يمتلئ مع مرور الأيّام، أتذكّر أنّنا حصلنا ذات يوم في قرية أكبر من غيرها، قريبة من قونية على زوج من السجّاد القديمٌ ـ أو اشترينا دون نقود، لأنّني حضرت العمليّةَ ـ. قدّم يمام ثمناً لهما ظرفاً صغيراً، سارع البائع وقد أدار ظهره لتفقّده. بل بدا لي أنّه قبّله. تأخّرَ كثيراً قبل أن يلتفت ويوافق بالتركيّة.

ـ مزارع الحور هذه المؤلّفة من ثلاثين أو أربعين شجرة التي كثيراً ما نراها ـ كان يمام يحكي لي ـ لها أصلٌ جميل. تُزرع حين يأتيهم ولدٌ ذكر وتقطع يوم عرسه، حين تكون قد كبرت، ليغطّوا بثمنها نفقاته.

ـ والإناث؟

ـ لا يُحسَبْنَ ـ أجابني ضاحكاً.

شكَّلَ النومُ في العراء اللطيف في كيسٍ بجانب يمام، انتقاماً من مراهقتي الأصوليّة الخالية من المغامرات. كنّا ننام آخذاً الواحدُ منّا بيدِ الآخر، بينما يعدِّدُ لي بالتركيّة أسماء المجرّاتِ، التي كانت تتلألأُ في الظلمة كما لم تتلألأ من قبل؛ من المحتمل أنّه كان يخترعُ تلك الأسماءَ ويخلطُ بين النجوم، إلاّ أنّني لم أكن لأهتمّ بذلك. تعلّمتُ في تلك الليالي أن أفضل رموز الأمل هي العصافيرُ. فهي تنفجر في حلكة الظلام، أي قبل انبجاس الفجر مباشرةً، بالشدوِ ملتهبةً كما لو أنّها مكلّفة أن تبشّر

بالنور في صداحها. لأنّها تنتظرُ الفجر، فالفجر يأتي... وإذا ما لفحنا الهواء الذي لم تسخِّنْه الشمسُ بعد في الفجر، حشر يمام نفسه في كيسي، حيث بالعناق يمنح واحدُنا الآخر حرارةً كافيةً لتدفئة المشهدِ كلّه.

كان يرعبني على الطرقات المهملة المشاةُ الذين يعبرونها فجأةً. عبر مرّةً طفلٌ راكضاً، دون أن ينظرَ فاندفعت أمُّه أمام الشاحنة وقد حنت ظهرها كتلتان هائلتان. أنقذهما كبحٌ من يمام جعل جبيني يرتطم بالبلّور الأمامي. يخرجُ الأطفال حليقي الرؤوس من مدارسهم في الثانية عشرة إلاّ بضع دقائق، يحملون حقائبَ كتبهم على ظهورهم، ويرتفع صوتُ المؤذّن في الحال. نساء جهمات محاطاتٍ بأولادهنَّ الجياع كثيري الصراخ، يعملن في أنوال السجّاد ينسخن رسومات بسط، ربّما ليست زاهية الألوان، كتلك التي رأيتها في استنبول، لكنّها قويّة تُغني الأيدي عدم تناسقها الجميل وليس الآلاتُ.

المقاهي والمطاعم ليست متعارضة. فصاحبها يجلسُ عادةً إلى طاولةٍ كطاولة المكتب يحصي عليها غلّة يومه. وفي زاوية يوجدُ المطبخ حيث يحضّرون الشاي والقهوةَ أو الفرن حيث يخبزون العجين أو يُعدّون الطعام. تركني يمامُ ذات يوم في السيّارةِ في مدينة تشبه وشقة بعددِ سكّانها. حلَّ الليل ففضّلت الدّخول إلى مقهى رأيتُ أضواءه مضاءة. عرفتُ فيما بعد أن اسمه صالة اللطافة. كان هناك تلفزيون بالأبيض والأسود وعدد من الرجال لا يعملون شيئاً: لا يشاهدون التلفزيون، لا يتكلّمون، لا يلعبون. ما إن دخلتُ حتى خرجوا. فهمتُ أنَّ عليَّ العودَةَ إلى السيّارة. رويت ذلك ليمام فراح يضحكُ مقهقهاً ضارباً فخذيه بيديه. أخذني بعد العشاء إلى مقهى آخر أكبر منه، فيه ناس أكثر شباباً يلعبون بالدومينو أو بالورق.

ـ لا تخافي ـ هدّأني يمام ـ: لن يطلبَ منك صاحبُ المقهى الذهاب أبداً. أوّلاً لأنّه لا يتجرّأ، ثمّ لأنّه سيفخر بوجود أجنبيّة في محله.

ـ وهل يلاحظ عليَّ ذلك؟

ـ المسألة أنّه ما من تركيّة تدخل إلى هنا.

ـ ولماذا؟

ـ تعالي لنسأل صاحبَ المحلِّ. ـ أجابني.

جلس صاحبُ المحلِّ معنا. كان رجلاً شابّاً، مخمليّ العينين،

أزرق المحجرين وطيّة غاية في النقاء عبر الأهداب. على فمه تعبيرٌ يكادُ يكون طفولياً، يحاول الشاربُ أن يموِّهه؛ قصير الأنف مستقيمه، ساعة بسوار ذهبيٍّ عريض، وخاتمان ثخينان يتناقضان مع يديه الخشنتين والعريضتين اللتين تنفضان السيجارة بحنقٍ في صحنٍ للتخلّص من الرماد. كان يتوجّه إلينا بالكلام مثل طفلٍ جدّيٍّ، يريد أن يظهر بشكلٍ لائق في الزيارة وهو يُلقيَ درسه الذي أتقنَ حِفظَهُ. وعندما ضحكتُ لشيءٍ ترجمه لي يمام، نظر إليَّ مذعوراً من ألاّ آخذ ما كان يقوله مأخذ الجدّية الصارمة.

ـ المرأةُ تخرِّبُ هذا الجوّ ـ وضّح ليمام ـ أنتَ تعرفُ ذلك؛ قلهُ لها. نحنُ الأتراك أصحابُ أنفة كبيرة، وقد يتحوّلُ هذا إلى شيءٍ آخر. قد تدخلُ النساء في استنبول أو بورسا إلى مقهى، إذا كنَّ في مجموعة وجلسن على حدة، ربما لا يكون هذا أمراً في غاية الخطورة، لكن أن يدخلن واحدةً واحدة، فلا، يا للفظاعة. هنا ليس استنبول، التي هي في قسم منها ذهب وفي آخر خراء... هنا علينا أن نبقي على المحلّ نظيفاً، دون أعقاب، ونمنع الناس من إحراق الأغطيةَ أو المقاعدَ... تعرفُ أنتَ كم يكلّف هذا في تركيّا. لكنَّ الطامّة أن تترك النساء يدخلن إلى هنا.

ـ لكن ماذا يفعلُ هؤلاء الرجالُ هنا؟ ـ كنت أسألُ.

ـ يأتون فقط كيلا يمكثوا في البيت، حيثُ تنغِّصُ عليهنَّ النسوة والأطفال عيشهم.

ـ وهل يعملون نهاراً على الأقل؟

ـ طبعاً، فهم مزارعون، تجّارٌ صغار، عمال في مصنع، عمّالُ نقل، أيّ شيء.

ـ ألا توجدُ بطالة؟

ـ بلى، لكن هناك أيضاً اقتصاد كثير مغمور.

ـ الناسُ في هذه المدينة ـ أكملَ الرجلُ ـ متضامنون جدّاً، هناك أربعة أصدقاء دائماً لتوظيف العاطل عن العمل: ساعٍ، بائع كعكٍ أو بندقٍ، أو بائع بطاقات للباصات أو سقّاء أو ماسح أحذية. وفي أسوأ الحالات يأخذُ الرجل هنا زوجته للعمل في الحقل ويعودُ بها. هذا عملٌ أيضاً.

لم يكن يمام ليجد في بعض المدن الصغيرة والفقيرة ما يبحث عنه على الرغم من مقابلته أبرز القرويين، ومع ذلك لم يكن يلحّ ويبقى راضياً.

ـ لقد أسّسنا هنا لرحلةٍ مستقبلية ـ كان يوضّحُ لي ـ فالثروة لا تأتي دائماً من الطريق المتوقّعة، ونحنُ الأتراك نملك تجربةً كبيرة في هذا المجال. خسرنا مقدونيا في حرب البلقان، لكنَّ هذه الخسارة شدّت من عزيمة الشبيبة التركيّة، التي كانت المستقبل بالنسبة إلينا، كما وفّرنا المالَ والجهدَ والدمَ الذي أنفقناه عليها. كذلك خسرنا الحربَ الأوروبيّة الأولى، لكن من سقوط الإمبراطوريّة العثمانية انبثقت تركيّا اليوم، التي هي لنا وترضينا.

رحتُ أضحكُ متسائلة ما علاقة سجّادنا بتلك القصص عن تركيّا. بدت لي رواحات وغدّوات تلك الرحلة كلّها غامضة، فعزوت هذا لجهلي بالعادات واللغة، وأجبرتُ نفسي على طرح أقل ما يمكن من المسائل، لأنَّ يمام يردّ عليها بطريقة مُستَغْلِقة. لكنّه معي كان يتكلّمُ ومعاً نكتسبُ المعرفة وإن بدا أنّه يفعل ذلك لأنّه لا يملكُ غيري. تحت الدفءِ أو النجوم كنّا ننسج سجادةَ حبٍّ هي حصراً لنا.

ذات مساء، في بلدة كبيرة، منتصبة بين الحجارة وروث القطعان، التي لكلِّ شيء فيها رائحته، خطر ببالي فجأةً في مطعم ليس في غاية النظافة ومليء بالذباب، بأنَّ يمام يكذبُ عليَّ. لا أدري كيف ولا لماذا، لكنّني شعرتُ به مثل برقٍ. شيءٌ في صوتهِ، ارتعاشٌ في أهدابه، طريقة تكرار فركِ يديه الواحدة بالأخرى وكأنَّ شيئاً يلسعه... ومع ذلك ـ قلتُ لنفسي ـ لماذا سيكذبُ عليَّ؟ لا حاجة به لذلك. هذا ما كنتُ أستنتجهُ بينما أنتظره في السيّارة، بين الشكِّ واليقين. «ماذا سيصيرُ بحالي لو لم يعد؟». اقشعرَّ بدني. ربّما كنتُ أسألُ أكثرَ من اللازم.

ـ لا تضايقيني ـ قال لي فجأةً ذات مساء كاشحاً بوجهه عنّي.

«إنّه على حقّ فأنا أتصرّفُ أحياناً معه كأنّه رجل شرطة. ولا يمكن لعاشقة أن تتصرّف بهذا الشكل.» ذلك كان هدفي وأنا وحيدة في تلك الشاحنة. أن يعودَ ويأخذني معه. لم أكن أطلبُ أكثر من ذلك، فما عداه يخلو من أهميّة. ثمَّ إنّه لم يبقَ عندي رغبة ولا حاجة للتفكير بما تبقّى...

كنتُ أفرطُ في مسمعه، على الطرقات وفي الفنادق عن ذكرياتٍ طفولتي. لم يكن يعرفُ أراغون؛ فوالده أرسله إلى إسبانيا ليعرف عالماً ويتعلّمَ لغاتٍ. وإذا اختار إسبانيا فلأنَّها أغرته، كما أغرت الكثيرين من الأتراك. كان ينشدني قصيدة الرقص في الأندلس، ليحيى كمال، وهوشاعر كبيرٌ كان سفيراً في مدريد؛ يلقيها بالتركيّةِ أولاً ثم يترجمها.

صنجات وطرحاتٌ من مانيلا وورد أحمر.

يلتقي في هذه الحديقة جميع مشاهير الرقص

فتظهر الأندلس قرمزيّةً ثلاث مرّاتٍ في ليلة الحماس.

غناء سحري عن الحبّ ينبثق من ألف فم...

كنتُ أقبّله مقاطِعةً مع كلٍّ بيت.

ـ هل ذهبتَ لإسبانيا لمجرّد أنّها كانت تسحرك؟

ـ ولأنّها تقدّم فرصة للقيام بصفقات جيّدة.

ـ منذُ تلك السن دخلت في تجارة السجّاد؟

ضحكَ مقهقهاً. كنّا قد شربنا في تلك الليلة، بردَ الطقس وقرّرنا تناولَ بعض الجرعات. نشرب من الزجاجة ذاتها. ذكرَ لي الأماكن التي جابها من إسبانيا ومكان بيته في مدريد. لم تكن التواريخ، حسب ما تأكّدتُ حين أعدتُ بناء روايته كما هي العادة تنسجم مع عمره، ولا مع الأحداث التي يشيرُ إليها، لكنّني عزوت ذلك للكحول وأحياناً إلى ذاكرته. لم يروِ لي مغادرته المباغتة جدّاً لإسبانيا جيّداً. استنتجت أنّه ولسوء فهم فضّلَ الاختفاء على مواجهة السلطات، التي لا أدري ما إذا كانت تركيّة أم إسبانيّة. أعترفُ أنَّ رأسي أيضاً لم يكن في أحسن حالاته، وأنّني أرغب بممارسة الحبِّ أكثر بكثير من الاستماع إلى وقائعه الوطنيّة.

ـ الوحيدون الذين تحكمهم قواعد التقاليد التركيّة الزراعيّة هم سكّان الأناضول: بلا رقيق ولا إقطاع، هم والحقل وجهاً لوجه. وبالمصادفة ليسوا أتراكاً بالعرق... يا صديقتي عليكِ أن تتعلّمي كيف تعرفيننا. لا يوجد بيننا الأبيض والأسود، فنحنُ نمضي من هذا إلى ذاك دون أن نشعر. التاريخ علّمنا ذلك... نحنُ مسلمون، لكن في دولةٍ

علمانيّة ألغت الخلافة بعد السلطنة، ونفت الشريعةَ المقدّسة وكلَّ الأتراك الذين يتغذّى منهم الإسلام. ـ كان يومئُ، ويضحكُ واقفاً دون أن يستطيعَ التوقُّفَ وهو يتكلّم بصوتٍ عالٍ جدّاً ـ. نحتفظُ بلغتنا، لكن بحرفها الغربي، نشعر بالانبهار بالغرب، لكن لا تصدّقي، لأنَّ كراهيتنا له أكبر. ـ كان يتوقّفُ لحظةً، يأخذُ وجهي بين يديه ويقبّلني على خدّيَّ ـ. نحن حديثون ونتمنى المساواة للجميع: الديانات ليست بالحسبان، لكنَّ الإسلام هو البطل وهنا بعض المقاومة لما عداه. نحنُ أوروبيّون لكن القسم الأعظم من بلادنا في آسيا... على المرء أن يكون فارساً ممتازاً كي يمتطي دفعةً واحدة جوادين بهذا الحجم من الاختلاف. ستسمعين، يا دِسي، يا عسلي وسكّري، ستسمعين دائماً تركيّاً يتباهى بأعلى صوته بالاستقامة، خذي حذركِ: فسرعان ما سيصبح زنخاً، تجّارنا يتبجّحون بأنّهم أكثر تجّار العالم نزاهةً، يقولون هذا «لأنّه بالنزاهة وحدها تدار العمليّات الكبرى». الحقيقة أنّهم مشهورون بمهارتهم في الغش، وجرس مجدهم ودعايتهم يعلن أنّهم أقلّ غشاً من جيرانهم، أو بالأحرى، يغشّون أكثر دون أن يُلحظ ذلك. كوني حذرة مع التركي، يا رائعتي. لا تثقي إلاّ بيمام، الذي لسبب ما يعني الفريد... كوني حذرة لأنَّ التركيَّ أكثرُ غيرة من أيّ إنسانٍ آخر: غيرته شهرته، (فأنتم تقولون:غيورٌ مثل تركي)، لكنّ غيرته ليست على المرأة التي يحبُّها، وإنّما على كبريائه ذاته. التركيُّ، يا عزيزتي وحبيبتي، فحل كما لا يوجد مثله، حتى أنّه كثيراً ما يشعر بالجاذبيّة تجاه فحلٍ آخر ويدخل معه في علاقة، حتى ولو لمجرّد أن يرى نفسه معكوساً فيه. فهو يحبُّ أن ينظر إلى نفسه في المرآة، بأهدابه الطويلة وشاربيه الطويلين...

كان يمام ينقلُ إليَّ بلده وناسه بين قُبلٍ وضحكات ومحاكاة. هناك ليالٍ عبّرَ فيها عن نفسه بدفقٍ جامح، ووضعَ أصابعه أمام شفتيه حين حاولتُ طرحَ ريبةٍ ما، أو مجرّد أن أقولَ له إنّني منهكة وأريد أن أنام. لم أرهُ قط بمثل هذا النشاط، مع أنّ هذه قد تكون طريقةُ حياته المعتادة: فأنا لم أتعامل معه حتى الآن إلاّ قليلاً جدّاً.

ـ نحنُ مجبولون على الغموض، لا تنسَي ذلك. كما لو أنَّ هذه الرحلة ليست ظاهرها، وكذلك أنتِ وأنا. هل نحنُ زوجان؟ لا. هل نحنُ

تاجراً سجّاد؟ نعم ولا في آنٍ معاً، الزمن هو من سيقول ذلك - كان يحرّك يديه ويطلقُ قهقهاتٍ - هذا ما جرى في تاريخ شعبي: إنّه عجوزٌ جدّاً، عانى من تبدّلات زائدة، سقطت عليه في الأعلى صروف لا تسمحُ بتعريفه بهذه الطريقة أو تلك... حكّامنا لم يتمكّنوا من الحفاظ على الوحدة إلا باستخدام فرِّقْ تسُدْ، وهذا نقيضها. لم يستطيعوا الحفاظ على استقلالنا إلا بالتنازل عن مناجم وصيدٍ بحرٍ وقطارات وأسلحة للأوروبيين. لم يستطيعوا جمعنا في قبضة لولم يسلّموا للمسيحيين واليهود الصناعةَ والتجارةَ، وللمسلمين المواقع العسكريّةَ والمدنيّةَ... يجب أن يعرف المرء كيف يعيش، يا جُمَيْلَتِي، تعطي قليلاً كي يعيشَ البقيّةُ، وتخرجين أنت بما تبقى لتعيشي أيضاً.

ويدورُ حولي، يداعبني وكأنّني طفلةٌ صغيرةٌ تُعطى دروساً لا غنى عنها للحياة...

حملنا معنا دائماً بعضَ المؤن. أكلنا شطائر من أيِّ شيءٍ كان، بل وأشعلنا ناراً، عملتُ عليها ذات ليلة عجّةً بأعشابٍ ناعمة جمعها يمام من البرّيّةِ. ومع ذلك التهمنا كلّما سنحت لنا الفرصة كبابَ دونِر (شاورما)، تلك القطع اللذيذة من لحم الخروف، الموضوعة بعضها فوق بعضٍ في مشوى عمودي. أتذكّرُ الآنَ أنّنا أكلنا في قريةٍ شيئاً اسمه «بيدِ» يشبهُ البيتزا فوقه غرفة مؤونة كاملة: فلفل أحمر، بندورة، جبنة، بقدونس ولحم ناعم، سجق وجامبون خروف أو عجل ملفوف بالفلفل الأحمر المطحون الحلو. كما لن أنسى المحلّ: كان صغيراً جدّاً، بائساً فيه صندوق حديد رائع، وسعفتا نخيل متقاطعتان، تشبهان سعفنا في أحدِ الشعانين، فوق المشربيّة التي تفصله عن المطبخ، وكما في كلّ الأماكن، هناك صورة كمال أتاتورك.

كثيراً ما كنّا نأكل حلوى لذيذة جدّاً، لم أذق مثلها في استنبول.

- نسيتَ أن تُخبرني أنَّ الأتراك الذين يتباهون بتاريخ أنهكه الغربُ، هم الشعب الذي يصنع أحلى وأفضل حلوى.

- وهل يعني أنَّ هذهِ الماكولات تعجبكِ أكثر ممّا أعجبك أنا؟

- أنتِ بالنسبةِ إليّ أفضل ملذّةٍ تركيّة.

لم نبق في أنقرة سوى يومين. لا أدري كيف انتزعت العاصمةَ من استنبول.

ـ يقولون أنَّ أفضلَ ما في أنقرة هو القطار إلى استنبول. لكن دعي الأشياء على حالها، فالشيء الوحيد الذي ينقصُ استنبول هي الوزارات والسفارات. ونحن الاستنبوليين ما نزال نخيف الحكومة باللعنة التاريخيّة: كلّ من يملك مدينتنا يصبح ضحيّة قدره الأعمى. كنّا الأقوياء حين فتحناها، ثم أضعفتنا بلعنتها. لقد رمت القسطنطينيّة الإمبراطوريّة العثمانيّة أرضاً، كما فعلت من قبل مع الإمبراطوريّة البيزنطيّة.

ـ وإمبراطوريّتنا (إمبراطوريّتنا أنا وأنت) هل سترمي بها أرضاً أيضاً.

ـ يا نفيستي، إمبراطوريّتنا عائمة، ليست هنا ولا هناك. لن أتأخر، يا حبّي ـ قالَ قبل أن يخرج.

مكثتُ الوقتَ كلّه في الفندق، كنت متلهّفة للسرير الطريِّ النظيف والرطب، والدوش الفاتر والحمّامات الساخنة بأملاحها الزابدة، والطعام الأوروبي، لأن أضغطَ جرساً ويظهر نادلٌ... دامت الرحلة الوقت الضروريَّ، فربّما لو دامت يوماً آخر لأصبحت غير محتملة. فقد أفادتني بالإضافة إلى الحصول على بعض البسط، في معرفةً يمام وحبّه وشخصيّته، وصراحته أيضاً. كنتُ أقولُ لنفسي وأنا مغمورة في المغطس:«صار باستطاعة قلبي أيضاً وليس عضوي وحده أن ينشد النصرَ ». (بعدَ قليلٍ عرفتُ أنّني استعجلتُ بإنشاده.) وكتأكيدٍ على تلك التأملات المناسبةَ التي قمتُ بها وأنا أحاولُ استعادةَ مظهري الحضاري، جاء يمام متفائلاً يحمل صورةً له ـ «كلُّ آمالي تحقّقت» ـ.

وضعتُها بعد أن قبّلتُها وقبّلتُه في جواز سفري. سأحتاجها لرحلة العودة، بعد ثلاثة أيّام. انزلقت الصورة أمام الشرطي التركي فاحمرَّت حتى أذناي أمام تعابيره الفظّة.

كان راميرو بانتظاري في مدريد، وقد قرّر ألا ننطلقَ إلى وشقة حتى اليوم التالي. تناولنا العشاء مع خوليا وفِرْمينْ، اللذين

أظهرا اهتماماً كبيراً بدكان السجّاد. وحين صرنا لوحدنا في غرفة الفندق، وضع راميرو يديه على وركيّ.

ـ تأتين زاهية من استنبول. أظنّ أنّ عليك الذهابَ من حين لآخر إلى هناك.

ـ وأنا أيضاً أظنُّ ذلك.

حاول تقبيلي فرفضته بإيماءةٍ غريزيّةٍ ثمّ وضّحتُ له الأمرَ كي أُخفّف من خشونتي:

ـ اعذرني، جئتُ متعبة جدّاً. لا أدري لماذا تُتعِبُ رحلة الطائرة إلى هذا الحد.

ـ أظنّ أنّه... لكن لا، اعذريني أنت.

عرفتُ بعد وصولي إلى وشقة بزمن قليلٍ أنّني حامل. ردّةُ فعلي الأولى كانت مباغتة تماماً: ببساطة كانت شيئاً لم أحسب حسابه. شعرتُ بعدَها بفرحٍ عميقٍ منعني حتى من التفكير، في الوقت الذي يجب أن أقلق فيه. هُرِعتُ إلى صيدليّة فِليسا. أخبرتني بعد انتهاء الاختبار بنتيجته، دون أن تقول شيئاً، حملٌ كاد لولا قليل أن يخنقني. رجوتها ألاّ تخبر أحداً، فأنا أريدُ أن أكون أوّل من يخبرُ راميرو. فالمسألة بسيطة طالما أنا من نبّه إلى أنّ العقمَ عقمي.

انتظرتُ وصوله في غرفتي، مستلقيةً على السرير ويداي على بطني. فجأةً نهضتُ، تعرّيْتُ كلّيّاً ووقفتُ أمام مرآة الممشط. نظرتُ بتدقيق إلى جسدي: لم تكن قد ظهرت في الخارج أيّة علامات حمل. داعبتُ نفسي ببطءٍ كما يفعلُ يمام، جبتُ بأصابعي الأماكن التي كان يضعُ أصابعه عليها، وبشكلٍ غريب شعرتُ تجاه نفسي بالجاذبيّة التي كان يشعر بها تجاهي. مثل مراهقة تحبُّ وتتحسّسُ جسدها ذاته قبلَ أن تراه مرغوباً من آخر... فتحتُ ساقيّ جالسةً على الأرضِ، داعبتُ زغبي الكستنائي الفاتح، الذي يتلقّى سعيداً استحضارَ يمام. جميعها لها اللون ذاته، الفتحة ذاتها، لا شيء خاص كان هناك. داعبته وكأنَّ يدي ـ إبهامي وسبّابتي ـ يدُ من أحبُّ أكثرَ من نفسي في تلك اللحظة.

يدي بيضاء ويده في غاية السمرة.. لامستُ ثدييّ باليدِ الأخرى. سائلٌ قادم من مكانٍ ما سرّيٍّ بلَّلَ حوافَّ عضوي مثل لسان يرطّبُ، قبل الابتسام أو عنده، حوافَّ فم.. كما لو أنَّ من صارَ يسكنُني يجيبني من داخلي.. نشيط الجالس بجانبي راح يلحسُ أربيتيّ فأبعدته دون أن أفتحَ عينيّ.

بعدها كتبتُ وأنا ما أزالُ عاريةً رسالة ليست طويلةً إلى يمام أُعلمه بالخبر.

أرسل لي راميرو عندما وصل «مساء خيرٍ» من الباب ـ كان صيفاً والليل يتأخّرُ ـ خرجتُ للقائه وأنا أزرِّرُ ثوبي.

ـ سأزفّك خبراً سيسعدُكَ كثيراً ـ قلتُ له بأسعد تعبيرٍ استطعته ـ: سيكون لنا ولد. لا بدّ أن الذين نصحونا بألا نصدّق الأطباء على حقٍّ.

نظرَ راميرو إليَّ صامتاً: توجّه إلى الصالون، صبَّ لنفسه كأساً من الويسكي وشربه بجرعة واحدة.

ـ عليَّ أنا أيضاً أن أقولَ لك شيئاً. بِسي، استشرتُ طبيباً في مدريد كما استشرتِ أنتِ. أنا ولستِ أنت من هو غير قادر على الإنجاب. أو كلانا، مع أنّك كما يبدو لستِ كذلك... لم أرَ ضرورة لإخبارك بذلك من قبل، فقد استبقتني في تحمّلِ المسؤوليّة، ويكفي واحد.

سادَت وقفة كان صمتُها مثل غمرٍ بين الاثنين. لم يكن هناك ما يستحقُّ أن يُدافَعَ عنه.

ـ ماذا تُفكِّرُ أن تفعل؟ ـ سألته.

ـ أنا، لا شيء. أنتِ ماذا تفكّرين أن تفعلي؟ هذا الطفل يجبُ ألاّ يولَد.

ـ لا أدري ما إذا كان يجب أن يولد أم لا. ما أعرفه هو أنّه سيولَدُ ما دام الأمر يتعلّق بي. أستغربُ أن يُلمِّحَ كاثوليكيٌّ مثلك إلى مثل هذه الحماقة. ما أبعد النظريّة عن التطبيق. أليس كذلك؟

كنتُ قد رفعتُ صوتي، وراميرو يصبُّ كأسَ ويسكي آخر فتابعتُ:

ـ ما نستطيعُ عمله هو الطلاق.

- الكنيسةُ لا تسمحُ بالطلاق، تعرفين هذا جيّداً.
- ولا بالإجهاض أيضاً. لننفصل إذاً...
- وتعرف وشقة كلّها بعجزي وحملكِ من آخر؟ ماذا تريدين: أن تقرعي الناقوس وتهوين بي في أعين الآخرين؟
بالفعل فكّرتُ بأنَّ وشقة هي المكان المثالي لقرع النواقيس، لكنّني قلتُ متظاهرةً بهدوءٍ هو أبعد ما يكون عن شعوري به.
- أنا لا أريدُ يا راميرو غير ولدي.
- لكن، مِمّن هو؟ - صرخَ - أفترض أنّه من أحد الأتراك.
كان في صوته إزدراء مريع.
- بلى من تركيّ - صرختُ بدوري.
نظر إليّ بدهشةٍ لا توصف.
- تُركي! هل عندك فكرة عمّا فعلتِ؟ ماذا تعرفين عنه؟ من يكون؟ ما هو؟ ما به هذا التركي؟
رحتُ أضحكُ ضحكةً تكادُ تكونُ جنونيّة.
- في الحقيقة أنا واثقة أنّك لا تريد أن تعرف شيئاً. - كنتُ مَنْ أمسك المقلاة من مقبضها كما لاحظتُ - نحنُ هنا في مأزق وعليك الاختيار: إمّا أن أذهب مع ولدي، وليسقط من يسقط، تفهم ما أقول، أو الاحتفاظ به ولا نتكلّم عن الموضوع بعد الآن.
جلس ورأسه بين يديه. انقضت ثلاث أو أربع دقائق بدت بعمر الأبد. لم يرفع رأسه ليتكلّم.
- هل تعني أنّكِ ستقطعين علاقتكِ بكلِّ ما يعني هذا الطفلُ؟
كان تنفُّسي يُسمع في الوقفة الثقيلة التي تلت السؤالَ الذي بقي مرتعشاً في الهواء. ما عدتُ أحمل المقلاة من مقبضها. فولدي من كان يحتاجُ للحماية في تلك الحظة، قبلَ أيِّ شيءٍ آخر: ليس حماية حياته فقط بل والجوَّ المناسب لولادته وترعرعه أيضاً.
- نعم - قلت أخيراً بهمسٍ.
- أتقسمين؟
وقلتُ مُجهِشةً:
- نعم.

ـ إذنِ لتبق الأشياءُ على حالها.

اتّجه إلى البابِ. فتحَهُ. وأضافَ دون أن يلتفتَ:

ـ هذا إذا كان ذلك ممكناً.

وخرج متأثّراً، مغلقاً البابَ دون أن يصفقه كما خفتُ.

توجّهتُ إلى غرفةِ نومي، لكنّني لم أصلها. كنت على عجلٍ للتفكير بما حدث، وعلى عجلٍ لجلاء الأشياء أمامَ نفسي. كان عليَّ أن أحسبَ ما إذا كان عليَّ أن أضع الرسالة المكتوبةَ في البريد أم لا؛ حسبت كلَّ شيءٍ، وفرضتُ هذا على نفسي بالقوّة، لأنَّ بهجة ابني لم تكن لتقودني إلى الحساب. جلستُ في الصالون على الأرض مسندةً ظهري إلى كرسيٍّ... لا بدّ أن أفكّر بتعقُّلٍ وببرودة وبشكل مناسب حتى ولو انفجر رأسي، شرعتُ بذلك ويدايَ على بطني.

لم أدرك قط التناقضَ الذي يحضرني الآنَ بمثل هذا الوضوح. كانت مشكلة ليس باستطاعتي الجزم بأنّها حُلّت. أقسمتُ، بلى، لكن أقساماً أخرى لم أنطق بها تكبّلني أكثر من الأخير. وفوق كلِّ شكٍّ في هذا الاتجاه أو ذاك كانَ ولدي... لقد قيلَ لنا دائماً إنَّ الحبَّ يمارسُ كما لو أنّه سيصبحُ أبديّاً، وهو أبديٌّ طالما استمرّ. لقد أكّدوا لنا دائماً أنَّ الوله يحترق في ذاته، مثل شمعة مشتعلة من طرفيْها حسبِ قولِ والدي... إذنْ هل يتعارضُ الحبُّ مع الوله الذي هو من يفنيه، مع الولهِ الذي نحلمُ به ونُقاتل وندمى لأجله إذا تطلّبَ الأمرُ، الوله المستنفد والمنجز في نشوته؟ هل يُتَّسَعُ للحب دون ولهٍ؟ هل دائماً الأبديّة التي يَعِدُ بها الوله كذبةٌ وأبديّة الحب حقيقة؟ لماذا هذه الأسئلة في هذه المرحلة؟ تساءلتُ، هل كنتُ أشعر بولهٍ نحو يمام وحبٌّ نحو راميرو؟ آه، لا. إلى أين سيقودني هذا الخداع؟ عليَّ أن أكون واضحةً جدّاً. مع من منهما نسيتُ، أكثرَ من الآخر، العالمَ والزمنَ وحتى نفسي؟ أليست المرحلةُ الأولى للأبديّة هي نسيان الزمن؟ أليس راميرو مشدوداً إلى الزمن حتى جسديّاً: شائخ، وقور وبدين كما رأيته توّاً؟ ألم أكن سأمنح يمام كلَّ ميراث حبّي لراميرو. ليس الحبّ الذي كننته له، بل ما قد كننته

وبقي مضطرباً في روحي؟ ما نتج عمّا أردت له أن يكون أبديّاً، واصطدم توّاً، وجهاً لوجهٍ، مع ما برهن عن ديمومة،عن سنوات من الديمومة، من الاحترام والرفاقيّة. لكن ما علاقة هذه الأشياء بالحبِّ أو بالوله؟ روابط تقيِّدُ، بلى، تجارب مشتركة، أصدقاء ومصالح مشتركة: زواج. هل يكفي هذا؟ لإنجاب ولدٍ نعم: فالولدُ ليس من الضروري أن يكون نتيجةً ولَهٍ، ولا حبٍّ، وهو مالم أفكّر به لحظةً واحدةً بين ذراعي يمام.

كنتُ مضغوطةً بين ماضٍ يصبح أكثر حضوراً من أيِّ وقتٍ مضى، وحاضرٍ متأجّجٍ، مثمرٍ ربما سيتحوّل بإرادة وألم، إلى ماضٍ. تأذّيتُ من كثرة ما شددتُ على أسناني وشعرتُ بعينيَّ تمتلئان دموعاً. منذ زمن طويل لم أبكِ ولم يعترني إحساسٌ طفوليٌ، يكاد يكون عذباً. ومع ذلك لم تسقط دموعي. عنّفتُ نفسي، أجبرتها على التفكير بأنَّ حبّيَ ليمام، وولهي به لن يكون ثابتاً لا يتبدّل، بل سينهار فيما بعد، سيتحوّل، سيتلاشى. ألم تكن هذه ذاتها سيرورة حبٍّ راميرو؟ لا، لم تكن ذاتها. صرتُ الآن أعرف، بكلِّ تأكيدٍ: لم أحبّ راميرو قط. لكن هل سلوك ومظهر الحبِّ دائماً واحدٌ؟ لا أعرفُ الآنَ، كما لم أكن أعرفُ ولا أريدُ أن أعرف. خفتُ توقّفَ الزمن إذا ما تخلّيتُ عن يمام، تركّز حبي - حبي المولّه - ليؤلّهه في قلبي. وأصبح ضحيّةً استحضار مستمر ومرضي، ضحيّة جنون تحويل ما يجب أن يصير ماضياً إلى حاضرٍ ثابتٍ ومصطنعٍ، مثل جثّةٍ تُحنَّطُ وتُحملُ على الظهر فيما يتبقى من حياة... «جثّةُ ما هو حياة وأعطى حياة...» لم أستطِع البكاء.

جثّة؟ إذا لم يكن هناك من يضمنُ لحبّ أن يستمرّ فمن يضمن أن حبّاً سينتهي؟ ما انتهى عمليّاً هو علاقتي براميرو، مهما كلّف الأمرُ، وأياً كان اسمه. لم يعد له حتى نتفة من ماضيَّ، لأنّني وهبتُ حبّي الحاضرَ، حبّي ليمام، كاملَ ماضيَّ ومستقبلي أكان هذا التزاماً كلّياً؟ أم أنّني لم أعِ أنّني قامرتُ بضياعي الاجتماعي، الشخصي والأخلاقي، بما تحتي وما فوقي، بما ورائي وما أمامي؟ لم يكن الحبُّ بالنسبة إليَّ شيئاً آخرَ غير هذا: ضياعُ واجتماعُ تائهين، يستعيدُ الواحد منهما نفسه في الآخر. وهل سأكون الآنَ من تتخلّى وتقول: «إلى هنا وكفى،

فأنا لن ألعب أكثر»؟... لكنّني ـ كنتُ أجادلُ نفسي ـ لا أفعل هذا لأجلي، ولستُ من تقول هذا بأنانيّة. الأمر واضح: إنّه صوتُ ابني. هل أستطيع المقامرة به، المراهنة عليه أيضاً؟ كم خفتُ المخاطرَةَ به في ولهٍ فرديٍّ إلى هذا الحدِّ، ولهٍ هو ولهي تماماً، ولهٍ جدّ مرفوض وجدّ أعمى...» أخون نفسي ـ وبالتالي يمام ـ قبلَ أن أخون ابني.

كان قادماً إلى حياةٍ أنا من يمنحها له، وأنا مُصاغَةٌ من وجوهٍ، أشخاصٍ، مناظر، لغةٍ وتاريخ. كانت الحياة غابةً عليَّ أن أرشده فيها لا أن أضيّعه. وهي غابتي، في الغابة الأخرى سيضيعُ كلانا... الحياة هي المقابل السلبي الذي يفرضه الزمن علينا: شيخوخة راميرو، جلده الجاف، خصره الذي عَرُضَ وأيضاً شيخوختي، تجاعيدي وخيبتي المستقبليّة وربّما يأسيَ. ولهي بيمام يجبرني على الحفاظ على شبابي وجمالي، وولدي كان عليّ قيادته من يده في الزمن: في التبدل الداخلي والتبدل الخارجي الذي يطبعه الزمن. كنتُ في ولهي فريدةً ـ كما كان يمام فريداً ـ باهرةً لا تتبدّلُ، لكنّني مع ولدي عليّ أن أكون متعدِّدة، متغيِّرة، متحوِّلة، متابعةً التبدُّلَ الذي يتطلَّبه هو، مسلِّمة نفسي إليه بالالتزام الكلِّيّ الذي استسلمت فيه للوله الذي أنجبه... لو لم يكن كذلك، لكان من الأفضلِ لي أن أُجهضَ، وهو ما رفضتُهُ بقوّةٍ أكبر.

هل يشكّلنا الحبُّ على صورته؟ هذا ما كنتُ أظنّه، لكنني لم أشعر بالحبِّ كما يبدو بل بالوله فقط... كنتُ واثقةً بجانب راميرو، ووجهاً لوجهٍ أمامه، من أنّني امرأةٌ مختلفة عن تلك التي استسلمت له في تلك الليلة الأولى من نيسان وظنَّت أنّها تحبُّهُ، ومختلفة أيضاً عن التي ظنَّ أنّه يحبُّها. حبّي ليمام، أو ولهي به، أو أيّاً كان، جعلني أخرى، فضّلَ أخرى في داخلي. وولدي الآن يجعلني ثالثة، مختلفة عن بِسي راميرو وبِسي يمام: فولدي كان في آنٍ معاً ولهاً وحبّاً، لم أشكَّ بذلك... لكن لماذا أصرَّ على المجيء في بداية سعادتي؟

كانت ترتفع في قلبي استياءات صغيرة من راميرو تنهشني، الاختلافات الطويلة، ليالي الهجر، البرودة العازلة، الجراح الخفيّة، الآمال الخائبة، وفي آنٍ معاً الاحترام والصداقة البطيئة، الحماية

والتزامه الصادق، الذي برهن عنه قبل لحظة مضت. إصراره على تجنّب قرع الناقوس كان يحمي ابني ويحميني أيضاً، سواء كان هذا واضحاً في ذهنه أم لا. لم تحدث قطيعة إذ لم يكن هناك ما يقطع، لأنّه لم يوجد حبٌّ... وربّما لأن المشاعر التي جمعت بيننا، أنا وراميرو، على الرغم من كلّ شيء كانت لا تُقطَع، أو أنّني لم أبغِ قطعها أبداً. شيءٌ ما كان يصرُّ في داخلي على أنَّ أبوّةَ راميرو أفضل لابني من أبوّة يمام. فراميرو أردته أباً لأولادي وفشلتُ، ويمام أردته لي فقط وفشلتُ أيضاً، فبيننا تدخَّل الولد...

كنتُ هناك أُقرِّرُ ما على الحياة أن تقرِّرَهُ عنّي، وقرَّرْته في الحقيقة: قرَّرت قطيعةً (في داخلي، لأنّ من كان يتقطَّع أنا وليس غيري) وأبوّةً. فاللحظة الأهمّ في حياتي ـ التي فيها حياة أخرى ـ كنتُ أعبرها وحدي... ربّما كان عليَّ مواساة نفسي بفكرة أنَّ أيَّ حبٍّ يُشْعَرُ به على انفراد، كلٌّ بمفرده؛ الوله هو الذي يحتاج إلى فمين وعضوين... لكن أليس كلُّ شيءٍ زيف؟ ألم تكن تعليلاتي تشتّتاً يلائمني؟ هل ظننتُ ـ فقط ظننتُ ـ أنّني أُحبُّ يماماً، مختارة له كحاملٍ لكلِّ أوهامي وتطلُّعاتي وأحلامي؟ هل كان يمام نتاج توقٍ غير محدَّدٍ وفيٍّ فقط؟ لا، هذا فعلاً لا؛ يا له من أمرٍ مُضحك. كنتُ أتذكَّره نائماً في الفندقِ وأنا أتشمَّم وركيه الضيّقين وكلَّ زاوية في جسده... هل يمام في داخلي؟ لا، ولدي هو الذي في داخلي.لم أبغِ الكذبَ على نفسي. حتى ولو لن أرى يماماً أبداً، أردتُ أن أقول لنفسي في تلك الليلة ـ كان الليل قد حلَّ وأنا ما أزال على الأرض في الظلمة ـ أردتُ أن أقوله وأسمعني أقوله، التمزُّق الذي كان يحدثه التخلّي، ألم استبدالِ حياتي المرعب بحياة ابني، التي كانت بشكلٍ من الأشكال حياتيَ أيضاً. في تلك الليلة كنت ألده في داخلي. منذ تلك اللحظة بدأ موتُ حبّيَ، فمن موته كانت تتغذّى حياةُ ابني...

الآن بكيت فعلاً. شعرتُ بطيّات ثوبي مبلَّلة... هكذا كان يجب أن يكونَ وأكونَ من قرَّره دون أن يفرضه عليَّ شيءٌ أو أحدٌ ـ أيّ قَسَمٍ ـ. أجهشتُ وضربتُ رأسي بالكرسيِّ، دون أن أرفع يديَّ عن بطني، فمنه كنتُ أستمدُّ القوّة على القتل والمقاومة. المرأة التي لم تحمل لن تفهم ما أكتبه هنا. كان من الضروري أن أُبعدَ عنّي من أردتُ طوالَ حياتي

معانقته. كان من الضروري أن أبقى بجانب من لم أرغب بعناقه بعد ذلك. بجانب من كان أعظم ما أشاطره إيّاه هو السرّ الذي يبعده عنيّ نهائيّاً.

وصلتُ، وأنا أترنّحُ في الممرّ، إلى غرفة نومي ومزّقتُ رسالة يمامٍ نتفاً. ثمّ استلقيتُ على السرير وتهيّأتُ لانتظار ما لا أدري جيّداً ما هو.

كنتُ قد دعوتُ جميعَ أصدقائي ووالدَيّ راميرو إلى العشاء.

ـ هل نحنُ نحتفل بشيءٍ؟ ـ كانوا يسألون.

ـ لا، حتى الآن لا.

دعوتُ أيضاً والدي وأخي. كانت قد مضت أشهرٌ لم يخرج فيها والدي من البيت، لم يكن في صحّةٍ جيّدة، ينزل إلى الدكّان، لكن ليس دائماً. وبالفعل رأيته سقيماً، هرماً جدّاً، بابتسامة شبه دائمة تُضفي عليه مسحة من الدهشة، وكأنّه يفكّرُ بشيء لطيف دائماً ولا يريد أن يتقاسمه مع أحدٍ؛ لا يكادُ يتكلّمُ؛ بقي طوال الليل جالساً على الكرسي الذي وضعته فيه عند وصوله.

لم تكفّ لاورا عن الثرثرة ولا فِليسا عن الضحك، وقد سمنت أكثر من أيِّ وقت مضى واستندت إلى زوجها، قويّة مثل برج، تروي نكاتها البذيئة والمعتادة إلى هذا الحدّ أو ذاك. أمّا أنا وراميرو فكنّا نعتني بالناس، بينما يمرّ نادلٌ بالمشروبات. أخيراً قرعتُ بملعقةٍ صغيرةٍ على كأسٍ.

ـ أقترحُ نخباً.

ـ نخب من؟ ـ سألت فِليسا وقد رفع الجميعُ كؤوسهم.

ـ سهلٌ جدّاً: نخب ولدي الذي سيولدُ خلالَ سبعة أشهر.

الجميع باركوا، تهانٍ، هتافات مفاجأةٍ سعيدة. اقتربتُ من والدي وقبّلته.

ـ لو رأتكِ أُمّكِ... ـ قال لي، كما هي العادةُ دائماً.

ما كنتُ في حياتها لأفكّر بأنّهما يحبّان بعضهما بعضاً إلى هذا الحدّ. شعرتُ بالحسد تجاههما، وبالتالي بحثتُ بنظري عن راميرو، الذي كان مارثِلو ولورِنثو يعانقانه في تلك اللحظة. مضيتُ نحوه، رفعتُ كأسي، ففعل الشيءَ نفسه بكأسه.

ـ شكراً ـ قلتُ له.

ـ شكراً لكِ ـ أجاب.

كان يتقن التصنُّع أكثر ممّا توقّعتُ. أو ربّما لم يكن يتصنّع: فالإنسان بقليلٍ من الإرادة الطيّبة يتأقلم مع كلّ شيءٍ. إذا كان يتأقلم مع الموت، أليس من الأفضل له أن يتأقلم مع الحياة؟ «سيصيرُ ابني ابنه ـ فكّرتُ ـ ويمكن أن يصبح كذلك حتى قبل ولادته. وسيساعدُ هذا على حلّ المسائل.»

جرى الحمل بمطلق الطبيعيّة. مارستُ تماريني الرياضيّة (بدا لي معجزةً أنّها أفادتني في تلك المرّة). قرأتُ أكواماً من الكتب التي كانت لاورا ترسلها إليّ. كنت أسيرُ كفايةً وأزورُ الدّكانَ عدداً من الساعات، بينما يضعني لورنثو في صورة المستجدّات النادرة، أذهبُ إلى السينما مع راميرو ونقوم ببعضِ المشترياتِ معاً، على مهل مثل ناقهين. كانت فِليسا تقول لنا: «مثل خطيبين» صعدنا يوماً إلى أوريِسا وما كدنا ننزل من السيّارة حتى راحت تُمطِرُ بشكلٍ سافرٍ.

ـ إنّهم محقّون بتسمية الحديقة بول المسيح ـ علّقتُ مبلّلةً.

ـ لا تجدّفي ـ أجابني راميرو.

وصلنا فقط حتى نهر أراثاس، النظيف والبهيّ، العريض والأزرق، بين المشرق والمغرب... عندما ستنحدر إليه مياه الثلوج سيكون ابني قد جاء إلى العالم. لم نتكلّم أنا وراميرو عنه قط. سألته مرّةً بعد أن قلتُ له ليلة سعيدة بعد عشاء صامت:

ـ هل ستحبّه؟

ربتَ راميرو على يدي عدّة ربتات.

طبعاً كانت الخادمة مارينا تتدخّل بنصائحها: عليّ أن آكل عسلاً

كثيراً كي يأتي الطفل حسن المزاج، ممنوع عليَّ التطريز وعمل الجوارب، كي لا يلتفّ عليه حبلُ السرّة. وإذا ما تأخّرت الولادةُ، توجَّبَ عليّ تدليك بطني بزيت قُلِيَت فيه ثلاثة عقارب بحر. وبالطبع، تعليق صليبِ كاراباكا فوق رأسي كي أشدَّ عليه بيديَّ عند الضرورة، دائماً، وبكلّ رضا معتمدة على سانتا ليبرادا. ثمّ وبعد الولادة يجبُ الاهتمام بطمر المشيمة لمنع أيّ كلبٍ من أكلها ـ مسكين نشيط ـ، لأنَّ هذا سيِّئٌ جدّاً على الطفل.

أكثر ما أدهشني هو العفويّة التي استطعت الانعتاق بها من يمام. لا يعني هذا أنّني نسيته، بل انعتقتُ منهُ، كمن هو مستغرق في عمل شاقٍ ولا يستطيع إيلاء انتباهه لشيءٍ آخرَ غير عمله. كثيراً ما كنتُ أُفكِّرُ أنَّ الطبيعةَ نظَّمت كل تلك المأساة المضحكة، كلَّ ذلك الحريق الصاخب في جسدي ـ الذي أراه الآن قصيّاً ـ كي آتي إلى العالم بحياةٍ جديدة. الطبيعة القاسية جدّاً والشحيحة جدّا بالنسبة لبعض الأشياء، هي في أمور الخلق مترفة، وكأنّها لا تثق باستمراريّتها وتطالب نفسها بالتأكّد بإصرار. ما العلاقة التي كانت قائمة بين الشعور بالشفقة والكرم، الذي غمرني في هذه الأشهر. والتأجّج الذي لا حدود له وكان السبب؟ البطن ذاته الذي يندفع الآن كان قبل ذلك المُتَلَقّي الذي لا يشبع للشهوانيّة. المتعة التي كانت الغاية صارت وسيلة وديعةٍ، حاملاً شجاعاً ومجتهداً. وكما يمحو ماء التعميد، كما يقولون، كلَّ شيءٍ، كذلك انسحبت ذكرى يمام إلى أطرافٍ خفيّة من نفسي، وتخلَّيتُ عنها دون جهدٍ، مثل وثائق حبٍّ لفّه النسيان، اختفت في أدراج خزانة لا يكادَ أحدٌ يفتحها.

تقدُّمُ الحمل غير المحسوس راح يبدِّلني؛ فبدل أن أصبح مزاجيّة وواجمة، صرتُ أكثر لطفاً وتفهُّماً وتواضعاً من أيِّ وقتٍ مضى. أختُ زوجي آدِلا اعتادت أن تقول:

ـ لم يعد من الصعبِ أن تُحَبَّ. المعجزة واضحة ـ كانت تسمي حملي معجزة ـ لقد لطَّف مزاجها.

كنتُ أرى أختَ زوجي كما لو من مسافة قصيّة ـ كما لو بمنظارٍ

مسرح مستخدم بالمقلوب ـ (وكذلك بقيّة العالم، لكن هي أكثر منهم). توقّعتُها على معرفة بالحقيقة؛ ويصعب عليّ الاعتقاد بأنّ راميرو حكى لها، ولعلني أعزو هذا إلى طبيعتها الخبيثة ونزعة سوء الظنّ عندها، التي كانت تصيب دون أن تعرف كيف ولا لماذا. وذات يوم، قريب من موعد الولادة قالت لي بنبرة ساخرة:

ـ سأرافقك متى أردت للاعتراف. أرى أن تحسِّني علاقتك مع الله، ليس لاحتمال حدوث شيء سيئ، وهو ما لا يخطر بالبال، بل كي يجري كلُّ شيءٍ على ما يرام.

كان راميرو أمامها، فقال لها دونما تبدّل:

ـ بِسي تعرف، عندما تريد الاعتراف كيف تفعل هذا وحدها. وإذا ما احتاجت لمرافقة فأنا هنا. لقد تأكّدنا أنّنا معاً نقوم بالأشياء بشكل جيد.

شكرْته بنظرة رقيقة، مع أنّ الجانبَ الظنونَ فيَّ فكّر أن راميرو لا يريدُ، ولا تحت ستار الاعتراف أن يعلمَ أحدٌ بأمرنا، على الأقل في وشقة.

عرفتُ بدقّة أنّ ساعة الولادة قد حانت. كانت المسألة تتعلّق بمهمّة قرّرتُ إتمامها بدقّة وبرودة، دون أن أعمل منها أدباً ولا تخوّفاً. حملني راميرو إلى العيادة. فحصني الطبيبُ صديق أرتورو.

ـ كلّ شيء جيّد. لم أر أمّاً متعاونة بهذا الشكل قط.

كانت الآلام تأتي بانتظام، تذهبُ وتعودُ. لم أشعر بأيّ خجلٍ لأنّ الطبيبَ ومساعديه يعبثون بجسدي أو يفتحونه. كلُّ ما يجري فيه أو خارجه كان طبيعيّاً كالحبّ، ربّما هناك كانت تكمن آخر حقائقه المشتركة. كنتُ أفكّر، بأكبر قدرٍ من الهدوء الممكن، بما عليّ فعله، وليس بما فعلتُ ولا بما سيأتي، فلكلٍّ لحظة عملها وجهدها. شردتُ لحظةً واحدة: في غرفتي تركتُ محفظتي وفي داخلها صورة يمام، لم

أتجرّأ على تمزيقها، فربّما خطر ببالي أن أريها للطفل. حين جاءت نوبةُ الألم الثانية كنتُ شاردة مع هذه الفكرة فأخذتني بغتةً وصرختُ.

ـ ماذا استجدَّ، أيتها المتعاونة؟ ـ سألَ الطبيبُ.

ابتسمتُ.

تسارع الطلقُ منذُ تلك اللحظة. وُلِدَ الطفل قويّاً ـ لا أحد ظنَّ عكس ذلك، فلماذا؟ ـ، أسمر داكناً، طويلَ الشعر وأشودَه، تاماً في كلِّ شيء. أيضاً شكرتُ الله بشكل طبيعيٍّ تماماً. لم أذكر أنّني مررتُ بمثل تلك السعادة. وضعوا الطفل على ساقيّ، من الركبتين وإلى الأسفل.

ـ لا، من فضلكم هنا لا.

مددتُ يديَّ. وضعوه على صدري فعرفته وكأنَّه لم يخرج بعدُ من أحشائي، عرفته لي ـ لي وللحياة وللعالم الآن ـ فغمرتني سعادة من المحال مقارنتها بشيء.

ما إن صعدتُ إلى الغرفة حتى سارعت أدِلا وأرتني صورةَ يمام.

ـ عندما ذهبتُ لأضع لك صورة سان رامون نوناتو سقطت منه هذه ـ قالت لي بقصديّةٍ واضحة.

ـ أعيديها إذن إلى حقيبتي. واغلقيها جيّداً كيلا يستطيعَ أحدٌ أن يحشر أنفه القذر فيها. وإلاّ فاعطِها لأخيك. فهو سيعيدها إليّ فيما بعد.

ماذا يهمّني؟ ماذا تهمّني النيّةُ السيّئة لأيٍّ كان؟ فبين يديّ وليدٌ، حياة حديثة العهد ولدت من حياتي. يكفيني هذا.

دخل راميرو حالما سرّحتُ شعري وسوّيت هندامي بأفضل ما استطعتُ. انحنى وقبّلني ولمس بإصبعه وجهَ الطفلِ، الذي انكمش بما يشبه الابتسامة.

ـ ماذا تحبُّ أن نسمّيه؟ هل تريدُ أن نسميه راميرو؟

ـ دائماً أحببتُ أن أسمّى كارلوس.

ـ صغير بهذا الشكل وصرتَ تُدعى كارلوس ـ قلتُ للصغير.

في اليوم التالي جاءتني فِليسا بنشيط. جمد حين رأى ولدي وراح ينظرُ إليه، ثمّ إليّ وراح يُحرّكُ ذيلَه شيئاً فشيئاً، حتى أدرك سرعة غير

معهودة، وأطلقَ بعدها نباحاً قصيراً وعميقاً. وددتُ في تلك اللحظةِ لو أعرف ترجمة لغة الكلاب المتقطّعة والمعبِّرة.

حدث ذلك حين أتمَّ الشهرين من عمره. كنتُ قد أرضعته وتقيَّأ ما رضعه. ارتخى رأسه وكأنّ العنق لا يقوى على حمله. خفت. وجدّتُه يتلظّى. هتفتُ لأرتورو. كان الطفلُ يتنفّسُ وكأنَّ أنفَه قد سُدَّ. وصل أرتورو على الفور. كان الصغيرُ كارلوس يرتعشُ. تفحّصه وفحصه بالسمّاعة. قال أرتورو دون أن ينظرَ إليّ:

ـ حمّام ماء بارد فوراً.

لم يكلّمني بعدها. جاؤوا من الصيدليّة بما طلبه. راح يمشي والطفل بين ذارعيه في الحمّام. كنتُ أتابعه بعينيّ، مشلولةً. عادَ وغطّسَهُ في المغطس. لم يمضِ أكثر من ساعة ونصف على إحساسي بأنَّ شيئاً سيّئاً يحدثُ، حتى شدَّ أرتورو على أسنانه، أغمضَ عينيه وهزَّ رأسه إلى هذا الجانب وذاك. ترك الطفلَ في مهدهِ ملفوفاً بالمنشفة واقتربَ منّي. لم يكن بحاجة إلى أكثر من ذلك.

وجدتُ نفسي وحيدةً. وحيدة تماماً في العالم.فجأة حدثَ تبدُّلٌ جذريّ: انفصال مباغتٌ لكلّ ما كان حولي ولم يكن لي وما كان لي قط. لم استطع، رغم محاولتي، تفسير الكيفيّة التي حدث فيها هذا التبدل المفاجئ في شخصيّتي، تبدّل كان من الممكن أن يحملني على القفز في الفراغ. ومع ذلك كان ما يزال هناك مخرج. عرفتُ بيقينٍ يُقَشْعِرُ منه البدنَ ما كان عليّ أن أفعله.

بعد ثلاثة أيّام من مواراة الطفل الثرى ذهب راميرو لا أدري إلى أين متذرّعاً بإجراءات أجهلها. فصلنا ذلك الموت فصلاً لا عودة عنه، بدل أن يوحِّدَنا. هذا ما يجبُ أن يحدثُ بين الشركاء الذين يُجَمّعون قواهم للقيام بجريمتهم حين تفشلُ هذه الجريمة. قراءة الفشل في عيني الآخر عقابٌ مُضاعَفٌ. تملّكنا إحساسٌ بأنَّ شيئاً أقوى منّا قد هزمنا. هزمني أنا على الأقل. كان شعوراً غير مطابق للألم، فهو أعمق، أشملُ، وكأنَّ كلَّ شيءٍ فقدَ إحساسَهُ، كلّ شيء: التضحية، التظاهر، النظام القائم، الحياة التي عَرَضَت عليَّ المضيَّ بي إلى الأمام

حتى الموت. كلُّ شيءٍ صار غير مجدٍ. حيث اكتشفت أنَّني تحوَّلتُ إلى أخرى، حين أطعتُ ما كان يأمرني به قلبي الجديد ـ أو المجدَّد، أو المُستعاد ـ. كانت ثُمسي، ومع أنَّني كنتُ أتصرَّفُ بدافعٍ أعمى، فلن أنسى أبداً ذلك المساء.

رحتُ أُمشِّط نشيطاً ببطءٍ، وقد بلبله ما حدثَ في الساعات الأخيرة. أُكلِّمُه بحنانٍ وصوتٍ منخفِضٍ، مُتَذكِّرةً كلمات مدرِّس التاريخ العجوز:

ـ صارت حياتي ليلاً كئيباً، يا نشيط، كئيباً وبائراً. مثل حياة كلب لا صاحب له، كلب من هذه الكلاب التي تجري في دروب لا نهاية لها، لا تدري لماذا تجري أو إلى أين تمضي، كأنَّها على موعدٍ لا تستطيع بأيِّ شكلٍ من الأشكال أن تغيب عنه ونسيت أين ومع من... أنا أملكه، يانشيط، إنَّه فرصتي الأخيرة. عليَّ أن أذهب. سأتركك ككلب لا صاحب له. ستشتاق إليَّ وأنا أيضاً سأشتاقُ إليك، لكن لا حلَّ أمامي غير الذهاب.

عرفتُ أنَّني كنتُ أبكي أخيراً وأنَّني لم أتمكَّن حتى تلك اللحظة من البكاء. ودَّعتُ الكلبَ. كان الشيء الوحيد الذي أملكه في ذلك البيت، الذي رأيتُه فجأةً مشحوناً وغريباً. كنتُ أقولُ له هذا، أعانقه وأُقبِّله وكأنَّه طفلٌ، وكأنَّه الطفلَ. كان يلعقُ وجهي. وضعتُ له طوقَهُ. ركبنا السيَّارةَ وأخذته إلى صيدليَّة فِليسا. كان البردُ قارساً، وتذكَّرتُ متأخِّرَةً أنَّني خرجتُ دون معطفٍ...

قالت لي فِليسا إنَّ أرتورو منهار.

ـ أتصوَّرُ ذلك ـ أجبتُ.

لكنَّني لم أذهب لأسمع تعازي. قلتُ لها سأقضي بضعة أيَّام في الخارج، فأنا بحاجة إلى إعادة تنظيم نفسي عقليَّاً، سأكون في مدريد. وهي تتفهَّمُ ذلك. كنتُ سأترك لها نشيطاً صديق ولديها. انفجرت فِليسا بالبكاء.

ـ لا تبكي. في الحقيقة لا يمكن للأشياء أن تعود إلى الوراء. هي كما هي.

ـ أنتِ قويَّةٌ، يا بِسي. أنتِ أقوى مني...

ـ لا تصدِّقي ذلك. أيضاً جئتُ كي تعطيني منوِّمات. نفدت عندي

وسأحتاجها الآن. أعطني قدر ما تستطيعين. ما عندكِ. أريد أن آخذها معي وكلّما كانت أكثر كلما كان أفضل.

- ماذا ستفعلين؟

- ليس ما تُفكّرينَ به. سأنام، هذا ما سأفعله. لكنّني لا أعرف كم من الزمن سأبقى في مدريد. فيما بعد تسوّين أمر الوصفات مع أرتورو.

أعطتني عدداً من عبوات المنوّم، الذي كنت أتناول منه حبّةً كلّ ليلة. «لم أحتج إليه في استنبول، لكن ربّما احتجته الآن.» خبّأتُ العبوات في حقيبتي. قبّلتُ نشيطاً. قبّلتُ فِليسا. وحين مررتُ بمكتب البرق أرسلتُ برقيّةً ليمام. خطر لي أنّه قد لا يكون في استنبول «سيّان - قلتُ لنفسي - سيعود.» تركتُ الرسالة التي كتبتُها لراميرو على طاولة المطبخ.. كانت قصيرة جدّاً. «أنتَ تعرف لماذا أذهب وإلى أين. لك كلّ ما يخصُّني. أتنازلُ عن كلّ ما هو مشترك بيننا وعن حقوقي في الدكّان. افعلْ بها ما تشاء. وإذا خطر لك يوماً أن تُطلّق فلتكن هذه الرسالةُ موافقة منيّ. أتمنى أن تصبحَ أكثر سعادةً ممّا أنتَ عليه حتى الآن، سعيداً بقدر ما تستحق. وداعاً. بِسي.»

في اليوم الخامس لوفاة ابني حطّت الطائرةُ التي أقلّتني على مُدرّجات استنبول.

الدفتر الثالث

لم أرَ يمامَ هذه المرّة عند سلّم الطائرة. كانت قد أثلجت والثلج يتراكم وسخاً ومكدّساً على أطراف الطريق. رأيتُه على الجانب الآخر من الجمارك. استغربتُ رؤيته بالمعطف وبوجه بارد. لم أكن أحمل أمتعةً زائدة، لكنّها أكثر من المرّة الثانية.

ـ جئتُ كي أبقى ـ قلتُ له قبل أيّ شيءٍ.

ـ كم من الوقت؟

ـ بشكلٍ دائم.

ـ وزوجك؟

ـ أنتَ زوجي. أنجبنا ابناً، يا يمام؛ مات منذُ عدّة أيام... سننجب أكثر بكثير.

ـ سنتكلّمُ فيما بعد ـ أجاب بنبرة غير معبّرة ومرّ بذراعه على كتفيّ ـ إلى أيّ فندقٍ نذهب؟

ـ لم أملك الوقتَ لأحجز غرفة؛ خرجتُ فجأةً.

ـ في هذه الحالة من الأفضل أن نذهبَ، على الأقل هذه الليلة، إلى شقّتي.

وحملني إلى هذا المكان، حيثُ أكتبُ وأنتظر.

أحتفظُ من تلك الليلة الأولى التي قضيتُها هنا بذكرى تجعلني اليومَ

أبتسمُ: لم يتمكّن يمام من الولوج فيَّ. ربّما لقلقه من معرفته أنَّني جئتُ نهائيّاً، وربّما لأنّه مُضيفٌ متواضع، فالبيتُ الذي أنا فيه بيته، وربّما لأنّه وجدَ نفسه في حرج من وضعي في صورة سوابق كثيرة كنتُ أجهلها. كان حبُّه في تلك الليلةِ طويلاً، ناعماً، يكادُ يكونُ أنثويّاً. وحين اضطرَّ للاستسلام لهزيمته بعدَ كثيرٍ من التحفّظ، خفَّفتُ عنه.

ـ تكفيني قبلاتكَ ومداعباتُكَ وحدها، ولا أقول حضورك وحده. الشيء الآخر لا يعني بالنسبة إليَّ شيئاً اليوم... الإفراطُ بالحبِّ أيضاً يحدثُ هذه التأثيرات. اعتدت على هذا معَ زوجي.

بعد ثانية من قول هذا، انتبهتُ إلى أنَّه كان عليَّ ألاّ أقول ذلك. التفتَ يمامُ إلى الجانب الآخر ورفض يدي التي كانت تطلبه. أدركتُ أنَّني سأقع، من الآن فصاعداً، في خطر الملل لأنَّني شاهدة على فشله، وكان يمام الشيء الوحيد الذي ملكته وأملكه في هذه المدينة. اعترفتُ لنفسي: «لم أدخلها بقدم سعدٍ».

في تلك الليلة (لا، بل بعد ذلك بكثير) لمّحتُ الشبهَ بين تصرّف راميرو وتصرّف يمام إذا ما فُحِصا من الخارج. كيف يختاران في أعماقهما نفسيهما وإذا ما خُيِّرا أهملاني. ربّما روحُ الرجل هكذا: عندهم قسم واحدُ فقط مخصَّص للحب وبقيّةُ الأقسام لبقيّةِ النشاطات، كائنة ما كانت: التجارة، السياسة، اللعب أو الأصدقاء.

ومع ذلك لا يمكن أن يوجدَ تناقضٌ أكبر من الذي بين يمام وراميرو. لستُ، أنا التي أنظر من الداخل، مَن تستبدلُ كلَّ الألم الذي يمكن أن يحدثه لي إهمال يمام بكل حالات الرضا التي يمكن أن يقدّمها إليّ راميرو هذا، الذي لا يعيش إلاّ لإرضائي.

أعرفُ أيّاماً أُصابُ فيها بالقنوط لأنَّ يماماً ليس لي كلّيّاً، كما أودّ وكما أنا له. يأتي في بعض الأيّام كما لو ارتدى سترةَ آخر، أو نسي شيئاً في الخارج لا أتمكّنُ أنا نفسي من تحديد ماهيته. ليلة أمس، مثلاً ودون أن أذهب بعيداً، كان شارد الذهن، سألني مرَّتين: «ماذا قلتِ؟»، بينما كنتُ أحكي له كيف قضيتُ اليوم. داعبتُهُ وحين تجاوبَ معي شعرتُ أنَّه ليس موجوداً بكامله في رؤوس أنامله. كان القسم الناقص هو أكثر ما أحبُّ فيه آنذاك ودونه لا أستطيعُ العيش لحظةً واحدةً. أخذتُ وجهه بكلتا يديَّ، أجبرته على النظرِ إليَّ، قرَّبتُ وجهي

منه، بحثتُ عن عينيه بعينيّ وعن فمه بفمي، إلى أن أُفلِتَ منّي سئماً.

ـ اتركيني، إنَّك تؤلمينني.

ـ وأنتَ أيضاً ـ أجبته مغتاظة.

الآن أُدركُ كم أنا خرقاء عادةً. سأستقبله اليوم حين يصلُ بطريقةٍ أخرى، أكثر وداعة واستبسالاً، جاء أم لم يجئ فهو لي بالكامل.

افترضتُ دائماً أنَّه حين يخرِّبُ حتُّ الزمنِ روابطَ الزوجين القلبيّة، تبقى الرحمةُ المتبادلةُ والرقّة التي تلفّ كلّ شيء. فالزوجانِ كثيراً ما قامرا بحياتيهما معاً بحيث يصعب معرفة أين تبدأُ حياة كلّ منهما، فالتعايش صهرهما وماثلهما، بَرَدَ الحراشفَ، صار الواحدُ منهما الآخر، أباه وابنه... في حالتي لم يكن الأمرُ كذلك. فقد تحطَّمَ كلُّ شيء بضربةٍ واحدة. وهذه الضربة هي التي حدَّدت المرحلةَ الثالثة من حبّي ليمام. لأنّني في كلِّ مرّة أتيتُ فيها إلى استنبول أحببته بطريقةٍ مختلفة. في المرّة الأولى كان حبّاً غريراً، مراهقاً ونهماً: تفتُّحي على الجسد واللذة بعينين مغمضتين وعمى حبٌّ ساذج وبسيط، دون أن أعرف كنيته، أو أتصوَّرَ روحه، جاهلةً كلَّ شيءٍ بما في ذلك الدافع لهذ الوله المحسوس أكثر من المقبول.

في المرّة الثانية أحببته بصدى ذكرايَ عنه، باختطافه لي وجنوني بالوحدة التي كنّا نشكلها معاً في داخلي. فأنا ما عدتُ أنا ولا هو في عينيّ هو. رضاي الأناني من انغماسي الأوّل هدَأ قليلاً في أكرمِ وأوثق معاشرةٍ للجسد. الشعور الثاني كان أكثر انتظاماً ووعيَ تفانيَ جهاراً في وعيه، وإرادتي تلاشت في إرادته، دون أن تُدافِعَ عن استقلالها.

في هذه المرحلة الثالثة أصبح هناك مُسَيْطِر ومسيْطَرٌ عليه. رأيتُ هذا منذُ اللحظة الأولى. رأيتُه عبر حاجز الجمارك. كنتُ في طريقي للخضوع للتضحية بمطلق حرّيتي، على الرغم من أنّني لم أعرِفْ إلى أيِّ مدى. كما لم أعرف إلى أيِّ مدى سأستخدِمُ دفاعاتي. كلُّ شيءٍ كانَ غريزيّاً: كي يدوم الحبُّ لا بدّ من الامتثالُ لغريزة الموت والقتلِ أيضاً. فالحبُّ يحتاجُ من حينٍ لآخرَ أن يُجدِّدَ ضحاياهُ. الخضوعُ، حتّى حين

يصل إلى نقي العظام، ليس دائماً حيويّاً (أو أنّني هكذا أفكِّرُ وأنا أكتبُ، في يومٍ آخر ربّما كتبتُ شيئاً مختلفاً، لكنّني منذُ يومين لم أرَ يمام).

الخوف ـ من فقدان الحبيب أو من الوقوع في عداوته ـ جوهريٌّ في الحب. من يسيطرُ بالعذوبة يعرف أنّه يمارسُ سيطرةً مشؤومةً، يثِقُ فلا يعودُ يخافُ. لاحظتُ كيف يستثمرُ وضعُ الكفّتين في الميزان. فالذي يسيطرُ بالقوّةِ يحسُّ في أعمقِ أعماقه بأنّه بحاجةٍ للمُسَيْطَرِ عليه، لأنّه يُمتِعُهُ ويصيرِ عبداً للعبدِ دون وعي. لكنَّ الرقيقَ يحسُّ بالطريقةِ ذاتها أنّه قد يتأذّى في أخصِّ خصوصيّاتِهِ، في الشيءِ الوحيدِ الذي يملكهُ فيحتاطُ بغريزة البقاء، الغريزة الودودة أيضاً، لأنّه لا وجود للحبّ دون البقاء. وهكذا فالحبُّ يتفسَّخُ لأنَّ المتعةَ تغمره، تهزمه وتجعله يستسلمُ ويذوب فيها، والرقيق الظاهريُّ، الذي قدره إرضاء الآخرَ حين يطلبُه، يكبحُ أو يتعلّمُ كيفَ يكبح رغبةَ المتعةِ الخاصّة عنده، تلك التي يتفوّق بها على السيِّد.

تلك كانت حالتي. لكن، هل ستستمرّ أم لا؟ ربّما دقّت ساعةُ الحقيقة. لا أدري؛ أشكُّ بذلك. في الحبِّ دائماً يُشكُّ حتى بما بُرهن تماماً على مصداقيّته وما وُثِقَ به بثباتٍ وعِيْشَ لأجله. الشكُّ موجودٌ في جوهر الحبّ. لأنَّ الحبَّ هو العاطفةُ الوحيدة التي تدفعُ ذاتُها ثمن ما تصنعه: لا يحتاجُ لعملةٍ أخرى، لأيدٍ أخرى. وبما أنَّ نقوده ليست عاديّة، فالحبُّ سكّاكٌ مزيّف.

لا أعتقدُ اليوم، اليوم بالذات، بأنَّ الحبَّ خلْقٌ مُشتركٌ، ولا شعور موضوعيٌّ ينتصبُ أمامنا، أو سبب يفرضُ نفسه على الآخر كي يحبَّنا كما نُحبُّهُ، ولا واقعٌ راسخٌ في مواجهة أخطاء قلوبنا... لا، لا أعتقدُ اليومَ بأنَّ الحبَّ شيءٌ من هذا، بل صراعٌ حتى الموت، الموت دون صفحٍ، لأنّك ستموت سواءٌ خسرتَ أو ربحتَ في هذا الصراع. لكنّك تموتُ حبّاً خارجَ ذاتكَ.

لو أنّني بقيتُ في وشقة لمتُّ دون أن أخرجَ من ذاتي، لكنّني كنتُ أموت في داخلي. مهما آلمني اليومَ، تحديداً اليومَ، فالحبُّ ـ أو كائناً ما كان اسمه ـ أنقذني. لم أعد معزولةً، فأنا شريكة، شريكة في شيءٍ رهيب، بلى، شيء أجهل غايته وطريقه تصيبني بالدوار، لكنّني حيّةٌ إلى جانبِ شيءٍ حيّ.

ومع ذلك لستُ عمياء ولا صمّاء. أعرفُ أنّني أعيشُ في غرفةٍ مُغلَقة - وهذا ليس مجرّد خيال - أتنفّسُ الهواء الذي أزفره مرّةً وأخرى، هواء يندرُ أكثر وأكثر. لكنَّ حبّي تنفُّسي. لا أستطيعُ خداع نفسي بقولي: «لن أتنفّس ما لم يكن الهواء نقيّاً». عليّ الاستمرار بالتنفسِ هنا، حيثُ أنا، هوائي الملوّث، هوائي المسموم. إذا أردتُ أن أحبّ، كما أريد أن أعيش، فلن أستطيع السماح لنفسي بترفِ التخلّي عن التنفُّسِ هنا، مهما كان الهواء الذي يحاصرني.

لا أُبالي أنّني لا أرى شيئاً من الخارج، ولا أتنفّسُ هواءً غير هذا. ليس عندي أيُّ فضول: هنا بدأتُ أعيش وهنا سأنتهي. وإذا ما دفعوني للخروج من هذا النفقِ فسأموتُ، مثل السمكة التي يخرجُها الطفلُ من الماء كيف تتنفّس بشكلٍ أفضلَ، كما لا أريدُ الموتَ خارج نفقي... طبعاً لو تعلّقَ الأمرُ بي لأمرتُ أن يكون كلُّ شيءٍ هنا واضحاً ومريحاً والهواء في غاية النقاء. ومع ذلك أفضّله على كلِّ ما في الخارج حتى ولو كان مظلماً ورهيباً - هذا إذا كان كذلك - أو ربّما ليست مسألة تفضيلٍ، لأنّني ببساطة لا أتخيّلُ الخارج ولا أتخيّلُ هذا الخارج إلا كعقوبة.

عندما كتبتُ ما كتبته في الأعلى عن هذه الغرفة وهذا النفق كنتُ أُشيرُ إلى مشاعري وإلى ما هو خانق في حياتي الجسديّة.

حياتي مثل حياة امرأةٍ في الحريم، باستثناء خروجي إلى البازار، وساعات جلوسي في دكان يمام، لأنّني وقد جُبلتُ، بين أشياء أخرى، على وحدةٍ وصمتِ البيت صارت حركة الخارج تضنيني. وضعني يمامُ بصورة السوق المسقوف المليء بالإيهامات:

- قطيع من الكلاب، خلاصة المنافسات غير الشرعيّة، حيث توجدُ، وإن لم يبدو ذلك، شبكةٌ من القوانين الكثّة التي لا تسمحُ لأحدٍ أن يعمل بحرّيّة. كلُّ شيءٍ يعملُ من خلال المكلّفين بدعوة المارّةِ للدخول إلى الدكاكين، ولا يسمح لهم بالكلام معهم أو بإغرائهم إلا بعد تجاوز حدّ الدكّان التاليّة، لأنَّ الشارعَ مُشترى أيضاً مع المحلاّت. هناك الآلاف من هؤلاء السماسرة، إذا كان من الممكن تسميتهم هكذا، ليس لديهم تجارة

خاصّة ويأخذون حتى العشرين أو الثلاثين بالمئة من المبيعات، حسب مهاراتهم. ويسهمُ في هذه الفرصة السانحة حتى دبلوماسيو القفّازات البيضاء، الذين من المناسب الاتفاق معهم، وليس مصادقتهم أبداً، لأنّهم سيشعرون بالخجلِ من طلب العمولة، وسيأخذون الزبائن إلى مكانٍ آخر حيث يعطونهم العمولة.

›› لا حلفاء في هذه الغابة، ولا مختارين، لا يُعْتَرَف لأحدٍ بالأولويّة. المسألة تتعلّق فقط ببيع أيّ شيءٍ حتى دون إتاحة الفرصة للقانون كي يتدخّل. يتحرَّكُ هنا يوميّاً خمسة عشر مليون دولار، وإلى هنا يأتي الناس للبحث عن العملات الصعبة للتجارة التي من المحال أن تمارس في العلن بمال مُبدَّلٍ في البنوك الرسميّة. من خلال هذا البازار يلاحظ اهتزاز البورصات، التضخم، والعجز. وللتدخّل فيه لا حاجة إلا لاعتياده وحاسّةِ شمٍّ جيّدة. البراعة التي لا يحدسها الآخرون، حتى ولو كنت تملكها، هي نقطة ضعفك. لا أقول لك أكثر:فلولا وجود الحواسب، لما كان الكثير من الباعة قادرين على العمل إلاّ على عماها، وبقوّة معرفتهم بعلم نفسِ المشترين، لأنّهم لا يعرفون إلا القواعد الأربعة. وعلى الرغم من كلّ ذلك قد لا يعمل البازارُ جيّداً، لكنَّ أيّ خيارٍ آخر سيجعله يعمل بشكلٍ أسوأ. وتجّار الخارج أكثرُ خداعاً بكثير وهم كزملاء أكثر تمادياً.

لا أكادُ أُغادر هذا الطابق إلاّ لشراء الضروريّات، هذا إذا لم يأتِ يمامُ بالضروريّات حين عودته من مركز المدينة. ما أعرفه أعرفه من خلاله، ما أدري به أدري به من خلاله. إنّه صحيفتي اليوميّة، مذياعي وتلفزيوني. تعلمتُ من التركيّة فقط ما يمنعني من الموت جوعاً، ثمّ إنّني لا أريدُ أن أتعلّم أكثر. أعترفُ بأنَّ لديّ ردَّةُ فعلٍ معادية للأتراك، لأنّه العالم الذي ينتمي إليه يمام ولأنّه هو ما يفصلُ بيننا وما يعيقني عن معرفة ما يقوله للآخرين، ماذا يفكّرُ وبماذا. أصبحتُ أكرهُ موقفَهُ، من الأشخاص، أو الأحداث البعيدة جدّاً عن موقفي. لا أتمكن من إكراه نفسي علي التفكير والشعور والعمل مثله، والله يعلم كم حاولتُ. كان عليّ ألاّ أفكّر بهذا وأكثر من ذلك ألاّ أكتبه، لكنّني أعرفُ أنّه يشكّ بالأمرِ. لذلك يكره كتَيّبات تسليتي التي تحتوي على الكلمات المتقاطعة بالقشتاليّة. وأظنّه لهذا السبب يقدّمُ لي رواياتٍ مختلفة كلّما حكى لي

قصّته، أو قصّة عائلته أو بلده، وهذا ما يحملني على الشكّ بكلّ شيء. لأنّ المثل القائلَ بأنّ من يحبّ الملفوفَ يحبُّ الأوراق التي تحيط به ليس صحيحاً. أنا أمقتُها، فما أحبُّه هو اللبّ، أريده لي وحدي. في أحدى المناسبات وبينما كنتُ أجلي الصحون بعد العشاء وهو جالس في المطبخ، أسهبَ بالكلام عن منطقة أقصى شرق تركيّا وحكى لي أنّ أسرته كرديّة، وصلت إلى استنبول من الأراضي مع أسرٍ أخرى كثيرة إثر تمرُّد 1925 . ومرّة أخرى قال لي أمام مسجد بيازيد بأنّ أباه كان واحداً من اللازيين الجيورجيين الذين شكّلوا حراسة كمال أتاتورك الشخصيّة.

كان يمام يبجّلُ هذه الشخصيّة التي تصطدم بصورتها على أيِّ جدارٍ تركي، ـ مع أنّني لستُ واثقةً بأنّه دائماً يفكّرُ هكذا ـ كناطقٍ باسم الحظِّ السعيد الذي يجبُ أن يتمتّع به كلُّ حاكمٍ يعملُ لمصلحة شعبه.

ـ كلُّ من كان يبدو معادياً له ينتهي بالوقوف إلىجانبه ـ حكى لي ذات ليلة كان فيها فصيحاً، وهو ما يحدث له من حين لآخر ـ. اليوم الذي استدعى فيه الغربيّون السلطان الألعوبة إلى مؤتمر لوزان في عام 1922 بعد الحرب العالميّة الثانية. استغلَّ مصطفى كمال المناسبة لإلغاء السلطنة. وحين أصدر مسلمون هنديون مشهورون بياناً يطالبون فيه شعبنا بالدفاع عن الخلافة، أثار أتاتورك الحساسيّة القوميّة الاستقلاليّة واعتمد عليها لإلغاء الخلافة بجرّةِ ريشةٍ وإعلان علمانيّة الدولة ـ كان يمام يقوم بحركات حماسٍ متهوّرة ـ وعندما وقع التمرّد الكردي استغلّه كغطاء لتوحيد الحزب الجذري الأكثر تقدّماً مع الليبرالي، الذي كان يتبعُ النزعات التقليديّة للشباب التركي. وحرّك قلوبَ الجميع للدفاع عن الوحدة الوطنية دون تصدُّعات.

ـ لكن منذ وقت قليل قلتَ لي إنّ أسرتك كرديّة.

ـ لا تقاطعيني فأنا أتكلّم... ـ أتذكّرُ نبرته الخطابيّة ـ. وحين قامت مؤامرة إزميرنا التافه ضدّه، الذي من المحتمل أنّه ابتدعه بنفسه، استخدمه لإبعاد كلِّ من كان يقف عائقاً أمام سياسته.

ـ هل يعني هذا أنّك تعتبر فنَّ السياسة يكمن في هذه المهارة المشعوذة؟

ـ لا أفهمُ كلمة ممّا تقولين... في جميع الثورات هناك نقاط حاسمة يجبُ على ممثّل إحدى النزعات أن يتصرّفَ فيها بلا رحمة مع معارضيه. على الزعيم أن يكونَ قادراً على تحريك الرأي العام أحياناً، وأحياناً أخرى أن ينتظرَ ظهور هذا الرأي قبل شروعه بالعمل. على القائد أن يقف على رأس شعبه لكن دون أن يَسبقه كثيراً كيلا يفقد الاحتكاك الضروريَّ معه، فيصبح وحيداً... الشيء ذاته يحدثُ مع المحبّين، يا سُمَيْرائي: واحدٌ يربح وآخر يخسر. »

›› أتاتورك حدَّثَ كلَّ شيء. (إذا أردتِ معرفتنا فعليك دراسة هذه الوقائع.) أُلغيت رموز الماضي، كالطربوش مثلاً، وبذلك خابَ أملُ الشرقيّين. كما أُلغيت اللغةُ العربيّةُ بتبنّي الأبجديّة الرومانيّة. صار استخدام الكنية إجبارياً، الأمر الذي كلَّفنا دماً وتمّت المساواةُ بين الرجل والمرأة... ـ كان يمامُ يضحكُ ـ حاول أتاتورك إجبارَ الشعبِ على هذه المساواة، لكنّه هو نفسه لم يكن قادراً على تمثّلِ هذه الفكرة، حاول الاكتفاء بامرأةٍ واحدةٍ، لكنّه لم يستطع. حتى في هذا كان على حقّ.

بدأتُ أشعر باشمئزازٍ لا يُبَاحُ به تجاه أتاتورك. ولم يعد بمقدوري أن أنظرَ بحياءٍ إلى صوره. كان يمام يتابع:

ـ عاد يومُ الأحد ليصبح يوم عطلة والدينُ قضيّة خاصّة. صار هناك حرّيّة دينيّة، لكنه منعَ تعليم القرآن في المدارس. كان قد طفح كيلُ التجاوزات.

ـ يعني أنّكم انتقلتم من إعطاء ما لقيصر إلى الله إلى إعطاء ما لله إلى قيصر. كم هي متطرِّفة الشعوب الحديثة!

ـ الحديثة؟ ـ زمجر يمامُ ـ شعبي كان حين لم تكن قد ظهرت شعوبكم بعد.

كان الشرر يتطايرُ من عينيه الهائلتين وأنا أبتسمُ سعيدةً مستخدمة ضدَّه حججاً قدّمها لي منذ أسابيع أو شهور. لا أنسى شيئاً من أشيائه.

ـ تذكّر أنّك حكيت لي عن الانطباع الذي أحدثه البرلمان البريطاني عند أتاتورك في رحلة قام بها إلى هناك. أرادَ أن يكون هنا أيضاً معارضة، وكلّفَ أحدَ أنصاره بالقيام بمسرحيّة تمثيلها في الجمعيّة القوميّة. تذكّر، تذكّر: أتقن المسرحيّة بحيثُ أن النوّاب تشابكوا وتضاربوا وأوشكوا أن يطلقوا النار على بعضهم بعضاً. أليست هذه علامة من علامات الشعوب حديثة الولادة؟

كان يمام المغتاظ قد نهض على قدميه وراح يمشي مثل أسدٍ في قفص. يتكلّمُ دون توقّف، حتى حين كنتُ أتكلّمُ، كما تكلّم في إحدى ليالي سفرنا بنوعٍ من الإثارة غير المعتادة حملتني على الاعتقاد بأنّه تناول شيئاً ما. وعندئذٍ شرح لي طوباويّته. كان رائعاً، يؤشّرُ، يرفع ويخفض صوته مثل ممثل قدير، فعلّمني ما هو الشعب التركي أكثر ممّا لقّنني درساً أراد تلقينه لي.

ـ يجب تجديد أسمى التطلّعات: توحيد جميع الشعوب التي تتكلّم اللغة التركيّة في كامل الشرق. لأنّ فضائل شعبنا الحقيقيّة مصدرها أزمنة البدو الغابرة ومؤسّسات العثمنليين القديمة وطرق حياتهم النقيّة. شعوب حديثة! ـ كان يصرخ بازدراء ـ السلبي في تركيّا اليوم مصدره العرب والفرس، وبكلمة واحدة الإسلام. يجب أن نُحرّرَ مجتمعنا من تأثيرهم المشؤوم...

ـ لكن ألستَ مسلماً؟

ـ أنا؟ فقط بالكلام ـ كان يتفاخر بينما يشربُ قنينة كونياك، لا أدري من أين جاءته ـ دمنا الحقيقيّ ينبع من القرغيزيين والقوزاقيين والأوزبكيين والتركمانيين: من شعوب آسيا الوسطى العريقة. أنا لا أريدُ أوروبّا ـ كان يحرّكُ يديه باشمئزازٍ ـ كما لا أريد عمق العرب والفرس الزائف. أريدُ ثقافتي الخاصّة بي، شعوري العملي وشعوري العسكري. أوروبا دعيّةٌ تلتهمُ كلّ من يقترب منها. أفعى بوا هاصرة. سترين كيف سينتهي جوهر ما هو إسباني قريباً. أقسم لك أنّكم كلّما تساويتم هناك كلّما أصبحتم أكثر سوءاً.

روى لي بينما كنّا نعبر مساءً الجسرَ الذي أخذ اسمه من القرن الذي يقوم فوقه، كيف حدّثَ كمال أتاتورك الفنَّ وأبعد القاعدة الإسلاميّة التي تمنع تمثيل الكائنات الحيّة.

ـ أمر بإقامة التماثيل في المدن الرئيسيّة، وضعها في الساحات والواجهات. وأدخل الموسيقى الغربيّة على الرغم من تأثّرها بالموسيقى التركيّة في مرحلةٍ ما.

أنا التي كنتُ مشتاقة لموسيقايَ أكثر من أيِّ شيءٍ آخر، أجبته بأنَّ من العبث المضيّ ضدَّ روح أمّة ما وأنَّ تركيا، ولها الحقُّ الكامل بذلك، قد عادت، وهذا يؤلمني، إلى موسيقاها كتعبيرٍ عن طبيعتها الخاصّة وقلبها الخاص.

ـ كانت زوجة القنصلِ على حقّ ـ ختمتُ ـ حين قالت لي إنّكم جميعاً تعبدون أتاتورك، مؤسّس جمهوريّتكم الكبرى، باستثناء المحافظين الذين يكرهونه لمعاداته للإسلام، وباستثناء الليبراليين الذين يكرهونه لحزبه الوحيد، وباستثناء اليساريين الذين يكرهونه لأنّه رمز الدولة الرسمي، وباستثناء التقدميّين الذين يكرهونه لأنّه لم يقترب أكثر من الغرب... كفاكَ خداعاً لنفسك، يا يمام: الشعب الذي ليست له موسيقاه الخاصّة شعب ناقص.

كنّا قد اجتزنا الجسرَ، أوقف السيّارة دون كثيرِ اعتبار، حدَّقَ وقال بصوت متراجعٍ وخالٍ من الخطابيّة:

ـ من الممكن ألاّ تكوني على خطإ. لكنّني أحتاج كي أقول لك بأنَّ هناك لحظاتٍ أكرهك فيها؛ لحظات لا تبدين لي فيها امرأة حقيقيّة.

لم يبق أمامي غير أن أطلق ضحكة.

ـ وهل تظنّني لا أعرف متى تكرهني؟ لكن ليس للسبب الذي تعتقده: أنت تجدُ فيّ الرفيقة والمرأة وتقبلُها، الشيء الذي لن تفعله مع امرأة تركيّة... السبب الحقيقي لكراهيتك لي هو معرفتك التامّة بأنّني أكثر سعادة منك؛ وأنّك كلّما أسأتَ معاملتي أكثر تعزّزت ثقتي بانتمائي الكلّيّ إليكَ وبازدياد سعادتي. لن أبغي يوماً نسيانك، ولن أرضى، يايمام، أن تكون لا مبالياً معي، كما لن أقبلَ إثارة استهتاركَ أو نسيانك. إنَّ معاملتك لي، حسنة كانت أم سيّئة، تعني أنّك ما تزال بجانبي، وأنّني أكثر قليلاً من قطعة أثاثٍ بالنسبة إليك. لكن هناك شيئاً يجب أن يبقى واضحاً، يا يمام، مرّة واحدة وللأبد: ما من طريقة تغيّرني معك: أنا هنا أسعدُ منك بكثير.

بقي برهة ينظر إليّ وكأنّه لا يعرف بماذا يجيبني. اقترب أخيراً، غطّاني بذارعيه وهمس في أذني:

ـ هذا ما سنراه في هذه الساعة ذاتها.

علمتُ بأنَّ يمام كان مفصولاً عن زوجته قبلَ علمي بأنّه متزوِّج. كان يومَ سبتٍ ولم يكن قد عاد من البازار بعدُ، فقد اعتاد التأخرَ أيّامَ السبت. قرعوا الباب. كانت امرأةً تركيّة عجوزاً، بدينةً، شقراء، ليست سوقيّة ولا مهذَّبة، يبدو أنّها كانت جميلةً في شبابها، تمسك طفلاً بكلِّ يدٍ: صبيّ يقارب الثامنة من عمره وطفلة في السادسة. دفعتهما إلى الداخل، ثمّ أبعدتني بدفعة من ذراعٍ متغطرسة وتقدَّمت داخل الشقّة. بدا أنّها تعرفها. توجَّهت بالتركيّة إلى الطفلين، اللذين جلسا صامتين، وارتمت، بعد أن تركت صرَّة في المطبخ، على أريكة الصالون فملأتها بالكامل. جمعت ذراعيها في حضنها واستعدَّت، دون أن تنطق بكلمة أو تأتي بحركة أخرى، لانتظار ما كان ضروريّا بارتياح.

كانت تقاسيم وجه يمام حين فتح الباب ووجد تلك السيِّدة لا توصفُ. لم يجرؤ على النظر إليّ. جرى الطفلان باتجاهه صارخين، انحنى وقبّل المرأةَ التي أملت عليه، وهي تشير إليّ بإصبعها قبل أن تخرج بجلالة ومهابة، أمراً لم يكن طويلاً، لكنّه صارم.

لم أتحرّك منذ وصول الغزاة. كنتُ مستندة إلى الجدار، متقاطعة الذراعين، أنتظر أن يتلوا عليّ حكماً كنتُ أتصوَّره. حاول يمام تأجيلَه ما استطاع. لكنَّ أمّه، المضطربة والحذرة مني، أودت بالتأجيل إلى الجحيم. الحقيقة أنَّ يمام تزوّج في ريعان صباه من فتاةٍ «قبيحة وثريَّةٍ جدّاً». هذا على الأقل ما وضّحه لي. تدبَّرت أمُّه موضوع الزواج باعتباره ملائماً جدّاً فقد أثمر الطفلين اللذين كنتُ أراهما ـ عبد الله وصافية ـ لم يستطع بعدها أن يتحمَّل زوجته فانفصلَ عنها. «لا؛ ليس مطلّقاً، بل منفصلاً.» لم تقبل أمُّه بشيءٍ آخر. لم يبد لها من الحكمة أن

يطلّقها، من وجهة النظر الاقتصاديّة. كان يلتقي الطفلين في نهاية الأسبوع. يبدو أنَّ أمّهما تعبت من تحمُّلهما فقرّرت القيام بانقلاب عسكري.

القصّة وما فيها أنّهاجاءت لتقول لي أن أصرف النظر عن زواجي منه. لا أستطيع إخفاء أنَّ قلبي يضطرب مع أنَّ فكرة الزواج لم تكن تشدّني نظريّاً. كنتُ ما أزال هناك مستندة إلى الجدار متقاطعة الذراعين، دون أن أستطيع التذمّر من شيء، أو اتهام يمام بالكذب، لأنّه لم يقل لي قط عكسَ ما يقوله لي الآن: لا شكَّ أنَّ ما قاله لي آنذاك كان بأمرٍ من أُمّه. (لم أشكَّ ثانية واحدة بأنّ تلك العجوز البدينة والشقراء هي أمّه). حاولتُ مواساة نفسي بأنّ الأمر بهذا الشكل أفضل. «الروابط بيني وبينه يجب أن تكون روابطنا أنا وهو، لا رسميّة، ولا اجتماعيّة بل روابط حبٍّ شخصيٍّ خالِصٍ وواضح. إذا انتهى هذا، فما مبرّرُ وجودي هنا، في استنبول، في شقّةٍ تطل على مرآبٍ للسيّارات، في مدينةٍ لا أتكلّمُ لغتها، أنتظر كبلهاء، ساعةً بساعةٍ وصول عاشقٍ هو الزوج الشرعيُّ لامرأةٍ أخرى؟»

لاحظتُ أنَّ الدموع طفرت من عينيّ وذقني صارت ترتجف. أشحتُ بعينيَّ عنهم دون أن أبدِّل وضعيّتي. ربّما أرادني يمام أن أبكي. لم أبكِ. كفاني أن آخذَ على عاتقي تفاهة أن أكونَ من يقذفَ في وجهِ يمام بخراب بيتي، وضياع ثروتي أو سمعتي. عندما فكّرت بذلك تلاشت رغبتي بالبكاء. لأنَّ مجرّد استيقاظ الرغبة بالتنازل عن كلِّ هذه التفاهات دفع لي وعوّضني عن ضياعها. «أنا مدينة له للأبد، لأنّه ظاهريّاً انتزع من حياتي راحتها المُغَفَّلة.»

كان عليَّ أن أكونَ صريحةً. ترى هل خطر لي منذُ رأيتُهُ في الباص المقاومةَ والتظاهر بالمحتشمة أو المُغتصَبة أو حتى محاولة أن يغريني هو (الأمر الذي كان أكثر منطقيّة). لا؛ عرفت دون أدنى شك، وبالقناعة ذاتها التي كانت ما تزال عندي في تلك اللحظة، أنَّ ساعتي قد دقّت ولم يعد بإمكاني استخدام أي تقنيّة معتادة لتأجيج من كان يؤجّجني. ما حدث هو أنّني وصلتُ وحقّقتُ مرادي وأكثر من مرادي. ولم أبتسم في داخلي إلاّ حين تذكّرتُ أنّني لم أتساءل كيف وأين تيقّنتُ أنَّ ذلك الدليل كان يميّزني عن بقيّة نساء الرحلة، أو أنّه فقط اشتهاني

إلاّ بعد ذلك بكثيرٍ، وحيدةً في وشقة. لم أطرح هذه المسألة؛ مددتُ يدي وأخذتُ التفاحةَ: مثل حوّاء في الجنّة. بل أسوأ منها، لأنّه لا توجدُ هنا زواحف، تغويني. لم يخدعني أحدٌ ولا خدعتُ نفسي.

التفتُّ إلى يمام، الجالس على الأريكة، التي أخلتْها أُمّهُ. كان مطرقَ الرأس. فكّرتُ متودّدةً له: «في الواقعِ لا يُخطئ القلبُ ما لم يكن مشوّهاً. ما أصعب القيام بما يخالف الطبيعة، وأقل الأشياء طبيعيّة هو اللامبالاة؛ التي لا يتعارضُ معها الانتحار ولا أعظمُ جنون يُرتكب من أجل الحبّ. يعرفُ الإنسانُ أفضل ما يناسبه ـ المرأة أكثر من الرجل ـ يعرف في كلِّ لحظةٍ ما يمكن أن يمنحه أعظمَ سعادة وأعظم متعة. ويتوجّهُ إليه. الشيء الوحيد الذي يناقض طبيعته هو ألا يحاول الحصول عليها. أقلُّ الممارسات توقّعاً، تلك التي يظنُّ الناسُ المعتدلون والدهمائيون أنّها مرعبة أو بعيدة الاحتمال، تقصدها الروحُ العاشقةُ وتمارسها بكلِّ طبيعيّة.»

لا يعني أنّني أكتبُ هذا كي أسوّغ ردّة فعلي في مساء ذلك السبت، وأنا مستندة إلى الجدار متقاطعة الذراعين. المسألة أنّني لا أريد الاختباءَ خلف الكلمات، ولا خلف أعمال الآخرين. حين خطوتُ الخطوة الأولى إلى الأمام مدفوعةً بحبّي ليمام ـ أو رغبتي بيمام، فالأمر سيّان ـ فعلتُ ذلك رغم كلِّ شيءٍ، ولم أكن أجهل ما أُعرّضُ نفسي له، حتى وإن كنت لا أعرف بالتفصيل من أيّة أشواكٍ سيكون تاجي.

أفلتُّ ذراعيّ، انفصلتُ عن الجدار، تقدّمتُ خطوة باتجاه الأريكة. رفع يمام رأسه ونهض.

ـ هل أنت مستاءة؟ ـ سألني واضعاً يديه على كتفيّ.

ـ وأنتَ ما رأيك؟

لم أبغِ أن أصرخ بوجهه لأقول إنّه لا يوجدُ ما هو أكثرُ منطقيّةً، مجاملةً واحتراماً من حبّي، وإن وجودي بجانبه هو الأكثر شرعيّة، وعليه ألاّ يهتمّ لأنّه ببساطة وبشكلٍ مطلق نصفُ برتقالتي، وما من نصفٍ آخر لي غيره، فبنصف برتقالته ونصف برتقالتي نستطيع أن نشكّلَ برتقالة تامّة. ما أكثر ما يُستَخْدَمُ هذا المصطلح وما أقل ما يُصيب: يتطلّعُ الناسُ إلى العثور على النصف الآخر ـ نصف أرسطوفانس في الوليمة ـ في مدينتهم، في حيّهم، بل وحتى في

شارعهم؛ لا أدري كيف لا يبحثون عنه في السرير. وهو ليس كذلك: في القرب نتعثّرُ بجوائز الترضية المتواضعة. أنا حصلتُ عليها. نصف البرتقالات الحقيقيّة تكادُ تكون دائماً بعيدةً ومكلفة. ما علينا العمل من أجله، بعد العثور عليه، هو ألاّ يأتي هذا العثور متأخّراً أكثر من اللازم.

أخذتُ بوجه يمام بين يديَّ، قبّلته مرّةً وأخرى وأخرى؛ ثمَّ خبّأتُ وجهي في صدره.

بالنسبة لي حصلتُ على نصف برتقالتي في الثلاثين من عمري. لم يتأخّر كثيراً، لكنّ الحياة في هذا المستوى، تستعجل، إذ لا يتبقى أجل طويل للكمال والجمال. حدستُ فجأةً بامتيازي وتهيّأتُ كعبدةٍ وديعةٍ لاستقبال الملاك المُبَشِّر. كيف لا أعبِّرُ عن امتناني لأنّني كنتُ في الباب جاهزةَ العينين عندما مرَّ الحبُّ؟ كنتُ أصغي إلى خفقِ قلبِ يمام. أحطتُ بخصره. في تلك اللحظة، وليس قبلها ولا لسببٍ آخر، انفجرتُ بالبكاء. لم أقل ليمام إنّني كنتُ أبكي امتناناً وفرحاً.

كانت المرّة الثالثة التي يدعوني فيها القنصلُ الإسباني إلى حفلة. في المرّتين السابقتين تذرّعتُ ببعض الانشغالات أو الالتزامات السابقة، أنا التي كنتُ أقضي حياتي دون أيِّ التزامٍ آخر غير يمام. لكنّني في المرّةِ الثالثة أذعنتُ. تحدّثتُ معه بموضوعِ الدعوة، وأريته البطاقة فأقنعني بأنَّ ذهابي ضروري.

ـ من يدري قد يأتي ظرفٌ نحتاجهم فيه. من المفيد أن نبقى على علاقة جيّدة مع الرسميين. على كلِّ الأحوال لن يضرّنا التعرف على أناسٍ جددٍ.ثمَّ إنّهم قد يأتوننا بزبائن إلى المحل: سيّاحٌ إسبان يأتون تائهين، مجموعات شركة ما، ممثّلون حكوميّون... هيّا بنا نحضر.

جهلي بإمكانيّة أن يعتبر مدعوّاً معي جعلني أحجم في السابق. استشرت السكرتيرة فأجابتني بأنّ مرافقة يمام لي تسرّهم.

كانت الحفلة، التي لا أدري على شرف من أُقيمت، حفلة كوكتيل في بيت القنصل: بيت عادي ـ دائماً كنتُ مهووسة بهذه الكلمة ـ تظهر هدايا زفاف غير ذات جدوى وتجاوزها الزمان في كلّ أرجائه. كان

القنصلُ ضخماً وبديناً، جسمه أجاصياً ورأسه صغيرة، تزوّج كهلاً من امرأة كريمة العائلة ـ ليست كريمةً جدّاً كما كانت تتفاخر ـ عندهما أولاد، فالصور تدلّ على ذلك، لكنّني لا أدري ما إذا كانوا أولادهما أو أولاد لا أدري من؛ فالأمر سيّان، فأنا لم أتعرّف عليهم. استقبلتني زوجة مساعد القنصل، التي رأيتُها مرّتين أو أكثر في مكتب التأشيرات: شابّة تبدو أكبر من عمرها بكثير، مُشتّهلكة، معذّبة، متصنّعة في كلامها، لا أحد يستسيغها، لكنّني استلطفتها استلطاف المُهَمَّشين الفوريّ. كانت تُدعى باولينا وما إن رأيتها حتى تكهنتُ بمقتها لزوجها المضجِر، والمبتذل، شديد البدانة والتعرُّق. باولينا هي التي قدّمتني للزوجين المُضيفَين.

ما إن دخلنا حتى تعلّقت عيونُ جميع النساء بيمام. لاحظ هو ذلك كما لاحظته. عرفت هذا من حركة كتفيه التي انتفخ بها ومن طريقته بتقويم عنقه. كدتُ أقولَ له ألاّ يتوهّم. درسته وقسته بنظري لأرى ما الذي في ذلك الرجل ـ أو بالأحرى «ذلك التركيّ» ـ حتى استطاع تحويلَ امرأةٍ محتشمة إلى مغامِرة. لستُ غبيّة بتاتاً، أعرفُ أنّ يمام سيخيّب تلك النسوة، وأنّه ما كان ليلفت انتباههنّ خارج ذلك المكان ودون أن يأخذني من ذراعي. خطر لي أن أفضحهنّ وأقول: «أترين إنّه تركيّ كأي تركيّ آخر، له وجه لطيف العينين، عاديّ الشاربين وله يدان قويّتان، وصوت كثيف. رجل تعبر به المرأة في الشارع فلا تقدر على وصفه حتى ولو ذهبت روحها معه. لا أحد يعشق الشيء ذاته ـ ولكنتُ أشرت بإصبعي إلى كثيراتِ النظر ـ ولا للدوافع ذاتها. هذا إذا كان للدوافع علاقة بالحبّ.»

كانت نوافذُ الصالة التي كنّا فيها تطلُّ على سفحِ أحد التلال المليئة بالأشجار، الذي يقع فوق لونا بارك، مدينة المَلاهي التي تدور أراجيحها ونواعيرها مشبعة بالإضاءة. كان الليلُ قد خيَّمَ وأنيرت أضواء الأبنية المقابلة فاتخذ كلّ شيء لون الصدف. وراحت السماء في العمق بين الأدغال الملتفّة تكتسبُ لون الذهب والخضرة، بينما يمام يتبادل الحديث مع باولينا، التي ربّما كانت أكثر من أظهر فضولاً تجاهه. وجدتُ نفسي وحيدةً، وكأسٌ فارغٌ في يدي، أتأمّل الليل. اقتربت منّي زوجة القنصل ومعها كأس ويسكي آخر، وبينما هي

تناوله لي ملفوفاً بمنديل، قالت لي بتأثر أمومي في صوتها:

ـ يا لك من مخلوقة مسكينة...

ـ أنا؟ ولماذا؟

ـ حكوا لي بعضَ أحداث حياتك، وهي مثل رواية.

قالت هذا بشفقةٍ هي من التصنّع بحيثُ لم أستطع تجنُّب الضحك.

ـ ولماذا ـ عدتُ وسألتها. وتابعتُ أمام ملمحها المجروح ـ: أؤكّدُ لك لا أدري لماذا.

ـ هل يبدو لك قليلاً، يا عزيزتي، أن يتفرّغ المرء في أيّامنا هذه للوله العظيم؟

تبدّلت نبرتها، وخفق في أعماقها غيظٌ خفيف. أدركتُ أنّه لا يمكن لقصّة تلك المرأة مع زوجها، مهما كانت الإرادة طيّبةً، أن توصفَ بـ «الوله العظيم»، وربّما ما من امرأة من النساء اللواتي رأيتُ حين التفتُّ وظهري إلى النافذة، عندها أدنى فكرة عن ماهية الحبّ. كنتُ هناك إذن مثلَ كوخٍ في معرض؛ وما من سبب آخر غيره يدعوهم ليزعجوا أنفسهم بدعوتي ثلاث مرّات. قرّرتُ أنّ عليَّ تبيان الحالة والخروج من هذا المأزق مرّةً واحدةً وأنتهي. لم يكن باستطاعتي التظاهر بالمسكينة التي ذهبت إلى هناك لتشكرهم على تَفَهُّمهم وتتوسّلهم الحلم.

بدأت أتكلّم مع زوجة القنصل، لكن ما كدتُ أفتحُ فمي حتى انضمّت أخريات ثمّ المتبقيات. يمام الذي حدس بما يجري، دخل في حوار شبه سياسيّ ـ سمعتُ كلمة «أوروبا» تتكرّرُ مع مساعد القنصل ـ.

ـ يجبُ أن أوضّح لك جيّداً ـ عرضتُ ـ أنا لستُ امرأةً خاصّة، وليس عندي أيّة قوّة، كما لا أصبو لأن أعيش على طريقة ماتا هاري. فأنا ريفيّة مثل الكثيرات ـ نظرتُ إلى اللواتي كنّ يقتربن، واحدةً واحدة وكرّرتُ ـ مثل الكثيرات جدّاً، اللواتي يمكن معرفة كلّ شيء عنهنّ، بل وتصوُّره. إلى أن تعرّفتُ على يمام، الرجل الذي يرافقني. إليه يعودُ ما أنا عليه الآن من رأسي وحتى أخمص قدميّ: وهو ليس شيئاً خارقاً أيضاً، لكنّه قطع العلاقة مع حياته السابقة... ومع ذلك لا تعجبن بالريفيّة التي كنتُها، فحين أخرجت قدميها من الصحن لم تلق أيّة فضيلة، ببساطة لأنّ الحياة التي عاشتها حتى تلك اللحظة لم تكن

حياتها، بمعنى لم تكن الحياة التي حلمتُ بها وتعثّرتُ حين تعرّفتُ إليه ـ أشرتُ إلى يمام ـ. مجرّدُ تعرّفي عليه قلب حياتي مثل جورب، وعذراً على التشبيه...

كنتُ سعيدة وأنا أحكي علانية تطوّر حبّي بعد أشهر من العزلة الكبيرة. بكم من الحقّ يُؤكّدون أنَّ أكثر ما يرضي العاشقين بعد الحبّ هو نشر هذا الحبّ.

ـ ومع ذلك لستُ مقتنعة ـ أضفتُ ـ بأنّ ما بي هو ولَهٌ عظيم، كما تؤكِّدُ مُضيفتنا، لا أدري بأيّ قصد. ما أنا مقتنعة به فعلاً هو أنّ الوله العظيم ليس هذا الذي ترويه لنا الروايات، بل هو ما لا ترويه لنا الروايات أبداً، لسببٍ وحيد هو استحالة روايته. أظنّهُ يقوم على معاناة كثيرة وخطيرة جدّاً، وعلى ملذّاتٍ هائلة وعذراً من هذه الكلمة. أشكركنّ لتعطّفكنّ عليّ. للوله الكبير أيضاً (أتابعُ مُفترِضة) شدّة تجعل المرء يألف الموتَ ويراه بسيطاً ـ شعرت بتلك النسوة، بعيونهن التي كالصحون، معلّقات إلى شفتيّ ـ لأنّ الموت أفضل له من ألاّ يعيشَ هذه الرسالة المضطرمة، العصيّة على التعبير بالكلمات ـ غرزتُ الشيشَ عميقاً ـ. عندما تُغرَفُ السماءُ والجحيم، يصبح هذا العالم ـ وأجَلْتُ يدي مشيرة إلى الصالون كُلّه ـ تفاهاتٍ مُضْجِرة. حين يُعرَف الضيق والرزانة المشتركة التي تتبعه، تصبح المغامرة الساذجة للحياة الوديعة مزحةً صبيانيّة وثقيلة... على كلِّ الأحوال لا أقولُ إنَّ حالتي، اسمحن لي بتأكيد هذا، هي وَلَهٌ عظيم أو رواية أو أيّ شيء من هذا القبيل. لو كانت كذلك لانغمستُ الآن بعيشها وليس بروايتها. الحبُّ، يا صديقاتي، لا يُقرَأُ ولا يُقالُ: إنّه يُمَارَسُ. أيّة امرأة عاديّة ستختار، في حال تملكها الاختيار، سعادةً هادئة في وشقة أو في أيّ مكان آخر (أجهل من أين أتتنّ) وحظّاً مبتذلاً ودلعاً بدل أن تزجّ نفسها في الأدغال، في الحمّى، في اللاعيش، الذي هو الوله العظيم... ما يحدثُ هو أنّ مفاهيم مثل الهناء والسعادة بل وحتى وشقة تتبدّلُ، تصير أخرى مختلفة. ماذا سنفعلُ لها. على كلِّ الأحوال، أرجوكنّ، أيّتها السيّدات، الإبقاء على هذا الحديث الودّي بيننا.

عادت تلك الساحرات جميعهنّ للنظر، بتركيز أكبر من قبل، إلى يمام من فوق إلى تحت ليتوقّفن وسط الطريق. إذا كنَّ يحسدنني فليس

لما في الأمر من رواية، أو شغف، بل ليتمتّعن أكثر من أيِّ شيءٍ آخر برجلٍ قادرٍ على أن يحوّل الماءَ إلى خمرة. ما أغرب أنّنا لا نفكّر بالشرط البسيط، الضروري لتحقيق هذه المعجزة. عندما كنت أدرس الديانة وأدرسُ الأناجيل كنتُ أتوقّفُ دائماً عند معجزة عرس قانا، الذي أمر فيه يسوع قائلاً: «املؤوا هذه الدنان حتى الحافّة». ولو لم يملؤوها حتى الحافّة لبقي الماء دون شكٍّ ماءً. وما من دنٍّ مما كنت أراه في تلك الصالة كان مستعداً للاستسلام حتى القطرة الأخيرة. دائماً كان الماء إلى منتصفها وسيبقى الماء، الذي هو في كلّ مرّة أقل نظافة، إلى منتصفها. أنا التي كنتُ مثلهنّ، لستُ من يُشار إليها أكثر لأشعر بنفسي محتقرة. وتأكّدتُ من أنني لم أكن أشعر بهذا:لا ازدراء، لا صداقة ولا عداوة. أتذكّرني في وشقة صديقةً جدّاً لصديقاتي. على العكس من اليوم حيث أشعر أنّني لستُ مؤهّلة لمثل هذا الشعور. ربّما لأنّ قلبي مخمور تماماً بصاحبه، وهو ليس كبيراً حتى أتقاسمه مع أخريات.

اليوم الأحد صعد بي يمام مع الطفلين إلى تل العشّاق، زمليكا. تركنا السيّارة وصعدنا سيراً على الأقدام، بين جريٍ ومزاحٍ وصورٍ حتى وصلنا إلى القمّة. تُشاهدُ من هناك استنبول بكاملها وتتضح التداخلات بين القديم والجديد والآسيوي، بأبنيتها الخشبيّة وعناقيد بيوتها المتراصّة والمخالفة التي بنيت في الليل. كان الأذان يرتفعُ عند الظهيرة مثل جوقة كلّ شيءٍ يوحّدُها. والماء يبدو، بين جزر الأمير، مضاءً من داخله ويتورّدُ مثل وجه يخجلُ أمام الضفة التي تحبس في العمق بحر مرمرة...

مرَّ يمامُ بذراعه على كتفيَّ أمام الطفلين فشعرتُ بتأثّرٍ يكادُ يكون ريفيّاً: امتنان المتزوّجة السعيدة. لم أكد أتناول لقمة واحدة. تلك كانت أسرتي. لماذا كنت بتلك القسوة مع نساء القنصليّة؟

عندما هبطنا، كانت بعض السمامات تُحلّق، قبل أن تغوص الشمس، تحليقاتها الأخيرة على ضفاف قرن الذهب والمشهدُ من الجمال بحيث يقطعُ النفس. ستار رماديّ وحريقٌ بارد يُشفّ من خلاله،

مثل زَخْرَفَةٍ مسرحيّةٍ فخمة وكتلة استنبول الموجودة داخل السور ترسم صورتها الجانبيّة، ولها اللونِ ذاته، على هذه السماء التى تعلو بنقطةٍ واحدة الغيومَ المتطاولة المكفّنة للشمس...

ومع ذلك كم هو مختلف هذا الأحد، البيتي ظاهريّاً، عن آحاد القدّاسات والفيرموت والبائيّة التي كانوا يقدّمونها إلينا في وشقة.

كان قد مضى عامٌ على وجودي في استنبول حين ظهرت علائم الوَحام، أو على الأقل حين صار غير محتَمَل.

وقعتُ بعد ساعات من وصولي إلى هذه الشقّة على ربطة شعر شديدة اللمعان وبعض دبابيس الشعر داخل خزانة في الحمّام. «امرأة عاشت هنا قبلي - قلتُ لنفسي -، ليست زوجة يمام. هل تشعرين بالغيرة؟ لا؛ فالتي تسودُ هنا الآن هي أنا، أنا وحدي، وسأبقى كذلك دائماً.»

في البداية كان اعتنائي بالشقة قليلاً، أجهد نفسي كي أبقي عليها مرتبةً ونظيفةً مثل طبق القربان المقدَّس؛ أستقبلُ ولدَيّ يمام في نهايات الأسابيع، أو في الأيّام التي يحلو فيها لزوجته السماح لهما بالمجيء، وعندما أثغرت الطفلةُ بعض أسنانها هنا، كان الفأر بيرث، أمام ذهولها الساحر يهديها شيئاً، على الرغم من معرفتي بأنّ الأمَّ كانت ترمي بالهدايا عند وصولها إلى البيت. كنتُ أبتسم للجيران حين أصادفهم في المصعد أو على الدرج؛ وأتبادل مع الجارات بعض البهارات والخدمات البسيطة. لم أحاول نقلَ الشقّة إلى أرضي أو تملّكها، حافظتُ على ستائر التطريز المزيّف والكرنيش التي تغطي النوافذ، والمتّكأ والأريكتين بمخملهما الموبَّر والمعرَّق، نسخ اللوحات، الأزهار والمناظر غير المحتملة على الجدران، المطبخ غير المريح وسيئ التوزيع. حاولت ألاّ أناقش أو أعترض على البديهية التي كنتُ أردِّدها في بيتي في وشقة: «السعادةُ في استنبول عاديّة مثل ثمار الأرض؛ تمدُّ يدك فتطالها».

في البداية كل شيءٍ بدا لي جيِّداً؛ لكنّهم منحوني فائضاً من الوقت

لأفكّر بعكس ذلك. أرى الآن المرآب والأشجار الأربع كأيِّ مشهد، وكذلك الجيران الذين تسوء ملابسهم في كلِّ مرّةٍ أكثر. كانت تزعجني رائحة الملفوف والكمون الحزينة في البوّابة والدرج. هل تبدّلَ المشهدُ العام؟ هل تبدّلتُ أنا؟ أنا التي كنتُ أقضي الساعات الميتة أنتظر يمام، مركّزة على يمام، على ما يفعله يمام، أصقلُ أظافري دونما حاجة، أنظر إلى نفسي في المرآة لأتأكّد كلّ يوم، كمسعورة،من خرابِ الدقائق، الخراب الذي سيحكم عليّ من خلالهِ يمام وسيبعده في كلِّ مرّة أكثر عنّي. الزمنُ يطير أو يؤبَّدُ، وينتهي دائماً بقتلنا، لكن علينا أن نحاول التحكم به لصالحنا إلى أن يقتلنا. كلُّ الوقت كان بالنسبة إليّ فائضاً، لم أتمكّن من إتمام عمليّة الهضم. بدأ يمام يشكو من إهمالي للشقّة، فتفاقمت غيرتي أكثر، ورحتُ أردُّ عليه بشكل سيئ، لا بسبب احتجاجاته، ولا لما قد يكون قد قال لي، بل بسبب كلِّ ما كنت أراكمه خلال ساعاتٍ وساعات. فيجفل خائفاً وكأنّه يقول: «أيّة حشرة لسعت هذه».

في الأسبوع الماضي خطر لي أن أستقبله بمشبك شعر اليوم الأوّل وتلك الدبابيس المرعبة. وما إن فتح البابَ حتى صدمتُ بها عينيه.

ـ ما هذا؟

ـ أعتقد أنّه مشبك وثلاثة دبابيس.

ـ لمن هي؟ وجدتها هنا.

ـ ليست لي. ـ لم يتبدّل. انتزعها وقذفَ بها بعيداً ـ لم أقل لكِ إنّك المرأة الأولى في حياتي قط.

ـ لكنّني أريدُ أن أكون الأخيرة ـ صرختُ.

ـ هذا ليس بأيدينا، حتى ولو تعلّق الأمرُ قليلاً بك وبي، وما تفعلينه هو أسوأ الطرق.

الحبُ شحٌّ؛ لا يَتقاسَم مع أحدٍ شيئاً: يملكُ ويحرم ما عداه، بل وأسوأ من ذلك، يقوم على هذا الحرمان، الذي لا تبحثُ عنه الصداقة. ومع ذلك يقبلُ ببعض التسامح، الذي يشمل العملَ، الزملاءَ، والأهلَ، بل وحتى الأصدقاء. وما إن يجتاز هذه النقطة حتى يمضي على غير

هدى. فتنتفي الحقوق والأسباب. حين كنت أسمع أحداً يلوم غيوراً ليس عنده أيّ أساس ليصير كذلك، كنتُ أقول دائماً: «طبعاً، لهذا هو غيور، لو كان له أساس لأصبح مقروناً». أو مقرونة، أي...

الغيرة أيضا عاطفة، عاطفة كبيرة جدّاً. شعرتُ بها وما أزال: سواء كانت مبَرَّرة أم لا، ذاتيّة أم لا، قائمة في الهواء مثل الشهب الناريّة، أو على حدّ السكين. السكين التي شعرت أكثر من مرّة بإغواء استخدامها والقتل بها أو قتلي. فحين يحرموننا من كلّية ما نحتاجه كي نعيش، مما هو ماؤنا وخبزنا، لا يعودُ شهر السكين انتقاماً، بل حركة غريزيّة، دفاعاً مشروعاً. حين يشعرُ أحدّ أنّه مهدَّدٌ في أعزّ ما عنده، لا يعود هناك ما هو أكثر منطقيّة ولا إلحاحاً من إزالة سبب التهديد. وإذا لم يكن السببُ مرئيّاً فإنّ الغيرة تتضخّمُ حتى تملأ كلّ شيءٍ وتحاصرنا فيكفي أن نمدّ يدنا كي تبصقها في وجوهنا «ماذا يفعلُ يمام حين لا يكون معي؟»

غيرته عليّ ـ «كيف قضيتِ اليوم؟ من استقبلت؟ هنا يوجدُ كأسان مستخدمان» ـ وأنا أقبلها كنوعٍ من أنواع التصريح عن الحب. لكن هل هي حقّاً غيرة؟ هل هي حقّا حبٌّ؟ يشعرُ يمام بشكوك حبّه الخاص وقد نبّهني إلى ذلك حين كلّمني عن أبناء بلده. حين نخرج ـ وما أقلّ ما نخرج ـ لا يسمح لي بالنظرِ بفضولٍ إلى أحد ولا بالالتفات إلى الخلف أو إلى أيّ جانب، أو ارتداء البنطلون لأنّه يبرزُ مؤخّرتي. «أنا أعرف ناسي.» ما يبتغيه ـ أكتبه الآن كما أشعر به، ربّما كنتُ سأكتب في يوم آخر شيئاً مختلفاً ـ هو أن ينتصر على الآخرين، يتفوّق عليهم، يتباهى بأوروبيّة مرغوبة، ليعلم الجميع أنّها له، وله وحده فقط.

كانت الغيرة، غيرتي، ترغب بموت الشخص الذي أخافه، ويحاول أو يمكن أن ينتزع منّا، أو نعتقدُ أنّه سينتزعُ منّا ما هو لنا. المسألة أنّ الموتَ ألمٌ طبيعيٌ أكثر من ألم الحبّ. فالموت هناك، ساكن، إنّه شيءٌ محدّد، شيءٌ ثابت. ونتفهّم أن يبكي المرء بكاءً مرّاً بسببه، أن يصرخ. المحبُّ الغيور يقتلُ في أوج ألمه ويرتاح، فيُسمحُ له بالبكاء بقيّة حياته على جسدٍ من لن يعودَ ليؤذيه... لكنّ الحبّ الذاتي لا يتصرّف هكذا،

لايهمه، على العكس يسرّه أن يكون حوله ناس ونزاع وتنافسٌ على أن يخرجَ منتصراً. فكلَّما زادَ الإعجاب بي وطُلِب ودّي كلّما كان يمام أكثر زهوّاً.

في الحبّ الحقيقيّ يحدثُ العكس ـ على الأقل هذا ما أشعر به أنا ـ لا وجود فيه للحبّ الذاتي. هو لا يحتاط ولا يحسب ـ «إذا سمحتُ له بأن يسيء مُعاملتي، فسيحتقرني» ـ؛ ولا يقيم حساباً، يمنحُ نفسه للآخر وينتهي الأمر. وبالتالي فالغيرةُ بمنقارها المعقوف وعينيها الناريّتين تلتهمه في الوقت الذي لا يتوقّعه، لأنّه يجد نفسه دون حماية بعدَ أن منح دفاعاته إلى الآخر. قاله له بوضوح كبير: «بهذا السلاح وحده تستطيع أن تجرحني، خذه » فقد استسلم روحاً وجسداً، وصار تحت رحمة إرادة الآخر، الإرادة القابلة للدوران وتبدّل مبتغاها مثل ديك الريح... لذلك ـ كي يعيشَ أو يبقى على قيد الحياة ـ يصلُ الأمر بالمحِبّ حدَّ أنّه يغفر خيانة واضحة، ذلك الأمرُ القاسي جدّاً بالنسبة للحبّ الذاتي.

أكتبُ كي أخرج من تعذيب نفسي. فالشيء الوحيدُ الذي يهمُّني في الأعماق هو ماذا يفعلُ يمامُ خلال كلِّ هذه الساعات، ماذا يفعل الآن بالذات.

وهو ما قلته له البارحة عند وصوله وقبل أن أقول له مساء الخير. كنتُ مُثارةً جدّاً فأدركَ السبب.

ـ أنا بحاجة لأن أعمل، لأن أشغل نفسي. لا أصلح للبقاء اليوم بطوله بانتظار السلطان. سأُجَنُّ. أو سأحملُ سكيناً وأكمن لك خلف هذا الباب وأطعنك بها حتى المقبض... لستُ تركيّةً ترضى بأن تسمن بينما زوجها يدور في العالم.

أصغى إليّ يمامُ، أبعدني بيده ومضى إلى المطبخ مؤمئاً برأسه بالإيجاب. لكن ما الذي أستطيعُ فعله غير الانتظار؟

لم يتأخر ثلاثة أيام حتى اقترح عليّ عملاً.

ـ بما أنّك لا تعرفين التركيّة ولا يروقك تعلُّمها بحثتُ لك عن عملٍ على قدر إمكانيّاتك.

مدَّ لي يده بحزمةٍ من البطاقات. كان يظهر فيها اسمه وعنوان دكّان سجّاده ومجوهرات أخيه محمد في البازار الكبير بالتركيّة والفرنسيّة والإنكليزيّة والإسبانيّة. كان واجبي يقوم على توزيعها في الفنادق.

ـ لا تكتفي بتركها في الاستقبال؛ اعطيها للزبائن شخصيّاً، فهذا سيشدّهم. أنت حلوة وأنيقة وعليكِ أن تكوني حسنة اللباس. لأنّك ستكونين بطاقة التعريف أكثر من هذه البطاقات الكرتونيّة.

لم يكن هذا سيّئاً في البداية. ستتاح لي الفرصة لأذهب وأعود، أتلهّى عن الغيرة وأقترب بغتة من البازار الكبير لأرى ماذا كان يفعل. لن أخسر شيئاً بتوزيعِ دعايةٍ لمحل أعيشُ بعد كلّ حساب منه. ثم إنّها ستكون الخطوة الأولى للدخول إلى حانوت السجاد، الذي أظنُّ أنَّ أمّه هي التي تعترض على دخولي إليه: كيف لن تُعلن الحربَ على أجنبيّة، تضع العلاقات الإنتاجيّة مع كنّتها في خطر وتخطف منها ابنها؟

هكذا بدأتُ أذهبُ من فندقٍ إلى فندق ـ ليس إلى أكثر من فندقين في اليوم ـ ببطاقاتي وكلماتي المتقاطعة. لا أستطيع إخفاء أنَّ زبائن كثيرين، كيلا أقول الجميع، كانوا يظنّونني عاهرة من مستوى عالٍ، حتّى أسلّمهم البطاقة؛ بل وبعضهم حتى بعد تسليمها له. اللعب يسلّيني.

التقيتُ البارحةَ في فندقٍ سويدي، دَشَّنَ توّاً بثلاثة أزواج من الإسبان. لم أتمكّن من تجنُّبِ تذكُّر مآثر رحلاتنا، أعني أنا ولاورا وفِليسا. شعرتُ بالسعادة وأنا أتكلّم معهم بسرعة، دون أن أتساءل ما إذا كانوا يفهمونني أم لا. ما أجملَ وقع القشتاليّة في أذني. كان هناك أندلسيّتان واحدة من إشبيليا وأخرى من مالقة، كم أضحكتاني.

ـ يا بُنيّة، يا قلبي، كم يجب أن يكون هذا الحبّ عظيماً حتى استطاع أن يجرَّ امرأة دفعةً واحدة إلى بلادٍ كهذه. لا أعني أنّها سيّئة بل بعيدة جدّاً.

اقترحتُ عليهم ـ أنا التي لا أكادُ أعرفُ ـ الأماكنَ التي يستطيعون أن يشتروا منها الجلودَ والفضّة والأشياء الأخرى التي يبحثون عنها. كانت الإشبيليّة تريدُ حذاءً حريريّاً، فأرسلتُها إلى البازار المصري،

المفضّل بالنسبة إليّ، المالقيّة تريد عُيينات الحظّ فاستبقتها بما يمكن أن يُعْرَضَ عليها بحسب الحجوم والعدد الذي ستشتريه. فقدّمتا إليّ قنينة نبيذٍ حلوٍ كشكرٍ على ذلك. فرحتُ بها إلى حدٍّ أنّني لم أتردّد بقبولها.

حين عادَ يمام كانت القنينة مفتوحةً وكأسان على الطاولة. شربناها كاملةً - مثل عروسين - جرعة تذهب وأخرى تأتي، على الرغم من أنَّ النبيذَ الحلو يتلف معدتي. وعند الفجر وصلنا إلى تلك الحالة التي تنفصل فيها الأرض عن الواحد فيكون عليه أن يدوس بذكاء. ضحكنا من كلِّ شيءٍ ولكلِّ شيءٍ. شربنا حتى نخب وشقة وآخيناها باستنبول. وضعنا مشاريع... كانت ليلة استثنائيّة...حين نهض يمام دار حول الطاولة ووقف بجانبي، أدركتُ أنَّه سيلمس السماء بيديه. وكان ذلك. إنَّ من يقولُ إنّ الجنس ليس الطريق الأقل تعقيداً والأكثر يقيناً للتوحيد بين شخصين فإنّما يفعل هذا لأنّه لم يمارسه كما يجب قط.

اقترح عليّ يمام هذا الصباح أن يحملني إلى الفنادق. وحين مررنا بمحطّة سيركيزي، أورينت اكسبرس، شعرتُ بطراوة الروح على الرغم من جفاف الحلق الذي سبّبه لي النبيذُ والأشياء الأخرى. في كلّ مرّة أنظر فيها إلى تلك المحطّة يستيقظُ في صدري خفقٌ أو ما لا أدري، كمن يمشي ويثير على شجرة شمشير فزع عصافير تفرُّ منه خافقة بأجنحتها...«الرجفان الانقباضي» كما يمكن أن يقول طبيبٌ قلبيّة، أعرف أنّني أتحذلق. لكنّني أتذكّرُ المرّة الأولى التي تناولنا فيها إفطارنا في المقهى الكبير.

كان ذلك في رحلتي الثانية، حين لم يكن متوقّعاً أيّ شيءٍ مما يحدث الآن. (أو كان متوقّعاً). كانت تهتزُّ في الخارج أغصانُ شجرة كستناء مزهرة؛ وقد جلسنا بجانب نافورة محاطة بالنباتات الخضراء. كنتُ، كي أرتاحَ من السياط التي تسوطني بها عينا يمام، أتيهُ في السقوف التي لها شكلٌ معين ورديّ ورمادي بسبب النوافذ الزجاجيّة الدائرية... اندلقت بعضُ قطرات القهوة في الصحن، لأنَّه رفع الفنجان

إلى فمه وهو ينظرُ إلى عينيّ، اللتين كنتُ أبعدهما دفاعاً عن نفسي. أخذتُ منديلاً ورقيّاً ووضعتُه في الصحن تحت الفنجان... استسلمتُ لعينيه: لم يكفّ عن النظر إليّ، وأنا أيضاً. كان الناس يتسارعون من حولنا بسبب الوقت، يخرجون ويدخلون إلى الأرصفة أو الشارع... لم يكن يوجدُ بالنسبة إليّ إلا عينانِ متوقّفتان في عينيّ ويدان طوتا منديلَ الورق...

لا أدري كم من الزمن مكثنا هناك: دقائق أم قرناً. لقد قلتُ من قبل إن الزمن يطير أو يسكنُ. لم نتكلّم أو نتحرّك، حتى قال: «حانت الساعة.» وبالنسبة لشخص ما، النادل المرتهن بنا مثلاً، انتهى إفطارنا، أمّا بالنسبة لي ـ لي على الأقل ـ فكانت أحلى هدايا السعادة التي عشتُها... من المحال أن تتكرّر كما هي تماماً. من الغريب أنّ تذكّر هذا يسبب لي قرصة ألم، كشيءٍ ضاع إلى الأبد. ومع ذلك، هل كنتُ أُفضّل ألا أكون قد استمتعتُ به؟

لذلك قلتُ ليمام، الذي كان كما لو أنه ما زال في داخلي، بصوتٍ خافت في هذا الصباح:

ـ هل تريد أن نتناول فنجان قهوة في المحطّة؟

ـ لقد أوقفتُ السيّارة ـ أجابني بصوتٍ خافتٍ جدّاً.

حالفنا الحظُّ. كانت الطاولة التي شغلناها منذُ سنتين فارغة. جلسنا إليها متشابكي الأيدي فوقها، لكنَّ الواقع فرض نفسه: فالمصافي والدوارق والأباريق التي تحيط بالفسقيّة من القماش، والفسقيّة التي بدت لي رائعة قبيحة جدّاً.

ـ هل ربحنا أم خسرنا الحبَّ منذ ذلك الحين؟ ـ سألتُ الهواء.

ـ لو حزرتُ، دون أن توضّحي لي أكثر، إلى أيِّ حينٍ تشيرين، لكنّا ربحنا، لكن لو سألتني بجدّيّة، أي لو كنتِ تشكّين بذلك، لما استطعتُ الإجابة.

ـ بما أنّنا معاً... ـ قبّلتُ يدَهُ وقبّلَ يدي ـ كل ما نتخيّله عن الحب موجود. كم من المحزن أنّ ينزع خيال المحبّين دائما نحو ما هو مرّ.

ـ خيالُكِ أنتِ، يا دِسي، وليس خيالي.

ـ لا تسمح لي به. اضربني، اقتلني، لكن لا تسمح لي به.

رويتُ له، ونحنُ نشربُ القهوةَ، معجزة فيلمون وباوثيس التي تُجيِّشُ مشاعري كثيراً.

ـ كانا زوجين من العجائز يعيشان في الغابة. وجوبيتر (قد يكون أبولو) الذي يهوى التنكُّرَ كثيراً، وهو يفعل هذا عامّةً كي يضاجع أحداً ما، يسيرُ في الأرضِ بزيٍّ راعٍ. والآلهة لاتعرفُ جيِّداً أرضَ البشر، فتاهَ. كان ليلاً مطبقاً والدنيا تُمطرُ وترعد والطقسُ بارداً. أدركَ في جسده خوفَ البشر. رأى كوخَ العجوزين فطلب ضيافتهما. منحوها له من كلِّ قلبيهما: اعتنيا به، نشّفاه وأعدا له العشاء وقدَّما له فراشهما لينام فيه. الإله، الذي تأثّر، على الرغم من كونه إلهاً، عرَّفَ بنفسه. «أنا جوبيتر»، قال لهما واتخذ وضعيّةً جوبيتريّة. ابتسما مسرورين. قال لهما «أنا جوبيتر» وقامَ بمعجزاتٍ صغيرة وناعمة: ظهور واختفاء أنوار، حمائم، نقود ذهبيّة... استنتجا بأنه أحد أفراد السيرك، وربّما مشعوذٌ أو ما هو أسوأ من ذلك. «قلتُ أنا جوبيتر» كرَّرَ الإلهُ دون كبير ثقة بتصديقهما له. «اطلبا مني ما تشاءان.» تشاور العجوزان، اللذان ما زالا غير مصدّقين، وقالا له بثقة أقل من ثقته: «لنمت نحنُ الاثنين في وقتٍ واحد.» قال جوبيتر وقد استعادَ أخيراً مظهره الإلهي «سيكون لكما ذلك».

ـ وماذا حدثَ بعد ذلك؟

ـ في صباح اليوم التالي اشتعلت الغابة ومات فيلمون وباوثيس فيها.

ـ لا يعجبني سلوكُ هذا الإله.

ـ عادةً ما تكون الآلهة غامضة، لذلك تبقى آلهة... عندما تذهب إلى البازار، سأوصي في دكان محمّد على خاتمين بسيطين. سأطلبُ أن يكتبوا على واحدٍ منهما «لنمت نحنُ الاثنين» وعلى الآخر «في وقتٍ واحد». فلا يعني أيٌّ منهما شيئاً دون الآخر. وسأعطيك الذي تختاره. نأمل أن يتمّ وعد الإله.

ـ أنا لا أُريدُ الموتَ معكِ، بل أريد العيش.

وبينما كنتُ أقول له نعم برأسي، انتبهتُ إلى أنَّ كلَّ ما قلناه اليوم قلناه أيضاً منذُ سنتين، لكن لم نكن آنئذٍ بِحاجة للكلمات. ولا حتى للأساطير. ترانا ضعنا؟ آه ما أمرَّ خيال المُحبّين.

أُصِبْتُ هذا الصباح بالدوار وآلمني رأسي: نمتُ قليلاً في الليل. أردتُ الهروبَ من صخبِ البازار.

ـ انتظريني في المقهى الموجود في مقبرة علي باشا ـ قال لي يمام ـ وهو على اليسار بعد خروجه من زارسيكابي كابيسي، الذي هو بابُ بوابة البازار. ـ كان يضحكُ ـ هل فهمت؟

ـ لا، لكنّني سأهتدي إليه على الرغم من كلِّ هذه الأبواب ومن ألم رأسي.

خرجتُ من حيثُ قال لي، فوجدتُ ممرّاً فيه قبور. كان يلي بابَ الموت هذا فناءٌ في العمق يعجُّ بحيويّة منقطعة النظير. بعضُ الشيوخ من عمر فيلمون يدخنون نراجيلهم أمام الدكاكين الموجودة حول الفناء، والمزيّنة بالبسط التي صارت إليها غرفُ طلاب إحدى المدارس القديمة. المدرسة كانت باراً ثُماني الأضلاع، تنبعثُ منه موسيقى عربيّة ناعمة. جلستُ فقدّم لي الشخصُ نفسه الذي كان يُخرج جمر النراجيل بملقط من سطلٍ يتركه فيما بعد في المدخل وفوقه اسطوانة كي تتنفّس الجمرات، فنجانَ قهوة.

تأخّر يمام. ألمُ رأسي لم يختف. رأيتُ بعض شجرات التين وأصص القرطاسيا. ثمَّ ما عدتُ أراها؛ أعرف أنّني غفوتُ على الأريكة. أيقظني صوتُ يمام.

ـ ليست هذه هي المقبرةُ التي أشرتُ إليها، بل المجاورة. تعالي.

دخلنا إلى المقبرة الأخرى، الملاصقة للأولى، والمنفصلة عن الشارع الصاخب جدّاً بجدارٍ له فتحات عالية مسيّجة بالقضبان. كان الصباحُ قد توقّفَ هناك. اختفى ألم الرأس بما يشبه التعويذة. إلى اليسار ضريحٌ فخمٌ. جلسنا في رواقٍ مغطّى بقبابٍ صغيرة من الآجر.

كان السكونُ تامّاً، والقبور المهملة، ذات الشواهد الرشيقة تحت ثلاث شجرات أكاسيا سامقة بين القرّاص واللبلاب الملوّن والورد. بين شاهدة وأخرى وطربوش وعمامة تلمع أنسجة العناكب تحت الشمس. الحمائم ترتاحُ على مرمر القبور وتعاملها دون أيِّ احترام. تستمرُّ الحياة هادئة. لا الظلّةُ الحمراء التي تعلن الكوكاكولا ولا سلّة المهملات البلاستيكيّة الزرقاء عند أسفل أحد الأعمدة تبدوان في غير مكانهما. كلُّ شيءٍ يساهم في السحر. أتناول بصمتٍ فنجانَ قهوةٍ آخر ويمامُ يتناول قنينة بيرة. تسمعُ بين الحين والآخر ضحكةً، لا ندري لمن. تخمَّن خلف أحد الأبواب الكبيرة مدرسةُ مسجدٍ أيضاً لم تعد موجودة.

ـ أعتقدُ أن المقبورين في هذا المكان سعداء ـ أقولُ ـ لا يهمّني أن يقبروني هنا.

يقوم يمام بحركة من يبعدُ تطيّراً مشؤوماً عنه.

ـ سأقرأ لك تفل القهوة. لكن افعلي ما أُمليهِ عليكِ تماماً... ضعي الصحن فوق الفنجان. حرِّكيه، لكن قليلاً. والآن ضعي الإبهامين فوق الصحن واقلبي الفنجان من الداخل إلى الخارج. وحين يبردُ قاعُ الفنجان سأقرأ لك الراسب. تستطيعين أن تضعي خاتمك كي يبرد بسرعة. ـ بقيت دقيقةً طويلةً أنظرُ إلى الفنجان وإلى يمام بنفاد صبر ـ الآن هيّا. يُقرأ الراسب من اليسار إلى اليمين بدءاً من المقبض. بعدها تصبّين راسب الصحن فاقرأ ما تبقى لأرى ما إذا كان يؤكّد القراءةَ الأولى...

ـ كيف يُشاهدُ الموتُ؟ ـ أسألُ فجأةً.

ـ لماذا تقولين لي هذا؟

ـ لأنّنا داخل مقبرة.

يسألني يمام دون أن ينظر إلى الفنجان بجدّيّةٍ تامة:

ـ الموت الطبيعي أو المفتعل؟ ـ أضحكُ بشيءٍ من العصبيّة.

ـ المفتعل طبعاً.

ـ يظهر في خثراتٍ كبيرة على جدار الفنجان، معزولةٍ ودون بقعٍ حولها.

نظر فيه أخيراً. فجأةً قلبَ راسبَ الصحن في الفنجان وأبعدهما من أمامه، دون أن يتكلّم.

ـ سأقرأه لكِ في يومٍ آخر بشكلٍ أفضل. ـ التفت بوجهه إلى الضريح ـ أزعجني اليوم أنّني لم ألقاك في المكان الذي اتفقنا عليه...

لم يستطع أن يقول لماذا، لكنّني لم أصدّقه. حولنا كلُّ شيء استمرّ هادئاً. عند الخروج عاد إليّ التعب.

انتظرتُ على تلك الدوارات أكثر من اللازم. بعدها لم يخامرني أدنى شكّ: كنتُ حاملاً ومن السعادة بحيث أنّي السعادة؛ أمضي في منطقة الفنادق مغنّيةً موقّعةً. كان الصباحُ زاهياً والخريف يريدنا أن نشتاق إليه. وحين بدت لي الساعة مناسبة هتفتُ إلى باولينا، التي رأيتُها ذات مرّة في حفلة القنصليّة. أطلعتُها على ما يحدثُ لي؛ على حاجتي لأن أطمئنّ علميّاً. تواعدنا ورافقتني إلى مخبر صديقِ زوجها. لم أكن أحتاج لأيّ تأكيدٍ، لكنّني لن أُعلم يمامَ حتى أحصل على نتيجة التحليل الإيجابيّة. عند العودة من المخبر قالت لي باولينا:

ـ كيف تعتقدين أنّه سيتلقّى الخبر؟

ـ لا أشكُّ بالحمل، ولا بيمام. أفضل ما يمكنني تقديمه له هو ابن لنا: ثمرة حبّنا. الرابطة الأكمل والأكثر استمراريّة.

ـ الأتراك غريبو الأطوار كثيراً ـ قالت وكأنّها تحدّثُ نفسَها.

ـ الأتراك ممكن، لكن ليس يمام.

ـ في أسوأ الحالاتِ تعاندين. كوني شجاعة إن تطلّبَ الأمرُ. وأخبريني. ـ انفجرتُ ضحكاً.

ـ لا أدري ماذا تقصدين... كيف سأكونُ شجاعة معه؟ كيف سأطالبه، مثلاً، أن يكونَ دقيقاً في مواعيده معي، فلا يعود متأخّراً جدّاً، أن يُدلّلني، ويكونَ حسنَ المزاج في كلِّ لحظةٍ تناسبني؟ أحتاجُ من أجلِ هذا أن أُحِبَّهُ أقلَّ ممّا أُحبُّه. ولكي أُحبَّه أقل أحتاج أن أنسى نفسي، لأنّني ما عدتُ شيئاً آخر غير حبّي، غير هذا الحبّ... لذلك أطفحُ الآن فرحاً: لأنّه يُثمِرُ.

لمستُ بطني. شردتُ وأنا أُكلِّمُ نفسي. هزّت باولينا كتفيها:
ـ ستكون التحاليلُ جاهزةً في الأسبوع القادم.

قضيتُ الأسبوع دونَ أيِّ قلقٍ. لا أرغب إلا بالورقة كي أُريها ليمام. ثمَّ إنَّ اليوم الذي أخذتُ فيه التحليل صادفَ عيد ميلاده؛ ستكون أفضل طريقة للاحتفال به. حين صار التحليل في يدي ـ دون ريب كان إيجابياً ـ فعلاً انتظرتُ يمام بفارغ الصبر. كان عندي قنينة نبيذ سومونتانو، حصلتُ عليها من خلال مضيفةٍ تعرف لاورا، أرسلتُ لها معها تحياتي وأخباري. أرى نفسيَ الآن: ارتديت قميصَ يمام، وهو ما صرتُ أفعله في كلِّ مرّةٍ أكثر؛ في هذه الأسابيع الأخيرة صرتُ أرتدي أيضاً ملابسه الداخليّة، أُدخِّنُ سجائره في الوقت الذي يدخِّنُها هو، أستخدم مشطَه وفرشاةَ أسنانه، واعية أنَّ هذا يثير أعصابه فأسرُّ أكثر. شمَّرت كمي قميصه وبنطلونه ووضعت القنينة وبعض الشرائح على طاولة الصالون. كان أحدُ الرسامين المُبتَدئين قد رسم لنا لوحةً مع ولديه، سيِّئة جدّاً، لكن هاهي هناك في الزاوية القريبة من الطاولة.

فُتِحَ البابُ، صرختُ له:

ـ تهانيَّ، يا حبيبي. عيد ميلادٍ سعيد ـ وعانقتُه.

سكبتُ كأس نبيذ من بلدي وقدّمته له مع التحليل. شرب الكأسَ كاملاً تقريباً، طقطق بلسانه.

ـ إنّه جيّد ـ قال وفضّ الورقة ـ ما هذا؟

ـ أنت أدرى ـ قلتُ.

قرأها، رفع عينيه، عاد وقرأها، بدا لي لونه يشحب.

ـ غير ممكن ـ قال.

ـ نعم، إنّه ممكن، يا حبّي. سيكون لنا ولد.

ـ غير ممكن ـ كرَّر.

كرَّرها بنبرةِ المرّة الأولى، لكنّني فهمت في هذه ما حاول قوله لي: لا يكذِّب، بل يعترض. فكَّرتُ بباولينا: «كيف سأكونُ شجاعة معه؟»

ـ إنّه لنا نحن الإثنين، يا يمام. ابناك ـ وأشرتُ إلى اللوحة ـ

اللذين أحبّهما وأرعاهما وأنت تعرفُ هذا؛ هما لك وحدك. هذا لكلينا.

ـ غير ممكن.

كانت الأفكارُ تأتيني مختلطة وأعرضها تماماً كما تحضرني:

ـ سيكون رفيقي ومبرّر وجودي... إذا كنتُ قد أتيتُ من إسبانيا فلأنَّ ابننا مات... ديني لا يسمحُ لي بمعارضة مجيئه. لا تفعل معي هذا. ارحمني، حتى الآن لم أطلب منك شيئاً، لكنّني أطلب منك هذا راكعة على ركبتيّ... هل يعني أنّه لا يهمّك تعرّضي لخطر شديد؟ هنا يمكن أن أموت...

ـ لديّ ولدان، لا أريد ولا أستطيع أن يكون لديّ أكثر. حالتنا غير شرعيّة... أعتقد أنَّ دينكِ يمنعُ عليك أشياء أخرى... دائماً كنتِ تقولين إنَّ مبرر وجودك ورفقتك هما أنا... الولادةُ خطر أيضاً، ثمَّ لا أدري لماذا سيكون ما تمرّين به هنا أخطر... غير ممكن. دعينا من مناقشة هذا. إذا ملكت الطفل خسرتني: لن أكون في حسبانك. هذا كل ما عندي من قول.

دخلتُ إلى الغرفة صافقة الباب. لم يحاول اللحاق بي، لم يقرع الباب. بقي ونام في غرفة ولديه أو على الأريكة المخمليّة، أو على الأرض، لا أدري... كان عيد ميلاد يمام عيداً لا ينسى.

شعرتُ بنفسي في غرفة النوم تلك أسوأ ممّا في أيّ زنزانة. استلقيتُ على السرير، أغمضتُ عينيّ؛ والحزن لا يكاد يسمح لي بالتنفس. كنتُ أُفكّر طائشة. ما الذي يحدثُ في داخلي؟ لم يكن شيئاً يؤثّرُ عليّ وحدي، شيئاً يأتيني من البعيد البعيدِ جدّاً، مما هو أبعد منّي من أمي أيضاً وبقيّة الأمّهات. أرى كلَّ شيءٍ دون تعقّل وبوضوح تام، أذهلني... رأيتُ بطني، داخلَ بطني، وكان فارغاً، وقوّة كالريح القويّة أو كمياه شلاّل تدفعني لأملأه، وتبدأ هذه القوّة تكبرُ فيَّ، تلك كانت عظمتي، وكلُّ شيءٍ في العالم مستعدّاً لها...أيّ قضيبٍ ساحسدُ؟ أيُّ خصاء كان خصائي؟ بطني يكلّمُني: «ابنك هو قضيبُك، وقوّتُكِ، ورغبتُك الموغلة في القدم ورضاك.» كنتُ أرى صور أطفالٍ، أحياء وأموات، وحتى اليوم لا أدري ما إذا كنتُ نائمةً أم مستيقظة، أم أنّني ببساطة

مريضةً من كثرة التمرُّدِ الأخرس، لكنّني لم أكنِ حزينةً، لأنَّ جنين الحياة الذي كان ينبضُ فيّ، يبتسمُ لي... وأنا أفكّر بأمي، وكنتُ أمّي، وليس بيني وبينها أيّ قانون، وحده الحبّ، وحدها الهويّة؟ وجسدنا ما عاد شيئاً محدّداً، بل احتمالاً: فراغاً تتشكّلُ فيه الحياةُ وتنمو. وهذا أعظم ما في العالم، رابطتي منذُ البداية بكلِّ الأمّهات وهي التي تهمّنيُ وليس الطرق الشخصيّة التي وصلتُ عبرها لأملك حياةً في داخلي... أفكّر: «النوع» دون أن أتوقف؛ وأحسُّ بسيطرة الكلمة الرهيبة وبثقل أوامرها التي لا تتبدّل. على المرأة اكتشاف الطفل في الرجل وطفلها في نفسها وكلّ ما عداه سطحيّ، ما عداه لخدمة هذا فقط... لم أكن أعقل، لا: كنتُ أرى الوضوحَ. أرى حشداً يسندني، حشداً يمنحني الأمان والخصب. وأفهم أخيراً جملةً كانت تلمع مثل الذهب: «المرأة معبدٌ مشادٌ فوق بالوعة.» لم أفهمها قط، أضحكني منذُ أن سمعتها في المعهد في درس الديانة. معبدٌ، بالوعة... كم كنتُ نعسانةً... سنبقى أنا ويمام نتكلّم عن هذا الموضوع، وكم سنبقى نتكلّم.

رفض الكلام. جاءت أمّه لتأخذني بعد أيّام. أيضاً لم تتكلّم. حملتني في سيّارة أجرة استأجرها يمام مسبقاً. كان الخريف إلى زوال والشمس تغرب والبردُ يحلّ. وصلنا إلى حيّ فِنِرْ، على السفح الآخر للقرن، دخلنا في شارع مغطّى بالثياب المنشورة من واجهة إلى أخرى مقابلها. كان الهواء يحرّك الأسلاك الملوّنة وكأنه يقول وداعاً. على الأرصفة بعض الرجال يلوون كتلة كبيرة وداكنة من ليجنيت التدفئةِ المركزيّة. عدد من الأطفال يلعبون بالكرة بصخب. وجه فتاة نظرت إليّ من نافذة للحظة، من خلف ستارة. لم أكن أرى بوضوح، فقد غشيت عيناي؛ كما لو أنّ الحياة تودّعني. وبالفعل كانت تودّعني... توقّفت السيارةُ أمام بيتٍ خشبيٍّ صغير، فيه دالية عنبٍ بلا أوراق تتسلّق باتجاه الشرفة. كانت تفوح رائحةُ احتراق لينجيت جارحة وكبريتيّة ونور ناعم ينسكب فوق ذلك العالم الفقير، البعيد جدّاً عمّا يحدثُ لي.

كانت المرأة تمضغُ شيئاً أخضر. شمّمتني أثيراً أو شيئاً مشابهاً، ربّما كان لودنوم؛ لكنّها لم تُخدّرني كلّيّاً: كان سباتاً، وسناً أو مثل

كهف ينسى المرءُ نفسه فيه... كانت أمُّ يمام جالسةً عند قدميّ على الكرسي القاسية التي تركتا عليها ثيابي. المرأةُ تناور في جسدي فتسبب لي الاشمئزاز. غطتا وجهي بحجاب أو خرقة تمنعني من الرؤية. لاحظت خلال لحظة وبشكل ضبابي وجود نزيف، شيء كثيفٍ وبطيء يرطّب فخذيَّ. تكلّمتا بالتركيّة، رافعتين صوتهما. فجأة وإذا برجلٍ، صوتِ رجل، يصرخ صرختين يأمرهما بالسكوت. كان الوقت يمرُّ كثيفاً مفعماً بالغثيان... غرقتُ في جوٍّ يكادُ يكون مُبلّلاً ومظلماً... أخرجني منه صوتُ يمام، لم أكن واثقة من أنّه هو واقعيّاً، لأنَّ كلَّ شيءٍ عندما فتحتُ عينيّ كان متحرّكاً وزائغاً، مثل مشهدٍ في الضباب. ربّما الذي رأيته بيت تلك المرأة أو شقّة يمام: كلاهما كان معادياً. ومهما يكن فقد شعرت برعشة تقيُّؤ، ضغطتُ على أجفاني ولم أبغِ معرفة أيّ شيءٍ بعد ذلك...

نطق صوتُ يمام باسمي، فأدرتُ رأسي إلى الاتجاه المُعاكس. لا أدري كم من الزمن مضى، لم يكن للزمن عندي حساب... دخلتُ في المقبرة، مقبرة وشقة تحت البرد. كنتُ أرتجفُ. القبور الأولى، الأقدم، بلا بلاطات، صلبانها مفتولة، بعدها أضرحة عتيّة، عليها هيئات مجدوعة في وضعيّة من ينتظر نفيراً سيتأخر قروناً كي يُنفخ... عائلة فلان وعائلة من كان. كنتُ أقرأ الأسماء والكِنى وأسير ببطءٍ شديد، كأنّني أطفو بين قبابٍ قوطيّة جديدة أو معاصرة مفكّكة... كنتُ طفلةً. يد شخصٍ ما تقودني، رفعتُ عينيّ: كان والدي. أشرت له نحو الأضرحة.

ـ هذه البيوت الصغيرة رائعة. هل من طفلات هنا ليلعبن فيها؟

لم يجبني والدي، واعتقدتُ أنّني سمعته يردّدُ:

ـ عبثُ الأحياء... خيلاء الأحياء...

في كلّيّة الحلم كنّا قد أصبحنا في مكان آخر.

ـ نحنُ ليس لدينا أيّ ضريح ـ كان يصرخ بي أخي بينما يفكّ لي رباط الخصر ويمضي راكضاً بين القبور.

ـ هذه هي المقبرة العسكرية ـ قال صوتٌ: لا لم يقل، لكنّني كنتُ أعرفه. اعتنيَ به أكثر من الأخرى، طليت بالكلس، صلبانها المتماثلة

من الحديد الأسود... فجأةً وإذا بأمّي هناك، مستلقية، مبتسمة، في طابق الأول من المدافن. مددتُ يدي بالأزهار، قبّلتُ الشاهدة.

ـ تراهم وضعوك على هذا العمق كيلا أطالك؟

ـ لا؛ بل لأنّه أرخص ـ كان هذا صوت أخي، لكنّه لم يكن حاضراً. بينما لاورا وفِليسا تدفعان عربتي أطفال.

كان العشبُ المهمل ينمو في كلِّ مكان؛ وصدري في الخارج أرضع ولدي. وحيدة وأتقدّمُ دون أن أُميلَ العشبَ، كأنّني بلا وزن. الطفلُ يرضع بنهم، كأنَّ كلَّ شيءٍ يتعلّق بذلك. وهو كذلك... جلستُ في مقبرة الأطفال. بعضهم هناك مات حتى ولو عاش ثمانين عاماً. أطفال مجعّدون يقتربون لينظروا إلى طفلي، الطفلة ماريّا لويسا كاراثو، الطفل ميغِلْ غوتّييرِّث... ونشيط بين القبور الصغيرة غير المقروءة يقفز دون أن يحرِّكَ العشبَ الطويل...الطفلة بيلار، ابنة الشهور الثلاثة... و«الطفل الجنين»، «الطفلة الجنين»: لا يقولون شيئاً آخر... لم يعد طفلي بين ذراعيَّ، لكنَّ ثديي ما يزال خارجاً... «الطفل كارلوس أيرِبِ أوليبان، ابن الشهرين»... هي مقبرة تشبه مقبرة كلابٍ صغيرة، حيواناتٍ تسلية صغيرة، وحيدة هناك، تحت الثلج، تحت الضباب. ما أصغرهم: «سيلْبيا لاكوما، ابنة الست وعشرين يوما»، «الطفلة الجنين».. سمعتُ نفسي أصرخ...

فقط عندما بدأتُ أرى أجساد أطفالٍ مقطّعة، ثيابَ أطفال دامية، رؤوس دمى فيها حياة وتتدحرج بجانب الأجساد مقطوعةِ الرؤوس، أذرع وأقدام أطفالٍ مكوّمة، أيدٍ صغيرة، عيون مليئة بالذعر...عندئذٍ فقط احتجتُ إلى العودة إلى الواقع كي أهرب أو إلى واقعٍ آخر أقل إيذاءً من ذاك، أو إلى خيالٍ، أياً كان هذا الخيال، شريطة الهرب من ذلك الذعر الذي كان يلطِّخُني. وكنتُ أصرخُ، أسمعُ نفسي أصرخُ...

عندئذٍ فقط فتحتُ عينيَّ فرأيتُ أنّني في غرفة نومي في الشقّة، وبالتالي كلّ شيءٍ، خيراً كان أو شرّاً، قد انتهى. رأيتُ أمَّ يمام، بمنديلها الذي يغطي شعرَها، جالسةً هناك في العمقِ جاسئة كمن جلسَ توّاً. والله أعلم كم مضى علينا في تلك الغرفة معا كعدوّتين.نهضتْ دون أن تقول شيئاً، دخل يمام فسمعتُ في الحال صوتَ إغلاق باب المدخل.

كان يمام يداعب شعري، جبيني، خدّي. عدتُ الآن لأشيح بوجهي

عنه، بوعيِ هذه المرّة. فداعبَ نقرتي، عنقي وأذني... كان يرسم بإصبعه أذني وهو، يلمس القرط. نزلت دموعٌ من عينيّ، سقطت على صدغي وأنفي، لم أدر لماذا كان يمام يمسحها بأصابعه، ويتأخّرُ على عظم الوجنة، يرسم جانب الخد الذي يهبط حتى الفم، وخطَّ فكّيَ ويتقدّمُ باتجاه الذقن، المرتعشة والفاترة جدّاً.

- لا - قلتُ -. لا!

ورحتُ أُجهِشُ بكلِّ قواي، التي لم تكن كثيرة.

- دعيني أُحبُّكِ - همسَ يمامُ قريباً من أذني.

كنتُ قد تعلّمتُ أنَّ معاركَ الأخلاق تخاض على انفرادٍ، وبقي عليّ أن أتعلّم بلحمي وعظمي أنَّ الصراع على أخلاق الحبِّ يتمُّ مع حليف، إن لم يكن مع جلاّد. هذا هو الغموض الذي يجعلنا لا نجزم بشكل قطعيٍ أنّنا ربحنا أو خسرنا المعركة... رفعتُ رأسي فرأيتُ أزهاراً على طاولة الليل.

- دعيني أُحبّكِ - تابع يمامُ همسَه -. أنتِ وأنا الجنّة. أنا وأنت كافيان.

يبدو أن باولينا، زوجة مساعد القنصل، تصوَّرت كلَّ شيءٍ أو جزءاً كبيراً منه. وذاتِ مساء من الأسبوع ذاته، حضرت إلى بيتي. كنتُ في روبٍ مريع ولم أُسرّح شعري. جاءت معها بأزهارٍ وسكاكر، ما يُحملُ لامرأة ولدت توّاً. لم تحتجّ لأن أحكي شيئاً: أدركتْ كلَّ شيءٍ عندما رأتني.

شكرتُ لها ألاّ تذكّرني بتحذيرها السابق، لكنّني شكرتُها أكثر لأنّها عندما اتخذت موقفاً معادياً تماماً ليمام، حثّتني بسبب ردّة الفعل على الدفاع عنه. فقد اعتدتُ منذ طفولتي العادة السيّئة الكامنة في الوقوف إلى جانب الخاسر أو الغائب.

- كلّ ذلك بالنسبة لمن لا يُغشى على قلبه متوقّعاً تماماً، يا بِسي. فهذا الحبّ القويّ جدّاً لا يدوم أبداً.

كنتُ أُفكّرُ: «ما علاقة سعادتي أو مأساتي بالزمن؟ ما هي الديمومة؟» وسألتُ بصوتٍ مرير:

- لا يدوم إلا السيّئ.

ـ لسوء الحظ يبدو هذا صحيحاً... يا بِسي، أنا صديقةٌ لك. أعترف أنّني لستُ صديقة ليمام. جئتُ إلى هنا لأجلكِ. جئتُ لأقول لك أن تضعي نهاية لهذه القصّة القذرة. عودي إلى إسبانيا. لا تستمرّي بالهبوط في منحدرٍ لا أعلم إلى أين سيقودك.

ـ أنا أيضاً لا أعلم، يا باولينا، لكنّني ما إن أعرفه حتّى أخبركِ به.

قدّمتُ لها سكّرة. بدّلتُ الموضوع. حاولت هي العودةَ لتعلن ودّها نحوي... في تلك اللحظة حدستُ أنّني لن أراها ثانيةً. لا أدري لماذا بدت لي في غاية اللطف. أو أدري: لتعارض موقفها اليوم، وهي تغطي فقرها تحت مظهر القوّة. استمرّت تكلّمني وأنا لا أسمعها. كنت أرى وجهها الجافّ، شفتيها الرقيقتين جدّاً، أنفها الذي لجثّة؛ امرأةً غير راضية، تكرهُ زوجها، البدين والفظّ. تذكّرتُ أنّها هجرته منذُ قرابة السنتين ـ هي التي تنصحني أن أتركَ يمام ـ، ووجدت نفسَها مكرهة على العودة لانعدام وسائل العيش عندها... كنتُ أرى امرأةً فاشلةً، عندها أولاد ـ هذا صحيح ـ لكنّها ليست راضية عنهم، لأنّهم وقفوا في الحرب المعلنة إلى جانب الأب. كنتُ أسمع اتهاماتها لي كأنّها الدوي. قدّمتُ لها سكّرةً أخرى. كانت تريد التدخل في حياة الآخرين، منزعجة من حياتها، عاجزة عن تصحيحها، ويائسة من إمكانيّة أن يُحبّها أحدٌ. وعلى الرغم من كلّ شيءٍ، فقد أصابت بالنسبة إلى حياتي. كان الحنق يصعدُ حتى فمي.

ـ أنتِ تعرفين قصّتي: تعرفين أنّني كنتُ سكرتيرة زوجي. حبّلني لأنّنا كنّا مجنونين حبّاً. وبالطبع تزوّج منّي... كان آنذاك رائعاً... (فهمتُ ممّا قالته لي أنّها اصطادته، وأنّه لم يكن، هذا ما يظهر واضحاً، رائعاً قط.) أنتِ لا تعرفين كم يُعوّض وجود ابن عن كلّ شيءٍ...(فهمت أنّ امتلاكه ليس كلّ شيء، و البيولوجيا يجبُ أن تتكامل مع السيرة، والأمّ تُخيّبُ وربّما الابنُ أيضاً) لذلك أقف إلى جانبك... (فهمتُ أنّها ضدّ يمام بشكل شرس، وأنّ ذلك كان مشهداً من شفقة زائفة.) فسمعة يمام فظيعة: نسائي وأشياء أخرى. ليست هذه اللحظة المناسبة لأكشف لك عنها، لكنّني أحيطك علماً كيلا تُباغَتي به... (حاولت أن تفتّحَ عينيّ بالإكراه، وأنا وقعتُ بالمصيدة، فقد بحتُ لها

بحميميّاتٍ أثارتها وأجّجَت غيرتها من حبِّ الآخرين الجامح).

قدّمتُ لها حبّة الكرميلا الأخيرة ونهضتُ.

- إنّني منهكة، خذي الأمر على عاتقك. سأهتفُ لك حين أتحسّنُ.

«لن أهتف لها بعدَ الآن أبداً - قلتُ لنفسي - لن أسرّ لها ولا لغيرها بشيء». فلا أحد يستطيعُ أن يقدّم لي في مثل ظروفي نصيحةً مختلفة، مهما كانت دوافعه. لكنّني قطعتُ علاقتي لأسبابٍ مشابهة مع أشخاصٍ من محيطي: مع جميع من بحثُ لهم بأسراري وخانوني. «نصائح غير مطلوبة لا أقدّمها ولا أقبلها من أحد»: هذه جملتي المعتادة. ربّما ما أتطلّع إليه ليس تبادل الأسرار بل تلقّي التأكيد. لكنَّ هذا انتهى.

المسألة أنَّ الكلمات لا تستطيعُ التعبير عن المشاعر، وأقلّ منها عن الحبّ، فحين يُروى يزيّف، والنصائح التي تنتج عنه مزيّفة أيضاً. الأفضل أن تصبح الواحدة مسرّة لذاتها، حتى ولو تعرّضت لخطر الانحياز في العلاقة مع الإنسان الذي تُحب. كيف نعمل حساباً لدخيل حين يكون من نبحثُ عنه شريكاً بلا حدود؟ النجيُّ دائماً أسوأُ ناصح. لأنّه لا يشعر بل يفكّرُ، بينما الذي يحبّ لا، لأنّه ما إن يبدأ التفكير حتى لا يعودُ عاشقاً وبالتالي لا يعودُ بحاجة لنجيّ. فالأمر يتعلّق بطريقين مختلفين ومتوازيين، يسيران باتجاهين متعاكسين، لا يلتقيان أبداً... هل تخدعُ العاشقةُ نفسها ونجيّها لأنّها تتبنّى مواقف مصلحيّة؟ طبعاً، إذ لهذا تتمُّ المسارّات، كي يخفّف الواحدُ من اختناقه، لا ليقوم أحد بتوثيقها أو يشهد جهاراً بها. لن يكون من يحبُّ حيادياً أبداً. حتى ولو تظاهرَ بالكراهية واعترفَ بها واستعرضَ أفظعَ عذاباته، فالمحبُّ حسم أمرَهُ لصالح من يحبُّ. وهو معه في وحدته أو عليه أن يتعلّم أن يكون معه في وحدته.

حين وصل يمام بعد ساعاتٍ، استقبلته جالسةً، وأنا ما أزال شاحبة - رأيتُ نفسي في المرآةِ - ومرحة بشكلٍ خفيف، حتى وإن كان السبب وقاحة باولينا. لاحظ هو ذلك على الفور.

- تحسّنتِ - قال لي.

- المسألة أنَّ أحدهم جاء ووفّر عليّ جهدَ شتمك. - قبّلني - بعد

قليلٍ سيكون علينا معالجة بعض الاتهامات التي وجّهوها ضدّك؟

ـ هل يمكن تأجيل هذا إلى الغد؟ فما أرغبه هذه الليلة، يابِسيدريا، يا سكّري، هو أن أنام معك مرّةً واحدةً وإلى الأبد.

وكان ذلك.

تجدّدت الأيّامُ السعيدةُ. ليس جيّداً بقاء المرءِ معلّقاً إلى الألم. فالحياة تمضي بسرعةٍ لا تسمحُ لنا بالنظرِ إلى الخلف.

الكائنُ البشري نزّاع لإصدار الأحكام، خاصّة عندما يكون أكثر جهلاً وبعداً عمّا يديه. نسمع في كلّ ساعةٍ:«هذا تافه» وأكثر من ذلك «هذا سيّئ، هذا فوضى ومعادٍ للطبيعة. وأنا الموجودة في النظام وفي الذكاء والطيبة أؤكّده وأصرّ عليه.» كم من البلاهة. من يعرف ما خلف أو تحت أو داخل الضوء المنعكس الظاهر لنا؟ ما أصعب وما أخطر الحكم على الآخرين، ما أصعب معرفة المرء لنفسه. أتكلّمُ هنا ـ أو أكتبُ، مع أنّه لي وحدي فقط ـ عمّا أفهم أنّه يحدثُ ويحدثُ لي، لكنّني لستُ مقتنعة بأنّني أقول الحقيقة كاملة، ولا حتى بأنّني موفقة بما أبغي قوله أو بالطريقة التي أقوله بها كيلا يفقد قيمته... أخيراً ما أكتبُه هو انعكاس ـ ليس أكثر من ذلك، بل وباهتٌ أيضاً ـ لما أفعله وما أشعرُ به؛ انعكاس له في الآخرين أكثر ممّا فيّ.

بلى؛ تجدّدت الأيام السعيدةُ. عاد الزمنُ الناعمُ، كانت الصباحاتُ صافيةً، والنور من النقاء بحيثُ أظهر، دون تدخّلٍ، كلّ الألوان. كنتُ أُرافِقُ يمامَ؛ نتوقّفُ أحياناً في محطّة القطار في طريقنا إلى البازار.

ليس بعيداً عنهُ يوجدُ شارعٌ في منحدر يؤدّي إلى الكيمكابي. إنّهُ شارعي المفضّلُ. يسمّى غيديك باشا. ممرّ للمشاة في وسطه خطّ من المصابيح وبالطبع دكاكين على الجانبين. يسدُّه بحرُ مرمرة مثل لوح من الفضّة المتموّجة والمتلألئة، يمخرها دائماً مركبٌ أو مركبين. على اليسار يتصاعدُ الدخان من مداخن بعض الحمّامات المتواضعة حيث تبرزُ في قببها كوى النور البلوريّة، ينمو في حوضٍ صغير كوتونياستر يُذكّرُني بالسامق منه في ديرِ لاس ميغِلاس في وشقة. أكلتُ ذات صباحٍ

في مطعم مدقع بطاولتين، رأيتُ صحناً يأكله بنّاءٌ، نوعاً من خبيص البيض بالبندورة، قال لي يمام إنّه يُسمّى منمنم، أي بسرعة بسرعة، لكنّني فقط عرفت أنّه لذيذ. بعد المطعم وإلى اليمين توجدُ كنيسةٌ أرمنيّة. تنبعثُ منها أيّام الآحادِ أصواتُ جوقةٍ تنشِدُ أناشيدَ دينيّة بالتركيّة. تذكّرني بأخرى ليست دينيّة وكانت دارجة قبلَ سنواتٍ من مجيئي. تقول كلماتُها على وجه التقريب: «شيءٌ منّي، شيءٌ منّي يموت الآن...» جلستُ ذات ظهيرةٍ فوق حاملة أصص. جاء نحوي فتى وكلّمني، ابتسمتُ له، عادَ وكلّمني... ولم يدرك أنّني لا أفهم ما يقوله حتّى كلّمتُه. عندئذٍ ابتسم ومضى. ترى ماذا قالَ لي؟ هذا ما لن أعرفه أبداً...

كنّا نتناول في الدكّان الشاي بالليمون أو البرتقال أو التفاح مع الزبائن أو في فترات الراحة.

ـ أنا أُحبُّ شايَ الشاي ـ كنتُ أقولُ ليمام.

ـ لا يوجدُ من هذا. ـ كان يضحكُ ويشربُ قهوةً.

ـ اتركني أذوقه.

ـ يسرقُ منكِ النومَ.

ـ لم أحتجْ منذ بدأتُ أعيشُ هنا إلى تناول منوّمٍ إلاّ ليلتين. العبوة التي جئت بها من إسبانيا لم تُلمس.

كنتُ أحلُّ الكلمات المتقاطعة جالسةً القرفصاء على الطريقة التركيّة.

أمرُّ في بعض الصباحات على الفنادقِ أوزّع البطاقات، قبل الذهاب إلى البازار.

ـ أنتِ تفيدينني هنا أكثر. فعندما يراك السيّاح ببنطلونك الجينز هذا تداخلهم الطمأنينة. إذ على الرغم من سمرتك لا تبدين لهم تركيّة.

كان يمام يلقي برأسه إلى الخلف ويضحك بحنجرته البارزة وأسنانه ناصعة البياض، مطبقاً عينيه نصفَ إطباقة حتى يكاد يجمع أهدابه المجعدة العليا مع السفلى، فأُحبُّه.

«أظنّني أُحبُه ـ كنتُ أقولُ لنفسي ـ إلى حدّ أنّهُ ليس للحياة (ليست حياتي وحدي، بل حياةِ أيٍّ كان) ولا للموت معنى بالنسبة إليّ دونه.

ومع ذلك، أنا واثقة من أنّني أحبّه أكثرَ ألفَ مرّة ممّا أظنّ... لستُ جديرة بأن أُحبّ أحداً كلّ هذا الحبّ. وبالتالي لا أستطيعُ تخصيصَ نفسي لشيءٍ آخر غير هذا.» وحين كنتُ أصلُ إلى هذه النقطة أتركُ كلماتي المتقاطعة جانباً وأتفرّغُ للنظر إلى يمام. أراهُ يتكلّمُ مع السيّاح، بالتركيّة أو الفرنسيّة أو الإسبانيّة، يقنعهم بما يحلو له بقوّة التظاهر بأنّه لا يملك أيّة مصلحة بإقناعهم.كان يحدسُ أنّهم يتظاهرون بعدم الاهتمام بالشراء، فيتغلّب عليهم بعدم اهتمام مماثل، ينزع منهم سلاحَهم، ويجعلهم يتوسّلونه. كنتُ أتمتّع وأنا أرى الزبائن يسقطون - ببطء، وثبات، لكن دون أن يشدّ الخيط بإفراط - في شبك عنكبوت يمام. ينظرُ إليّ من حينٍ لآخرَ، ليتأكّد من أنّني مشدودة إلى طريقتهِ الرشيقة والماهرة في المساومة. فجأةً كنتُ أصرخُ: «مصارِع ثيران» فيتابع هو برباطة جاشٍ مُصارعتَهُ. «إنّني مربوطة إليه بمطّاط مرن. - كنت أقول عند ذلك لنفسي - » أستطيعُ الابتعادَ، بل أستطيع حتى اعتزام الهرب من جانبه، إبعادَ تفكيريَ عنه... لكن فجأةً يظهر شيءٌ يجرّني إليه بقوّةٍ أكبر من ذي قبل، فأجدُ نفسي أكثر التصاقاً به من أيّ وقتٍ مضى.

كتبتُ في عيد الميلاد إلى والدي. كانت رسالة قصيرة وصريحة. تمنّيتُ له فيها كلّ سعادة هذا العالم، وطلبتُ منه الغفران، وإن لم يكن بشكل واضح، لأنّني جرحته بسلوكي وصمتي، قلتُ له إنّني سعيدة ولا ينقصني كي أكون كاملة السعادة إلا حضوره، «لأنّني أشتاقُ إليك، ليس في هذه الأيّام وحسب،بل في كلّ وقت؛ لكنّني أشتاقُ في هذه الأيّام، وهذا صحيح، للشموع التي صنعنناها أنا وأنتَ كتفاً بكتف» وأرسلتُ قبلاتي للجميع «وعلى الأخصّ إلى نشيط وتواسون»، وأرفقتُ الرسالة التي عهدتُ بها لصديقتي المضيفة بعلبة حلوى تركيّة، لعدم ثقتي بالبريد.

اليوم تلقّيتُ الجواب. متّزناً وناعماً كالذي يُرسَلُ إلى ابنة تدرسُ في الخارج، أو تزوّجت وتقيم بعيداً مع زوجها. كان الخطّ مرتعشاً كاليد التي كتبته. يخبرني عن أشياء دقيقة في وشقة، كما لو أنّ شيئاً لم يحدث... ما يزال ينزل إلى الدكان الذي تُديره أختُ زوجة أغوستين.

«يأتي نشيط أحياناً ليرى ابنه، أكلّمه كثيراً عنك، كلاهما يشغلانني الشغل الذي نحتاجه كي نستمر في الحياة.» يقولُ لي إنه يُحبُّني أكثر من أيٍّ شخص آخر، وإنّه يحبُّني أكثر منذ أن أصبحت لا أعيشُ هناك، ويطلبُ منّي ألاّ أتأخرَ بالكتابة إليه. ثم هناك معلومة لاحقة: «لا أكتبُ: أتمنى لك السعادة، لشعوري بأنّها حماقة كبيرة كحماقة أن أذكُركِ بكنيتك. بُنيَّتي وحناني، أنت وأنا نتقاسم الشيءَ ذاته. لتكن حياتُك حلوةً دائماً كالحلوى التي أرسلتِها إليّ.»

قبّلتُ الرسالة.

منذُ أسابيع لم أكتب في هذا الدفتر، فقد نسيته. وهذا أفضل، لأنَّ الشيء الوحيد الذي كنت سأكتبه في كلِّ صفحة هو «أنا سعيدة»، «أنا سعيدة»، «أنا سعيدة». فالأيّام السعيدة هي أيضاً بلا تاريخ لأنّها متماثلة. فماذا أكتبُ عنها؟

أنا سعيدة. على طريقتي، طبعاً، لكن ما الطريقة الأخرى التي أعرفها للسعادة؟

هناك حدثان جديدان أعزم على كتابتهما كي أُفكِّر بهما في الوقت ذاته وأشكرَ الدنيا عليهما. يتعلّقُ الأمر بشخصين، دخلا في حياتي، التي لا تفيضُ بالسكّان، بطريقين مختلفين تماماً. أحدهما مركيزة، والآخر مختلّ عقليّاً.

منذ أيّامٍ مضت ظهرت، غير محدَّدة العمر. كنّا عائدين، أنا ويمام، من الغداء في مطعمٍ قريبٍ من البازار. جاءت تحمل في يدها بطاقة من بطاقاتي. تعملُ، حسب ما قالت، خادمةً عند إحدى الأجنبيّات، المالكة لبعض السجادات، والمستعدَّة لبيعها «لأحدٍ لا يكون تركيّاً». كانت تقصدني. البطاقة التي قدَّمتها إليّ تقول: أريان دورساش، كونتيسة تراثيا. علمت أنّني صاحبة ذلك الحانوت ـ أي أنّها لم تفهم جيِّداً ـ وتطلبُ حديثاً معي. يمام هو من ترجمها بشيءٍ من الخبث. وبعكس ما

توقّعتُ - أي أن لا آخذ الأمر بجديّة - قال لي حين انتهى:

- رافقيها لتقابلي هذه السيّدة.

- الآن؟

- ولماذا لا؟

كانت السيّدةُ تعيشُ في غالاساراي، في بييوغلو، قريباً جدّاً من بِرا بالاس؛ كنتُ أعرفُ المنطقة. أخذتُ، أنا والمرأة، سيّارة أجرة وذهبنا إلى هناك. راقبتُها أثناء الطريق. كانت قد تجاوزت الخمسين كفايةً، ولها مظهر كرديّة: أنف عريض وكبير، شفتان غليظتان، شعر خشن وطلعة توحي بالثقة الغريزيّة. لم أستغرب أن يكون يمام قد صدّقها على الفور.

كان البيت بناءً من بدايات القرن؛ من تلك البيوت التي تكثر في بِرا، عالياً وضيّقاً، يبدو أنّه من خمسة أدوار. في شرفةٍ كبيرة في الدور الثالث سارية علم فارغة، ربّما تعلّق الأمرُ ببناء كان رسميّاً. فتحت المرأةُ بابَ الدور السفلي، الذي يُقلعُ منه مصعدٌ صغير. دخلنا شقّةً مظلمة، الحرُّ فيها شديد، على الرغم من أنَّ الحرارةَ في الخارج لم تكن مرتفعة.كانت ستائر النوافذ مسدلة والأباجورات مُغلقة. على ضوء زوجٍ من الثريّات ذات البلّور الجيّد، غير المناسبتين بسبب حجمهما الكبير، لمحتُ هيئة أنثى جالسة في كرسيٍّ عالي الظهرِ جدّاً، وساقٍ مسندة إلى كرسيٍّ دائريٍّ صغير من القطيفة الخضراء، تدخّن سيجاراً.

- اعذريني لأنّني لا أنهض، فهذا يُكلّفُني جهداً أكثر من اللازم. اقتربي.

مدّت لي يدها وأشارت إلى كرسيٍّ قريبٍ من كرسيّها. لم يسمح لي الفضولُ بالجلوس. كانت امرأةٌ عجوزاً جدّاً، لكنّها قويّة، متوسّطة القامة، شعرها شائب، قُصَّ دون ترتيب، ورُفِعَ فوق الجبين، أنفها حادّ، عيناها بنّيّتان صغيرتان وحيويّتان جدّاً، تعلو جلدها بقع شيخوخة أو كبد، ظلُّ شارب، ويدان صغيرتان ومجعّدتان. ترتدي لباساً بالياً، لا يمكن أن يقال عنه إنّه أنيق. استنتجتُ من حزمها في الكلام بأنّها معتادة على أن تأمر وتُطاع. لم تكن لطيفةً، ولا تُجهدُ نفسها كي تكون كذلك؛ ربّما العزلة أو العجزُ أفسد مزاجَها.

ـ السجادات موجودة هناك ـ أشارت بإصبعها إلى ستارة مقوّسة خلف حاجز عريضٍ جدّاً ـ، سترينها فيما بعد. قلتُ لكِ اجلسي.

كنتُ شاردةَ الذهن، كمن يدخلُ لأوّلِ مرّة في محلٍّ تجارة عاديات رخيص. كان في تلك الصالة الكبيرة أثاثٌ ممتاز، كلّه من نوع الفن الجديد، لوحات توحي من أوّلِ نظرة بأنّها متفاوتة في نوعيّتها، يهيمن عليها الاستشراق، ومجموعة رائعة من الأيقونات؛ عددٌ منها مثقل بالزخارف، مرايا من الأرض وحتى السقف، تخلط المنظور، وعددٌ لا يُحصى من الطاولات والكراسي ذات الأساليب المختلفة جدّاً، خزائن بلّوريّة مليئة بالعلب وأدوات الزينة وحاملات الأصص... قطعت عليّ تلصُّصي:

ـ يا آنسة، هل ستجلسينَ أم لا؟ ـ جلستُ ـ تهمّكِ، كما يبدو، غرفتي أكثرَ منّي، لتعلمي أنّني مسرّةٌ فيها. الحمّام هناك، وهناك المطبخ. هناك غرفةٌ أخرى تحفظ فيها الأمتعة المستهلكة والقذارات عديمة الفائدة، مع أنّ كلّ ما هو موجودٌ هنا، بما فيها أنا، عديم الفائدة. خلف هذه الستارة، التي تثيرُ فضولك كثيراً، غرفة نومي. هذا كلُّ شيء.

لم أدرِ هل أعتذرُ منها على طيشي أم أنفجر بالضحك. ضحكتُ، الشيء الذي لاحظتْ على الفور أنّه أعجبها. تابعت:

ـ هذه المرأة المُريعة، التي لا تتكلّمُ إلا التركيّة، باستثناء الشتائم التي أوجّهها إليها بالفرنسيّة وتعلّمت التمييز بينها، هي زريفة. تهتمُّ بالنظافة بشكلٍ سيّئٍ، كما يمكن أن يُلاحَظ. مضى عليها معي ستة وثلاثون عاماً؛ تصلُ في الثامنة وتذهب في الثانية، أو هذا ما تقوله، اذهبي، يا زريفة. إلى الغد. ـ انحنت المرأة وخرجت من الصالة ومن الشقّة ـ. إنّها كريهة؛ لكن من حسن حظّي أنّها عندي، فأنا لستُ قادرة على صنع كأسٍ من الشاي لنفسي. اذهبي، إذا كنت تريدين أن تتناولي شيئاً، إلى المطبخ واعمليه لنا. أنا لا أطأه، أعني المطبخ. فوالدي كان يردّدُ على مسمعي: «لحسن حظّك أنّك بقيت عازبة، لأنّ زوجك سيكون منكوداً بائساً» لم يكن على حقٍّ في هذا، كما لم يكن كذلك في أيِّ شيءٍ يقوله أو يفعله. كان يوغسلافيّاً، من الجانب الإيطالي، كثيرَ المال، قليلَ الحياء. تزوّجَ من أمّي اليونانيّة فائقة الجمال، ثمّ هجرنا أنا وهي

وذهب مع امرأة أخرى. ماتت أُمّي من العذاب. عمل قنصلاً ليوغسلافيا في الامبراطوريّة العثمانيّة... والآن ما عاد هناك امبراطوريّات ولا أب ولا يوغسلافيا ولا مال ولا شيء. لا أدري سبباً لبقائي... كان مُبذِّراً، نسائيّاً، يحبّ الحياة وكريهاً... ولدتُ في تركيا، كما يمكن أن تتصوّري بسهولة، لكنّني أحمل الجنسيّةَ التركيّة أيضاً. حصلتُ عليها بطريقة مهمّة إلى حدٍّ ما. كنتُ على علاقة كبيرة مع الوسط الدبلوماسي في تلك المرحلة عندما كانت بِرا هي بِرا. أجلسوني في إحدى العشيات على يمين أتاتورك، الذي كان (وما زال) الآمر الناهي، وتركيّا الحاليّة تولد، وكان من المثير أن تري كيف ينبثقُ البلد، كيف يتشكّل بخطوطه العريضة ويُمنح الشكلَ المرغوب، وكيف كانت النماذجُ تُختارُ له. الأمر الذي تمّ تجاوزه ولم يعد يحدث في أوروبّا: بلادنا تأخّرت قروناً في عمل ذلك ووجدناها مصاغة، مخرّبة، ومعادة صياغتُها ألف مرّة. لم نُؤخَذ بالحسبان في شيء... في ذلك العشاء سألني أتاتورك ما إذا كنتُ ألتزم بالتعاون مع بلدٍ بدأ يخطو، أي ما إذا كنتُ أريد أن أصبح تركيّة. كان أشقرَ وذا جاذبيّة كبيرة، كنت في حدود الثامنة عشرة من عمري... لا تحسبي من فضلك: لا أعلم كم عمري الآن... أجبتهُ بالإيجاب، فمنحني الجنسيّة. لكنّني على كلّ الأحوال لا أدري من أين أنا. كما لا يهمّني. أنتِ تريدين رؤيةَ السجّادات. لا تستعجلي، سترينها في الحال. إنّها مختلفة المصادر، جميعها جيّدة... آه، قبل كلّ شيء: اعذريني لأنّني لا أُكلّمك بلغةٍ مُحدَّدة؛ فأنا لا أعرف اللغة التي تتكلّمينها.

ـ الإسبانيّة والفرنسيّة.

ـ حسناً، في هذه الحال نحن نتفاهم. أنا أتكلّم ثماني لغات، لكنّني أضجر من التكلّم في كلّ مرّةٍ بواحدة؛ أستخدمها جميعاً. لا أتكلّم الإسبانيّة، لكنّني أتكلّم الكتلانيّة: كم أنا سيّئةِ التربية، أليس كذلك؟ اليونانيّة تعلّمتُها من مربّيتي...

أحاولُ أن أنقل بربطة الأخبار التي زوّدتني بها عن نفسها بخليطٍ من اللغات، التي كنتُ أفهمها بشكلٍ غير معقول. كلّ شيءٍ كان هناك خليطاً: البيت، صاحبته ومفرداتها.

ـ إذا كنت مهتمّةً بمعرفته، فبيتي مكوّن، مع هذا، من ستّة أدوار. الأولى منها كانت للأسرة والأخيران للخدمة. عندي ستة ضيوف، واحدٌ

في كلّ دور، آخذة بالحسبان القبو، حيث عملت منه شقّة جميلة جدّاً بجانب القدور. أبقيتُ هذا لنفسي بسبب ساقي، على الرغم من وجود مصعدٍ كما رأيتِ... لا. لا تفترضي أنَّ عجزي حدث مؤخّراً. وقع لنا حادثٌ وأنا في الثامنة من عمري، مات الجميع وفقدتُ أنا ساقي. وأعادها إليَّ طبيبٌ ألماني؛ لا تسأليني كيف.

لم أسألها، فقد بدا لي كلّ شيء غير معقول. ومع ذلك، لا أعرف لماذا، تعرّفتُ على عمقٍ حقيقة رهيبة في كلّ ما حكته لي تلك المرأة. تابعت وعرفت أنّه من غير المجدي مقاطعتها أو سؤالها عن أيِّ شيءٍ، من الواضح أنّها كانت تريدُ أن تتكلّمَ وتتكلّم عمّا تريد طبعاً.

ـ منذُ ثلاث سنوات وهذه الساق اللعينة مرفوعة. أستطيعُ المشيَ، لكنّني لا أشعر بالحاجة لذلك. كنتُ أتساءل في البداية ما إذا كانت الإزعاجاتُ ستأتيني من موضوع الباخرة... فحتى فترة قصيرة كان عندي باخرة؛ أديرها بنفسي، أمضي أربعة أو خمسة أشهر في البحر، في المتوسّطِ دائماً، كما هو طبيعي.

ـ ربّما من هناك جاءك الروماتيزم أو التهاب المفاصل.

ـ دعيكِ من الحماقات، لم أُصب بالتهاب المفاصل قط، بل بالنفور، ليس أكثر. كنتُ في السابق أذهب إلى الأوبرا، فأنام أو إلى تلك المضائق التي لا تُنسى في البوسفور؛ أذهبُ إلى بِبِك فقط لآكلَ مثلّجاتٍ، لا تظنّي لشيءٍ آخر... لكن صار من الصعب الآن أن يأخذ المرءُ سيّارة أجرة في شارع الاستقلال: فشوارع المشاة مرعبة. خرّبوا علينا، نحن القليلين الذين كنّا نعيش جيّداً، عيشنا، لكي يعيش الجميعُ بشكلٍ أفضل. تخبّط كبير، نوعيّة الحياة لا يمكن أن تكون جماهيريّة... هل تريدين أن تصنعي لنا الشاي؟

نهضتُ، ذهبتُ إلى المطبخ. تابعت هي الكلام. فكّرت كم سيُسرُّ يمامُ حين أحكي له ذلك. الحقيقة كنتُ راغبة برؤية السجادات؛ وربّما أخرجُ بها أرخصَ بعد استماعي إلى خطابها المطوّل.

ـ إيّاك أن يخطر لك أن تأخذي ماءً من الصنبور. أنتِ فتاةٌ فائقة الجاذبيّة، لا أدري ما الذي تفعلينه هنا. لا أعني في بيتي. بل في هذه المدينة. خذي واحداً من هذه الأواني اللامتناهية التي ترينها، فيها ماء مغليّ. ليس ماء الصنبور هو الوحيدُ الخطير في استنبول، بل أيضاً

المياه المعدنيّة المعبّأة. أرسلتُ عيّنات إلى أقرباء لي في سويسرا وقالوا لي لا تحاولي لأيّ سببٍ في العالم أن تُجرّبيها. هل وجدتِ الشاي؟ أنتِ فاتنة. فيما بعد تحكين لي شيئاً عن حياتِك. هذا إذا تركتك تفكّرين. سأتركك؛ سنصبح صديقتين.

كان المطبخُ مرتّباً ونظيفاً بشكل مدهِش، ويلاحظ أنّه من عمل زريفة. حدست الكونتيسة باستنتاجي الذي توصّلتُ إليه فسرقته مني.

ـ زريفة ساحرة. أنا من يعرف هذا، فقد مضى على تحمُّلي لها سبعة وثلاثون عاماً، يوماً بيوم، لأنّها لا تُعطِّل أبداً، لا جمعة ولا أحد. كانت في السابعة عشرة من عمرها وفي غاية الجمال عندما دخلت إلى هنا. الآن صار عندها قبيلة. تزوّجت الغبيّةُ، وأنجبت خمسة أولاد. أمّيّة، بالطبع. لم أرغب أن تتعلّمَ شيئاً قط، أنا أكرهها وهي تكرهني أكثر. ما ترينه على يمينك هو عشائي. طبعاً لن تعرفي أنّه عشاء. لبن، موزة وبعض البسكويت المبلّل بالماء المغلي، هذا كلّ شيء. لو لا أنّني أُدخّنُ كثيراً لمتُّ منذُ زمن. لكن لا تخافي في كلّ الغرف يوجد ماصّات دخان.

ـ أنا أيضاً أُدخّنُ ـ بدأتُ أقول.

ـ أنتنَّ، الفتيات الجميلات، تعتقدن أنّنا نحن النساء اللواتي لنا شارب لم نحب قط. كم أنتنَّ مُخطِئات. لقد أَحبَبْنا وأُحْبِبْنا. كنت قاب قوسين أو أدنى من الزواج من كارل، لكنّنا كنّا ابني عمومة، ولم نحصل على ترخيصٍ بابوي. البابا معصوم، لكنّه لم يتصرّف جيّداً. وعلى الرغم من كلّ شيءٍ أنا من أهدته قلعةَ أُسرتي مع أراضيها في شمالِ إيطاليا على الحدود السويسرية. لم أكن بحاجة إليها. ومع ذلك، فكلّ ما يُعملُ في سبيل البابوات غير مجدٍ. في زيارة لي إلى روما سألني، شاكراً لي تبرُّعي، ماذا أريد. هل تعرفين بماذا أجبتُه؟ «لن أُقبِّلَ قدمي قداستكم التي لم تمنحني منذ عشرين عاماً براءة الزواج، لكنَّ أُمنيتي أن تحملني في جولةٍ عبر روما.» وفعل ذلك.

كنتُ أحمل الشاي إلى الصالة. لم أجروٌ على التحقُّق من البابا الذي كانت تقصدُه. ربّما هي نفسها لم تكن تعرفه، أو أنّها تتكلّمُ عن اثنين.

ـ آه، أتيتِ بالشاي. أنتِ حلوة، ظريفة، وكفء. لا بدّ أن تقولي لي من تعشقين. ففتاة مثلك لا تكون هنا إلا بسبب الحبّ.

ابتسمتُ لها. ودون أن أنتبه رحتُ أُروِّحُ لنفسي بمجلّةٍ كانت على الطاولة.

ـ أنفقُ ثروة على التدفئة المركزيّة. الشايُ ممتاز. استطعتُ التوصّل إلى تشغيل تدفئة الشقةّ كلّها بالضغط على زرٍّ موجودٍ هناك. لم أضغطه إلا مرّة واحدة. عندما ركبوها، منذ ذلك الوقت والحرارة هنا ثمانية وعشرون درجة.

ـ ليلاً ونهاراً؟

ـ هذا أيضاً لم يعد موجوداً بالنسبة إليّ. فأنا أنام متى استطعتُ؛ في مُرَيْجِل. أنام برهةً وأخرى لا. وعندما تُوَلّي هذه الغولة زريفة أنام وأستمرُّ أتقلَّبُ وأتقلّبُ إلى إن تعود. لذلك كلُّ شيءٍ عندي مُغلَقٌ، كيلا أنتبه إلى أنّه نهار وعليّ ألا أنامَ أو أنَّهُ ليل وعليّ أن أكونَ نائمة. لذلك، ولأنَّ هذا النورَ وهذه الشمسَ من القوّة بحيثُ يُؤْذيان جلدي وعينيّ... ضيوفي يخافونني، ويتصوَّرونَني لا أعرفُ. يخافونني أوّلاً لأنّني أترصّدُهم وأُطالبهم بالبقاء برهة ليثرثروا معي، كي لا يصير الوقت من رصاص إلى هذا الحدّ، ثمَّ لأنّني لا أعرفُ في أيّة ساعة أنا. هناك ضيفٌ إسبانيٌّ شاب، لا عيب فيه غير أنّه عاشقٌ لتركيّا؛ حين أعرفُ بقدومهِ أفتحُ البابَ وأُعنِّفُهُ: «ما هذه الساعة المتأخِّرة للعودة؟» وقد تكون الساعة الثالثة من مساء مشعٍّ والمسكين عائد بعد أن أخذ قسطاً من الشمس. البارحة قلتُ لآخر، ألماني، يعمل في علم الآثار، ها أنت ترين أيّ مستقبل هذا: «زريفة لم تأتِ بعدُ. هذه المرأةُ أماتتني جوعاً. لا تعرف مثلها مثل كلِّ الأتراك غير طلب المال. (أنت هنا لأنّك لست تركيّاً.) لا أدري ماذا أفعلُ، يا هِرْ فونكِلْ» وأجابني بطريقة جرمانيّة تماماً: «أيّتها السيِّدة الكونتيسة، إنّها العشرون وستٌّ وثلاثون دقيقة بالضبط» ـ وضحك بطريقةٍ ساحرة.

ـ أنا معك على أحسن ما يُرامُ، يا سيِّدتي الكونتيسة، لكن عليّ أن أذهب. إنّهم ينتظرونني في البازار كي أُغلقَ الحانوت.

ـ لاتنادينى سيِّدتي الكونتيسة. ناديني أريان. وقولي لي اسمَك.

ـ بِسيدِريا أُوليبان.

ـ اسم ولا ككلِّ الأسماء، يُعجِبُني. اذهبي إلى غرفة النوم وانظري السجّادات.

رأيتُها تحت ضوءٍ غير كافٍ. ومع ذلك أدركتُ أنّها رائعة وتستحقُّ كلَّ أنواع المعاناة. شعرتُ بالفخر لتدخّلي في مثل هذه التجارة: سيحترمني يمامُ أكثر قليلاً. كانت الكونتيسة تصرُّ على الكلام.

ـ كانت في الغرفة الخلفيّة، لكنّها تشغل مكاناً كبيراً، ومهما قالت زريفة فأنا بحاجة للمكان الواسع لليوميّات والمجلاّت التي يرسلونها إليّ يوميّاً لأطّلع على ما يجري. لا أعرفُ أحياناً أين قرأتُ هذا الخبر أو ذاك، لذلك أضطرُّ للاحتفاظ بها. السجّاد بالنسبة لي شيءٌ ميتٌ، بينما الصحافة هي الحياة. خُذيها.

قالت لي السعرَ. ظننتُها تمزحُ. أطللتُ برأسي على ما وراء الستارة. كانت ما تزال تُبلِّلُ البسكويت بالشاي: كلّها بهذا المبلغ؟

ـ هذا هو الشرط: كلّها. ماذا سأفعل بما لا تريدينه منها، سيّئُها مع حسنها: كلّها.

لم يكن بينها واحدة سيّئة، بدت لي كلّها رائعة جدّاً بهذا السعر. عرفتُ أنّ أسباب منحها لي رخيصة بما يشبه الهديّة كانت ثلاثة:فهي بحاجة للمكان الواسع فعلاً، وتبحثُ عن صداقتي كي أزورها وأستمع إليها، ولم يكن عندها أدنى فكرة عن المال.

ـ لا تنشغلي، يا أريان، غداً أُرسل سيّارة لتاخذها جميعاً.

ـ لا؛ لا تُرسلي أحداً. تعالي شخصيّاً.

وبالفعلِ ذهبتُ في اليوم التالي. أخذتُ لها معي علبة بسكويت دانمركيّ كبيرة وعلبة شاي إنكليزي. وتمّت الصفقة. حسناً، الصفقة قمت بها أنا ويمام. لم يستطع يمام أن يُصدِّق.

ـ كانت السجّادات أفضل بكثير ممّا توقّعتُ. وعلى الرغم من أنّه يجب انتظار الترخيص بالتصدير، لأنّها قديمة جدّاً سيكون هناك دائماً زبائن مستعدين للانتظار للحصول عليها. أو نموّهها بين أخرى.

المستجَدُ الثاني الذي حدث يُدعى محمود.

يمرُّ في البازار باستمرار عميان، مقعدون ومتسوّلون يحاولون العيشَ على ما يفيض عمّن يشترون ويبيعون هناك. كثيرون منهم ضعفت قدراتهم العقليّة. أنا التي أصطفّ دائماً إلى جانب البؤساء،

أحاول دائماً أن يكون في متناول يدي صدقة لهم، بل وابتسامة أيضاً، سواء كنتُ رائقة المزاج أو لا. ربّما ما كان يقرّبني من هؤلاء الناس أنانيتي لإقناع نفسي بأنّ هناك كائنات أكثر تعاسة مِمَا كنتُ في أيّ وقتٍ.

في البازار جميعنا نعرف بعضنا بعضاً وليس هؤلاء المعوزون الاستثناء. على امتداد النهار يأتي هؤلاء أو أولئك. لا يدخلون، بل يقفون قريباً كي أراهم. يُنادونني كنّتنا، بالتأكيد لأنّ يمام أخوهم في الدين - إلى هذا الحدّ أو ذاك - ولم تكن أكثر من طريقة ساذجة لتكريمي ويسرُّني بالطبع أن يعتبروني زوجة يمام.

شدّني منذ اليوم الأول من بين العجزة واحدٌ عاديّ. كان طفلاً في التاسعة من عمره تقريباً، حافياً، يبيع الشيكلس، والسكاكر والسجائر المتفرّقة وأشياء أخرى تافهة في صينيّة خشبيّة مُعلّقة إلى رقبته. لم يطلب منّي صدقةً قط. أشتري منه الشيكلس، لأنّ قلبي يرقّ لطفل بمثل هذا السنّ والعوزِ والوعي، على الرغم من عمله كبائع. كان يمثلُ في الحانوت كلّ صباحٍ، كمن يقومُ بواجبٍ. وفي كلّ مرّة أشتري منه المزيدَ من الشيكلس، بل رحتُ أعيدُ إليه ما اشتريته في اليوم السابق فيفتح عينيه وفمه أكثر ويصدرُ أصواتاً ظننتُها غير مفهومة لأحد.

- غبيُّكِ يسالكِ - كان يمامُ يُقاطِعني - إذا كانت لم تُعجبك.

- قل له كثيراً، لكنّني أحبُّ أكثر أن يبيعها لي مرّةً أُخرى.

منذُ تلك اللحظة، راح يُبدل لي علب شيكلسي بأخرى ويرفضُ أخذ ثمنها. اضطررتُ أن أهديه علبَ سجائر، كما لو كان يُدخّنُ، مع علمي بأنّه يبيعها. حتّى جاءت ليلة اقترحتُ فيها على يمام الإبقاء على الصبيّ في الحانوت. فمن المفيد أن يكون هناك صبيّ يُنظّفُ المرامِدَ، يأتي بالشاي وبالقهوة، يعيد للزبائن معاطِفَهم، ويرفع الكؤوس والفناجين.

- أنتَ علّمتني - تابعتُ - أن جميع المهن في البازار منفصلة، فمن ينشر أو يلفّ السجادات مختلف تماماً عن الذي يحدّدُ سعرها. وما دام الغلامان الموجودان في الحانوت لهما عملهما ألا ترى مثلي أن وجود غلام خدمة سيضفي على عملنا بعض التميّز؟

- لكنّكِ تعرفين أنّه غبيّ، يا بِسي.

- اترك هذا لي.

طرحتُ على الغلام في اليوم التالي عرضي من خلال يمام. وبينما يمام يُكلمه كان ينظرُ إليَّ بإمعان. وعند الانتهاء ابتسم لي كولدٍ طبيعي وقبّل كمَّ فستاني، ثمَّ وضع الصينيّة الخشبيّة في حضني. أعدتُها إليه، ليس دون تأثر.

ـ بِعْ كلَّ هذه البضاعة اليوم وتعالَ غداً.

في المساء وعند ساعة الإغلاق مَثُلَ هناك ومعه الصينيّة فارغة وهو يردِّدُ:

ـ غداً... غداً... غدا...

ـ نعم، يا محمود، إلى اللقاء غداً ـ قلتُ له وأنا أُداعب رأسه.

حين وصلنا أنا ويمام لنفتح الحانوت رأيناهُ من بعيد. كان قادماً وقد حلق شعره على الصفر وانتعل حذاء شبه جديد، كان واضحاً أنّه صغير عليه. أشرتُ إليه.

ـ إنَّه لأخي، عمره ستُّ سنوات ـ قال بين إيماءة وتلعثم ـ، أُمي طلبت مني انتعاله.

منذ ذلك اليوم (أيضاً اشتريتُ له حذاءً على قياسه، قبَّلَهُ دون توقُّفٍ، ولم ينتعله خشيةَ أن يوسِّخه) حاولت تعليمَه عمليّات الحساب الأربعَ وبعضَ القشتاليّة أيضاً. أعرفُ أنَّه يتأمّلني عندما أكون شاردة الذهن أو عندما أُعطيه الدروس، بكثيرٍ من التعبّدِ الذي أعتبر أنّني لا أستحقّه. أودُّ ألا أُخيّبه أبداً. هو يجهلُ إلى أيِّ حدٍّ صار لوقت فراغي معنىً الآن.

عدتُ لرؤية أريان. ما إن يكون عندي ثلاث أو أربع ساعات فراغ ـ أقلّ من ذلك مُحال ـ حتى أذهب إلى بيتها. أهدتني علبةً صغيرةً، جميلة مثل جوهرة وأيقونة. هناك لحظات أضطر لإبعاد فكرة أنّها عشقتني.

ـ درستُ ـ قالت لي اليومَ ـ في مدرسة استنبول العليا للبنات. كنت طالبة متفوّقة جدّاً فأعطوني منحة لأكملَ إنكليزيّتي في لندن. وعند عودتي قبلوني مدرِّسةً في المدرسة. علّمتُ فيها ثلاثة وثلاثين عاماً ـ كانت تقول ذلك بابتسامة حالمة ـ في قسم كبير من حياتي إذن كنتُ

محاطةً بأجمل بنات استنبول. جميعهنَّ يتذكَّرنَني حتى بعد زواجهنّ... طبعاً يتذكَّرنني كغير محتملة، ومتشدِّدة وصارمة. ومع ذلك كنتُ سعيدة... عندما تقاعدتُ بحكم السنّ بدأتُ أتلقى معاش تقاعد من الدولة، لا أدري مقداره، لكنّ المصرف يعرف. إذا أردتِ الحقيقةَ، يابِسيدِريا - خفضت صوتَها - فسأقول لك إنّني بدأتُ أشعر في السنوات الأخيرة بضائقة. المسألة أنَّ الأتراك دائماً يخدعون، دائماً يسرقون: مُدرِّمةُ الأظافر، عامل الكهرباء، الحلاّق وزريفة.

- زريفة أيضاً؟

- هي أوّلاً، مع أنّها تعرف أنَّ هذا البيتَ سيصيرُ إليها. بالمناسبة بودي أن تكوني شاهدة على التبرّع. فالأشياء يجبُ أن يقومَ بها الإنسان في حياته، وإلاّ فالحكومة تأخذُ كلَّ شيء... كان لي في السابق صديقات قليلات، لكن ليس عندي الآن منهنَّ واحدة، أرى أنَّ زريفة تبعدهن عنّي. أو ربّما ظننّني متُّ. أو ذهبتُ لأعيشَ في سويسرا مع أعمامي، الذين لا بدَّ أنّهم ماتوا أيضاً. كان هناك واحدة تدعى بوبي وهي يونانيّة، لها ظرافتها. الشهر الماضي، أو العام الماضي سمعتُها تتكلّم مع زريفة في الباب. لا أدري لماذا لم تدخل... كنتُ، كما يُمكنُ أن تتصوّري، مشهورة جدّاً، بين جميع تلك الفتيات اللواتي ينتمين إلى أفضل العائلات. جميع الأقليات كانت تحترمني: الأرمن، اليونان، الإيطاليون الشرقيّون، واليهود الشرقيون. ولقد أصبحتُ ذات قوّة كافية، طبعاً لأنَّ الفتيات يكبرنِ ويعملن أعراساً جيّدة ويؤثِّرن على أزواجهنَّ، ثم كان لديّ خلال كلِّ هذه السنين من الوقت ما يكفي كي أعرف القصص القديمة العكرة عن الكثير من الناس - كانت تبتسم بطريقة خبيثة جداً - انظري هذا الشارع، جاء وقت أزيح كلّه: فالإسفلتُ كان سيئاً جدّاً وتآكلت المصابيح، وأصبح الدخول إليه مخيفاً. فجأة تعبتُ. أخذتُ واحدة من هذه الدفاتر التي على يمينك - كنتُ قد استخلصتها من موسوعة من عددٍ من المجلّدات - وقمتُ بعددٍ من المكالمات. عُبِّدَ الشارعُ وأُصلحت الإنارةُ. فدفاتر الهواتف هذه التي تعمّ فيها الفوضى ما تزالُ تنطوي على بعض الفائدة - أطلقت قهقهةً قصيرة وجريئة -- أظنُّ أنّه ما يزال هناك استنبوليون (ما أبشع هذه

النسبة، أليس كذلك؟» كثيرون سيرتاحون حين أموت... لماذا لا تحكي لي شيئاً عنك؟ ألم نصبح صديقتين بعد؟

ـ صدّقيني، ليس عندي ما أحكيه لك، يا أريان، زوجي تركي، وأعملُ في البازار، أنا سعيدة: هذا كلّ شيء.

ـ عِديني أنّك إذا ما جاء يوم لن تكوني فيه سعيدة ستقولين لي السبب.

ـ أعدُكِ.

لا أدري ماإذا كنتُ سأكتبُ أنَّ محموداً يتقدَّمُ ببطءٍ شديد. ما إن يصل حتى أعطيه وظيفته فيحاول القيام بها على أفضل وجه ولُسَيْنه بين أسنانه. آمره بأن يُحيي فيقول: «تَيْفَ حال حضلَتك» فأبتسمُ منتصرةً.

استيعابه للحساب أسوأ قليلاً. كان في السابق يجمع أو يضرب بالشيكلس أو السجائر، ولم يكن يخطئ، ويقوم بذلك الآن بالعلب الصغيرة، الوحيدة التي نتجرّأ على إرساله لشرائها، أو بكؤوس الشاي، ولم يرتكب أيّ خطإٍ بعد. لكن إذا لم توجد هذه العلب فالنتيجة صفر. محمود لا يقوم بعمليّاتٍ مجرّدة إن لم تكن مثل هذه الأشياء موجودة لا يرى فيها فائدة... لكن هذا ليس صحيحاً تماماً: فهو يتقدّم بعض الشيء، بما يكفي بالنسبة إلى عقله. يقول بِمام إنّه صار يلفظ حتى التركيّة أفضل. التقسيم لم نلمسه بعد، لكنَّ كلّ شيءٍ سيسير كما يجب. أذهل حين أراه يطبِّق ذلك ولعابه يسيل، لأنّني أعرف أنَّهُ يفعله لأجلي. أحببته أكثر ممّا توقّعتُ بكثير.

ذهبتُ اليومَ إلى بيتِ أريان كي أشهدَ وأُوقِّعَ على سند التبرعِ بالبناء كاملاً إلى زريفة. صادفتُ عند الخروج في البّوابة الضيفَ الإسباني، الذي كلّمتني عنه، وهو شابٌ مدريدي مضى عليه ثلاث سنوات هنا. لا أدري ما إذا كان قد جاء بحثاً عن شيءٍ أو هرباً من شيء، لكنّه مثل السمكة في الماء، ظريف وكريم ويحبُّ صاحبةَ بيته. أشار إلي أن نخرج معاً، واضعاً إصبعه على شفتيه، ثرثرنا قليلاً وتناولنا قهوةً في بِرا بالاش.

- لو سمعتنا أريان ما كانت لترضى حتى بأن نتعارف. فهي ماضّة جدّاً - كان يضحك بطريقة مفتوحة.

أجابني على سؤال أو سؤالين وجّهتهما إليه مؤكّداً شكوكي كلّها.

- لا تستنتجي أنّني أعرفُها أفضلَ منكِ بكثير، فقط أعرفها قبلك. كانت مسرفة كبيرة. لكنّني أراها حتى في انحدارها مجيدة. تصوّري، لا تتحمَّلُ أحداً، لا تطلب شيئاً كمعروف، ولا تشكر أحداً، ومع ذلك فيها شيءٌ يظهرها رائعة التهذيب: بعض الحركات، الدقة في الكلمات، طريقتها بإلقاء رأسها إلى الخلف عند الضحك. أهلكتني. دائماً ترينها على الجانب الآخر من الباب بانتظار مروري. مهما جئتُ مُحمَّلاً من الشارع، فإنّها دائماً توقفني وتدخلني إلى الصالة كي أستمع إليها، وهو ما يسرّني. تتكلّم وتتكلّمُ إلى أن تمدّ يدها فجأة وتقول لي: «حسناً، كفى، وداعاً.» وتصرفني. وإذا ما خطر لك سؤالها عن شيءٍ لا تجيبك، تقومُ بحركة غامضة وتستمرّ بحكايتها. تحكي الأشياء كما تكون قد حكتها لنفسها مرّاتٍ كثيرةً، مثل دورٍ تمرّنت عليه كثيراً. أعرفُ متى ستضحك أو تبتسم، متى سترفعُ يدها، أو ستسند رأسها إلى الكرسي، أو ستحرّكُها من جانب إلى آخر. بالنسبة للمال لا تفقه شيئاً. تؤجّرنا الشقق بأسعار تثير الضحك، لا تعرفُ أنّ التضخُّمَ يزدادُ، لاتعرفُ شيئاً. رأسها في الماضي السحيق ولم تستخدم المال قط، كما لا تفهم به. والفضل في ذلك يعودُ إلى أنّ ما تحتاجه قليل - لم أجرؤ على سؤاله لماذا لا يعرض عليها رفع الإيجار؛ - فأنا أيضاً لم أعرض عليها رفع سعر السجّادات التي اشتريتها - لولا زريفة لكان ذلك مريعاً. وفاءُ هذه المرأة كوفاء الكلب. تستخدم أريان في الشتيمة الفرنسيّة أو الإيطاليّة والمسكينة التي تعرف أنّها تشتمها، تعضُّ على شفتها، تهزُّ رأسها وكتفيها وتذهب إلى المطبخ. كان باستطاعتها أن تسرقها متى تشاء، لكنّها لم تفعل ذلك قط. أنا أقدّرُ الاثنتين، كلّ واحدة بطريقتها.

- من المفرح سماع أريان تتكلّم عن استنبول القديمة.

- لا تكادُ تتكلّمُ. لا شكَّ أنّها تجهل استنبول الحاليّة، ولا تتكلّم عن الأخرى البهيّة إلاّ قليلاً. تتحدّثُ عن استنبول التي تعرفها: استنبول شارع بِرا، الاستقلال حاليّاً، استنبول الأجانب والأقلّيّات، الحي الذي عاشت فيه دائماً ولم تخرج منهُ إلاّ قليلاً ويمتدُّ من برج غالاتا إلى

ساحة التقسيم. استنبول ما بين الأسوار في الطرف الثاني من قرن الذهب كانت بالنسبة إليها وما تزال جاذبة للسيّاح غير قابلة للسكن... يسرُّني أنّك مهتمّةٌ بها. تعالي لزيارتها كلّما استطعتِ. فصديقاتها القديمات هجرنها، بمن فيهنّ النسر المسمّى بّوبّي، الذي كانت على ثقة أنّه سيموت قبلها بكثير.

عندما تودّعنا قال لي محتفظاً بيدي:

ـ ما أغرب ألاّ نكونَ قد تعارفنا في القنصليّة. سنلتقي ذات يومٍ هناك. أنا سعيد من كلّ قلبي بمعرفتِكِ الآن. أرجو لكِ التوفيق.

تركتُ له بطاقةً، فقد يحتاجُ أن يدلَّ سائحاً أو مشترياً إلى محلّنا.

في تركيّا عيد الأم هو الأحد الثاني من أيّار. اليوم وِقْفَتُهُ. تحدّثتُ مع يمام عنه، فهو سيتناول طعامَ الغداء غداً مع أمّهِ وأولاده مع أمّهم. سأبقى وحيدة في الشقّة، فالبازار لا يفتح أيّام الآحاد. كنتُ أتذمّر ـ أعرفُ أنّها محض تغطية مظهريّة ـ فرأيتُ محموداً يخرجُ من الحانوت.

ـ إلى أين أنت ذاهب، يا صغير؟ ـ سألته.

من الغريب أنّه لم يُجبني ولم يلتفت إليّ برأسه. بقيت أتذمّر ليمام، كان هدفي أن يواسيني على الأقل. بعد برهة عادَ محمود يحمل معه باقة أزهار، وضعها مغمض العينين دون أن يتكلّم في حضني ورجع خطوةً إلى الخلف. لم أدرك باعثَ الهديّة. وبجهدٍ كبير قال:

ـ أُم...

تأثّرتُ كثيراً بتعبيره شديد العذوبة. قبّلتُ الأزهار ورحتُ أبكي.

اليومَ أدركتُ أكثر من أيِّ وقتٍ مضى أنّ باستطاعة المرأة أن تكونَ أمّاً بطرقٍ مختلفة.

ذات صباح منذُ شهرٍ كان يمامُ عصبيّاً، يمرِّرُ حبّاتِ سبحة الصبر بين أصابعه.

ـ كم عددُ حبّاتها؟

ـ هذه السبحة؟ ثلاث وثلاثون، لكنّ الأصليّة تسع وتسعون، بعدد أسماء الله التسعة والتسعين.

ـ هل تعرفها جميعاً؟

ـ لا حاجة لي لذلك، هو يعرفها... أستخدمُها فقط كي أتوازن.

جمعتُ يديَّ مع يديه ورحنا نمرّرُ الحبّاتِ معاً.

ـ كوني لطيفة مع زبونٍ سيأتي اليوم.

ـ ما جنسيته؟

ـ فرنسيّ، ولن تكون هناك حاجة كي أقدّمه إليكِ، فالفرنسيّون...

لم أهتم بالأمر، فكلّ يومٍ يمرّ بالحانوت زبائنٌ كثيرون وعددٌ أكبر من السياح.

ـ هذا خاصّ جدّاً ـ أصرّ.

دائماً كنتُ حذرةً من الفرنسيين. وكإسبانيّةٍ جيّدة أجدُهم متكبّرين وعتاة. أملُّهم، ثقلاء ظلّ ولغتهم تبدو لي غير محتملة،خاصّة إذا كانوا من النخبة الفرنسية.

ـ ماذا تريدني أن أقولَ لزبونك: الحقيقة؟ ماذا لو استيقظتُ ليلاً وبدل أن أهلوسَ قلتُ لنفسي: «خيرٌ لك أن تملكي برهة أكثر لكراهية الفرنسيين؟»

ـ أكرّر يجبُ أن تكوني لطيفةً معه، أنت تفهمين ما أقول. ـ أجابني بجدّيّة كبيرة.

وصلَ في المساء. كانَ فرنسيّاً أصيلاً: نصف أشقر، نصف أصلع، نصف بدين، مغروراً وواثقاً تماماً من جماله وسحره المزيّف، ينظرُ إليَّ غافراً لي الحياة، ويُكلّمُ يمامَ بالفرنسيّة والتركيّة. وحسبِ ما استخلصتُ توجدُ بينهما تجارة ما مشتركة، لم يكن السيّد دوبّون ـ لا أدري ما اسمه ـ راضياً عنها جدّاً. يشكو من النوعيّة والكميّة ويمام يحاول تهدئته، مسايرته، تخفيض نبرة النقاش، نصحَه بقليل من التسامح، لكن دون نجاح. تدخّلتُ مقدّمةً لهما شاياً جاء به محمود، بأفضل طريقةٍ أوروبّيّة. لكنّ الفرنسيّ كان قد رأى قطعة السكّر فوق الصحنين اللذين يغطّيان كأسي الشاي.

ـ بودّي أن أُقدّم للسيّدة شاياً جيّداً كما ينبغي ـ قال لي بازدراء.

نهضَ يمام ليريه بساطَ من الحرير الأزرق وصلنا حديثاً يشعرُ بفخرٍ خاصٍّ تجاهه. بدت لي ذريعة ليغيب، فمن الواضح أن دوبّون لا يهتمُّ بالسجّاد. استغلَّ دوبّون غيابَ يمام وداعب فخذي كما لو دون قصد. كان يمام يدير لنا ظهره. ناديتُه فالتفت، فلم يبدِّل الفرنسي موقفه، ولم يسحب يدَهُ. بقي معي في الحانوت نصفَ ساعةٍ زيادة، بينما يمام يعتني بالزبائن الآخرين. تركَ لي بطاقة عليها رقم غرفته في الفندق.

ـ هل تريدينَ أن نلتقي غداً؟ الخامسة ستكون موعِداً جيّداً. سنشربُ الشاي معاً، وبعد كل شيءٍ، نستطيعُ أن نتعشّى إذا رغبتِ.

كنتُ من الدهشة بحيثُ لم أستطع حتى الكلام.

ما إن ذهب، حتى رويتُ ساخِطةً ما حدث ليمام.

ـ اذهبي إلى هذا الموعد. سبقَ وقلتُ لك أن تكوني لطيفةً معه: إنَّه شخصٌ ذو نفوذٍ هائل.

ـ لكن هل تعرفُ جيّداً ما تطلُبُهُ منّي؟

ـ أعطهِ أهميّة زائدة. ماذا يُكلِّفكَ أن تُرضيه وترضيني؟

ابتعدَ ليستقبِلَ سيِّدةً مع ولديها وزوج يدخلُ من البابِ خلفها. لم أكن أفهمُ شيئاً؛ لم يستوعب رأسي شيئاً. كرَّرتُ ذاهلةً: «لا يرى يمام مانعاً من ذهابي لتناول الشاي أو أيِّ شيءٍ آخر في غرفة هذا الأحمق؛ بل يأمرني به». لم يكن باستطاعتي فهم هذا. جلستُ على المقعد الطويل الملاصق لجدار العمق، فتحتُ كتاب الكلمات المتقاطعة كي أخفي أنّني أنظرُ إلى مكان. حاولتُ التفكير بنفسي، بيمام، بلا معقولية الحالة. نهضتُ وعدت لأروي له ما فعل الفرنسي.

ـ فهمتُكِ تماماً، يا بِسي، وأنتِ فهمتني أيضاً.

كلّمني بأقصى حدٍّ من البرودة. خرجتُ من الحانوت بحثاً عن هاتف. هتفتُ لباولينا. لا أدري ما قلتهُ لها، لا أذكر. أظنُّني تركتُ لديها انطباعاً بأنّني مجنونة. نعم أعرفُ ما قلتُ: «عليَّ أن أقتلَ أحداً، لكنّني لا أعرفُ من هو...» كنتُ أريدُ الذهابَ إلى إسبانيا، لم يكن أمامي من مخرج. توسّلتُ إليها أن تتدبَّرَ القنصليّة مشكلة التذكرة. لن أعودَ أبداً

إلى الشقّة... نعم، كان جواز سفري معي وصالح للاستعمال... كنتُ أهتف من البازار الكبير.

ـ خذي سيّارةَ أجرة وتعالي إلى البيت. وإذا لم يكن معك نقودٌ فسأدفع لك أجرتها هنا.

في اليوم التالي كنت أطيرُ في طريقي إلى مدريد. أركبوني في الطائرة متخمة بحبوب الدواء، زيادة على ما جعلوني أتناوله ليلة الصاعقة، بعد حديثٍ مع باولينا، المنتصرة، المناصرة للمرأة والمعادية للأتراك. حملتُ معي حقيبة أعاروها لي وبعض البيزيتات وظلام فشلٍ يشقّ طريقه في رأسي.

تَعَقُّلي القليل اقتصر كلّه على هذا: «الحبُّ لا يفيدُ في شيء، لا يبدِّلُ شيئاً. إنّه سجن لا أمل فيه، مخرجه الوحيد هو الموت: موت الشخص نفسه أو موت الحبّ، لكن أيّهما أفضل؟»... كان الحبُّ في حياتي عقوبةً على جريمة لم أعرفها ولا أعرفُ متى ارتكبتُها... «الآن ـ فكّرتُ ـ نعم أعرف الجريمة التي ارتكبتها ـ كنتُ أسمعُ صوتاً: «أين ابنك؟» ـ لكن لماذا عاقبني مقدّماً بما سيصبح بالضبط سببَ تلك الجريمة؟».

انقضى أكثر من أربعٍ وعشرين ساعة لم أدركْ فيها شيئاً بوضوح. تخليتُ عن المحاولة. كانتِ الطائرةُ قد أقلعت أمام لا مبالاتي. «يا ليتنا نموت». من سيرحمُ العاشقة. لا أحد، على الرغم من أنّها لا تختار، لا تختارُ هي، ولهذا لا أحدَ يشفق عليها أو يُبرِّئُها. كنتُ مجروحة حتى الموت، مُهانَة، مذلّة، لكنّني لا أستطيعُ التخلي عن الحبّ. كنتُ أكرهُ يماماً، وأرغب بمحقه، لكن ليس في يدي التخلّي عن حبِّه. إلى متى كنتُ سأبقى على هذه الحال؟ أيّ شفاءٍ أستطيعُ انتظاره؟ هل كان الابتعاد أفضلَ دواء؟

جزءٌ آخر منّي ـ صغيرٌ، لكنّني كلّما فكّرتُ أكثر صار أكبر ـ يستقصي لماذا تلك الأدوية. ألا أعملُ لصالح حبّي الذاتي، لصالحِ كبرياءٍ يتناقضُ مع الحبّ، الذي لا فائدة للعنق فيه إلا ليُقبَّلَ أو يُدَاسَ أو يُقْطَعَ؟ هل تعبت؟ فالآلام كانت ومنذ اللحظةِ الأولى أفضل هديّة لي. لو جاء أحدٌ ليقولَ لي ـ كرّرت هذا مئة مرّة ـ: «عودي إلى الزمن الذي لم تكوني تعرفين فيه يماماً، وسوف تتخلّصين من عذابك لأجله»، أما كنتُ

سأصرفه؟ سيكون مثل الانتقال من نشاط متأجّج إلى حافة الدهشة.

وأكثر من ذلك، ألم أكن أؤكّدُ دائماً أنَّ الألمَ برهان عن الحبِّ أعمقُ ممّا هو عن اللذّة ويخلّفُ أثراً أعمق؟ أليس الحبُّ هو الذي يغفرُ ويبدأ كلَّ يوم؟ ألم أكن أتصرَّف مثل صغيرةٍ لم تخرج الأمور معها كما كانت تحلمُ؟ اللذات يشبهُ بعضها بعضاً، وإذا ما نظرت إلى الخلف فمن الصعب أن تحدِّدَ هذا من ذاك. بينما الألم على العكس، لا يمكن الخلط بينه وبين غيره. ماذا يشبهُ هذا الذي يُعذّبني اليوم؟ لا يشبهُ شيئاً: فالأمر لا يتعلّقُ بغيرة، أو عدم ثقة، أو نقيصة في حبّه كنتُ قد حدستها... «هذا ما لا يجبُ أن يدلي برأيه فيه من لم يشعر به... فأنا لستُ مازوخيّة، لا: أفكّرُ.» اللذّةُ تتمثّلُ ذاتها، وينتهي بها الأمر إلى أن يخُلط بينها وبين غيرها، وهي ليست مطلقة أبداً. الألمُ ـ أنا خيرُ برهان على ذلك ـ لا يشبهُ شيئاً، لا يشبه ذاته قبل ثانية، كما لا يشبهُ ألماً آخر، إنّه لا يتكرّرُ أبداً ويمكنه الامتداد دون حدود، انتشاراً وعمقاً.

«ما يحدثُ لي هو نتيجة نظامٍ أجهلُ قواعدَهُ إلى حدٍّ أنّني أعدُّه فوضى.» كنتُ أغفو... شخصٌ مجلٌّ للطبيعة يتمدَّدُ تحت الشمس أو في ظلِّ شجرةٍ، يسحقُ نملاً أو حشراتٍ دقيقة في الصغر: كائنات كانت تنبضُ أو تهيمُ متمّمةً مهمَّتِها. يرفعُ يدَه، فتتهشّمُ المتاهةُ التي تسكنها العنكبوت. يُداسُ وكرُ النملِ محكم الإغلاق والمظلم ويخرَّبُ. يُكسر غصنٌ فيصفر وتضطربُ تموُّجاتُ الهواء. إنَّ كسرَ حلقةٍ في السلسلة اللانهائيّة تعني القضاء على سرِّ التوازن. فها هي حولنا، ونحنُ نشكّلُ جزءاً منها؛ عاطفةٌ هدّامةٌ لكلِّ شيءٍ بكلِ شيء، وهو ما تتمتّعُ به الطبيعةُ أيضاً إلى جانبِ عاطفتها المنتجة. في هذا الكون، الذي لا ندركه ما دمنا أحياء، كلُّ شيء يدمِّرُ كلّ شيءٍ بشكلٍ متبادل. «هذا ما يحدثُ لي.» أتراني نمتُ؟ كنتُ أحلمُ بشفتي يمام الغليظتين، بعضوهِ، بوركيه الضيّقين... وهل هذا ما دمّرني؟ لماذا اعتبرتُ نفسي منذُ البدايةِ مهزومةً تماماً؟ ألم تكن حميميّتي معه أكبر من كلِّ حميميّةٍ أخرى، بما فيها حميميّتي مع نفسي؟ ألم أكن له أكثر ممّا لنفسي؟ أليست رغبتي بألاّ أكون إلاّ لهُ، هي التي جاءت بي إلى حيثُ أنا؟ كيفَ أقولُ أنا له حتّى هنا وحتّى هنا لستُ له؟ ما هذه الشروط؟ إنَّ عدمَ الخروج بمتعة من هذه الكارثة الظاهريّة ذنبي أنا. ألم أقل له: «أحببني ومرني» ما أسرع

ما وضعتُ العراقيل أمام سلطته. ببساطة أردتُ أن تكونَ إرادتي فوق إرادته. لا شكّ أنّها ليست مشكلة الحبّ.

حين هبطتُ من الطائرة كنتُ أُفكّر بشكلٍ مناقضٍ لِمَا فكّرتُ به حين صعدتُ إليها. وتبيّنَ لي من جديد كم هو مضرّ السماح لأيّ كان بالتدخلّ في تقلّبات الحبّ، في حيرة أو غضب القلب. إنّه أشبهُ ما يكون بطلب النجدة من النافذة قبل التأكّد من اشتعال البيت. فرجال الإطفاء يسبّبون من الضرر ما يوازي على الأقل النيران.

ومع ذلك عدتُ لأصرَّ في سيّارة الأجرة المتجهة إلى مدريد على أنَّ القطيعة مع يمام، مهما كانت موجعة، ضروريّة. كان على حقٍّ كلّ من رأى أنّني أنزلقُ أكثر وأكثر في منزلق لا نهاية له. لم يكن حسنٌ تبديل البناء المعتاد للمشاعر، الاستسلام، التنازل. لأنّ الإنسان عندما يتنازل عن نفسه يكون دائماً على قناعة بأنّه سيُحسَنُ استقباله ومعاملته، وإلا فلن يخطر لأحدٍ أن يضع نفسه بين يدي آخر. «إذن ما الفائدةُ من أيّ استسلام؟ هذا يشبه إلى حدٍّ كبيرٍ زواج المصلحة المتبادلة. وأنتِ تخلّصت من زواجٍ كهذا».

حملني سائقُ سيّارة الأجرة إلى فندقٍ مُحتشم. كان يوم جمعة، وما إن ارتحتُ حتى خرجتُ إلى الشارع. قبل ذلك كانت مدريدُ دائماً بالنسبة إليّ صاخبة وخانقة، وأجدُها الآن هادئة أكثر من اللازم ومتحضّرة جدّاً، دون شكّ بالمقارنة مع استنبول.

لم أرغب بالبقاء وحيدةً، لأنّني كنتُ أتناقض دائماً مع نفسي. هتفتُ لخوليا وفِرمين، اتفقتُ على تناول الغداء معهما في اليوم التالي: سأحكي لهما عمّا أفعلُ في مدريد. هتفتُ لبابلو أكوستا، صوتُ أنثويٌّ - تراهُ تزوّج؟ - أخبرني أنّه لم يكن في إسبانيا. دخلتُ صالةَ سينما كي أسمع الترجمة الإسبانيّة. عند خروجي كانت السيّاراتُ تمضي ذهاباً وإياباً في لا غران بيّا و لاكاستِليانا كما لو أنّها السابعة مساءً. كانت الحرارةُ لطيفةً، وهواء ناعمٌ يتخلّلُ كلّ شيء. عند العبور من جانب من الشارع العريض إلى آخر اقتربَ منّي رجلٌ لم يبلغ الثلاثين عاماً.

ـ مرحباً. هل أنتِ ذاهبة إلى مكانٍ مُحدَّدٍ أم تتمشّين.

ـ الأمران معاً.

ـ إذن إذا أردتِ فقد وصلتِ.

استظرفتُ تناقضه. كان شعره أجعدَ، غير قصير، يرتدي ملابس سوقيّة بشكلٍ مزيّف ويبدو أنّه تركَ السيّارة منذ قليل أو هو في طريقه إليها، لأنّه كان يلعبُ بالمفاتيح.

ـ هل تريدين أن تتناولي كأساً معي؟

ـ إذا كان مجرّد كأس، نعم.

رأيتُ أنّه ارتاح وكانَ مباشَراً جدّاً.

ـ لا أدري لماذا ينتابني إحساسٌ بأنَّكِ لستِ من هنا... لكنّ نبرتك ليست أمريكيّة جنوبيّة.

أخذني إلى بار له شرفة شعرتُ بنفسي فيها محاطة بلغتي. أثارني استيعابُ ما يقوله الناسُ بعضُهم لبعض دون وسيط، إجاباتُهم، تحدّياتُهم، مغازلاتهم، وكذلك بقاء بعض الكلمات مغلقة على فهمي. كانوا شباباً يرقصُ بعضهم مثني، وبعضهم الآخر لا يكادُ يتحرك على إيقاع الموسيقى، كلُّ واحدٍ يفعلُ ما يحلو له.

ـ اسمي إيفان.

كان أنفهُ قصيراً، وابتسامته من الحلاوة بحيثُ بدت مصطنعة، بدأ يفقدُ بعضاً من شعره، وكان أطول منّي قليلاً؛ وضع يدَهُ على كتفي بنوع من التنفيس غير العدواني.

ـ وصلتُ توّاً من استنبول.

ـ هل أنتِ مُضيفة؟

ـ هل وحدهنّ المضيفاتُ يعدنّ من استنبول؟

ـ في مثل هذا الوقت من العام، يكادُ يكون نعم. وماذا كنتِ تفعلين هناك؟

ـ أنا متزوّجة من تركي.

ـ غير معقول. قولي الحقيقة. كيف يمكن أن تكوني متزوّجة من

تركي؟ ـ رحتُ أضحكُ ـ ضحكتُك تسرُ الخاطر. حين حمتُ حولك بدا لي أنّكِ امرأة تعيسة، لكن الآن لا.

ذهبنا سيراً على الأقدام إلى شقّته. كنتُ بحاجةٍ لأن أعرف كيف يمارسُ الحبَّ معي رجلٌ ليس يمام. لكنّني انتهيتُ إلى معرفته جيّداً، لأنّني لم أنقطع لحظةً عن التفكير. عرفتُ كيف يُقبّلني، كيف يصعدُ بيديه من خصري إلى ثدييّ، كيف يقلبني فوق الديوان، وبأيِّ تلكُّؤٍ يفكُّ أبازيمي. أنا أيضاً فككتُ له زنّاره، نزعتُ عنه قميصَهُ، أنزلتُ سحّابَ بنطلونه. لمسته. نظرتُ إلى عينيه المغمضتين وفمه المتلهِّف. استسلمتُ له كما أرى أنَّ عليَّ فعله. وصلتُ، باتقادِ ذهنٍ أكثر من أيِّ وقتٍ مضى، إلى نتيجةٍ مفادها أنَّ هناكَ أناساً المتعةُ ذاتها عندهم جهدٌ. وعرفتُ نساءً بهذا الشكل، لكنّني ربّما لم أملك الدليل حتى تلك اللحظة: لا يستسلمون، لا يستمتعون، يريدون أن يستجيبوا ويرتاحوا في حديثٍ، رقصٍ، سريرٍ، فالأمرُ عندهم سيّان. يريدون أن يكونوا حاضرين، يلفتون الانتباه، ألا يمرّوا دون أن يُحسّ بهم، وهذا ما يتعبهم إلى حدٍّ يمنعهم من التمتّع، سواء قبضوا ثمنه أم لم يقبضوا.

لا يمكنُ للروحِ الشعور بالكبرياء أو بالعار أو الفضول، لأنَّ المتعةَ، وبينما يحاولُ المرءُ أن يرضي أيّاً من هذه المشاعر، تنقضي وتتبخّرُ، ولا يبقى غير الحنين إلى ما أمكن أن تكونه. يجب أن تشعر المرأةُ بالثقة بنفسها ـ فقيرة كانت أم غنيّة، لكنّها واثقة ـ ثم تستسلم لهذه الثقة.

شكرني إيفان وفي يده سيجارة مشتعلة ومدحني على طريقتي في ممارسة الحبّ.

ـ أقنعتني بأنَّ موضوعَ التركيِّ صحيح ـ أضافَ ضاحكاً.

حملني في سيّارته إلى فندقي وتواعدنا على أن نتهاتف. كنتُ أعرف أنّنا لن نلتقي بعدها أبداً: لم يبقَ عندي منه شيءٌ، لا أثر لمسة، لا مداعبة، لا شيء. لماذا رفضتُ إذن ـ إذا لم يكن شبكُ غيرةٍ نشره لي يمام ـ أن أنامَ مع ذلك الفرنسيّ الفظيع؟ ألم أنم توّاً مع هذا المدريديّ الشاب والجميل؟ ماذا كان سيحدثُ؟ أيّ زلزالٍ، أيّة كارثة؟ الآن وأنا مستلقية على السرير، وعلى وشك أن أنام، أفكّرُ: ما أجرأ من يطلبُ براهين على الحبّ: فهي بالنسبة إلى من يتلقّاها كاملةً تعني تأكيداً

نسبيّاً، لأنّ المطلق في الحبّ غير موجود، لكنّها بالنسبة إلى من يمنحها ليست أكثر من خطرٍ واستعصاء... شعرتُ وأنا أدخلُ في الحلم أنني مليئةٌ بذكورة يمام. فقلت لنفسي مازحة إنّ من الغباوة وغير المجدي أن أقاوم.

ما إن وصلتُ إلى بيتِ خوليا حتى شعرتُ بأنّني أخطأتُ. خرجَ الأطفالُ لتحيّتي، مُهذّبين، أنيقين. تلك كانت أسرة بلغت حدّها، محسودة في عيون الجميع، وميتة في عينيّ. ربّما اقترحت خوليا على فِرْمين أن يتأخّر كي تتكلّم معي على انفرادٍ. أشارت أوّلاً إلى مفاهيمنا الدينيّة، (هذا ما قالته) الحالة المستعجلة لعودتي، بعد الخطوةِ الأولى، إلى الطريق القويم... كلُّ شيءٍ يُصلَّح إذا ما كنتُ مُستعدّة للعودة إلى الحظيرة. كنتُ أفكّرُ: «دينُ الحبِّ ديني. لا أؤمن بأيِّ إله سوى إله الحبِّ. الإله الحقيقيُّ هو الذي جمعني بيمام. أنا لم أبحث عنه، ما من قوّةٍ بشريّة أو إلهيّة ستفصلني عنه.»

«ماذا أفعلُ هنا؟» تساءلتُ فيما بعد وأنا أستمع إلى سلسلةٍ من الأفكار السوقيّة والثقالات. كم ابتعدتُ في وقتٍ قصير عن هذه المرأة التي بقيت كما عهدتُها؟ النظام؛ كانت تكلّمني عن النظام، عن أنّ كلّ واحدٍ يملك إغراءات لرمي كلّ شيءٍ من الحافّة، لكنّه يقاوم.

ـ الزواجُ شيءٌ جدّيٌّ، لا يمكن فصله أو حلّه، ليس لأنّه مفروغٌ منه بل أكثر من ذلك: لأنّه يصبحُ كذلك بفضل الفهم المُتبَادَل والحياة المشتركة.

ـ لذلك وجدتُ نفسي متزوِّجةً من راميرو وأجدُ نفسي متزوِّجةً فعلاً من يمام.

ـ لكن هل أنتِ متزوِّجة من التركيّ أم لا؟ وبأيّة شعائر؟ الكنيسة لا تعترف بالزيجات متعدِّدة الأديان، إلا في حالاتٍ محدَّدة. وعلى أيِّ دين ستربّين أولادكِ؟ إنّها مسائل يجب أن تؤخذَ بالحُسبان.

أسئلة أكثر من اللازم. قرّرتُ ألاّ أُجيبَ على أيٍّ منها، وابتسمتُ ناظرةً إلى عينيها. لم تكن الابتسامةُ مقنعةً لأنّ خوليا ختمت:

ـ على كلِّ الأحوال لا أجدُكِ راضيةً جدّاً.

ـ سأذهبُ إلى وشقة ـ قلتُ فجأةً وأنا أُفكِّر بوالدي، ونشيطٍ وصديقتيّ.

ـ لا تفعلي ذلك. فراميرو طلبَ نقله، وهو في طليطلة. تبعه أخوكِ، كلّ واحدٍ اتخذ قراره: من السهل تفهّم الأمر، إذا أردتِ أن تعودي وقَبِلَ بكِ راميرو، نستطيع أنا وفِرمين أن نتدخّل، على الرغم من أنّني أجدُ الأمر معقّداً. طبعاً في مدينةٍ لا أحد يعرفُ فيها عن الأمر شيئاً...

كنتُ أُفكِّرُ: «لكن لماذا يشعرُ الناسُ في وشقة بأنّني أهنتُهم؟ إذا كانوا يُحبّونني فهم سيحبّون خيري. إنّ حبّاً كحبّي هبة من الحياة؛ وعلى الجميع، رغماً عنهم، أن يهنّئوني. لكنّ هذه الغراميّات مضجرة، ملعونة و محسودة أيضاً، حتى لو لم يُفصَح عنها (لأنّ الحسدَ يفشي عجزاً)».

العالم لم يصنعه السعداءُ كما لم يُصنَع لهم. يطالبُ بدفع ضريبة بائسة كهذه التي يطالبُني بها عن السعادة، أو أيّاً كان اسمُ هذا الكمالِ والتحرّرِ من نظامه الصارم. طفرت دموعي بشكلٍ غير منتَظَر، لا أدري لماذا كنتُ أستحضر الفردوس المفقود، أو لماذا كان يؤلمني اللافهم أو انعدام كرم الآخر أو فرط التمسّكِ بالتقاليد. على كلّ الأحوال فإنّ تأثُري لن يفسّرَ تفسيراً حسناً. فتحتُ يديّ.

ـ أنا هنا. ماذا أستطيعُ أن أقولَ أكثر؟

ـ إذا لم يقبل بكِ راميرو، لن يبقى أمامكِ إلاّ أن تضيعي في مدريد، ابحثي لنفسكِ هنا عن حياة كريمة. ابدئي مرّة أخرى، وسنساعِدُكِ أنا وفِرمين.

أي أنّني إذا تعبتُ، وضحّيتُ وتنازلتُ عن حالة الكمال عندي فإنّهم سيعوّضونني بعملٍ لن يكون الحصولُ عليه سهلاً. منه ستنبع جدارتي بالنسبة إلى ضمائرهم وبفضله سأحصل على رقم بين صفوفهم المخصيّة. كيف سأقولُ لهم إنّني لن أكون أنا أبداً دون يمام؟

حين دخلَ فِرمين افتتح الموضوع بالسؤال الذي كنتُ أنتظره.

ـ لكن ماذا في هذا التركيّ؟

رحتُ أضحكُ.

ـ عيناهُ هكذا ـ قلتُ وأنا أُصينُ عينيّ بإصبعين.

ـ وما علاقةُ هذا؟

ـ لا شيء وكلُّ شيء. ماذا كان عندك حين عرفتك خوليا؟ وماذا كان عند خوليا عندما عرفتها؟ كائن ما كان، فقد ضاع منكما بقوّة المشاهدة... الحبُ لا يتطلّبُ أيَّ شيءٍ استثنائيّ: يُطلُّ، يرتاح وينتهي الأمر.

ـ المسألة أنك تعتقدين أنَّ الحبَّ هو الشيءُ الوحيدُ في الحياة؛ والحياةُ مليئة بالأشياء: الأولاد، العمل، الجماعة، الاعتبار، السمعة الحسنة وأشياء أخرى كثيرة. الحبُ وحده بداية الأسرة، شعور أقرب إلى المراهقة. يُفيدُ في شيءٍ ما دامَ يتعلّم الخروجَ من ذاته ويبدعُ ويعيد الإبداع، لكنّه في الحالة الأخرى عدوٌّ للمجتمع والشخص.

ـ صحيح ـ قلتُ له.

لم تكن لديَّ رغبةٌ بالنقاش، ثمَّ إنّه لم يكن ليفيدَ في شيءٍ. المسألة أنّنا كنّا نتكلّمُ لغاتٍ مختلفة، نؤمن بآلهة مختلفة ونتطلّعُ إلى غاياتٍ مُختلفة. علماً بأنّني كنت مقتنعة بأنّهما على حقٍّ. فقد كنتُ أجهل ما عندَ التركي، وحتى لو عرفته وقلته لهما ما كان ليفيدهما في شيء، ما كانا ليفهمانه.

رحلتي إلى مدريد أفادتني وبرهنت لي ـ أو برهنوا لي ـ على أنَّ مكاني كان في استنبول أو حيثُ يكون يمام.

قرعتُ جرسَ الشقّة، لم يفتح لي أحد. وبما أنّه كان يومَ أحدٍ عرفتُ أنَّ يمامَ خرج مع ولديه. جلستُ في بسطة السلّم فنمتُ. أيقظَني صوتُهُ.

ـ ماذا تفعلين هنا؟

فتحَ البابَ وأدخلني بدفعةٍ واحدة إلى الداخل.

ـ أين كنتِ؟

ـ في مدريد.

صفعني بقفا كفِّه صفعة كانت من الهول بحيث كادت تفقدني الوعي. كان يملكُ كلَّ الحقِّ. وهكذا وضعَ له ولي بأنَّني عدتُ مُذعنةً. كانت رحلتي الرابعة إلى استنبول امتثالاً لمالكي. بدوتُ مثل عبدةٍ هربت من المزرعة واصطادتها البنادقُ والكلابُ. كنتُ رهنَ ما يقرِّرُه المالِكُ.

ـ عليّ الآن أن أطردَكِ من هذا البيت، أن أتركك في عرض الشارع. ماذا تنتظرين منّي أن أفعل؟

كنتُ أقولُ لنفسي: «إذا لم يكن هناك خطر من فقدانه كالخطر الذي ارتكبته، فماذا يمكن أن يكونَ الحبُّ؟ ما قيمة الحياة دون الموت؟ الإنسانُ بعامّة والعاشقُ بخاصّة هو دائماً على حافّة هاوية. معرفةُ ذلك هي التي تبقيه متنبِّهاً ويقظاً، وهي التي لا تدعه ينام. كيف ينشغلُ المرءُ في ابتداعِ صيغٍ ووصفاتٍ لإبطالِ البغضاء التي تقتلُ الحبَّ؟ أيّة بغضاء هذه؟ ما البغضاءُ الممكنة عندما تكون الواحدة محرومة وتملكُ في الوقت ذاته كلَّ كنوزِ العالم؟»

ـ قولي: ماذا تنتظرين منّي أن أفعل؟ ـ كرّرَ يمام.

ـ أن تعفو.

وارتميتُ بين ذراعيه، فرفضني.

ـ ضعي ماءً بارداً على وجهكِ ـ قال لي.

كانت قد انتفخَت وجنتي التي راح الآن يداعبها بالعقد ذاتها التي ضربني بها.

حين يُستعادُ ما ظُنَّ في لحظةٍ أنَّه ضاع يبتدئُ الخلقُ كاملاً. لا يوجدُ ما يبهر مثل أن تسترخي في جسدٍ، تستسلمي للزوايا المعروفة، أن تمسكي بيديك ما حلمتِ به ـ في كابوسٍ ـ ولن يكون لك بعد الآن، أن تجوبي بلسانِكِ أرضاً مازالت مُلكيَّتُها تعودُ إليك، أن تضغطي بركبتيكِ على ضلوعٍ راغِبَةٍ بقدر ما هي مرغوبة، أن تفقدي من جديد هويّتكِ وتنتحبي، تَنتحبي وتنتحبي لأنّكِ عدتِ إلى البيت ودخلتِهِ ودخل المالكُ فيك وكلّ شيءٍ كما في السابق، كما يجب ألاّ ينقطع عن أن يكون أبداً.

جاءت باولينا بعدَ يومين. لن أعرفَ ـ لم أبغِ سؤالها ـ لماذا

وكيف علمت بعودتي، ربّما قال يمامُ لها ذلك بنفسه. تمعّنت في الكدمة بابتسامة مرتاحة وسرور. جاءت تدعوني إلى لعبةِ ورقٍ في اليوم التالي في بيتها.

ـ لماذا ليس لديكم هاتف.كنتُ على وشكِ أن أُرسل مستخدماً، لكنّني لم أتجرّأ.

ـ حسناً فعلتِ. أنت تعرفين أنَّ هذا البيت ليس لي.

ـ إذن هل ستأتين؟

ـ أنا ألعب البريدج بشكلٍ سيئٍ. ثمَّ إن التسليات الاجتماعيّة لم تُخلق للنساء السعيدات.

ـ السعيدات؟ ـ سألت بسخريةٍ ـ ما هذه؟ ـ أشارت إلى خدّي.

ـ هذه هي بالضبط علامة السعادة.

ـ أظنُّ أنّ من السطحيّة الكلام معك أكثر. ولا أظنُّك ستعتمديي على قنصليّة إسبانية ولا عليّ حين يخطرُ لك أن تستخدمي تقنيّة كرٍّ وفرٍّ مع حبيبك.

ـ تستطيعين أنِ تكوني مطمئنّة.

على كلِّ الأحوال تجاهلوا الأمر في القنصليّة، لا أدري ما إذا كان لأنّني بنتُ بلد بائسة أو ليحوموا حول قضيّةٍ هي في كلِّ مرّةٍ أكثرُ سواداً. بقيتُ أتلقى الدعوات، بل وهذه الملاحظة الإشفاقيّة أو تلك من زوجة القنصل.

كثيرٌ من نساء هذه الدائرة شعرن بالاهتمام بي بعد عودتي ـ وربّما بيمام ـ وصرن يدعوننا إلى حفلات كوكتيل أو عشاء. كان يشجّعني من حينٍ لآخر على الذهاب. وإذا ما فعلنا ذلك حدثت ظاهرة فريدة؛ أمام الناس (ليس أبداً قبل الوصول إلى المكان المقصود ولا قبل الخروج من البيت)، بدأ يمام يأخذُ عليّ أنّني أرتدي هذا البنطلون غير المناسب كثيراً أو هذا المعطف الخفيف أو فاتح اللونِ جدّاً؛ هو الذي لم يهتم بثيابي أو مظهري قط إلاّ في بعض حالات الغيرة المسَاءِ فهمها، يزجرني حين يكون هناك أحدٌ، لأنّني لم أتزيّن أو تزيّنتُ بإفراط. وإذا ما جاء أحدٌ ليأخذنا، وهو ما لم يكن كثير الحدوث،

يجبرني على تبديل ملابسي بعدأن نكون قد صرنا على عتبة الباب. اعتدتُ أن أسأله، حالةً بحالة، ماذا يجبُ أن أرتدي حسب ذوقه. لذلك، كما كنتُ أحدس، لم أخرج بنتيجة: فما كان يرغب به هو البروز والبرهان على سطوته عليَّ بحضور آخرين وبعض المشاهدين، ومعاملتي كتركيّة دون أن أكون كذلك. تحمّلتُ بسرور هذا الشكل الجديد من الامتلاك لأنّه كان يبرهنُ، كما لم يبرهن من قبل، على أنّني ملك يديه.

تواعدنا أنا ويمامٍ ذات مساء في فندق، بعد إغلاق البازار لتناول كأسٍ ما. وصلتُ متأخّرةً قليلاً. كان برفقة زوجِ باولينا، الذي كان يمسحُ عرقه الناتج عن سمنته والبيرة. لاحظتُ أنّه مشتاطٌ غيظاً.

- ما هذه الساعة في الوصول؟

- كنتُ في بعضِ حمّامات قلعة ساراي - كنتُ أحكي هذا لفديريكو - ولي سنواتٌ في استنبول لم أذهب إليها قط. جئتُ في غاية الراحة. يالها من معجزة.

أدارني يمام باتجاهه وصفعني صفعتين غير قويّتين. هززتُ كتفيَّ وقلتُ له:

- حسن، هيّا بنا. ها قد برهنتَ هنا عن جلالتك، فأين تريد أن تبرهن عليها الآن أيضاً؟

سلوكه هذا معي يتناقضُ تماماً ومزاجه اللطيف مع الآخرين. فهو مع الناس مفرط في المعاشرة والظرافة: أستنتج: «ربّما ليس باستطاعةِ رجل منفتح بهذا الشكل، سهل المزاج ومعتاد على الضحك، أن يحبّ بالوله الذي أُحبُ به. اعتادوا أن يأخذوا عليَّ جفافي ومزاجي السيِّئ. على الرغم من أنّني لستُ كذلك: ما يحدثُ هو أنّني في أموري، أغرقُ في موضوعي، كما يغرقُ كلّ مجنونٍ في موضوعه. أقصى رغبة لديَّ هي البقاء بمفردي مع يمام.» زوجة القنصل، التي أخبرها ولا شكّ بعضُ الشهود المتتالين، بالطريقة التي يُعاملني بها يمام، قالت لي في إحدى المناسبات وكأنّها تشير إلى شخص آخر أو تستنبطُ استنتاجاً عامّاً:

- ليس من الحكمة أن يُصدر المرء حكماً. هناك نساء يُحببن أن يُحتَقَرنَ. لا يحببن عشّاقهنّ إلا عندما يكونون قساةً معهنّ.

لم أعذّب نفسي بالإجابة، ولو فعلتُ لقلتُ لها:

ـ لا؛ لا يُحببنهم فقط عندما يكونون قساةً أو على الأقلّ أنا. أنا أحبُّ يمام مهما كانت الطريقة. أيضاً أحبُّه عندما يبتسمُ لي ويشدُّني إليه. عندئذٍ أستطيعُ ببساطة أن أموت. الحياةُ يجب تَقَبُّلها كما تأتي، وليس فقط في اللهو بل يجب مواجهة الزمن السيّئ بوجهٍ رضيٍّ؛ لا بوجهٍ مزيّف. فالزيف في هذا لا يجدي أبداً.

كنتُ أكتبُ هذه الصفحة، فجأةً وإذ بي أشمُّ رائحة يمام، ليس رائحة البيت المعتادة، التي هي أيضاً شيء معتادٌ منه، بل رائحة جسدهِ. رفعتُ رأسي عن الدفتر، كان هناك يحاول أن يقرأ من فوق كتفي. التفتُّ وقفزتُ إلى ذراعيه. تساءلتُ: كيف بالإمكان أن أبقى محبوسة في قنينة وأنا أكتب ولم أسمع البابَ أو خطواته؟ بعدها رحتُ أضحك. وأكثر ما أدهشني هو ميّزة حاسّة الشمِّ عندي وليس عطب الصمم في حدس مجيء يمام. رائحته في أنفي وفي جلدي. أستطيعُ وأنا مغمضة العينين أن أعرفَ بوجوده في غرفةٍ بين رجالٍ كثيرين آخرين. ما الشيءُ الخاصُ في رائحته؟ لا أعرف. إنَّها خاصّته ويكفيني هذا.

البارحة صباحاً كنتُ في شوارع البازار المُتشابكة. أُميِّز بينها على الرغم من أنّني ما زلتُ أتوه. أضطرُ أحياناً أن أبدأ خطَّ مسيري من جديد. كنتُ أحملُ البطاقات في يدي وأعطي واحدة أو اثنتين لكلِّ مجموعةٍ من السيّاح الذين أراهم يتجوّلون من هذا الجانب إلى ذاك، يسألون، يشترون، يُنبِّهُ بعضُهم بعضاً لهذه المادّة أو تلك. كانوا يقبلون البطاقةَ، وحين يلاحظون أنّني لم أكن تركيّةً يُذهلون ويبتسمون لي ناظرين إلى العنوان، الذي يصعب العثور عليه في متاهة البازار في ساعاتٍ مُحَدَّدةٍ، على الرغم من مخطَّط قفا صفحة البطاقة.

فجأة بدا لي أنّني أرى، أمام بعضِ البسط المعلّقة على جانبِ من البابِ، ذلك الكاتب الإسبانيّ الذي أجلّه والتقيتُ به في متحفِ القاهرة. اقتربتُ منه: كان هو فعلاً يرافقُه سكرتيره وفتاة بعمري تقريباً. حيّيتُه:

ـ لن تتذكّرني. التقينا بجانب قبرِ رمسيس الثاني.

ـ بلى، بلى، طبعاً أتذكّرُك. ـ ابتسمَ ـ نحبُّ الأشياء ذاتها.

ربّما لم يكن صحيحاً وحاول أن يكونَ مُهذّباً.

فجأةً إذا بيمام يظهر على نحوٍ لا يمكن تفسيره. جاء مقطّب الحاجبين فقدّمتُه للكاتب كزوجٍ لي كي أتفادى شروراً كبيرة. ماذا كان بإمكاني أن أفعل؟ يسرُّني أن أقولَ هذه الكلمة، أعرفُ أنّها بلاهة. لكن هذا ما كان. قال زوجي دون مبرِّر:

ـ عشتُ في مدريد في ساحة ألونسو مارتينث.

ـ شيءٌ جيّد ـ علّق الكاتب دون أدنى اهتمام.

أضفتُ بأن لديَّ في حانوتنا على بعد خطوتين قصاصات من بعض الصحف أجروا فيها مقابلاتٍ معه وهو رائع في الصور.

ـ أشكُّ بذلك، لأنّني أخرج فيها مريعاً.

ـ تعالَ معنا. أريدُ أن أقولَ تعالوا ـ أشرتُ إلى مرافقيه ـ نتناول كأساً من الشاي، وإذا ما رغبتم رأيتم أفضلَ بسط في البازار. معظمها قديم. إذا كنتَ هاوياً فستسرُّكَ.

التفتَ إلى الفتاة وكأنّه يأخذُ رأيَها، فقالت «هيّا» وتوجّهنا خمستنا إلى الحانوت.

أوصى يمام محموداً على بعض الشاي. جلسنا وأريتُه صورَهُ، تملّقتُه لكنّني أيضاً أزعجتُه: أعرف فضائل التنكّر.

لم أجرؤ على سؤاله عمّا يفعلُ في استنبول، وما إذا كانَ يعرفها أم هي الزيارة الأولى. كان يُقيمُ في بِرا بالاس، فهو يفضّله على الفنادق الجديدة التي ليس لها شخصيّة، مع أنّه أقل راحة؛ ويحبُّ كثيراً الدخول في الأعراس متجاوزاً حواجزَ زينات الأزهار الكبيرة. كنتُ أنظرُ إليه فاغرةَ الفم. أوشكتُ أن أُكلّمَه عن هذه الدفاتر، لكنّني أحجمتُ. لم أكن قد قرأتُ بعد روايتَه الأخيرة، التي اشتريتُها في مطار مدريد.

ـ حقّاً؟ ـ سألني مقتنعاً بصراحتي أكثر ممّا بإعجابي.

شعرتُ بنفسي مالكةً للحانوت، عدتُ لأتمتّع بطعم الزبون الخاص،

كما في وشقة حين كنتُ أبعدُ لورِنْثو وأمتدح السجّادة بنفسي. قرّرتُ دون استشارة يمام:

ـ هيّا بنا إلى الأعلى. سنكون أكثرَ هدوءاً وسأريكَ البسط التي لا نريها في العادة لأحد. هل تفضّلُ لوناً أو رسوماً معيّنة؟ هل تبحثُ عن شيءٍ لمكان محدَّد؟

ـ أنا هاوٍ كبير. بيتي مليْء بها. أعتقدُ أن البيتَ لا يكون جاهزاً تماماً ما لم يحضر السجّادُ واللوحات... هذه الصديقة ـ كان قد قدَّمها إلينا: صحفيّة صادفَها في القنصليّة وعادا فالتقيا سعيدين؛ وكانا يزوران المدينةَ معاً ـ هي التي تبحثُ عنها لبيتها الجديد. أنا أغبطها لأنّه ما زال لديها أرض فارغة، هذه ميّزة كبيرة.

لا أدري لماذا انتابني إحساسٌ بأنَّ الصحفيَّة لن تشتري شيئاً. كانت امرأة متردِّدة، مذعورة من الأسعار ومقتنعة من أنَّهم سيغشّونها. كانت تحملُ وصفةً بلائحةٍ كبيرة بمعادِلات العملة، ترجعُ إليها باستمرار.

ـ اسمح لي ـ قلتُ للكاتب ـ. أُريدُ أن أُريك جوهرة المحل.

كنتُ أتساءل لماذا اتخذتُ وضعيّةَ البائعة المجّانيّة. تراه كان من أجل الكاتب الذي أحاول أن أُبقيه ورجوته أن يسمح بأن تُؤخَذَ له صورة في حانوتنا، أم من أجل أن أبرهن ليمام عن قدرتي التجاريّة وعن أصدقائي الباهرين في إسبانيا؟ لا أدري. المسألة أنَّ يمام كان يراقبُني من مستوى ثان متعلِّق بالرضا الضمني الذي يبرهن به المعلِّم شبه المتخفِّي أمام الغرباء عن قدراتِ تلميذه.

ـ يا يمام ـ قلتُ له ملتفتة إليه ـ هل تستطيع أن تطلبَ منهم أن يصعدوا إلينا بالبساط الأخضر النيلي، الذي كان لأريان، كونتيسة تراثيا.

أمر يمامُ بالصعود به. فانتفختُ وكبرتُ وأنا أعرضه أمام الكاتب.

ـ إنَّها قطعةٌ جميلة. تجمع إلى جانب الرسوم الهندسيّة حاشية من الزهر غير متعارضة بفضل توزيعها وتصميمها، على طريقة الفن

الجديد. إنّها عملٌ أصيل أيضاً بفضل لون الأرضيّة، ونوعيّة الخيط الرائعة.

كان الكاتبُ يتأمّلُ البساط ويصغي إليّ بانتباه، بينما الصحفيّةُ والسكرتير ينظران إلى بسط أخرى، ينشرها الصبيةُ ويعلّقُ عليها يمام، المذعن للاهتمام بالكومبارس. نادى الكاتبُ سكرتيرَهُ.

ـ يا كوشم، هل تتذكّر قياس غرفة نوم الضيوف؟ فدرجاتُ ألوانها يناسبها هذا البِساطُ جيّداً.

ـ لستُ متأكّداً، لأنّه يجب أن نطرح حجم الكومودينتين من مجموع المساحة العامّة،وهو ما نعرفه لأنّهما عمل مصنع.

تردّدَ الكاتبُ حول المسافة بين المدخل وقدم السريرين، بدا له البساط أكبر منها.

ـ عرضه جيّد، لكنّه أطولُ من المسافة الفارغة.

ـ الأمرُ سيّان لأنّه يمكن تمريره تحت السريرين ـ لفتُّ انتباهه ـ سيكون جميلاً ويفيد أيضاً كسُجيّدة بين السريرين.

ـ ربّما. من المحزن ألاّ نعرفَ القياس.

كنتُ مصرّةً على بيع البساط للكاتب: سيكون عرضاً جيّداً، حتى ولو خفّضتُ السعرَ قليلاً وبرهنتُ ليمام عن أسلوبيَ الأوروبّي في التعامل. لم أتردّد.

ـ هل يوجدُ أحدٌ في بيتكَ في مدريد؟ اهتف لهم من هنا وليأخذوا قياسات هذه الغرفة.

نظرتُ إلى يمام. أشار بالموافقة. هتف السكرتير. ردّت الطبّاخة، الوحيدة الموجودة في البيت.

ـ عندما أُسافر، أعتقد أنّهم يسافرون جميعاً.

قاست الطبّاخة بمتر الخياطة ـ قال ـ الوحيد الذي كان عندها وبكثيرٍ من المعاناة.

ـ إنّها سمينة ويصعب عليها الانحناء. ولن يخطر لها أن تقيس واقفةً.

جاءت النتيجة مُخيِّبةً: زاد طول البساط.

ـ أنا آسفٌ لأنَّ البساط يُعجبني.

ـ فكِّرْ بمكانٍ آخر له. يجب أن تأخذه. ويسرّني كثيراً أن يكون في بيتك. سنغلّفه جيِّداً ونرسله إليك أو تأخذه بنفسك إلى المطار. لن يزعجكم أبداً.

كان الكاتبُ يتفحَّصني متسائلاً عن هذا الاهتمام الزائد.

ـ أنتِ بائعةٌ رائعة. إذا تعاملت مع الجميع بهذا الشكل، فإنَّ زوجكِ ـ التفتَ إلى يمام، الذي كان يُصغي إليه ـ يستطيع أن يترك الحانوت بين يديك بأمانٍ كبير.

كان يتكلّم وكأنّه أحسَّ بأنَّ العلاقة بيني وبين يمام ليست تقليديّة. أخذتْ طريقاً آخر.

ـ هل عندكم عشاء مع أحد هذه الليلة؟ لا بدّ أنّكم محرجون جدّاً، لكن يسرُّنا جدّاً أن ندعوكم.

ـ هذه الليلة عندنا عشاءٌ ثقيل.

ـ وغداً؟

أخرج السكرتير مُفَكّرة من جيب بنطلونه الخلفيّ.

ـ غداً هناك عشاءٌ آخر أثقل منه، لكن إذا أردتُ أستطيعُ إلغاءه. أعرف أيَّ عذرٍ أُقدِّم.

ـ غداً إذن، هذا إذا كان باستطاعتكما ذلك.

أخذَ الكاتبُ يدي وقبّلها. وعندما خرجوا راحَ يمامُ يضحكُ.

ـ هل تعتقدين أنّك ستبيعينَه البساط؟

ـ نعم.

ربتَ على وركي، شدَّني إليه وقبّلني. شعرتُ بقلبي ينتفشُ مثل خادورة.

ذهبنا لنأخذهم من الفندق؛ ومعي آخر كتبِ الكاتب كي يوقِّعَهُ لي. فعل ذلك بودٍّ غير معهود. لا بدَّ أنه شك بأمرٍ ما، لأنّه كتب في الإهداء: «إلى دِسيدِريا أوليبان، المرأة الوحيدة التي لها حياة روائيّة ولم تقل لي

بأنَّ من الممكن كتابة روايةً عن حياتها. مع أفضل تمنّياتي.»

أخذنا الثلاثةً لتناول العشاء في ذلك المطعم، كيمكابي، الذي بدأتُ فيه رحلتي الثانية وأنا في غاية الحيويّة. كان هناك مجموعتان تركيّتان، ضاجّتان وثملتان.

ـ أنتم لا تراعون كثيراً تحريم الكحول أليس كذلك؟ ـ سألَ الكاتِبُ يمامَ، الذي أطلقَ قهقهةً.

ـ المسألة أنَّنا نتناولُ الكحولَ هنا كدواء. كحول طبّي بالقرنفل، الكرزِ، وزهر الليمون والبرتقال. كلّ المشروبات وصفات طبيّة. في السابق كان على المرءِ كي يشربَ أن يدخل المشفى، الآن يكفي أن يذهب إلى أيِّ حانة أو صيدليّة.

حدستُ توتُّراً في الصحفيّة. ربّما هي متورِّطة مع الكاتب، أو السكرتير، أو الاثنين معاً. كانت تتكلّم بحرّيّةٍ صادمة. عندما ذهب يمام ليوصي على العشاء، علّقتُ بنبرةٍ وديّةٍ، (لأنّني كنتُ أرغبُ بأن أحكي أو ألمح للكاتب عن حالتي ويحزنني حضور الآخرين) مُشيرةً إلى الإهداء:

ـ مررتُ بتجارب كثيرة ومتنوّعة حتى وصلتُ إلى هنا.

ـ انظري، يا حلوة ـ قاطعتني الصحفيّةُ ـ: أنا أكلتُ قضباناً أكثر منك، لذلك لا تتباهي.

نظر الكاتبُ إليها مصعوقاً. لا يمكن تفسير هذا التعليق غير المعقول إلا إذا أخذنا بعين الاعتبار رأيَ الإسبان عادةً بامرأة مقترنة بزنجيٍّ أو عربيٍّ أو تركي.

ـ ليس عندي أدنى شكٍّ بذلك ـ أجبتُ.

يبدو أنَّ الكاتبَ قام بحركة تنبيهٍ للصحفيّة من تحت الطاولة، لأنّها بدّلت مزاجها. وبنوعٍ من رفع الإهانة، غير الضروريّة طبعاً، قالت لي:

ـ قرّرتُ أن آخذ البساط. أعرفُ أنَّ هذا العشاء لم يكنْ يهدف إلى هذا ـ كنت أُفكِّرُ أنّها فعلاً كانت تفكِّر هكذا ـ، لكنّني أُفضِّلُ أن أعلمك بذلك منذ اللحظة الأولى.

رفَّ السكرتير أهدابَه، كان واضحاً أنّها لم تقل له شيئاً من قبل. عادَ يمام.

ـ صديقنا سيأخذ البساط ـ أخبرتُه بسعادة.

مدَّ له يمامُ يدَه:

ـ أؤكّد لك أنّك قمتَ بصفقةٍ جيّدة.

ـ واحدةٌ بواحدة، أنتَ حصلتَ على ما هو أفضل بحصولك على دِسي.

تعدَّل وضعُ العشاء على الرغم من بدايته السيّئة.

ـ أظنُّ أنّ هذا بادٍ ـ قلتُ ـ أنا عاشقة جدّاً ليمام. حتى ولو أحبني هو ثلاثمئة مرّة أقل، فهذا يكفيني. في الأسبوع الماضي أهداني عين الحظِّ البلوريّة هذه. ـ إنّها عينٌ قطرها نصف سنتيمتر بدبّوس دقيقٍ وعاديّ ـ ليس له أيّة قيمة، يوضع للأطفال. يدفعون به مئة قرشٍ بدل الليرة.

ـ ما أرخص ما تشترين ـ قاطعني يمام ضاحِكاً.

ـ وضعه لي في هذا القميص بيديه. لا أجروُ على غسله، لا أدري ما إذا كنتُ سأجروُ على فعل ذلك ذات يوم.

أخرجَ يمام من جيبهِ ثلاث عيونٍ صغيرةٍ مثل تلك ووضعها للمدعوِّين الذين شكروه.

ـ من المحتمل أنّكم لم تشعروا بشيء ـ علّقتُ وانتبهتُ إلى أنّني كلّمتهم بعيداً عن لغة المجاملة.

ـ بلى، لكن بطريقة مختلفةٍ عنك ـ أجابَ الكاتبُ مبتعداً أيضاً عن لغة المجاملة ـ إنما من الصعوبة بمكان نقل نبضات الحب المضطربة إلى آخر.

كان يمام ساحراً طوال العشاء، بصوته الكثيف وقشتاليّته الجيّدة، على الرغم من أنّها بطيئة (بحيثُ يوحي أحياناً بأنّه لن ينهي الجملةَ وينهيها مصيباً. كان يروي مغامرات إسبانيّة لم أكن أعرفها، وينتبه إلى كؤوس وصحون المدعوِّين ويغازلُ الصحفيّةَ، يعطي ناره للمدخِّنين؛ دون أن يتوجّه إليّ بشيء، كما لو لم أكن موجودة. فقط قال لي لا أدري في أيّة مناسبة:

ـ اغسلي هذا القميص، فأنا لن أستطيع أن أراك ترتدينه أكثر دون غسلٍ.

كانت تلك طريقته في الإعلان عن هيمنته وسيادته. أشرتُ إلى الرجال الذين رقصوا رقصة البطن في أوّلِ ليلة لي في ذلك المطعم. وفي لحظةٍ كان فيها السكرتير والصحفيّةُ مشدودين إلى يمام، همستُ للكاتبِ:

- زوجي يجيد الرقص التركي جداً، ولو طلبت أنا منه فلن يستجيب. أما أنت فسيفعل.

ربما طلب الكاتب منه هذا تلطفاً. خلع يمام نعليه ونظف الطاولة مما عليها، صعد فوقها ورقص بالاتفاق مع زوج من الموسيقيين بطريقة حارة وشهوانية. كان ينظر إلى المدعوين بعينين مثيرتين. فقلت للكاتب بصوت خافت:

ـ الأتراك حمّاؤو سراويل جدّاً.

أطلق وقد شجّعه الكحول قهقهة:

ـ أرى ذلك.

صفّقوا ليمام عندما انتهى؛ أمر بتبديل الأغطية وطلب مزيداً من الكؤوس. بقينا أنا والصحفيّة والكاتب وحدنا. وضعت يدَها فوق يدي وحذّرتني:

ـ عليك أن تراقبي زوجكِ، فهو رجل انفجاريّ، يمكن أن يُعجِبَ كلَّ العالم.

ربّما شدّدت على الجملة الأخيرة. شعرتُ بالزهوِّ.

ـ أفهم ذلك: هذا ما جرى معي.

ـ لو كنتُ مكانكِ لما كنتُ غير مبالية مثلك.

ـ لستُ كذلك. كيف سأكون غير مبالية؟ لكن ربّما ليس لهذا السبب. أعرفُ أنّه ينام مع نساء، ومع ذلك فهنَّ عابرات، وإلاّ لكنتُ لاحظتُ. ماذا تريدينني أن أفعل؟ أولاً وأخيراً هو لي. أنا أتمتّع بالوله الذي أملك أكثر من الذي ألهمه. يحدث لي ما حدث لفرثر.

ـ نعم، لكن يبدو لي أنَّ ما يحدث لزوجك هو ما حدث لدون جوان.

ـ بالنسبةِ إليّ العالم مليء بأمثال يمام، وهو لا يحدّثني إلاّ عنه ولا أرى شيئاً إلا من خلاله.

ـ بالتأكيد، لكنّ العالم بالنسبة ليمام كما هو، وإذا تكلّم فإنّه يتكلّم عن نفسه.

تظاهر الكاتب بالتجاهل.

ـ حانت ساعة الذهاب تقريباً ـ قالَ ـ أين كوشم؟

ـ مع داميان ـ قالت الصحفيّةُ ضاحكةً.

نزل يمام والسكرتير من الأعلى.

ـ حاولتُ أن أدفعَ الحساب ـ اعتذر السكرتير ـ لكنّه لم يتركني.

أعدناهم إلى الفندق. قالَ يمامُ حين أصبحنا بمفردنا وقد أدارَ السيّارةَ دون أن ينظرَ إليّ:

ـ كان عشاءً ناجحاً.

اعتبرتُ ذلك إطراءً، لم أُفكّرْ في تلك اللحظةِ بجملة الصحفيّة: «إذا تكلّم فإنّه يتكلّم عن نفسه.»

كان النبيذُ والحوارُ قد أثارا يماماً؛ فعشنا معركة حبٍّ طويلة ومتكاسلة ومُرْضِية جدّاً، تأكّدتُ فيها من جهل الصحفيّة الذي أتفهمه. بما أنّنا نمنا متأخّرين لم نستيقظ باكراً. ذهب يمام ليفتح الحانوت دون أن ينتظرني. وصلتُ في الضحى. أشار إليّ أحدُ الصبية نحو الطابق العلوي. صعدتُ ببطءٍ، فتحتُ الباب المغلقَ فرأيتُ ظهرَ يمام وهو يقبّل محموماً لاهثاً شخصاً يُخفيه بجسده ويسندُه إلى جدار العمق. لقد منعهم سجّادُ الأرضِ وتأجُجهما من سماعي. كانا يتلامسان في ما بين سيقانهما. في لحظةٍ انحنى فيها يمامُ رأيتُ الشخصَ الآخر: كان سكرتير الكاتب. فضّلتُ الهبوط بصمت. تناولتُ فنجانَ قهوةٍ أحضره لي محمود قبل بدءِ درسه. تأخرا في الهبوط. جاء يمام وهو يرتّبُ شعرَهُ ففوجئَ برؤيتي.

ـ ظننتُ أنّكِ لن تأتي ـ قال.

ـ ها أنت تراني.

حيّاني السكرتير:

ـ جئتُ لأعطيكما عنواننا والشيك ثمن البساط. أعني... كي تضعا العنوان على الطرد... أي...

أربكه وجودي وما إن استطاع حتى ذهب. تكلّمتُ بصوت خافتٍ جدّاً:

ـ لا أدري لماذا تمنح الآخرين ما أستحقُّه أنا وحدي فأنا أُحبُّكَ.

ـ ألا يكفيكِ ما أمنحك؟ هل أحرمك من شيء؟

ـ تحرمني من الاهتمام؛ ففي اليوم الذي لا تعودُ تنظر فيه إليَّ...

لم يسأل لماذا أُكلِّمُه بتلك الطريقة، كما لم يؤكّد أو ينفي شيئاً. تلك هي طريقته للتفوّق عليَّ. أنا أيضاً لم أعاتبه، لم يكن هذا مناسباً ليمام ولا مناسباً لي. كيف أُعبِّرُ له عن عظمة مشاعري المفرطة وهبوطها المفاجئ، عن قنوطي في بعض الساعات؟ معرفته بالأمرِ ليست في مصلحتي. هذا الموقف الحذر الذي أتبنّاه غريزيّاً في كلِّ يوم أكثر، يُفاقِمُ بشكل متواصل انطوائي، حتى أنّني أعاتبُ نفسي أحياناً: «ماحاجتي إلى يمام؟ تكفيني نفسي كي أحبّه.»

أُحسُّ بأنَّ يماماً لم يَغُذ نفسه فترتعدُ فرائصي، حتى لو كرَّرتُ على نفسي أنَّ هذا شأني ونتيجة أنَّه مغشيٌّ على قلبي ومنفصلة تماماً عن الآخرين. وكيف أجرؤُ على سؤاله لماذا؟ أستطيعُ أن أستمرَّ ببناء عالمي فوق تردّدي، لكن ربّما لن أستطيع ذلك فوق يقيني. لا يوجدُ بالنسبةِ إلى المحبِّ العادي، المعتدل، الحار إلى هذا الحدِّ أو ذاك، ما هو مضجر ـ بل ومرعب أيضاً ـ كالعاطفة البركانيّة والمفرطة. أفهمُ أنَّ يمام توصّل إلى الشعور بالنفور منّي ـ وسيشعر بالمزيد إذا ما شكوتُ ـ بالمعنى الليبرالي للكلمة. ولا بدَّ أنّه يرى نفسه كما لو كان هو الأنثى، لأنّه تركي وذكوري؛ من هنا كثيراً ما أضطرّ للجم نفسي وتقييدها أكثر، لأنّني أنزع للسيطرة واتخاذ المبادرات أو اقتراحها، وهذا ما لا يتخذه هو. أتذكّر ذهوله في البداية بعد التعانق.

ـ تعرفين كثيراً. تعرفين أكثر من اللازم.

كنتُ قد قمتُ بحركات وقلتُ كلمات يمليها عليَّ الحبّ الساذج، وتريكه كما لو أنّها صادرة عن شخصٍ ذي تجربة كبيرة جدّاً. ربّما

كنتُ بالنسبةِ إليه امرأة متزوّجة تخون زوجها البائس معه الآن ومع كثيرين قبله.

بودّي أن أصرخَ في وجهه بعذابات غيرتي وحزن حبّي. بودّي أن أقولَ له: أنت لا تعرفُ ما تفقده بإشباع رغبات جسدك الصغيرة، وليس قلبك، مع ناسٍ عاديين، إناث وذكور. وحدي، أنا التي درستُك على مهلٍ، من تستطيع أن تقدِّمَ إليك المتعة الحقيقيّة. في كلِّ يوم أنا خارج متعتي أكثر كي أحضر متعتك وأثيرها، فقد صارت متعتُك وحدها متعتي. بينما أنت تتكرَّمُ على من لا يستحقّ الكرم.

›› كم هو متناقض موقف الذي يحبُّ من المحبوب فكلّما زادت الرغبة به ازداد هذا التناقض. أقسمُ لك ـ لأجلك، لا لأجلي ـ أنّني أودُّ أن تُحبَّني بالعنف ذاته الذي أُحبُّكَ به: عندئذٍ فقط ستعرف كم هو رائع. لأنَّ باستطاعتكَ أن تجدَ واحدةً أكثر بدانةً أو أخرى أكثر شقرةً، ولن يكون من الصعبِ عليك أن تجد أخرى أجمل أو رجلاً يثيرُك، لكنّك لن تجدَ أحداً يُحبُّكَ أكثرَ منّي.

›› قد لا يهمُّكَ هذا، لأنَّكَ باردٌ. لا؛ لستَ بارداً، أعرفُكَ جيِّداً. المسألة أنّكَ تتظاهر بالبرودة كي تعذّبَني، كي أبقى رهن عينيك ويديك، مثل كلبٍ ودودٍ لا يرفعُ نظرَهُ عن صاحبه، وهو متردِّدٌ دائماً بين الحماسِ والحاجة، بين أن يطلب منه رفقته أو أن يرافقه. أنتَ تُحبُّني؛ أعرفُ ذلك. على طريقتكَ، أيضاً أعرفُ ذلك. لن تعرف كيف تُحبُّني على طريقتي، وليس بإمكانِكَ، كما لا يمكنني أن أحبَّكَ على طريقتك، محتفظةً لنفسي بمخابئ... لكن كثيراً ما أعتبرُ، باضطرابٍ هو في كلِّ يوم أكثر، أنّك لا تحبُّني إلاّ لأنّني أُحبُّك، ولتستجيب لي. كم أدفع ـ أدفعُ حياتي ـ لقاء أن تُحبَّني من ذاتك، حتى ولو لم أُحبّك. طبعاً، ماذا كان سيهمُّني أن تحبّني أو الطريقة التي تحبّني بها لولا أنّني أحبّكَ؟

›› يحدثُ لي الآنَ باستمرار: أتظاهر بالتنصّل منك، أنتظركَ، أكتبُ هذه الدفاتر، أو لايكون عندي ما أفعلُه، لأنَّ البيتَ يسبِّب لي الفتور، فارفعُ عينيَّ فجاةً دون أن أنتبه، كأنّني أبحثُ حولي عن سببِ مرارتي. كأنَّ التنهيدة التي يتحوّلُ إليها شهيقي حين ينقطع تفاجئني... بعدها أُفكِّرُ أنّني لستُ سعيدةً، فأواسي نفسي قليلاً، قليلاً لا أكثر. إذا كان لا يحدثُ شيءٌ فلماذا أتنهّد؟ كم نحنُ خُرقاء، لا نُمَيِّزُ بين الأملِ والشقاء.

لنا روح ثورين، يا يمام، وقد يكون الاجترارُ وظيفتنا الفضلى. نجترّ ما عشناه، ما مضى، ما تمتّعنا به أو عانيناهُ، لكننا نجترُ، دون أن نشرع بأيِّ شيءٍ جديد، نخاف القدر، نجبن أمام المغامرة، نلوذ بالتوافِهِ التي حقّقناها. نجترّ، ونجترُ، كم هو محزن.

>> في الليلة الماضية تناولنا أنا وأنت العشاءَ في المطعم الموجود بجانبِ البيت. لم أتكلّم، كنتُ أعملُ كراتٍ من الخبز بأصابعَ مرتجفة. لا أدري ما إذا توقّفت عند هذا، أعتقد أنّكَ فعلتَ، لأنّك عندما رأيتَ الدموعَ في عينيَّ طرقت بسكينك بعض الطرقات على يدي. لكنّها لم تواسني، كانت مجرّد تنبيه إلى أنّك تكره الأدوار التي لا تثيرها أنت. يا لها من سهرة باردة، يا له من عشاءٍ لا يُبلغ. أنا أمام إلهي، الصامت إهمالاً، الإله الذي يستطيعُ أن ينهض ويذهب كيلا يعود، لأنّني ما عدتُ جذّابة بالنسبة إليه. في المساء كنت قد داعبتُكَ، أثرتُك دون نجاح. حين خرجتُ من الاستحمام أحطتُك بالملحفة المزأبرة، نشّفتُك ببطءٍ، قبّلتُ عضوَكَ برقّة.

>> - ألن نذهبَ للعشاء؟ - قلتُ.

>> هذا هو سببُ عشائي المُرّ. وها أنا هنا الآن صامتة، وصامتٌ أنتَ أيضاً، تبلغني رسائلك بالسكين. يقتلني عذاب من يُحاوِلُ أن يتكلّم، يقولَ شيئاً لطيفاً يكسرُ العنفَ والصمتَ، يفرط في التطاول، ويصبُّ في ساحة العداء المشؤومة، التي لا يخرجُ منها إلاّ بصعوبة كبيرة. عذابُ من يحاول أن يتكلّمَ ولا يستطيعُ أن يقول مثلاً: «هذا فمي، خذيه».

>> لذلك أكلّمك من هذا الدفتر، لأنَّ الحفرةَ التي تحفرها نهاراً يصعب جدّاً ردمها في الفراش ليلاً، ما يحدثُ في الفراش لا يعود ليحدث في اليوم التالي، وتعود هوّة اليوم السابق لتحدث، المسافة التي تهزُّ... لو أستطيع أن أصرخ لك بكلِّ هذا بدل كتابته. لو أستطيع أن أصرخَ لك قائلةً: «افعل ما يحلو لك لكن لا تتركني: ما الذي أستطيع أن أصبو إليه ما لم يكن هذا؟»>>

ربّما الهبوط الذي شعرتُ به في الأسابيع الأخيرة كان منبعه

الجسدُ: فأنا حبلى مرّة أُخرى. لا أدري كيف حدث ذلك. قمتُ من جهتي بكلِّ شيءٍ كي أتفاداه. ماذا سيفعلون بي الآن؟ ربّما كان هاجسُ هذا العذاب الجديد، هذا التخلي الإجباري هو ما يحبطُني من أعماق لاوعيي.

قرّرتُ أن أقابلَ أمَّ يمام. لا أعرفُ حتى اسمها. أراها مثل هرمٍ ساحِقٍ، ما إن أقترب منه حتى ينهارُ فوقي. لكنّها هي من يقرّرُ شيئاً يؤثّرُ عليَّ جوهريّاً: يؤثّرُ على حياتي وحياةٍ أخرى قد تساعد حياتي وبدأت تؤثّر عليها.

ها أنا كئيبة مرّة أخرى، لا أعرفُ أين أنظرُ ولا بمن أثقُ دون الوقوع في خطر تحوُّلِهِ إلى عدوٍّ. كان الهاتف في يدي كي أهتف إلى باولينا، أغلقته. أعرفُ جوابَها: «لِدي ابنكِ في إسبانيا ولا تعودي.» هل هذا ما يجبُ أن أفعله؟ ألم أجرِّب ولم أنجح؟ أجِدُ نفسي مُحاصَرةً فأنا أعرف بما سيجيبني الجميع؛ وأنا أيضاً لو لم أكن أنا، لكنّني أنا. وعندما تستسلم أمرأة مثلي لرجلٍ، فإنّها تستسلم له حتى الموت، سواء كان في الوسط أوراق أو دمٌ أم لم يكن، لا يبدَّلُ الأبُ ولا الأمّ؛ لا يُبدَّلُ القدر ولا يُختار. ويمام قدري، سواءٌ أردتُ أم لم أرد، وسواء أراد هو أم لم يرِد. ليس في يدي إلّا أن أعشقه. لو أستطيعُ أن أنظرَ إلى جانبٍ آخر دون أن أموت، لو أستطيع أن أسمع أصواتاً أخرى، أو حتى أنْ أبقى وحيدة لفعلتُ. لكنّني لا أستطيعُ؛ أعرفُ أنّني لا أستطيع. ومرّة أخرى مطروح عليَّ أصعب الاختيارات: خيار واحد ليس لي فيه خيار ويمزّقني بمجرّد طرحه.

أعرفُ أنَّ أمَّ يمام تذهبُ لتتناول الشاي مع بعض صديقاتها العجائز، في فندقٍ جديدٍ بجانب البوسفور. مثلتُ هذا المساءَ هناك. رأيتُ مجموع النساء الخمس أو الست ـ جميعهنّ بملابسٍ أوروبّيّة زائفة، جميعهن صبغن شعرهنّ بالشقرة إلاّها ـ وجلسن إلى طاولةٍ غير بعيدة عن نافورةِ الرخام الأبيض. كانوا قد قدّموا لهنَّ الشاي مع قطع حلوى، معجّنات وشطائر. كنَّ يأكلن بنهمٍ ويتكلّمن بأفواهٍ مليئة، ممرِّرات الصحون فيما بينهنَّ. كنتُ أراقبُهنَّ، حزينةً، من أريكةٍ قريبة،

كما وأراقب أيضاً قاعةَ الاستقبال العالية والساطعة تحت نور يدخل عنيفاً من نوافذ العمق الكبيرة. كانت النافورةُ تغنّي أغنية أسيرةً وفي غير مكانها تماماً مثل نباتات الأصص ومثلي... نظرت أمُ يمام إليّ. نهضتُ، فأشارت إليّ إشارةً تعني أن أتوقّف وتُفهمني أنّها ستراني فيما بعد. كنتُ مثل مريضٍ خطير، أمام طبيبٍ خلاصه في يده، دون موعدٍ مسبقٍ، الطبيبُ غارق في الضحك يتبادلُ مع أصدقائه الانطباعات، وجميعهم غير مبالين بكارثته.

بعد ثلاثة أرباع الساعة نهضت أمُ يمام بغطرسةٍ وضخامةٍ فرقاطة، مرّت بجانبي مومئة وقادتني إلى أريكةٍ أخرى في الممرّ المظلم. كانت تعتمر قبّعةً قطيفةٍ غريبة، تحوّلت عندها إلى عمامة، وبعض خصلات الشعر الشائبة تسقط على أذنيها. جلست متوتّرةً تحرّكُ خواتم أصابعها العديدة وتدخّنُ في آنٍ معاً. لا أدري ما إذا كانت تعرف بعض الكلمات الإسبانيّة. قمت بالإيماء وببعض التعابير البسيطة بإفهامها بأنّني حامل. فأنكرت عليّ ذلك بحركةٍ من رأسها وازدراء لانهائيّ. ثمّ قذفتني بسلسلةٍ من الأصوات العنيفة والمكبوحة في آنٍ معاً، لها ثقل طرق المطرقة. جمعتُ يديّ المتوسّلتين؛ تركتُ نفسي أسقط وأركع على ركبتيّ. نظرت حولها مذعورةً ونترتني رافضة المتابعة بحركة قاسية من يديها. وما إن نهضت على قدميها حتى لوت إبهام يمناها إلى الأسفل. كان ذلك بالنسبةِ إليّ مثل مشيئة القيصر كلية القدرة بالنسبة للمدان بالموت في الحلبة. ذهبتُ خلفها، فأوقفتني بفجاجة لا ترحم وسارعت لتتابع التهام حلواها. رحتُ وقد اختبأتُ في دورة المياه أبكي بعد أن تقيّأتُ. إلى أيّ مكان سأنظرُ؟

ليلاً وجدتُ نفسي أمامَ يمامٍ صارمٍ.

ـ اعتقدتُ أنّك لن تعودي لارتكاب حماقة ثانية.

ـ إنّها الثالثة ـ قلتُ، مفاقمة من سوء الأشياء.

شطب على حمليَ الأوّل بهزّ كتفيه.

ـ ها هما ولداي هناك، أحبّيهما وخذيهما في الأيّام التي تخصّني.

ـ هل الرغبة بواحدٍ منّي ومنك جريمة؟

ـ نعم، جريمة. أنتِ وأنا لسنا متزوِّجين ولن نتزوَّجَ أبداً. وإذا كنتِ ترغبين به إلى هذا الحدّ فليس عليك إلاّ العودة إلى إسبانيا وولادته هناك.

قبل أيّام تلقّيتُ عبر القنصليّة الخبر الرسميّ بأنهم منحوا زوجيَ الطلاقَ.

ـ لكنّنا نستطيعُ أن نتزوّج. فقد زال عائق زواجي.

ـ هناك عائقُ زواجي ـ أجابَ يمام حازماً.

ـ أنتَ أوحيتَ لي. لم أكن أعرفُ أنّكَ متزوِّجٌ وعندك ولدان.

ـ إذا كان هذان الشرطان لا غنى عنهما في السابق فقد أصبحتِ تعرفين أنّهما غير متوافّرين الآن. اذهبي إن كنتِ تريدين الذهابَ.

دخل إلى غرفة النوم وترك الباب نصف مفتوح. وجدت نفسي مستوحشة بحيث رحتُ أكتب.

أتركه هنا، لكنّني لا أعرف ماذا أفعل، ليس غداً أو الأسبوع القادم وحسب، بل ولا في هذه الساعة. لا أدري هل أدخل إلى غرفة النوم، أم أذهبُ إلى غرفة الطفلين، أم أنام على الأريكة المخمليّة المطرّزة، التي أراها في هذه الليلةِ أيضاً كعدوٍّ لا يمكن مصالحته.

بقيت على الأريكة. أطفأ يمام النور بسرعة. لم أنم. تذكَّرتُ حبوب الأرق في وشقة، لكنّها كانت في أعلى الخزانة ولم أجروْ على إزعاجه.

رأيتُ الفجر يبزغ من شبّاك القاعة المتطاول، خلف الستائر المكرنشة. كان فجراً رماديّاً غائماً ورطباً. ليس عندي من ألجأُ إليه ولا حتى نفسي. إلامَ صارت جنّتي؟ لم تجفني الأحلامُ فقط بل النوم أيضاً. أخذتني رغبة شديدة بأن أنام ولا أستيقظ.

في الصباح دخلَ يمامُ إلى الحمّام دون أن يقول لي صباح الخير؛ فحضّرتُ له ثيابه الداخليّة وقميصاً نظيفاً. وبينما راح يرتدي ملابسه اغتسلتُ. لم يكلّمني طوالَ الطريق إلى البازار. لم أتمكّن عند مروري بمحطّة قطار الشرق السريع من تفادي اجتياح نوبة ضيقٍ لا توصف. لم يكن مسموح لي أن أبكي، إذ لو كان كذلك لكانت الدمعة الحاسمة. وبما

أنّنا لم نتناول طعامَ إفطارنا تذكّرتُ دون إرادة منّي الحلوى التي كانت تلتهمها أمُّ يمام. قلتُ لنفسي: «بما أنّك جائعة فأنت أفضل.» لا، لم يكن صحيحاً، فالجوعُ لا يعني غير معدةٍ فارغة. كم سأكون سعيدة، فكّرتُ، لو اجتمع في حياتي الحبُّ مع احترام الآخرين، والحمايةِ الاجتماعيّة، «حرارة عنادل» تلك المذكّرات التي أراها اليوم قصيّة كما لو لم يكتبها أحدٌ قط.

لم يكن في جيبي ليرة واحدة؛ فقد أنفقتُ آخرها في سيّارة الأجرة، التي أقلّتني إلى الفندق، وعدتُ منه سيراً على قدميّ. ولكي أختصر الصحراء التي تبعدني عن يمام اقتربتُ منه، بعد أن أصابني غثيان قصمني نصفين في دورة مياه البازار.

ـ أحتاج لتناول طعام إفطاري. هل تستطيع أن تعطيني بعضَ النقود؟

خطرت ببالي جملةٌ لفلوبير (ربّما لو كان بحوزتي كتابٌ ليلةَ البارحة لساعدني): أكثرُ العواصف التي تنهال على الحبِّ شؤماً هو طلب المال. وجدتُ نفسي بائسة ومهانة، قذرةً ولا جاذبيّة عندي. ناولني يمامُ بعض الأوراق النقديّة بصمت. لا بدَّ أنَّ الابتسامة التي شكرته بها بدت كما لمتسوّلٍ خسيس. اضطررتُ للعودة إلى دورة المياه العامّة، لأنَّ الغثيان الجافَّ لم ينقطع.

حين خرجتُ منها تعثّرتُ بالحشدِ الذي يملأُ البازار، قسم منه جاء للشراء وآخر لاتقاء المطر الخفيف والثقيل الذي كان يسقط في الخارج. تذكّرت، دون أن أدري لماذا، معنى اسمي. تسلّيتُ ذات يومٍ بالبحث عنه في قاموس مدرّسِ اللاتين: الرجل الطويل، الجاف، الذي يضع نظّارة دائريّة وله يدان أصغر مما يناسبه بكثير. كان يهمس بأنّه كان طالباً في معهد لاهوتي، أو أخاً لا أدري في أيِّ أخويّة.

ـ دِسيدِريا ـ ساعدني هو في البحث عنه ـ هاهو: دِسيدِريوم، دِسيدِريي، اسم محايد.

ـ محايد؟

ـ بلى.

ـ والمؤنّث؟

ـ اسمكِ ليس مؤنّثاً، يا صغيرة، إنّه جمع. أرأيت؟ كتب سيسرون «valete, mea desideria»، التي تعني: «وداعاً يا حبيب القلب» أو «وداعاً، يا غرامياتي.»

وأنا كنتُ أُردّدُ دون أن أرى الناس الذين أسيرُ بينهم: «وداعاً، يا غرامياتي». ماذا كنتُ أفعل هناك في قلب استنبول العجوزِ والتاجرِ الصغير، وأنا أذكر سيسرون؟ شيءٌ ما منّي كان يُظلم ولا حيلة لي به.

حملوني هذه المرّة إلى طبيبٍ يهودي. أعتقد بأنّه غير قانوني وذلك من طريقة تمويه العيادة داخل «البلاط»، الحي اليوناني القديم. كانت تُساعده قابلة مغطاة بخرقٍ بيضاء. وضعي المعنوي المتدني زادَ من انشغالي بعدم وجود المخدِّر، الذي بدا لي أنّني أكتشفه في كلِّ مكان. ما إن استقبلوني حتى اختفى يمام، بقيت أُمّه، التي صرخت به عند ذهابه بجملٍ قاسيةِ النبرة جداً. افترضت أنّها كانت رفضاً منها للاستمرار في معالجة حماقاته أو حماقاتي التي كانت حسبِ ما أظهرت جاهزة لمعالجتها بشكل قطعي، ربّما كان هذا هو ما أقلق يمام. عندما أعادوني في اليوم التالي إلى البيت، وأنا ما أزال محمومة ومنهكة تماماً، قال لي يمام:

ـ أخيراً لقد خرجنا من هذا الهمّ.

توقّعت من تقاسيمه شيئاً فسألتُ:

ـ ما الذي تريدُ أن تُفهمني إياه؟

ـ ما عاد باستطاعتك أن تحملي. فقد حدثت تعقيدات.

استنتجتُ وأنا مجروحة كما كنت، أنَّ التعقيدات كانت بالنسبة إليه وإلى أمّه حبلي.

أجهلُ ما فعلوه معي، لستُ في وضع سيئ، ومع ذلك فقد أُسدلت فوقي ملحفة سوداء. كم من التناقض: لماذا إذا كان الحمل أكبر عذاباتي ـ أو بالأحرى إجهاضاتي ـ سأحزن الآن لأنّهم وضعوا له

نهاية إلى الأبد؟ لماذا يسبّبُ لي القضاء على أيّة إمكانيّة للأمومة كلّ هذا الكرب، إذا لم يسمحوا لي به قط؟ أم أنّني مستعدة للكرب من كلّ ما يحدثُ لي؟

انتكست بعد ثلاثة أيّام. بقيتُ أسبوعاً بين الحياة والموت. لا أحد يقول لي السبب، هل كان الالتهاب أم العمليّة الفاشلة. الجميع يكرّرُ: «لقد تحسّنت، لقد زال ما هو سيئ.» لا أكثر. الطبيب الذي لاحظت من خلال الغشاوة أنّه قلق بل وخائف، صار يأتي مرّتين في اليوم. وبما أنَّ حياتي كانت في يده، كنتُ أستقبله، كما يُستَقبَلُ الملاكُ المخلِّص، على الرغم من الحرارة، ملاك بوجهٍ متحفِّظٍ ومتجهِّم، وقامة قصيرة. أنا حيّة ولا أدري ما إذا كنتُ أُغبط بذلك. فأنا نادمة لأنّني أُنقِذْتُ على حساب أولادي. لكن من هم أم أنّني فقدت رأسي؟ كلّ من كان سيولد منهم يتركّز الآن في كارلوس، الذي جهدتُ كثيراً كيلا أفكّرَ به. كانوا خلال مرضي يعانقونني، يمدّون إليَّ أذرعهم، أفواههم الدائريّة؛ أيديهم المكتنزة، يريحون رؤوسهم على صدري وأنا أدندن أغنياتِ مهدٍ تعلّمتُها من مارينا في طفولتي، كي أنوّم دُماي؛ ثم كانوا يديرون رؤوسهم، يرضعون وأنا أسندُ حلمتي بين إصبعين كي يتدفّق الحليبُ وفيراً ودافئاً وبشكلٍ أفضل. إلى أن أغفو، هذا إذا لم تكن تلك الصور نتيجة إغفائي.

لم تحضرني قط مشاهدُ طفولتي كما في هذه الأيّام الأخيرة: الجبال الصموتة، الراسخة، لكن المليئة بالحياة، مثل أصدقاء أوفياء، لا يهجروننا. بحيرات البيرينيه التي كنّا نزورها أحياناً، إذ ينعكسُ فيها، الأخضرُ مسكوباً يكاد يكون أسود ورائحة الضفاف الغامضة... كنّا نُخلِّف وراءنا دير لاس ميغِلاس لنبدأ فنرى فجأة لا غِزكِرا والجبال المتدرّجة من الأخضر وحتى البنفسجي، من البنّيّ وحتى النيليّ. لا أدري لماذا أذكر الخريفَ على وجه الخصوص، حين كان يَلمَعُ الثلج الباهر في مونْرِبوس، المرايم الثلاث خلف المونتِ بِرديدو (الجبل الضائع). كانت الأرض تتسلّقها حتى الأفقِ، يتكوّم فوقها نحاس البلوط والكستناء، ذهبُ الحور، خضرة الصنوبر الباسِل المستبدلة فيما بعد بالتنّوب، وبنفسج الزان العاري، حمرةُ الكرز... الأشجار الرصينة التي

كان باستطاعتي تسلقها دون أن تخونني. غير خائفة أن يحدث لي أيّ سوء، حين كنتُ أتمتّع بصحة وجود أبٍ قويّ تشفى تحت إمرته حتى الجراح: ـ «سليمة، سليمة، يا ذيل الضفدع» ـ وتُحل عقدٌ وعوائق. أبي البطل والرحيم الذي كان يأتيني بالشموع بألوان لم تملكها قط أيٌّ من صديقاتي؛ بأشكال حيوانات خياليّة، كان يحزنني إشعالها لأنّها تضيع منّي. «هناك المزيدُ منها، يا غبيّتي، سأحضر لكِ أكثر» ومع ذلك لم أكن أُشعلها. فامتلأت بها طاولة الليل. «وداعاً، يا دِسيدِرياي.»، وداعاً، يا حبيبات قلبي، ذكرياتي، وعواطفي، وكل ما أحببته قبل أن أعرف ما هو الحبُّ وكم هو قاسٍ.

«لم يعد باستطاعتي إنجابكم»، كنتُ أقولُ لأولادي في ذلك الصباح، جالسةً أمام نافذة المطبخ، التي كانت تنفذ منها شمس لها تردّدي ووهني. «لم يعد باستطاعتي إنجابكم».طرقوا على الباب. ذهبتُ لأفتحه شبه متلاشية. أرسلوا لي رسالة من القنصليّة. ارتجفت أصابعي وأنا أفتحها. كان هناك سبب لذلك. كانت رسالة باردة جدّاً من أخي أغوستين يخبرني فيها بوفاة والدي. «لعلّه يهمّك معرفة ذلك، بما أنّك أنت من عجّل بها»

أسندتُ جبيني على الطاولة. من قدمّي، ممّا هو تحت قدميّ من هذه الأرض التي أشعر أنّها في كلّ مرّة أقل انتماء إليّ، صعد نحيبٌ... ولم أستطع أن أملككم، يا أولادي وآبائي. في الأعماق أنتم شيء واحد: حلقات في السلسة ذاتها. ضروريّون جدّاً. أنا ما عدتُ ضروريّة ولا يمام. أنتهي في سلسلتي وأنهيها. كنتُ أنظر من النافذة إلى السماء الغريبة. «لو رأتكِ أمّكِ.» كنتُ أقولُ لنفسي بصوت هو في كلّ مرّة أخفض. ها أنتم ترونني جميعاً، ما عاد باستطاعتي أن أخفي عنكم شيئاً. فقد صرتم جميعاً في داخلي، أبنائي وآبائي. صرتُ وحدي وأنتم في ذهولي فقط...

ما استطعت البكاء حتّى مزّق النشيج حنجرتي. وداعاً، هذه المرّة حقيقة، يا أحباء قلبي..

الدفتر الرابع

استمرَّت نقاهتي بين انتكاسةٍ وأخرى أكثرَ ممّا قدَّر أيُّ شخصٍ. حتى الآنَ لا أشعر بأنَّني أعيشُ تماماً. كما لو أنَّ الموتَ - نوع من الموت المُعدي - قد وضع عصبةً على عينيَّ كي يمنعني من الرؤية، من إرادة الرؤية وفهمي لنفسي. لم أملك الرغبة بالنهوض من السرير لأجلسَ هنا، أو آتي إلى هنا... لماذا؟ كنتُ أسألُ نفسي: هل من أجلِ أن أبقى جالسةً إلى نافذةٍ تُطلُّ على المرآب ذاته والسموات الغريبة ذاتها؟

تصرَّفَ يمام بشكلٍ جيّد. لم يخرج في الأيّامِ الأولى، ثمَّ صار يأتي معه بغداء اليوم التالي، وكلَّف إحدى الجاراتِ أن تأتي لتراني في الضحى والعصر، ويحضرُ دائماً ساعةَ العشاء. يطهو لي الطعام بالمتعة ذاتها التي يطبخُ بها الأتراك، لكنَّني بصعوبة كنتُ أمرِّرُ لقمة واحدة. ثمَّ إنَّني كنتُ أُفضِّلُ أن يراني أقلَّ ما يمكن. في أكثر الليالي كنتُ أطفئُ النور حين أسمعه يصل، ليس لأنَّني ما عدتُ أُحبّه، بل كيلا يتخلّى هو عن حبّي نتيجة ضعفي ووهني. لكنّه كان يُحضِّرُ العشاءَ ويأتيني به إلى السرير.

- لستِ في حالة تسمحُ لك بأن تُضيِّعي وجبةً واحدة.

نام خلال هذا الزمن في غرفة ولديه، اللذين كانا لا يأتيان كيلا يزعجاني.

كنتُ أخافُ النظرَ إلى نفسي في المرآة: الزرقة الضاربة إلى

السواد حول العينين وقوس الحاجبين البارز تماماً والوجنتان اللتان تقسّيان وجهي... كانت الحمّى تجعلني أتعرّقُ فأجدُ نفسي متسخةً منذُ المساء. راحتي الوحيدةُ كانت في ارتدائي لمنامة يمام، قمصانه المهترئة وإقناعي لنفسي بأنَّ قصّتنا لم تنتهِ... ما يعرفه شخصٌ يمكن لأيّ شخصٍ آخر أن يتعلَّمَهُ، لكنَّ القلبَ ـ الملكيّة الوحيدة الحقيقيّة وأصل كلّ ما عداه ـ ليس إلا ملكيّة كلّ واحدٍ بمفرده.

شيئاً فشيئاً، وبالمحاولة، بدأتُ أستمتعُ بالشمس التي ترتاح بنعومةٍ على هذه الطاولة، بالطعام الذي كان يقلب معدتي، بالروائح القويّة التي تصعدُ الدرجَ من الأسفل، وبثياب يمام الداخليّة التي لامست إبطيه أو بطنه، بضجيج الشارع... الأشياء التي ليس لها أدنى أهميّة ولا أتوقّف عندها، تبدأ تترك فيَّ تأثّراً لا يوصف، كما لو أنّها ولدت توّاً وتتذكرُ اسمي برقّةٍ، تقبعُ هناك بانتظار أن أعودَ إليها. أرى معطفَ يمام على مشجبِ المدخل، الأمر الذي يوحي لي بأن الزمن السعيدَ جاء، أدخل يديَّ في كمّيه أو أرفعه وأرتديه، فضفاضاً عليّ، فأتحكّم به بالزنار وأبقيه عليَّ طوال الصباح. أُرتِّب الملابس في الأدراج، أعلِّقَ بذّاته بعد مداعبتها. أنظّفَ ببطء وعمقٍ المطبخَ وأجلس قليلاً كي يبهرني النور الذي يتأجّج على الزُّلَيْج... وأتذكّر ودَّ نشيط، الذي كان سيجعل من نفسه حارساً دائماً لي، سعيداً لمرضي واستحالة خروجي إلى الشارع دونه، أتذكّره في ذلك اليوم الخاصّ، في حديقة رؤساء راميرو، حيثُ كان يوجدُ سياج من الغرانيت، وعاد منه مليئاً بالبقع الزرقاء، مزيَّناً ورائعاً، ينتفضُ مثل رجلٍ صغير لا تناسبه أشياء النساء. أتذكّرَ متعة امتلاك يمام، استقباله، أصبّ له كاس نبيذ، أجرّبه بعد أن يأخذ الرشفةَ الأولى، متعة لمس أصابعه بأصابعي دون أيّة قوّة وفتحها لأضع بينها أصابعي وأنتظر ضغطَ يدهِ. آخذ يده وأرى زغبها، أظافرها، عقدها وأقول له: «حان موعدُ تقليم هذه الأظافر»، وآخذُ مقصَّ الأظافر وأبدأ أقلّمها له بنعومة، بينما يحكي لي كيف قضى النهار. أو إحساسي بخطواته على الدرج، فأعدّ المائدة وأشعل شمعةً متذكّرةً شموعي الملوّنة، وأشربَ ماءً بينما يشربُ هو نبيذاً، يلمحُ الواحدُ منّا الآخر من فوق البلّور، وكأنّنا الشريكان اللذان كنّاهما.

أشعر طوال النهار بالرغبة بالبكاء شكراً خالصاً لله لأنّني حيّة وما أزال أحبّه.

أخذني البارحة في نزهة بالسيّارة. كان صباحاً نقيّاً وأزرقَ مثل الزبرجد. توقّفَ عند ممرٍّ مرتفع ارتجلَ بعضُ الجيران تحته سوقاً صغيراً للحمام. كنتُ أراها في أقفاصها: بيضاء، ملوّنة، برّيَة، كثّة الذيل، دائريّة ومكزبرة، شديدة الاختلاف والتشابه، بعيون صفراء وخائفة محفوفة بالحمرة. بودّي لو أشتريها جميعاً وأطلقها لتطير. كان يمام يضعُ يديه على فخذيه فوضعت يديَّ تحتهما، كما لو بسبب البرد وأملتُ رأسي على كتفه. كنتُ أسمعُ هديل الحمام وأصوات الباعة الجوّالين. ثلاثة أو أربعة عجائز علموا بأمر السوق، جرّوا بسطات فاكهتهم، مثلّجاتهم الأولى، دخنهم وبذور قنّبهم للتجارة. اشتهيتُ قطعة مثلجات ليمون من المحال عليَّ تناولها في ظرفٍ آخر غير هذا الظرف الذي أستقبلُ فيه طوال الصباح كلَّ ما يقدمونه لي دون ازدراء. أكلتُها بتكلّفٍ مثل طفلة سيئّة التربية. وتساءلتُ ما إذا كنتُ أُبالغ أو أُطيلُ عوزي وعدم استعدادي للشفاء، كي أتبع أكثر ليمام، كي يشفق عليَّ ولا يخطر بباله أن يهجرني.

كانت قطعة المثلّجات في يدي حين أدركتُ أنّني أمضي في طريق سيِّئٍ، وعليَّ ألاّ أسمح لنفسي أن أصبحَ عالةً على يمام، ولعلّ اتباع هذا التكتيك بهدف حجزه هو الخطوة الأولى للهزيمة، وأنّني بحاجة لأن أعرفَ بوضوحٍ الحدَّ الذي سيسمحُ لي بالوصول إليه وبدءاً من أيّ حدٍّ أنا مجبرة على أن أكونَ ما كنته: قويّة، شجاعة ورشيقة. كان عليّ إبعاد السأم، حتى ولو كان هذا تكتيكاً آخر - إلاّ أنّه أقلّ إزعاجاً له - لم يكن من الحكمة فعلُ ما فعلته يومَ الجمعة: أن أقصَّ خصلة من شعره وأضعها في حافظة شعرِ جدّتي، آملةً أملاً فارغاً أن يطلب منّي بدوره أخرى. لم يكن من الحكمة أن أتوسّله أيَّ قسم، أو أن أُقسمَ أنا له، فقد كان يقابلني بوجه أرنبٍ مذعورٍ من مكيدةٍ يخاف ألا يفلتَ منها. لم يكن من الحكمة أن أتعبَه بحبّي، أو أستسلم له أكثر وأكثر، في الوقت الذي

ربّما حدث فيه شيءٌ في الأسابيع الأخيرة من مرضي يفصله عنّي، وكان من الضروري تقريبه مرّة أخرى، لا أن أقتربَ أنا، بل أن أشدَّه كي يأتي هو بقدميه، دون أن ينتبه، بالطريقة التي يعامل هو فيها الزبائن. إذا كنت قد شممت أنّه كلّما استسلمتُ إليه أكثر ينكمشُ أكثر، فلأجلِ أي غباوة ضاعفت رقّتي؟ ألم أكن أراه يشرد، يلتفت إلى جانبٍ آخر؟ كان عليَّ أن أكبح نفسي حتى ولو كلّفني الضعفَ. فحسب تفكيري في هجعة الغروب توصّلتُ إلى استنتاجات مفادها أنّ المتعة مع يمام لم تعد تكفيني، وعليَّ العمل على كسبِ داخله، أسطو عليه فلا أسمح له بعدها بالإفلات مني أبداً. مهمّة معقّدة باشرت بها في أسوأ الظروف.

في صباح ذلك الأحد رأينا، بعدما قرّرتُ أن وهني قد انتهى، دبّينْ في أنفيهما حلقتان، فتوسّلتُ يماماً أن يكبح السيّارةَ، نزلتُ واقتربت مستندةً إلى ذراعه. رجلٌ داكن اللون بندبة تمتدُّ من الصدغ حتى الفم، يقوم بدور المالك. شعرتُ تجاهه بكراهية فوريّة، كان يضربهما بعصا طويلة ثمّ يأمرهما بالإمساك بها بالكرامة الخرقاء التي لملك مزيّف يمسك بالصولجان. راقبني أحد الدبّين بغرابةٍ سلميّة حين داعبته وغرقتُ كاملةً في الرحمة نظراً لشعوري بأنّني أقرب إليه من العالم كلّه «بعدَ هذا الهدف سأنفجر بالبكاء، كم جعلني المرضُ جبانة»، فكّرتُ: «لماذا نزلتُ من هذه السيّارة اللعينة؟» لكنَّ سلك خطميهما وعبوديّتهما وصبرهما، صبر من ولد للحرّيّة، كانت تعذّبني. اقتربَ بعضُ الأطفال، وضحكوا حين رأوهما يهزّان رأسيهما الكبيرين بعيونهما الغائبة وعنقيهما الغليظين، سيقانهما المخلوقة للجريِ ولعب الحبّ. كانا يُنزلان بعد ذلك مخالبهما بحركة من يتوسّلُ الصدقة والأطفال يصفعونهما. كنتُ أبلعُ لعابي كي أتجنّبَ الدموع. لأنّنا كنّا جميعاً هناك منعكسين، يا إلهي: في الرجل الداكن الذي يستغلّهما، في الأطفال الضارين الذين يتسلون، فيهما، في الدبين اللذين يسقطان في النهاية على قوائمهما الأربع ويعفّران جلالتهما بعدها بالتراب.

ـ هيا ـ قلتُ ليمام ـ أعطِ هذا الرجلَ شيئاً، لكن وضّح له أنّه للحيوانين وليس له.

ـ وكأنّك تظنينه خرج بهما للنزهة كي يتسلّيا ـ أجابني ضاحكاً.
ركبنا السيّارة دون أن يُعطيه أيَّ شيء.

أنّبتُ نفسي على سلوكي وشعوري الصبياني. «من الآن فصاعداً ـ قلتُ لنفسي ـ لن تذهبي مكشوفة الصدر، إلا إذا أردتِ أن تتلقّي لبطات. إذا أردتِ أن تستخدمي استراتيجيا، فاستخدميها، مهما كانت ملتوية. الغاية التي تتطلّعين إليها ـ كسب حبّه من جديد ـ تُبرّرُ كلَّ شيء (على الرغم من أنّني وأنا أكتبُ الآن كلَّ شيء أعني كلَّ شيءٍ فعلاً.) إنَّ مُحبَّةً تدافعُ عمّا لها لا تقبلُ الدلال. خاصّة أنها لم تعد شابّة، أو تقوم بجولاتها الأولى الساحرة للحب الذي يبدأ، أي حين لا تكون ولا تبدو شابّةً، عندما لا يحميها هذا الضباب الذي يغشى على العيون الظامئة، ويجمّلُ الجسد المطموع به. لقد كبرتِ في أسابيع قليلة أكثر من اللازم حتى تتركي نفسك للمصادفة. أن تتطلّعي إلى هدفٍ بهذا العلو وأنت في هذا الدنو هو العلامة الأولى الواضحة على أنّك شُفيتِ. اعملي بالنتيجة.»

في الأسبوع الماضي أتممت الثانية والثلاثين.

لم أتأخّر كثيراً في استعادة وزني وتحسين مظهري. أعطاني يمام مالاً أكثر من المعتاد لمرمّاتي وغذائي الإضافي، وأنا بعتُ لجارة متعجرفة طوقَ ذهبٍ أتيتُ به معي من إسبانيا، وبذلك تمكّنت من الدفع للمساجات في فندق سويسرا، الذي بدا لي أكثر الفنادق أوروبيّةً ونصحاً. تَميَّةَ جلدي واختفت تجاعيده. اشتريت عطراً جيّداً وأصلحت نفسي بأكبر قدر من العناية. وأبدو الآن أقل عمراً ممّا كنتُ قبل المرض، وأشكرُ جسدي على تجاوبه معي. النتائج الحسنة تيقّنتُ منها من نظرات يمام الذي غزاه كسل العطالة القائمة على ألّا يحسب حسابي إلا كرفيقة شقّة. فهو يرى أنّنا تحوّلنا إلى زوجين عمليّاً، وهذا من أكثر الأمور رتابة وضجراً بل و أكثرها هشاشة.

عدتُ هذا الصباح لتوزيع الإعلانات في الفنادق. تأكّدتُ في واحدٍ منها، بينما كنتُ أُدخّنُ سيجارة، أنَّ الرجالَ ينظرون أولاً إلى ساقيَّ المتصالبتين تحت التنورة المرفوعة قليلاً، ثمَّ إلى ثدييَّ الراسخين

والبارزين على جانبي فتحة العنقِ ثمّ أخيراً إلى وجهي، الذي ما عاد يرعبني النظرُ إليه في المرآة، وأضفي عليه، إذا أردتُ، مسحة فرحٍ ودلعٍ. لا أخفي أنّني كنتُ أجهدُ قليلاً طبيعتي، شديدة الازدراء مع من ليسَ يمام، ومررت بلحظات شعرتُ فيها بالانزعاج وأنا أفحَصُ ذلك باستحسانٍ بل وحتى باشتهاء. لكن التأكّد من عودتي لأصبح من كنتُها وأنّني في حالة حرب تستحقّ المعاناة.

كانت التجربة حتميّة. أعلن لي يمام أنّنا سنتناول العشاء اليومَ مع فرنسيين: مندوب إحدى الشركات المهمّة جدّاً، الذي يقيم فرعاً لها في استنبول، وزبون عاديّ للحانوت، سكرتير ثقافة أو ما شابه ذلك في القنصليّة الفرنسيّة.

حين جاء يمام ليأخذني كنتُ قد تزيّنتُ وسرّحت شعري في جديلة مجموعة على الطريقة الإسبانيّة، وارتديت بدلة من البروكار جئت بها معي من هناك، ولم أملك فرصة أو على الأقل حاجةً لارتدائها. تفحّصني من أسفلي إلى أعلايَ ثم من أعلايَ إلى أسفلي وأنا أمزحُ متخذة وضعيّة دمى العرض الكلاسيكيّة. اقتربَ منّي فرأيت الجمرَ يضطرم فيه. كان يكفي أن أترك شالي يسقط كي أستهلك تفكيره. ومع ذلك ابتسمتُ ومددتُ يديّ لأوقفه.

ـ جاهزة.

لكنّني كنت من الرضا النفسي بحيث أغلقت الحمّام عليّ لأكتبَ هذه الأسطر.

ـ لماذا لا تتركينني أدخل؟ ـ ها هو يقولُ لي.

مبروكٌ عليكِ، يا دِسي، وإلى الأمام.

شكّلَ العشاء الذي تناولناه منذُ ثلاثة أيّام نصراً. لا أدري ما إذا كان كذلك من وجهة نظر التجارة، لكنّه كذلك بالنسبة إليّ شخصيّاً.

ضمن ما هو سيّئ أنّ المندوبَ الفرنسيّ كان نموذجاً أنيقاً وفي غاية التهذيب، متملّقاً منذ اللحظة الأولى، وكريماً (أخذ على عاتقه أمر دخّاني واشترى لي بعضَ الأزهار) ومناسباً. (لم أعرف سببَ تناولنا

العشاء معه، على الرغم من أنّني كنتُ أتوقّعه، عرفته فيما بعد: كان يمام يطمحُ لفرشِ أرض صالوناته ومكاتب محلّه الجديد بسجّادٍ من حانوته). لم يكن السكرتير القنصلي، الذي لا بدَّ أن يمام عرض عليه - أفترض هذا أيضاً - عمولةً، سيّئاً، لكنّه كان أقصر، أقلَّ رشاقة وجمالاً من ابن بلده. كلاهما كرّماني أثناء العشاء وتصرّف معي وكأنَّ يمام غير موجود. وأنا في جنّتي على العكس ممّا كان يمكن أن يحدث قبل ذلك. لم يخطر لي أن أطلب منه ناراً، لأسبابٍ منها: أنَّ الآخرَيْن كانا يستميتان في تقديمها إليّ. أعرف أنَّ فرنسيَّتي ليست سيّئة، لكنَّ نبرتي يستظرفها الفرنسيّون فحاولتُ إبرازها. تحرَّكتُ على خطٍّ خطيرٍ كخطّ البهلوان: فمن جهةٍ أشقُّ البابَ كيلا يشعرا مسبقاً أنّهما منبوذان، ومن جهة أخرى أردّه كي أُضاعف الرغبة بفتحه بدفعة واحدة.

لا أُنكِرُ أنَّ اللعبة استهوتني، ولأنّ ما من واحد من المتطلّعَين إلى ودّي - أعْتقدُ أنّني أستطيع أن أسميه كذلك - كان يهمُّني، فقد مضى الوقت يمضي دون أن أُرجِّحَ واحداً منهما على الآخر، الأمر الذي سعَّرَ المنافسةَ بينهما وأبقى عليهما آملين مثلَ خادمين ينشدان يدَ دونيا ليونور البيضاء، وكنتُ أُربكُ يمام الذي يراني أُمَثِّلُ لأوّلِ مرّة ويحضر تمثيلي وكأنّه يحضرُ مباراة تنس، ملتفتاً برأسه من هذا الجانب إلى الآخر دون أن يكون عنده أدنى فكرة عن الكيفيّة التي ستنتهي بها.

أمقتُ الكونياك، أيّاً كانت جنسيّته. ومع ذلك فقد شربت ليلاً كونياكاً فرنسيّاً وأطريتُ على رائحته وعلى الحرقة البسيطة التي تصعدُ من عمق الحلق إلى الأنف. كنتُ لطيفةً ومرحة، أي أنّني أصغيتُ لهم، فهكذا تبدو المرأةُ بالنسبة إلى الرجل أكثر لطفاً ومرحاً.

انتبهتُ فجأةً إلى أنّني لم أطلِ أظافري، فخامرتني رغبة بالإطاحةِ بكلِّ شيءٍ مثل ممثِّلَة حديثة العهد تخطئ في أوّل تمثيل لها. تماسكتُ وتنبَّهتُ. بالمقابل ترجمت المقطوعة الشعريَّةَ التي تقول فيها عذراء العماد بأنّها لا تريد أن تصبح فرنسيّة. وهما أكّدا لي أنّه لا يهمّهما، ففرنسا تملك ما يكفي من العذراوات.

- إذا كان كلُّ الفرنسيين مثلكما فلن يكون هناك الكثير منهنّ - أجبتُ.

حكيتُ نكتتين أو ثلاثاً من بلدي وسمعت أكثر من بلدهما، كانت سوقيّة، وتزعجني، لكنّني تظاهرت بأنّني مشوّشة.

من كان مشوّشاً فعلاً هو يمام، وهو ما هدفتُ إليه: أن يرى بوضوح أنّنا نحن الأوروبيين نتمتّع جيّداً فيما بيننا. وفي لحظة محدّدة راحت قدمه ـ لم يكن ممكناً أن تكونَ قدم آخر، فأنا لم أعطِ مبرّراً واضحا للآخرَين ـ تبحثُ عني تحت الطاولة فتوجّهتُ إليه من فوقها بتلقائية المنزعجة:

ـ عفواً، يا يمام: هل قلتَ لي شيئاً؟

نفى بحركة من رأسه خجلاً وأخرج، لا أدري من أين، ابتسامة مصطنعة، فعمّقتُ الطعنة:

ـ ربّما تأخّر عليه الوقت. فيمام يصحو باكراً ليفتح حانوت البازار الرائع.

أردتُ أن أُثبت أنّ من كان يعلم بذريعة العشاء هي أنا، ورحتُ أمدح سّجادَ، وبسط، ومطرّزات تركيّا، إلخ. وعلى الأخص الموجود منها عند «صديقي يمام».

ـ عندما ترغب نذهب ـ ختمتُ كي أؤكّدَ أنّني غير راغبة بذلك.

ـ ألا تريدان أن نتناول كأساً في مكان ما لطيف؟ ـ قالَ المندوبُ ـ فأنا لم أخرج حتى الآن من حي غالاتا ولا أكادُ أعرف استنبول.

ـ وربّما لن تخرجَ منه أبداً ـ أجابَ السكرتير ضاحكاً، وكان يُدعى أرْمانْدْ والآخر دِنيس ـ العائلات طوال عمرها هنا تقول، إنّ محمّد الفاتح فتح المدينة في العام 1453 لكنّ الأتراك لم يفتحوها فعلاً إلاّ في العام 1983 وبالسيّارة. الآن هي فعلاً لهم. يقالُ إنّ استنبول مسقوفة بالذهب، لكنَّ نصف المليون من السيّارات لا يسمح بالبرهان على ذلك.

نهضَ يمام. خفتُ حماقةً منه فقد نسيتُ أنَّ الأتراك لا يميلون إلى هذا، ويفضّلون نظماً أخرى لإفهام ما يريدون أو ما يزعجهم.

ـ أتمنّى أن تكنّا لي الودّ ذاته الذي أكنّه لكما وأنا أودّعكما، كما أتمنّى أن تتمتّعا بسهرة لطيفة.

قمت بحركة من ينهض.

ـ آه، لا أعتقد أنك تريد أن تأخذَ بِسيا معك. ـ هكذا ناداني بِبِسيا خلال العشاء كلّه ـ فبِسيا ملكة هذا الاجتماع، ودونها سيسقط الليل بلا رأس.

ـ مثل ماري أنطوانيت؟ ـ سألتُ.

ـ لا، لا ـ قالَ يمام ـ فلترافقكما بِسي باسمي. فرغباتكما أمرٌ بالنسبة إليّ.

ـ ما ألطف الأتراك ـ علّقَ المندوب، مؤكِّداً أكثر على الاختلافات.

نهضَ الفرنسيان أيضاً.

ـ سنتّفق على يومٍ نذهبُ فيه إلى السوق المسقوف ـ علّق أرماند.

ـ عندما ترغبان.

كان يمامُ أمامي؛ ينظرُ إليّ. مددتُ له يدي وراحتها إلى الأسفل. تردّد، قبّلها ومضى.

من المفروغ منه أنّه منذ تلك اللحظة لم يعُد يهمّني ما قد يحدثُ. انتهى تمثيلي الذي قمتُ به لمشاهدٍ وحيد غادرَ الصالةَ توّاً. وقد كلّفتني أطالتُه أكثر من بَدْئه، لكنّني أطلتُه. كنتُ أعرف أنّ معركتي لم تكن معركة ساعاتٍ ولا أحد يتقن دوره لعرضٍ واحدٍ.

ذهبنا إلى فندقِ المندوب، الذي ربّما كان أغلى فنادق المدينة وكنتُ في الصباح أوزّعُ فيه بطاقات مثل من تعمل براتب وها نحن الآن هناك وكأس في اليد، جالسين إلى طاولة محتشمة، نرقصُ من حينٍ لآخر. كان واضحاً أنّ السكرتير القنصلي، الذي لا أدري ما إذا كان عازباً أم متزوّجاً، قد تخلّى عن إمكانيّة الحصول عليّ لصالح بِنيس. اخترتُ هذا بين السيف والجدار. ويبدو أنّني كنتُ بين السيفِ والجدار. فبعد رقصة بطيئةٍ ودّعنا السكرتير بودٍّ كبير، لكن ليس دون وعدٍ بالعودة للقائنا في الحال.

ـ أخيراً ها نحن وحيدين ـ قال المندوب بنوعٍ من الأصالة غير المؤكدة.

ـ نسبيّاً ـ أجبته مشيرةً إلى الصالة المزدحمة.

ـ هل تريدين أن نبقى أكثر قليلاً؟

كان ينظرُ إليّ بعينين لم أتبينّ حتى تلك اللحظة لونهما: عسليّتان، قهويّتان، ضاربتان للخضرة، رماديّتان، بحسب النور، لكن وبما أنّ النور هناك كان مضطربا بقيت لا أدري على أيّ لون أثبت: على كلّ الأحوال كانتا جميلتين.

ـ آه، لا ـ أجبته خافضةً عينيّ.

فهمتُ بالغريزة أنّ ساعة الخجل قد حانت. شعرتُ به، وكان باستطاعتي أن أخفيه تماماً، ومع ذلك فما كان يهمُّ هو المبالغة به بعد الاستعراض، الرفض والهرب لإثارة الصيّاد، إذ بهذا الشكل يظنُّ نفسه أنّه انتصر مرّتين: بالصعوبة كما بالصيد.

ـ تأخّرَ الوقتُ كثيراً. لا تُزعج نفسك بتوصيلي. سأطلبُ سيّارة أجرة.

ـ ماذا تقولين؟ أوّلاً سأوصلك أنا بسيّارة الأجرة، فأنا لا أملك سيّارة ولا أعرفُ قيادتها في هذه المدينة التي لا أثق بها... ثانياً لا أريدُكِ أن تذهبي. لا تسبّبي لي كلّ هذا الحزن.

ـ لا تبالغْ، يا دِنيس. أنت تخيفني.

كنتُ أفكّرُ بأنّ خوف المرأة من الاستسلام للرجل يثيره أكثر. طبعاً، مع يمام أتصرّف بطريقةٍ مختلفة، وهذا بالضبط لأنّني لم أفكّر بالأمر.

ـ أساتُ التصرُفَ بعدم ذهابي مع يمام. هذه هي المرّةُ الأولى التي أرتكبُ فيها مثل هذه الحماقة.

كان المحتالُ يطالبُني باستنتاج أنّها لم تكن معاشرتي الأولى مع رجلٍ، لكنّها فعلاً الأولى مع من ليس له حق عليّ (لم أقتنع بتوضيح العلاقة بيني وبين يمام). أنا نفسي كنتُ أعجبُ من امتلاكي لتلك المعارف التي تحدثُ تأثيراتٍ جذريّة: كان دِنيس عند قدميّ عمليّاً ويعبدني ولو بطريقةٍ بلهاء. ولكي لا أُوخذ على أنّني عفيفة وبسيطة، تابعتُ:

ـ عليّ الآنَ أن أنام في بيتِ صديقةٍ حميمة، زوجة زميل أرماندْ في القنصليّة الإسبانيّة. هل ترافقني إلى الهاتف قبلَ أن يتأخّرَ الوقت؟

- لو تجرّأتُ. عندي في الفندق جناح فيه غرفتي نوم، أعطيكِ غرفة وصالون. اقبلي، يا دِسيا.

- آه، دِنيس. كيف يمكن أن تفكّر بـ...؟ أنتَ صيّاد مرعب. السيئ في الأمر أنّني بلهاء.

- الأوّل ليس صحيحاً؛ والثاني أيضاً. فأنت أكثر من عرفتُ من النساء في حياتي روحانيةً وسحراً (هذا كي أقوله بلغة الاثنين).

لم أتكلّم؛ نظرتُ إليه بإمعانٍ - كانت عيناه ضاربتين للخضرةِ - وضعتُ يدي على يسراه، فسارعت يمناه لتغطيها.

لدِنيس جسد رياضيّ: لكنّه يمارسُ الحبَّ بكثيرٍ من الغرارة والسرعة. تذكّرتُ لثوانٍ راميرو. لا أدري ما إذا أراد أن يترك الفسطاطَ الفرنسي منتصباً، واضطرّ أن يضحّي بفسطاطه، لكنّه بهذا الجسد يمكن أن يمارسَ عارياً أفضلَ الرقصات. أو ربّما - أتذكّرُ الآن لاورا - لم تكنِ الرتابةُ (أو بالأحرى العادةُ) عدوّة الحبّ، بل حليفاً يوجدُ من لا يتعلّمُ استخدامَ قوّته.

لم يكن بوسعي تسليمه نفسي، حتى ولو أردتُ. مع كلِّ حركة من دِنيس، مع كلِّ احتكاكٍ وقبلة كنتُ أردِّدُ: «لو كان يمام لفعل هذا، أو قبّلني في هذا المكان، أو لمس ذاك النابض.» الحبُّ الجسديُّ لا يُرتجَلُ؛ بل ولا يرتجلُ إلا أقل من الحبِّ الآخر، الذي لا يتطلّبُ إلا براهين قابلة للتزييف. في الحبّ الجسدي يجب إظهارُ كلِّ شيءٍ والبرهانِ عليه. اكتفيتُ بأن أظهرت بعض الخجل وكثيراً من الجهل، كيلا أسبّبَ له الذعر؛ أي أنّني لعبتُ الدور السهل لمن لا تعرفُ شيئاً تقريباً وتضطرم رغبة بأن يعلّمَها رفيقها كلَّ شيءٍ.

- أسعدتِني جدّاً، يا دِسيا - همس دِنيس في أُذني.

- نادِني دائماً هكذا - همستُ في أذنه.

بدا لي مناسباً جدّاً أن يكون لي اسمٌ مختلف، ككلمة سر، بالنسبةِ إليه. وكانت الاستفادةُ من خطئه تحويل الحاجةِ إلى فضيلة. وهذا ما يشكّلُ تناقضاً في ظروفنا.

عند الظهيرة تقريباً، وأثناء تناول الإفطار - ويدي اليسرى بين

يدي بِنيس ـ هتفتُ ليمام. كان قد مضى عليه ثلاث ساعات في البازار. قلتُ له إنّني أُكلّمه من بيت باولينا.

ـ هل أنتِ متأكّدة؟ ـ سألني بنبرة لم أعرف كيف أُفسّرها.

ـ كلّ التأكيد، فأنا أراها أمامي الآن.

قلتها له دون تلعثم، لكن دون إفراطٍ بالتأكيد، كي يفسّرها على هواه. كنتُ أُحبّ يماماً كثيراً حين أكذب عليه أو أُخفي عنه الحقيقة؛ وكان علي أن أعنّفَ نفسي أكثر كيلا أخرج جرياً لأعتذر منه.

ـ متى ستأتين؟

ـ ما إن أتمكّن. قبلاتي. ـ وأغلقت.

ـ تبقين للغداء معي ـ أكّد بِنيس.

ـ لن أستطيع تناولَ الغداء بثياب الليلِ هذه، وإن كنّا في استنبول: ستذهب بشهيّتي.

ـ في الأسفل يوجدُ بوتيك. نهتف لهم كي يصعدوا بشيءٍ لك.

ـ أُفضّلُ أن أهبط بنفسي: لا أثقُ بذوق التركيّات وأقل منهنّ الأمريكيات، عندما ننتهي سأرتدي هذه التنورة وقميصاً من قمصانك وأهبطُ.

ـ ليسجّلوه على حسابي. وليتأكّدوا من ذلك بالهاتف إن أرادوا.

ـ أشكركَ يا بِنيس، لأنّني لم آتِ معي بنقود.

ابتعد عن الطاولة. كنتُ قد لففت نفسي بملحفة. نظر إليَّ مليّاً.

ـ من المحزن أن تفكّري بارتداء الثياب. قلتِ توّاً «عندما ننتهي». ماذا تقصدين؟

ـ الإفطار طبعاً ـ ابتسمتُ.

أخذني بين ذراعيه وحملني إلى السرير. كانت الممارسة الثانية أفضل من الأولى، لا أدري ما إذا كان بسبب تألّقه الفرنسي أم الغيرة التي لاحظتُها في صوت يمام. ومع ذلك شردتُ لحظةً: وأنا أتساءل عمّا إذا كانت روحي روح عاهرة. كم كان بودّي لو يعرف يمام بذلك.

أحكمتُ وصولي إلى البازار ساعةَ الإغلاق: كنتُ أرتدي تنورة

وقميصاً داكني الزرقة، ومهما يكن جاهلاً بذلك فإنّه سيستخلص علامتهما الجيّدة. لم أضع غير مشبكٍ جوهرة فاخرة على الطيّة. اعتبرتُ من المسلّم به أنّ الذي سيدفع إنّما هي مؤسّسة المندوب، فتجاوزت الحدّ قليلاً؛ لم أفرح بمثل ذلك الشراء قط. استفدتُ من كيس القماش الأزرق البحري الذي وضعوا لي فيه القطعتين لوضع لباس الليلة السابقة فيه، ولإعطاء انطباعٍ أوّلي بالسفر، وهذا ما حاولته.

رأيتُ يماماً في الباب، جالساً على كرسيٍّ صغير بينما أخوه يجلس على آخر يكادُ كرشُهُ يلامسُ الأرضَ. فغرا فميهما ذهولاً عندما رأياني أتقدّم في شارع البازار الضيّقِ الذي يصبُّ هناك. كان الصبيةُ ومحمود يتهيّؤون للإغلاق. وخشية مما يمكنُ أن يحدث بيني وبين يمام هرب محمد إلى دكان مجوهراته.

ـ أنا سأغلقُ ـ قال يمامُ للصبية ولي ـ: هل تدخلينَ؟

دخلنا فأغلق من الداخل. لم يتكلّم. أخذني بنعومةٍ من خصري وصعدنا إلى الطابق العلوي. في أقلّ من دقيقةٍ نزعَ عني لباسي الأزرق الداكن وخلع بنطلونه والقميص، فأخذتُ ما تبقى على عاتقي. سرعان ما عرفتُ لماذا كان لا بديل عنه، وكيف أفادت مجامعتنا الفرنسي كتدريب تحضيري. كان جسدي المُنهَكُ مثل ثمرةٍ ناضجة.

حين كنّا في الطريق إلى البيت ومررنا بمحطّة سيرقجي صفر قطار. دائماً كانت صفرات القطار تطعنني في روحي؛ لها في نفسي وقع الخراب، الوداعِ، البلوى الواخزة والمتطاولة. ارتعشتُ. ما الذي كنتُ أخافه؟ ألا أملكَ من جديد يماماً الذي ينظرُ إليَّ من حينٍ لآخر بطرف عينه مثلَ خبيرٍ يعاير جوهرة أو تاجر حيوانات يعاينُ مهراً؟ بلى كنتُ أملكه. من هنا تماماً جاء خوفي. عادَ القطارُ وصفر. وعلى الرغم من عزمي الحفاظ على الحياديّة الفظّة لم أتمكّن من الامتناع عن أخذ يمام من ذراعه.

صعدنا درج البيت، كما جئنا، بصمتٍ. شعرتُ بعيني يمام مغروزتين في مؤخّرتي. منذ زمنٍ بعيدٍ قال لي هذه أجمل ما فيَّ من أسارير، وهي ما تجعله يجنُّ بجسدي.

ـ أسارير، بالقشتاليّة ـ قلتُ لهُ بفضولٍ كبير ـ جزء من الوجه.

ـ أليسَ الجسدُ كلّه وجهاً؟

توقّفتُ في بسطة الدرج الأخيرة. كان يمامُ يشدُّ حنكيه. فتح البابَ بيدٍ رصينة قليلاً. تركني أدخلُ وأغلق الباب بقدمه دون أن ينظر.

ـ تعالي ـ همس.

قادني من يدي إلى السرير وبرهن لي أنَّ جسدي لا يستطيعُ أبداً نسيانه.

منذُ شهرين وأنا أُجبِرُ نفسي على التكتُّم؛ لا أُغازلُ يماماً ولا أستثيره. أنظرُ إليهِ أحياناً موافقةً وآملُ أن يفهمني. أُشاركه في كلِّ جنونِهِ وبدعه، كي يفهمَ بدوره أنَّ جسدي غير قابل للنسيان. لكنّني لا أعلِّقُ بعد عناقاته، مكتفية بالبقاء صامتة أنظرُ إلى السقفِ وأُدخّنُ سيجارةً. ينتظرُ هو جملةً وقبلةَ الامتنان، الإطراء أو المجاملة التي كانت تنتهي بها، حتى وقتٍ قريب، ممارستُنا للحبّ. لكنّني أخرس الآن. ما ليس باستطاعتي منعه تلك الانفجارات التي تحدثها في جسدي يداه أو أيٌّ من أعضائه؛ وهو لحسن الحظِّ ما لا يُدركها بكثير من الفطنة.

سابقاً كان هناك مناسبات أؤنّب فيها نفسي: «أنتِ بلهاء. تتكلّمين كما يتكلّمون في الكتب» ثمَّ أسكتُ ميّتةً من الخجل فينظرُ يمامُ إليَّ ويُشجّعني على الاستمرار، وهذا ما كان يمنحني ذريعةً كي أتصوَّرَ أنَّ الكتبَ التركيّة ربما كانت تعبّرُ عن الحبِّ والوله بلغةٍ مختلفةٍ عن لغتنا، وأنَّ كلماتي ربّما ما يزالُ وقعها غير معهود عنده حتى الآن. أصبحتُ الآن أكثر قناعة من أيِّ وقتٍ مضى أنَّ الكلمات لا تكادُ تفيد شيئاً. قدرتها ضئيلة، قصيرة، مثل ملابس داخليّة انكمشت من كثرة الاستعمال والغسل. لا شكَّ أنّه لا يُصدّقني حين أجهر له بحبّي، لا يصدّقني، لأنّه سمعها تُقال وبالطريقة ذاتها مرّاتٍ كثيرة. كم من النساء صرّحن له بذلك، كم منهنَّ صاح باسمه وقد مخرهنَّ في ما يشبه الاحتضار. جميعهنَّ انتهين بالطريقة ذاتها: اللامبالاة والنسيان...

اللعنة على الكلمات. يجبُ ألاّ تقولي للمحبوب إنّه المُطلَقُ وأنت

العبدةُ؛ فهو يعرف ذلك، لكنّه لا يصدّق. يجبُ ألاّ يُقال له بل أن يُبرهَنَ له عنه. وكيف؟ لأنَّ المحبوبَ دائماً يلتفت إلى مكانٍ آخر، يفكّر بشيءٍ آخر، حتى يخطر له أن يملكك، فيملككِ ويأكلكِ ويهضمُكِ. كما قلت في تلك الليلة للكاتبِ الإسبانيّ إنَّ أكثر ما أودُّه هو أن أصير عبقريّة في اللغة، كي أُصيبَ في التعبير الذي يقنع يماماً بحبّي. أو أن أبتدع لغةً أخرى، هذا إذا كان من الممكن التعبير عن رتابة الوله بطريقةٍ أخرى، بطريقة غير رتيبة، بلغة لم تُستعمل بعد، مصقولة، غير معهودة، بمفرداتٍ تبدو عصافير وأزهاراً في كونٍ أكثر حرارة وضوءاً، كالكون الذي ظننتُ أنّه استنبول. ملعونة الكلمات، لأنّنا حتى عندما نلعنها علينا أن نستخدمها.

كان قد مضى أربعةُ أيّام على لقائيَ الأوّل مع دنيس. وفي الخامس تناولتُ معه غداءً لطيفاً وخالياً من أيّة تعقيدات لاحقة. في صباح اليوم العاشر أبلغني يمام وهو يطيرُ فرحاً أنّه وقّع عقدَهُ مع الفرع الفرنسي،وبناءً عليه سيقومُ بفرش القاعات الفخمة للبناء بالسجّاد حسب مخطّطات المعماري.

ـ إنّها أموالٌ طائلة، يا رائعتي، وأنا مدينٌ في قسم كبيرٍ منها إليك.

لم يُشر بعدها إلى الموضوع، بل وبدا نادماً على هذا التلميح المقتضب. على امتداد الصباح كان يدخل إلى الحانوت رجلٌ تركيٌّ، جافٌّ، مُدَمّلٌ وقبيحُ الطلعة، ويُخرجُ معه يمام. غابَ نصفَ ساعةٍ. وعندما عادَ بدا أن الرضا قد تبخّر عنه بشكل مرئي جعلني أسأله ما إذا كان العقد الفرنسيّ قد انهار.

ـ لا؛ الأمر يتعلّق بموضوع آخر. هل تريدين أن تصنعني معروفاً مهمّاً معي؟

ـ أنت تعرف أنّني أفعل.

ـ سأعطيك ظرفاً، تحملينه في الرابعة من هذا المساءَ إلى عنوان مكتوبٍ عليه.

قال عنواناً - كان بيتاً في ينيكوي - سجّلته في عقلي.

- هل هذا هو كلُّ شيء؟

- لا أستطيعُ أن أقولَ لك أكثر. عليكِ أن تعملي حسب الظروف. فأنت من المهارة والذكاء بحيث لا تحتاجين لمساعدين.

تناولنا الغداءَ معاً. كان في غايةِ اللطف. تباهى بأنّه يملك إلى جانبه أجملَ امرأةٍ في المطعم، وهو ما كان من البساطة بحيث أشعرُ بالاعتزاز. كان المطعم على حدود البازار وكنّا نتردّدُ عليه في الماضي كثيراً. الحقيقة أوّل مغازلة فيه جاءتني من صاحبه، وهو ينشر الفوطة عند قدميّ، فبزعمه كنتُ أبدو أكثرَ شباباً من المرّةِ الأخيرة.

جلسنا في الهواء الطلق. من فوق شجرة مركزيّة راحت داليةٌ تنشرُ أغصانها. في الأسفل حوض ماء فارغ يفيدُ كسطح لقطّةٍ وجرائها الخمسة أو الستة. بعضُ الدكاكين الصغيرة مفتوحة حول هذا الفناء، نُشِرَ أمام واحد منها سجّادتان رائعتان. نسمة فاترة تحرّك المناديل الورقيّة. كنتُ أنظر برقة إلى دعابات القطط الصغيرة. كانت الأمّ تأكل من صحن وضعه لها الألمان، إلى أن جاءَ النادلُ وأفزعها بصفقةٍ من يديه. كانت القططُ الصغيرة التي تعلّمت لعقَ سيقانها تفعل ذلك مفتونة بنفسها. واحدٌ منها لم ينقطعُ عن النظر إلى الأعلى وكأنّه ينتظرُ أن يطيرَ في أيّة لحظة؛ وآخر جعله فضوله يبعثر نظره في كلِّ الأشياء دون أن يتوقّف عند أيٍّ منها، فيبدو انطوائيّاً. قلتُ ذلك ليمام فقبّلني على شفتيّ ونهض ليطلب موسيقى. تحت إحدى مظلاّت الدعاية الصغيرة كان هناك نافورة يخرج منها الماء من خزّان إذا ما ديْسَ على عتلته. على الخزّان يستند لوحٌ مشغولٌ من المرمر لا صاحب له. دفع السيّاحُ الألمان، الذين سئموا من تعقيدات الفواتير كلٌّ فاتورته عندما نهضوا.

طالَ غداؤنا والحديث بالراكي. استحضر يمامُ لحظاتٍ حلوة كانت لنا، متعلّقة جميعُها برحلتنا عبر الأناضول. كنتُ أتساءل لماذا هذا التداعي الملحاح للأفكار. أخيراً راح وفمه على مقربة من أذني يترجم لي أغنية عربيّة بدأت توّاً:

- أنا طلبتُها وتقول كلماتُها: «أنتَ اسمي ونور نجمي، وغصن نعناعي، الذي أزيّنُ به شايي وبصمات أصابعي. أنت قلب المساء، الذي

أنا فيه سعيد. أنت الزورق الذي يحملني، ويهبط النهر إلى بحر الجمال.»

لم أكن أريدُ أن يهبط بي النهرَ. رحتُ أوافقه برأسي متغلّبة على نفسي بينما كان يتبنّى أبيات الأغنية.

ـ «أنت عطر الكون. لن أستطيع فراقك، لأنّك جئت معي.»

سحب دون مقدّمات ظرفَهُ ووضعه على الطاولة.

ـ قرَّرتُ أن أرافقك بنفسي. ليس إلى بيت الرجل الذي ستعطينه إليه بل قريباً منه. هل نمضي؟

كانت الطريقُ طويلةً، ويمام يدندنُ لحن الأغنية ويردِّدُ بعض أبياتها. تذكَّرتُها أفضل منه، ربّما كان قد ابتدعها. اقتربنا من إحدى مناطق البوسفور السكنيّة، حيثُ تنمو النباتاتُ بتناسق بين البيوت الموسرة وفوق سياجات الحدائقِ وكأنَّ كلَّ شيءٍ في الحياة متّسق ولا وجود للشرِّ فيه. كان المساءُ حاراً وعطراً والعشب استعاد خضرته الكثيفة وأزهر الكرزُ. أوقف يمامُ السيّارةَ وأشار إلى كَفرٍ، لم يكن كبيراً لكنّه في غاية العناية.

ـ آملُ أن يُرسِلَ هو فيما بعد من يأخذك. إذا حدث هذا قبل السابعة فساكون في البازار وبعدها في بار المحطّة.

نظرتُ إلى عينيه محاولةً أن أفكَّ لغزاً له كلّ تلك الروعة. قبّلني بجرأةٍ وفتحَ لي بابَ السيّارة.

ـ تشاو ـ قال.

كان الرجلُ تركيّاً هائلاً. لا بدّ أنّه ثريٌّ جدّاً، فكل تفصيلٍ في البيت جاء ليبرهن عن ذلك. من نوافذ الصالون الواسعة يُلمَح المرسى وزورق يترنّح على الماء. تبخّر خوفي من عدم التفاهم معه في الحال: فقد كان يتكلَّمُ، مثلَ أريان، أربعَ أو خمسَ لغاتٍ، يخلطُ بعضَها ببعضٍ ويبعد الفجوات المحتمَلَة بيديه. خيّرني بين الشاي والويسكي، فاخترتُ الثاني توجّساً. أخرجتُ بعدها الظرفَ من حقيبتي ووضعته أمامه على الطاولة. فتّحه دونَ أن ينظر إليّ فرحتُ أتفحَّصُ كلّ ما كانت تطالُه عيناي. كان من الصعب العثور على شيءٍ ترتاحان عليه، فقليلةٌ هي

المرّات التي رأيت فيها مجموعة من الأشياء بمثل ذلك الغلاء والبشاعة، جُمِع بينها بلا مسؤوليّة تقطعُ النفس. كان الرجلُ يعدُّ دولارات جئتُ بها في الظرف. أخيراً قال شاخراً مثل فرس نهرٍ وماسحاً عرقه:

ـ النقصُ كبير في المبلغ، يا سيِّدة. أم أنّك آنسة؟

ـ آنسة ـ فضّلتُ أن أُجيب.

ـ دولارات كثيرة. لا أدري ما إذا كان يمام (هل اسمه يمام؟) يعرفُ ما يُعرِّض نفسَه إليه. منذ مدّة وهو يلعبُ بالنار. وتنظيمي لا يسمحُ بالخطإ ولا بالاحتيال.

هذا ما فهمتُه من غرغرتِه متعدِّدة اللغات. ترك دقيقةً تمرُّ، بدت لي لا تنقضي. لم يكن عندي أدنى فكرة أستندُ إليها. ابتسمَ فجأةً، هذا إذا كانت تستحقّ تلك التكشيرة أن تُسمّى ابتسامة.

ـ ما لم تكوني أنتِ المكلَّفة بتصفية كامل هذا الدين.

ـ أنا لا أملك. ـ بدأت أقولُ، بينما رحتُ أفتحُ حقيبتي، لا أدري لماذا.

ـ آه، بلى تملكين، أنا واثق من أنّك تملكين.

حرّك كرسيّه الكبير ليقرِّبه من كرسيّ. فهمتُ. إذن يتعلَّقُ الأمرُ بمصيدة. والخروج من هناك، لا أقول دون خدشٍ، بل سليمةً حلمٌ بعيدُ المنال. كان الصالون مليئاً بحبال الأجراس لاستدعاء الخدمَ. أن أنهال على رأسِ هذا البدين بشيءٍ يمحقه كان احتمالاً قصيّاً. عليَّ أوّلا أن أتمكّن من منعه من النهوض، لأنّ طوله يقاربُ المترين. كان خلال ذلك يضحكُ هازّاً رأسَهُ. رفع غطاءَ سكّريّةٍ ذهبيّة ومدّ يدَه إليّ بملعقة في غاية الصغر.

ـ هل تريدين؟

طبعاً لم يكن سكّراً.

ـ لا، شكراً.

نشقَ منه بهذه الفتحة وتلك من أنفه العريض. لمسَ سلحفاةً ذهبيّةً أيضاً وكانت جرساً فظهر خادم يرتدي فراكاً

ـ لا أريد أن يقطع أحدٌ عليّ خلوتي. إذا هتف الوزيرُ فأنا سأهتفُ

له، ليقلْ أين هو. وإذا كانت ابنتي فسيذهبون في السابعة إليها حيث تكون.

صرفَ الخادمَ بإيماءةٍ. لم أكن خائفة، كان كما لو أنّ كل ما يحدثُ يحدثُ لشخصٍ آخر؛ حتى أنّني لم أحمل ضغينة على يمام. كنتُ مقتنعة بأنّهم يستطيعون اغتيالي هناك بالذات والرمي بجسدي في البوسفور دون أن يعودَ أحدٌ ليسمعَ باسمي. إذاً كنتُ واعيةً أنّه لم يبق أمامي مخرجٌ غير أن أدفع ما ينقص الظرفَ. فقط كنتُ آملُ ألاّ يكون الرجلُ ممّن يتمتّعون بهوايات فظيعة أكثرَ من اللازم. ودون أدنى سببٍ تذكّرتُ صديقتيّ في وشقة. كانت ومضة: رأيتُهما في الحديقة العامّةِ مع أولادهما ينطّون حولهما ورأيتُ نشيطاً. قلتُ لنفسي: «ليست ذكرى سيّئة تماماً.» أعادني الرجلُ الذي كان يرفعُني عن الكرسيّ من كتفيّ إلى الواقع.

لا أدري كم عمره، ربّما تجاوزَ السبعين، لكنَّ هذا سيّان: فهو لن يسألني رأيي؛ يجبُ تصفية دين لا أكثر، فضّلتُ ألاّ أشغل نفسي بمن سيقبضه. أغمضتُ عينيّ وشعرتُ أنّه يأخذني طيراناً ويضعني بكثيرٍ من الاعتبار على أريكةٍ بضخامته. اهتمَّ براحتي بأدبٍ. أكّدتُ. انهار بجانبي وعرّاني ببطءٍ قاتل قطعةً فقطعة. أبقيتُ على عينيّ مُغمَضَتي قبَلَ أهدابي.

ـ هكذا، هكذا ـ قال.

انتهى من تعريتي. قلقت؛ أريدُ أن أنتهي بأيّة طريقة. لم يكن يحدثُ أيُّ شيء. ينقضي الوقت ولا شيء يحدثُ. أحسستُ به ينهضُ. فتحتُ عينيّ، وإن لم يكن بالكامل. كان الرجل يستمني غائر العينين بجانبي. ولو لم يكن بسبب لهاثه، لسمعتُ طيران الذبابة، التي لا أظنّ أنّها موجودة ما لم تكن من ذهب. انتهى بحشرجة وتنهيدة. عندما عدتُ ونظرتُ إليه كان قد سقط في كرسيّ، لم يرخ ولاحتى زنّاره. مضت دقائق لم أجرؤ فيها على الحركة. سمعته يقول:

ـ ارتدي ملابِسَكِ فأنت حلوة جدّاً. تُعجبينني كثيراً. خذي عن هذه الطاولة ما تريدين ما دمت لا تعطينه لهذا الكسول الذي أرسلك.

ارتديتُ ثيابي بسرعة. نظرتُ إلى الطاولة. أشرتُ بإصبعي إلى السكّريّة. راحَ الرجلُ يضحكُ.

ـ بالتأكيد ستُعطين المُحتوى ليمام (اسمه يمام، تذكَّرتُ الآن)، لكن إذا أعجبتك...

برمَ الغطاء وناولني إيّاها. خبّأتُها في حقيبتي.

ـ قولي له إنّه للاستخدام الشخصي جدّاً. بالمناسبة يجب ألاّ أعلم بعكس ذلك. فهذا قادرٌ على أن يبيعَ أُمّهُ. وسأعلم بذلك حين أريدُكِ أن تعودي.

شدَّ الحبل فجاءَ خادمٌ آخر.

ـ ليحملوا السيِّدة أو الآنسة إلى حيث تذهب. وداعاً ـ قبَّلَ راحةَ يدي. كنتُ خارجةً ـ قولي لي من أين أنت؟

ـ إسبانيّة.

ـ تصوَّرتُ ذلك. حماستُك خاصّةٌ إسبانيّة.

فكَّرت بولهِ الجميلة العارية لابن بلدي غويا فابتسمتُ. على كلّ الأحوالِ أن تجتازَ الواحدةُ وهي في الثانية والثلاثين من عمرها، امتحاناً بنجاحٍ بهذه الدقة لم يكن أمراً سهلاً.

أمرتُ السائقَ أن يتركني في إمينونو. اشتريتُ طعاماً للحمامات ورميته في الهواء فتحوّل كلُّ شيءٍ حولي إلى خفقِ أجنحة. خطر لي أيضاً أن أرمي بمحتوى السكّريّة، لكنّني كنتُ قد وضعتُ خطّةً أخرى. كانت الشمسُ ما تزال حاميةً. غطّيتُ رأسي بالشال الذي أحمله على كتفيّ ودخلتُ المسجد الجديد (الذي ليس بجديد، فعمره أكثر من أربعة قرون). سكبتُ، وقد اختبأتُ خلفَ أحد الأعمدة، قسماً كبيراً من محتوى السكّريّة في علبة مسحوق زينتي، التي أفرغتها عمداً. ركعتُ فانتابني فجاةً ضيقٌ ظننتُني تجاوزته. انتبهتُ إلى برودة ورطوبة المكان. انزلق الشالُ فأعادته امرأةٌ تركيّة إلى رأسي ولمست ذراعي بحنان. انفجرتُ بالبكاء ورأسي بين يديّ. دام هذا لحظة فقط. نهضتُ بعدها وخرجتُ. عبرتُ باتجاه جسر غالاتا، سرتُ مسافة عليه وعدتُ. هناك كانت استنبول شيئاً يغشوه التلوُّثُ والغبار الذي يكشفه الربيع. في وسط قرن الذهب ـ من ذهبٍ، فكّرتُ، وأنا أحسُّ بالسكّرية إلى جانبي ـ لم أكن أدري هل أضحكُ أم أستمرُّ بالبكاء. كان البازار المصري أمام المسجد

الذي خرجت منه، والمحطّة التي سأذهب إليها فيما بعد، التوبكابي، السراي، سانتا صوفيا، المسجد الأزرق، البطاقة البريديّة كاملةً. لم أرَ بعدها المسجد الأزرق، في الضباب كان الجسرُ على البوسفور.

ويرى القبطان القرصان،
يُغنّي في القيدوم،
آسيا في جانب، وأوروبا في آخر،
وأمامه استنبول.

في رحلتي الأولى بحثتُ مع لاورا، ونحن نمضي في معبرٍ، عن المكان الدقيق الذي ابتدعه اسبرونثِدا كي يرى القبطان ما يراه وهو جالسٌ. أبعدتُ الذباب الذي يصعدُ من مطاعم الجسر. حانت الساعةُ تقريباً. سرتُ ببطءٍ إلى المحطّة التي كنتُ فيها بغاية السعادة.

كان يمامُ يتناول القهوة على إحدى الطاولات.

ـ هل تريدُ سكّراً؟ ـ قلتُ له واضعةً السكّريّة بضربةٍ أمامَهُ.

ـ مع القهوة التركيّة ـ أجابَ دون أن يتبدّلَ ـ يجب أن تطلبي كميّةُ السكّر المطلوبة معها. أنا أتناولها مع كثيرٍ من السكّرِ.

ـ اطلبْ آخر لي، لكن دون سكّر هذه المرّة. فالمساءُ علّمني على الجرعات المرّةِ ـ كان قد أخذ القطعة وراح يتفحّصُها ـ إنّها ذهبيّة، نعم، لكن ربّما محتواها أغلى. ـ انتزعْتها منه وأعدتُها إلى حقيبتي ـ ظننتُ أنّني كنتُ أعرفُكَ.

ـ لم تبغي أن تعرفيني قط.

ـ لأنّني قبلتُ بك كما أنتَ، مهما كنتَ...

ـ والآن أما عدتِ تقبلينني؟

مدَّ يداً تطلبُ يدي. نظرتُ حول المكان الذي أرادَ أن يُموِّهَهُ في البداية أيضاً. غشيت عيناي. «لا ـ قلتُ لنفسي ـ لا. الآن أريدُ أن أعرفَ يماماً، مهما كلّفني الأمرُ.» مددتُ يدي.

ـ الآنَ أقبلكَ لكن على الرغم من كلّ شيءٍ. أعتقدُ أنّني شرعتُ في رحلةِ العودة.

ـ العودة، إلى أين؟

- إليك - كان من الضروري أن أحطّ على أرض. هززتُ رأسي كي أغيِّر الموضوع؛ أشرت له نحو حقيبتي - عندك أصدقاء مهمّون جدّاً.

- سابقون عليك - احتجَّ، كان قد قلبَ يدي وراح يتابعُ خطوطَها، وكأنَّه يقرأ لي فألي الحسن.

- الآن صرتُ أفهم بعضَ الأشياء - تمتمتُ وتمتم بدوره:

- هل ترغبين بأن نتناول عشاءنا في هذه المنطقة، كما فكّرنا أم نذهبُ إلى البيت؟

كان صوتُه مفعماً بالوعود.

- هيّا بنا - قلتُ.

لم يتبقَّ أمامي ما أطلبه غير القليل.

البارحة صباحاً عدتُ من باريس. بقيتُ هناك أسبوعاً طويلاً. كان بِنيس سيقضي عدَّة أيّامٍ هناك، دعاني فقبلتُ.

ومن جديد كان من الضروري أن أختار، على هذا الحبل الرخو الذي أعيشُ فيه، بين أن أعطي يماماً انطباعاً باستقلاليّتي، بل وبأنّني فوقه، وبين أن أخاطر بفقدانه. ما إن فكّرت بأنّني سأذهبُ حتى بدأتُ أتعذّب: «الأسبوع وقت طويل أكثر من اللازم: يمكن أن يحدثَ فيه أيُّ شيءٍ. لكنّني أيضاً بقيتُ أشهراً في الخارج، قبلَ أن أصرَّ بطّانيّتي فوق رأسي، ووجدتُ يماماً مستعدّاً دائماً لاستقبالي. نعم، لكنّه كان يماماً آخر. ثمَّ إنّكِ لا تعرفين ما فعله خلال ذلك، لن تصدّقي أنّه كان يحتفظُ لكِ بالشوق، فهو لا يحتفظُ لك به الآن، إذن. انظري، سيّان عنده في أعماقِه أذهبتِ أم بقيتِ، فهو لن يكون لكِ أبداً كما أنتِ له. عليك على الأقلّ أن تحكي له شيئاً عند عودتك.»

شقّةُ بِنيس رائعة. على الضفة اليسرى من السين، الذي يظهر لألاءً بين الأشجار. شقّة لعاشِقٍ، مثله، من باريس. لم يطلعوني على المدينة من قبل بمثل هذا الود الآن - أيضاً لم أزرها مرّاتٍ كثيرة - تنزّهتُ

وحيدةً كما تنزّهنا معاً. كنتُ أذهبُ أحياناً في الصباحاتِ إلى الساحاتِ والحدائق والنصب التاريخيّة التي أطلعني عليها دِنيس في الليلة السابقة، كم كانت مختلفة. لو لم أكن أعرفُ من أحبُّ لتصوَّرتُ أنّ حبّي لدنيس هو الذي يضفي البهاء على الواجهاتِ، الأشجارِ، القببِ، أبراجِ النواقيس وكلِّ شيءٍ. لقد أغناني دِنيس كما لم يُغْنِنِي قط راميرو. فبجانبه فعلاً يمكن تصوّر الحياة بلا حبٍّ. فهو لطيفٌ، صارمٌ، متكبِّرٌ، مستقيمٌ وجميل. رأيتُ رؤوس نساءٍ كثيرات ورؤوس بعض الرجال تلتفتُ نحوه. آهٍ، لو لم تكن استنبولُ موجودة، لبقيتُ في باريس. ما أغرب أنّني حملتُ كثيراً من الكراهية تجاهه في البداية.

في إحدى الصباحات التي كان فيها دِنيس فارغ الأعمال ناشدني الذهابَ للقيامِ ببعض المشتريات.

ـ من هي المرأةُ التي تمرُّ بباريس ولا تتبضّعُ قليلاً؟

أوّلُ ما اشتريتُه كان زرّي قميص من اللازورد ليمام، لكنّني تراجعتُ في الوقت المناسب وما إن صُرًّا ـ «بلى إنّهما هديّة» ـ حتى ناولتهما لدِنيس، الذي لمس وجهي بوجهه وقبّلني قليلاً. لو أنّني قدّمتُ الهديّة إليه لمصلحةٍ لما أعطت مفعولاً أفضل: أصرُّ على أن أشتري كلّ ما كنتُ أراه، كلَّ ما كانت تقعُ عليه عيناي.

ـ لن أستطيع أن أنظر إلاّ إلى قوس النصر، يا دِنيس، أرجوك.

ـ لا تنظري إليه، لا تجبريني أن أكلِّم الحكومة أو رئاسة البلديّة، بينما علينا أن نعود إلى استنبول قريباً.

كان في الحبِّ صحّيّاً وموسوساً. لا يتحسّن بالممارسة وليس مضطرّاً لذلك معي. رافقني خلال كلِّ وقت فراغه، لم يعرضني كما لم يخفِني. أجهل ما إذا كان عنده زوجة، لم يبدُ لي مناسباً أن أسأله، كما لم يسألني هو. أراهنُ على أنّه مطلّقٌ، كما أراهِن إذا كان عنده أولاد فهو لم يرهم. تنزّهنا في الليلة الأخيرة في ساحة لفوزِج.

ـ كم من المُحزن أنّني لا أستطيعُ تقبيلَك هناك في الوسط، فهم في مثل هذه الساعة يغلقون الحديقة.

ـ افعل ذلك هنا ـ قدّمتُ له شفتيّ ـ شكراً لك على باريسك.

ـ باريسي خرّبتها كفايةُ ملكاتٌ إسبانيّات: آنا ده أوستريياس،

ماريّا تيريزا، وتوّجت هذا الخراب إوخينيا ده مونتيخو.

مرّت لحظةٌ ـ أخذني فيها من ذراعي وارتميتُ عليه ـ كلّمني فيها عن شيءٍ تافه (التاريخ أو القمر أو ما أدراني) فتحشرجَ صوته. فكّرتُ: «تصوّري أنِ يطلب منكِ الزواج أو يبغي علاقات ثابتة.» توقّفتُ؛ نظرتُ إليه مواجهةً:

ـ إنَّ نزهات من هذا النوع لا تقوم إلا عندما يكون المرءُ حُرّاً. لذلك لم أبغِ التخلي عنها قط. أشكركِ من كلِّ قلبي.

تبادلنا القبل بعمقٍ أكبر. فعلاً إنَّ الرجالَ الذين لا يمارسون قوّتهم في الفراش، من أمثالِ دِنيس، أخطرُ.

طبعاً اشتريتُ زرّين آخرين ليمام. عندما عدتُ وإيّاه إلي البيت (لم أره بمثل تلك القباحة قط، ولم أشعر بأنّه بيتنا) أخرجتُ قطع ثلجٍ ووضعت في وعاء عالٍ قنينةَ شامبانيا، فضيلتُها الأساسيّة أنّني أحضرتها بيدي من باريس. كان يمامُ يقولُ من الصالون:

ـ كيف استطعتِ أن تنفقي كلَّ هذا على شراء جوهرةٍ ليست من دكّان محمد؟ سأضطرُ لأن أخلع الزرّين حين أذهب لرؤيته، وإلاّ فسيموت قهراً. إنّهما رائعان، يا دِسي. شكراً.

خرجتُ بالزجاجة وكأسين. كنتُ أُحبُّه في تلك اللحظة أكثر من كلِّ شيء، وكنتُ مقتنعةً بأنّني سأحبّه دائماً. شربنا الشامبانيا بسرعة ـ كأسين أو ثلاثة ـ لأنّنا كنا واعيين لما ينتظرنا على الجانب الآخر من الباب. لكنَّ الأكيد أنّنا لم نصل إلى الجانب الآخر. على البساط الشبيهِ بالذي بعته للكاتب الإسباني مارسنا الحبَّ بلا حدودٍ. لو سألوني بعدها أين تقعُ باريس لما عرفت كيف أجيبهم.

الحقيقة لا أستطيع الإجابة أين أنا. عندما أنتهي من كتابة هذه الأسطر أُفكّرُ كيف أنَّ الجسورَ المتحرّكة التي يهدمها الحبّ الجسدي، ونتشابك أنا ويمام فوقها، لا تلبثُ أن تُرفع، وأراه يبتعدُ على الضفّةِ الأخرى، دون أن يلتفت. لا أعرفُ ماذا أفعلُ كي أمنعه وأوقفَهُ. أفكّرُ بأن رحلتي إلى باريس كانت سلبيّةً. هو يسمع نداء الجسد ـ ربما نداء

جسده أكثر من جسدي ـ لكنّه يولي سمعَهُ، سمعَ التاجر، لكلِّ نداءٍ آخر. ربّما أخطأتُ باستراتيجيّتي. كيف العودةُ إلى الوراء؟

سافرتُ مع يمام إلى بورسا. لا أشيدُ قلاعاً في الفراغ: أرافقه لسببٍ ما يناسبه.

ـ إنّها العاصمة الأولى للإمبراطوريّة، مشهورة بدرّاقها، بحريرها وحمّاماتها. وهي محافِظة جدّاً؛ يجبُ أخذ الحذر ـ تراه كان يمزحُ؟ رُبّما لا ـ إذا كانوا يسمّونها الخضراء (أعودُ لأكون، كما ترين، الدليل الذي عرفته) فليس لما تفكّرين به بشكلٍ خبيث، بل لمسجدها الأخضر، سوقها الأخضر، لأنّها المدينة المقدَّسة ولمطرها.

وبالفعل فقد أَمطرت طوال الوقت. اجتمع يمام في مقهى أمام الفندق برجلين تركيّين، كانا يتصبّبان ماءً. واحد بدين جدّاً وآخر نحيل جدّاً. كلاهما كان يسترق النظر إليّ. فهمتُ أنَّ الأمورَ جرت في غيابي بطريقةٍ مختلفة. لم يبغِ يمام أن ينفصل عنّي لحظةً واحدة. تراه كان يشعر بنفسه مُهَدَّدَاً؟ في بعض المناسبات ـ في سوقِ الحرير، وبطريقة ملحوظة تماماً ـ كان يراقب من فوقِ كتفه، وكأنّه حذرٌ من أنَّ أحداً ما يلاحقه.

قطعنا طريق العودة قسماً في السيّارة وآخر في القطار. كان المطرُ يسقطُ من سماءٍ رصاصيّةٍ فوق بحر مرمرة، الذي تقترب خضرته من السواد، وضفاف من اللون الفضّي الخفيف. كم هو مختلفٌ هذا البحر عن الذي رأيته لأوّلِ مرّة أو الذي يسدُّ على مقربةٍ من البازار شوارعي المُفَضَّلة. هذا البحر ميت. ينزلقُ المطر على بلّور نوافذِ القطار كما لو كنتُ أبكي وأرى كلَّ شيءٍ من خلال دموعي. الغيوم منخفضة جدّاً، مكفهرّة ومطبقة. الطقس باردٌ. أرتعشُ. في الأعلى وفي الأسفلِ، كلُّ ما أراه رماديٌّ وخانق.

على الماءِ الكثيف يسقطُ مطرٌ كثيف. لا تُشاهَدُ الضفاف، والأفقُ

يبدو في متناول اليد. منذ أن تركنا السيّارة ويمامُ لم يوجّه إليَّ كلمة احدة. أنهضُ على قدميَّ كي أنظرَ إلى الخارج.

ـ شتاءٌ آخر ـ يقولُ يمامُ، الذي ما يزال جالساً.

وقعُ صوته مغموم، محزون وقصيّ. لا أجرؤ على استقصاء السبب.

ـ بلى، شتاءٌ آخرُ يأتي ـ تنهَّدتُ.

أكثر الرشقات، التي ترى في البحر، صفاء يحدثها المطر حيث بسقوطه القوي يرفع قليلاً من الزبد. ما أقلّ جدوى المطر فوق البحر. ما أقل جدوى كلّ شيء. خلف بخار النافذة يمرُّ الشاطئُ ببطءٍ. أُنظِّفُ الزجاجَ بقفّازٍ وأسند جبيني إليه. رطوبته وملاسته تنعشانني.

ـ ماذا بك؟ ـ يسألني يمامُ وهو ما يزالُ جالساً.

ـ لا شيء. ماذا سيكون بي؟ لا شيء.

ـ ها نحن نصلُ ـ يقولُ بعدَ وقفةٍ.

ـ إلى أينَ؟ ماذا يهمُّ؟ ـ أتمتم.

ـ ينفذُ بردُ الزجاج إليَّ عبر شفتيَّ، لا ليس عبرهما فقط.

كنتُ أُرتِّبُ الخزانةَ. تضايقني الثياب الموزّعة بشكلٍ سيِّئٍ. يحدِّثني قلبي بأنّه سيكون أمامي الليلُ بطوله لترتيبها. حين فتحتُ قسمَ يمام، افتقدتُ كثيراً من ثيابه. في المرحلة الأخيرة صار يتخلَّفُ كثيراً عن المجيءِ إلى البيت. منذ أسبوعين كان ولداه هنا. جاءت بهما جدَّتُهما. قلتُ لها إنّه غير موجود، وخرج في سفرٍ أو هذا ما قاله لي. ابتسمت بخبثٍ؛ قالت غويدين وهي تهزُّ يدها وقد أدارت ظهرها وحملت حفيديها. سمعتُها تضحك وهي تهبط الدرج.

في الخزانة وجدتُ هذه الدفاتر. كان قد مضى عليَّ وقتٌ طويلٌ لم أكتب شيئاً فيها: لماذا سأكتبُ ما دام لا يواسيني؟ فيمامُ أراهُ في البازار أو هنا عندما يأتي تعباً وصامتاً. يشيرُ عليَّ بين الحين والآخر مع من يجبُ أن أخرجَ، عمَّ سأستقصي. يصعبُ عليَّ الاعتراف بذلك، لكن

الأمر صار سيّان عندي. سأفعلُ ما يقوله لي، وليته يطلب مني بتواترٍ أكبر أيَّ شيءٍ، فهذا يعني أنَّه يثقُ بي أو يحتاجني.

ما عدتُ أرى بِنيس، لم يعد له معنى. كان بِنيس ينفِّذُ مهمّته، أو أنَّني أنفِّذها إلى جانبه. إذا كان يمامُ قد حقَّق ما هدفَ إليه فالمهمّة انتهت. صارَ من الحماقة تصوّر أنّ يماماً سيشعر بانجذابٍ نحوي لأنّه يراني مرغوبة. فقد حلّلته بشكلٍ سيئٍ جدّاً كما أُحلِّلُ غريباً. لم يكن أمامي من مخرجٍ غير البقاء هنا. ربّما عادَ، أو رأيته في البازار، عندما أرفع عينيَّ عن الحسابات أو خربشات محمود. فأنا من الوحشة بحيث أنَّني أتظاهر في بعض الأيّام بمصادفة جارة ـ حتى من صارت أصوليّة ترتدي الجبَّةَ، أو المنديل ـ كي أحصل على ابتسامةٍ إنسانيّة. في مساءاتٍ كثيرةٍ أزورُ أريان.

ـ هذه الآنسة يتمزَّقُ قلبُها ـ قالت لي في المرّةِ الأخيرة. ـ ولا تريدُ الاعتراف بذلك.

ـ أنا سعيدةٌ فعلاً، يا أريان.

ـ عندما تكون المرأة سعيدةً لا تقومُ بكلِّ هذه الزيارات لعجوز لها شارب.

ما زالت أريان ومحمود سندي دون أن يدريا.

أتيه في البازار دون هدف. أحاولُ أن أهتمَّ ببعض الأزواج، أتبعهم، أعرف عمّا يبحثون فأعرِض عليهم مساعدتي. جميعهم يسيئون الظنَّ. الأجانب في استنبول يفكِّرون بأنَّ الجميع هنا يريدُون الخروج بنصيبٍ منهم. هم على حقّ، لا أستطيعُ لومهم.

أوشكتُ في أحد الأيام أن أستنجد بباولينا. رفعت هي الهاتف، فلم أجرؤ على الكلام. سمعتُ كيف راحت تقول «خنازير» وأغلقت.

في الأسبوعِ الماضي سرتُ إلى المسجدِ الأزرق. اجتزت الفضاء الذي يتقدّمه وتُظَلِّلُه الأشجار؛ رأيتهُ أكثرَ جلالةً وقسوةً من أيِّ وقتٍ مضى. دخلتُ، كان له وهج حوضٍ أسماك. لم أنظر إلى بلّوره أو

زُلَيْجِه. شعرتُ بتمزُّقٍ في داخلي. سجدتُ في المكان المخصَّصِ للنساء. هناك في ذلك الفضاء المقدَّس شعرتُ كأنَّني استعدتُ نفسي بطريقة غامضة، استعدتُ جزءاً من كلِّ ما فقدتُه. كنتُ أعبرُ في الحبِّ من منطقةٍ ظننتُها معروفة، مع أنَّها مجرَّد مألوفة، إلى أخرى لا يطالها الشكُّ، كلُّها ظلمات. لامستْ بجبيني الأرضَ. بدت لي هذه الحركة المُذلَّةُ كلِّيَّة المعنى: الكشف المفاجئُ عن حياةٍ أخرى مختلفة، عن قدرٍ هو قدري، لكنَّه محمولٌ إلى نهاياته. لم أفهم شيئاً؛ لم أفهم غير معاناتي، كطريقة للعودة إلى ذاتي بعد أن فقدتُ الرشدَ أو تهتُ. رفعتُ رأسي، لكنَّني لم أعرف إلى أين انظر. لم يكن ذاك كنيسةً كاثوليكيَّة فيها لوحات أيقونات أو مظلات. أغمضتُ عينيَّ، فصار وجهُ وجسدُ يمام أكثر حضوراً. ما أطولَ الطريق التي قطعتها.

فيه تعقَّبتُ ـ أو هكذا بدأ كلُّ شيءٍ ـ المتعةَ، وليس الحبّ. ما الذي أنتظره؟ فالمتعةُ بدورها تتعقَّبُني، واصطدمنا بغتة الواحدُ بالآخر. الرغبات المشبعة، المثارة والمشبعة أوحت إليَّ بالكمال، بالرضا عن العالم. بقيتُ زمناً طويلاً لم يخطر لي حتى التفكير بأنَّ يماماً خارجي ومختلفٌ عنّي. لم يكن الفصل بيني وبينه موجوداً، فالمتعة كانت تجمعنا، توحِّدُنا. لم أسأل نفسي قط «من يكون، وممَّ يعيش، ومن يحيطُ به». فها هو هناك عارٍ كي يمتعني وأنا عارية كي أُمتعه، دون ما سوابق أو معلومات غير الحضور، الذي كان يتلاشى في العناق ويعود بعده. تذكَّرتُ أنَّني لم أكلِّمه عن موتِ والدي.

فتحتُ عينيَّ. نظرتُ إلى الأعلى. رأيتُ القبّة الهائلة. من النوافذ البلّوريّة العليا يهبط نور قاسٍ وورديٌّ. من النوافذ المنخفضة الكبيرة ينفذ نور آخر أزرق ناشف. نور الغروبُ يدخل من خلفي ويتشظّى على الزُّلَيج. داخل المحراب في العمق ثريّات صغيرة. لن تتأخَّر حتى تشتعل آلاف المُصَيْبِحات الكهربائيّة الصغيرة على شكل دوائر. كلُّ شيءٍ كان نوراً، لكنَّني كنتُ ما أزالُ في الظلمة. في هذه الظلمة فكَّرتُ: «كنتُ الاثنين وكانا أنا.» بجانبي صار هناك طيفٌ لا يتجسَّدُ إلاّ عندما ألمسه، فلا يعود طيفاً. صرتُ الآنَ وحدي. قبل ذلك كانت الرغبة تُغرقنا، فأبحثُ من خلالها عن يمام أُغرقه وأخنقه في رغبتي. وحين

تهدأُ الرغبةُ في الفواصل، أنظرُ إلى نفسي في مرآة يمام، وينظر إلى نفسه فيَّ ولم يكن هناك من حقيقة أخرى غير هذه. لا أفهمُ ما أقول، لكنَّني أعرفُ أنَّه كان كذلك. ومع ذلك فإنَّ ما يواسيني اليومَ هو أنَّ أيَّ تبدّلٍ سيكون لصالحي؛ حسناً كان أم سيِّئاً، مهما يكن. حتى الموت، ربّما الموت على الأخصّ.

كم تبدَّل محتوى هذه الدفاتر. كانت تسليةً أو مذكِّرة وتحوَّلت إلى مزبلةٍ لا أجرؤ على أن أسكبَ فيها كلَّ ما تحتاجُه روحي للبقاء على قيد الحياة.

لكن، ماذا كنتُ أفعلُ في ذلك المسجد؟ عمَّن كنتُ أبحثُ؟ ألم يكن يمامُ إلهي أو بالأحرى ألم أكن إلهة نفسي؟ ألم أُخضِع نفسي إلى هذا الكائن العلويِّ الذي يتبدَّدُ الآن؟ لقد حوَّلتُ حبي إلى شيءٍ مقدّسٍ ومعبود. الآن صار باستطاعتي أن أُفسِّرَ، بعد أن أصبحتُ لا أؤمن به، عقيدة التثليث التي طالما شوَّشتني في صغري، حبّ الأبِ لنفسه هو الابنُ والحبُّ المتبادَلُ بين الواحد والآخر هو الروح القدس. ويوجد هذا الذي هو بواقعيّتهما، ومعهما، مثل يمام وحبّ يمام. لكنَّ واحداً منهما مات، وأنا لا أعرف من منهما. مرَّ زمن فكّرتُ فيه أنّني ما عدتُ أحتاجه، وأنَّ حبي كان من العظمة بحيث يتجاوزه. منذُ أسبوع، وصلتُ وأنا في مسجدٍ، إلى نتيجةٍ متأخِّرَةٍ جدّاً، مفادها أنَّ الحبَّ يتطلَّبُ التضحيةَ. العبادة تعني التنازل الكامل، الموت الطوعي. ربما لو أنّني أموت ـ والفكرة تسرّني ـ سيفكِّر يمام بي كما لم يفكر قط، وسيعرف بيقينٍ كم أحبّهُ. لا يعني هذا أن يكون موتي انتقاماً، لكنَّ فهمي له بهذا الشكل يواسيني. حتى ولو قالت النساء اللواتي يعرفهنَّ: «قتلت الإسبانيّة نفسَها لأجله»، وشدَّهنَّ هذا أكثر وبذلك يساهم موتي في استبدالي، استبدالاتي المتكرّرة بين ذراعيه.

نهضتُ على قدميّ. خرجت ملتاعةً. كان المساء يسقط في الخارج دون هوادة وآخر المجموعات السياحيّة يركب منهكاً في باصٍ يشبه ذاك الذي تعرَّفتُ فيه على يمام. كان الهواء يحرِّكُ أغصان الأشجار؛ اثنان منها يصدران أنيناً ذكَّرني بأرجوحة طفولتي. سأجدُ نفسي وسط الليل الذي يقترب، وحيدةً تماماً.

عندئذ اكتشفتُ أنّني لم أنتعل حذائي. جلستُ لأفعل ذلك فظهر بعضُ الباعة. كلّموني بلغاتٍ كثيرةٍ، أفتاهم توجّه إليَّ بالإسبانيّة.

ـ هل تريدين أن تشتري بطاقاتٍ بريديّة لاستنبول؟ ـ رفضتُ بحركة من رأسي ـ لماذا؟ ـ سألني مهاناً. وبشدّة من عنقي انتزع سلسلة ذهبية علّقتُ إليها عين الحظ التي من يمام. وراح الجميعُ يجرون.

كان المساء ما يزال هفهافاً جدّاً والهواء نوراً فاتراً؛ يأتي من مرمرة فيهزُّ أوراق الكستناء العالية. «لماذا عليَّ أن أعاني؟ لماذا يتعذّب الإنسانُ ـ أيُّ إنسان كان ـ في حضرة هذا الجمال؟»

في هذا الصباح حدثَ لي شيءٌ لا يصدَّق. ليست روايته في هذا الدفتر علامةَ شؤمٍ: أعودُ لأخرجَ من ذاتي حيثُ كنتُ مختبئةً.

ما إن استيقظتُ ـ كنتُ وحيدةً ـ حتى ارتأيتُ القيامَ بجولة على الفنادقِ لتزويدهم بالبطاقات. حين خرجتُ من الفندقِ الثاني تعثّرتُ برجلٍ كان يخرجُ بدوره. فسح لي الطريق. التفتُّ لأشكره فاكتشفتُ أنّه بابلو أكوستا. شعرت بالخجل ـ فقد كنتُ أحمل حزمةَ البطاقات في يدي ـ وبالفرح في آنٍ معاً. تغلّب الأوّلُ على الثاني، وبطبيعيّةٍ ناولتهُ بطاقةً.

ـ إنّه عنوان يمام ـ قلتُ له كما لو كنّا نتابع حديثاً.

ألقى عليها نظرةً وخبأها في جيبه. كنّا وجهاً لوجهٍ. تراجع بابلو خطوةً كي يراقبني وكأنّه يراقبُ حشرةً غريبةً. بعدها شدّني إليه مبتسماً وتعانقنا وفي حنجرتي غصّةٌ منعتني من الكلام. قادني إلى أريكةٍ في قاعة الانتظار. جلسنا دون أن يفلت يدي. غابت عن عينيَّ الزخرفةُ التي كانت تحيطُ بنا، وكذلك الزبائن الذين يدخلون ويخرجون، الندلُ بصداراتهم المطرّزة وطرابيشهم، الخدمُ الذين يخدمون الطاولات. لم أكن أرَ غير حقلِ طفولتي، المروجِ المشتعلة بالشمس، الجبال الزرقاء والبنفسجيّة، سكينة الأصياف، الطبيعة الجهمة والساحرة. كنتُ أنظرُ إلى بابلو، لكنّني لم أكن أرى الذي أمامي، بل المراهق القويّ، المازح،

الذي كان يملك هبة المساندة، مثل والدي، ويرافقني إلى البيت يحمل كتبي وكتبه كأنّه لا يحملُ شيئاً؛ طويلاً، نزيهاً وطيّباً. فرقع بابلو أمام وجهي بإصبعيه. استيقظتُ وابتسمتُ له.

ـ حسن، قولي لي الآن كيف حالُكِ؟

ـ جيّدة ـ أجبتُ.

ـ ولماذا وضعُك سيِّئ؟ احكي لي كلَّ شيء.

ـ أيضاً لم أكن آنذاك سعيدةً، لا تصدِّق، حتى ولو بدا عليَّ ذلك الآن.

ـ ومتى كان هذا الـ آنذاك؟ هل تعنين الطفولة أم الشباب؟

لقد فهمني، تكهَّن بحالي. هو الذي حمل معه من الذكرياتِ ما يملأُ قاعة الانتظار تلك ويقلب حياتي رأساً على عقب، كان يفهمني دون حاجة للكلمات.

ـ والآن؟ ـ سألَ.

ـ الآن، نعم أنا سعيدة. وليس عليَّ حتى أن أسأل نفسي ذلك؛ إذ حين أسألها أعرف أنّني لا أطمحُ إلى السعادة بل إلى شيءٍ آخر أكثر تحديداً. أنا لا أتكلَّم عن هذا. دخلتُ متاهة لا يوجدُ فيها من يهديني أو يعيقني... إنَّها مسألتي، يا بابلو.

لم يكن قد أفلت يدي.

ـ أعرف؛ لذلك أسألكِ أنتِ.

ـ سيكون هذا طويلاً والإجابة عليه معقَّدة.

ـ عندنا وقت. هل نتناول طعام الغداء معاً؟

ـ قلْ لي أوّلاً ماذا تفعلُ هنا؟

ـ ما تفعلينه أنتِ: مسائل مهنيّة.

ـ أنا؟ ـ ضحكتُ.

ـ لا أقصد السجّاد، وهو ما يبدو أنّك ما تزالين منشغلة به، أقصدُ الحبّ. أنت ممتهنة للحب بالمعنى الجيِّد للكلمة، أي الرهيب.

ـ وماذا تعرفُ أنت؟ ـ كنتُ أبتسمُ.

ـ أنتِ تتكلّمين مع شرطي فعّال.

لم أعرف ما إذا كان يُكلِّمني بجدِّيَّةٍ أم لا، ما إذا كان يستبصر أم يعرف، لكنّني لم أهتمّ. فقد كنتُ أرتاحُ لوجهه، ذي الأسارير الصحيحة والمنسجمة التي لا تنتبه الواحدةُ إلى جمالها إلا بعدَ مضيِّ بعض الوقت. هناكَ وجوهٌ تُحبُّ من النظرةِ الأولى، لكنَّها سرعان ما تُتْعِبُ، والعكسُ كان يحدثُ مع وجهِ بابلو: لا شيء فيه مُلفِت للنظرِ في البداية، لكنّه يتكشفُ عن أهميَّة يُحَكم عليه من خلالها أنَّه في كلِّ يوم أكثر جاذبيّة. ما إن رأيته حتى تحَسَّنْتُ حالاً. والآن وأنا أجدُ نفسي أحسنَ حالاً لم أرغب أن أكلِّمه عن وضعي السيِّئ الذي أنا فيه.

ـ لن أتناول العشاءَ معكَ ما لم تعدني أنَّكَ لن تسألني شيئاً.

ـ اتفقنا.

ـ كم ستبقى؟

ـ عدَّة أيام أو شهراً، حسب ما تتكشّف عنه الرسائل. لكن أنتِ أيضاً عليكِ ألاّ تسأليني. ليحترمْ كل منّا أسرار مهنة الآخر. سنتحدَّثُ عن الماضي أو لا نتحدَّثُ إذا كنتِ لا تريدين.

أكلنا في مضيق الأزهار مقبّلات باردة، رحتُ أشرحها له كدليلةٍ سياحيّة: الشيخ الدائخ، أفخاذ المرأة، الخدود المقليّة، محشو ورق العنب والسمك. لا أدري عمّا كنّا نتكلّم: عن أنفسنا، منتزعاً الواحدُ منّا الكلام من الآخر، محرِّضاً ومشْبِكاً الذكريات كالعلّيق، عن الناس الذين كانوا يمرّون ويكادون يصطدمون بطاولتنا. كنّا نضحك وأنا أرفضُ تذكّر ما ليس له علاقة ببابلو. خفتُ أن أنفجر بالبكاء. ولو بكيتُ لكان امتناناً، لكّني أيضاً لم أكن لأغامر بقول هذا. كم كانت ستختلف حياتي لو تزوّجتُ من بابلو. حسن، نحنُ دائماً نثقُ بأنَّنا لو أحببنا شخصاً آخرَ، لكانَ أفضلُ لنا. المعارف عادة ما يكونون أصدقاء جيّدين أكثر من محبّين، فالمحِبُّون لا نعرفهم. ما أسهل ما جدَّدنا صداقتنا، وما أقلّ ما رفعنا أيدينا لنقول سرّي جدّاً. بل إنّ أيدينا المرفوعة كانت تُضحكنا أكثر مما تجعلنا نتوجّس. من كل الأشخاص الذين كانوا حولي وحده ظهور بابلو في تلك اللحظة، كان غيثاً من السماء. ومع ذلك لم يخطر ببالي حتى تعثّرتُ به.

مرَّ أمامنا شخصان متعانقان. ساد صمتٌ. لا أدري بماذا فكَّرَ بابلو، لكنّني فكّرت بأنَّ الحبَّ هو ما لا مفرّ منه، وأنَّه مهما كثرت الذكريات التي تلمع فوق ذلك الغطاء فذكرياتُ الجسدِ هي التي لا تُمحى. للجسد ذاكرة أفضل بكثير من الروح، فقروحه وندوبه، روائحه التي هزّته، البهجة التي ضاعفته، طعم الغذاء الذي لا يحلّ محلّه طعمٌ آخرُ، أبداً دائمة الحضور وفي متناول اليد. أعادني ذانك الشخصان إلى حاضري المنحوس، لكنّه الوحيدُ المتوافر. كنتُ من قطع الصمتَ.

ـ المُحِبُّ معصومٌ، فلكونه شريكُ عدوِّه فإنَّه يثلم أسلحتَهُ.

ـ إلى أيِّ حدٍّ هو شريك؟ ـ كان ينظرُ إليَّ باهتمام جعلني لا أحتمله.

ـ هذا ما أنا واثقة منه فعلاً: حتى النهاية، حتى الرمق الأخير ـ لم أكن أنظرُ إليه بل أرسم بالشوكة خطوطاً على الغطاء ـ ما يشغلني هو الآخر: إلى أيِّ حدٍّ هو مُحِبٌّ؟

ـ أعتقدُ أنَّ كلَّ جوابٍ سيقودك إلى سؤال آخر.

ساد صمتٌ.

ـ هل تجدني متغيِّرة كثيراً؟

ـ بلى، متغيِّرة، أجل تكادين تكونين أخرى مختلفة. لكنّني أنا أيضاً شريكُ هذه الـ بِسي.

قال ذلك بجدّيّةٍ كبيرة أشعرتني بطمأنينة جعلتني أنفجر بالضحك.

اتفقنا أيضاً على تناول الغداء في اليوم التالي. كان بابلو على موعدٍ فطلبتُ منه أن يسمحَ لي بمرافقته إلى الفندق، فأنا أعيشُ في استنبول منذ سنوات.

ـ أريدُ أن أكونَ دليلتكَ قليلاً.

ما كنتُ أريدُهُ هو ألاّ يتركني في مكانٍ مُحدَّد: لا في بيتي ولا في الدكّان. كنتُ أفضِّلُ أن أخفي عنه، آنيّاً، حياتي.

عندما وصلنا إلى الفندق رجاني أن أنتظِرَهُ. لم يتأخَّر. نزل يحملُ لي قنينة نبيذ «ريوخا» جيِّدٍ.

ـ هديّة لدليلتي، كي تشرب نخبَها ونخبي. نصحوني، كوسيلة لشقِّ

الطريق أن آتي بمثل هذه الأشياء. ووجدتُ أنَّ النصيحة صحيحة. معكِ حتى الآن لا أدري.

تبادلنا القبل على الخدود.

ـ إلى اللقاء غداً.

ـ لا تنسَ، وداعاً، إلى الغد.

جاء يمامُ ليلةَ البارحة في الوقتِ الذي لم أكن أنتظره. تعذَّب في فتح الباب، فافترضتُ أنّه جاء مهموماً. وكان كذلك. لم أكلّمه عن لقائي الصباحي، ما كان ليسمعني. اعتدتُ أن أخفي عنه أشيائي ويخفي عني أشياءَهُ. سألته ما الذي حدثَ؛ نظرَ إليَّ مستغرباً أن أكون قد حدَستُ قلقَه.

ـ هذا متوقَّف عليكِ.

ـ قلْ ـ قلتُ وأنا أُفكِّرُ: «لهذا السببِ جاء.» كنتُ قد وضعتُ غطاءَ سرير سَكْلَمِيّ اللون ـ. هل تريدُ كأسَ نبيذٍ من إسبانيا؟ ـ فكَّرتُ: «إذا سألني من أين حصلتِ عليه كلَّمته عن بابلو.» لكنّه لم يسألني.

ـ نعم، فلماذا لا؟

فتحتُ القنينةَ وشربنا. سألته مع الكأس الثانية وكلانا صامتٌ ما إذا كان عنده قليلٌ من الكوكائين. رفع حاجبيه.

ـ لكِ؟

ـ ولكَ. هكذا نستطيعُ أن نتكلّم بحرّيّة.

وضع خيطين منه على مجلّةٍ كانت بجانبِ الطاولة. استنشقناه بورقةٍ نقديّة وسخةٍ ملفوفة. تابعنا الشربَ. مضت دقيقتان فأعدَّ خيطين آخرين.

ـ هل يزعجكِ أن أستحمَّ؟

ـ ليس ضروريّاً ـ أجبتُ ـ فالحمّام سيخرّبِ تأثير النبيذ.

أطلقَ ضحكتَهُ، نهض ودار حول الطاولة. كنتُ أصبُّ كأسين آخرين.

ـ هل نذهب؟

ـ اشربي أوّلاً

ـ على صحّتنا.

ـ على صحّتنا دائماً.

شربنا. وفي الحال تأكّدتُ مرّةً أخرى أنّ الجسدَ يُلخِّصُ كلَّ شيء، يستوقفُ كلَّ شيءٍ وأنّ الروح بجانبه منسيّة، منسيّة بائسة وبكّاءة يجبُ نسيانها. دخّنا مستلقيين سيجارةً مع آخر كأسٍ.

ـ ما الذي يتوقّفُ عليّ؟

ـ سيذهب غداً شخصٌ إلى الدكّان؛ أنا لا أثق به. وشُوا لي بذلك اليوم. سيذهب بعد الخامسة. وأرغب ألا أكون حاضراً. استقبليه أنتِ. غازليه. أزيحيه عنّي. وإذا ما سارت الأمور بشكلٍ جيّد أرسلي محموداً إلى دكّان أخي، وسأحضر في الحال. وإذا سارت بشكلٍ سيّئ أرسليه ليقولَ لي... لا أدري: النبيذُ ممتاز وسأفهم وأرى ماذا أفعل.

ـ هل له علاقة برجلِ السكّرية؟

ـ بطريقةٍ ما.

ـ شريك عدوّه... ـ تذكّرت بصوتٍ منخفض.

ـ ماذا؟ لم أفهم عليك.

ـ لا شيء، حسنٌ. سأعمل ما تطلبه منّي.

ـ حياتنا رهن ذلك ـ تمتم وهو يلفُّ شعري حول أصابعه.

تأخرنا في النوم كلٌّ بجانبٍ.

كان الغداء الثاني مع بابلو بجودة الأوّل. لم أسأله عن موعد اليوم الماضي، لكنّني لاحظتُ أنّه غرق فيما حمله على المجيء إلى استنبول. وهذا لا يعني أنّه كان أقلّ انشداداً إليّ، بل يوجدُ في الطريق، التي يبحثُ فيها الواحدُ منّا عن الآخر، مطبّات. ومع ذلك شعرتُ بالكسل في الانفصال عنه والذهاب إلى الدكّان. بالكسل وبأشياء أخرى، كتلك التي أفترض أن المصارع قاتل الثور يشعر بها حين يغادر المخبأ ليواجهَ ثوراً يخرج من الإسطبل. فوجئنا أنّ كلاً منّا ينظر إلى ساعته.

اتفقنا على أن أهتف له في اليوم التالي، فإن لم يكن موجوداً

تركتُ له رقمَ هاتفٍ ليهتف لي. في الحقيقة لم يكن عندي غير هاتف الدكّان، المكتوب على البطاقة، التي لا بدَّ أنّه أضاعها. كنّا ما نزالُ نشرب القهوة - هو دون سكّر، وأنا بسكّر كثير - وتودّعنا على باب المطعم.

- مثل رُجيلين - علّق وهو يحييني بيده حتى انعطفت في أوّل زاوية.

ذهبتُ إلى البازار. لم يكن هناك غير فتى واحد، والساعةُ أوشكت على الخامسة. قلتُ له على وجه التقريب بأنّني أنتظرُ شخصاً مهمّاً، وعليه أن يتركني بمفردي معه، وسأناديه إذا ما احتجته، وعليه الانتباه إلى الدكّان، مترصّداً في باب الحانوت المقابل الذي يبيع الحقائب. ما إن ذهب الفتى حتى رحتُ أُعلّقُ وظهري إلى المدخل حلقة سجّادة خضراء وحمراء كانت قد انزلقت. سمعتُ بالقشتاليّة: «مساءُ الخير.» التفتُّ. إنّه بابلو. فهمتُ من المفاجأة النسبيّة التي علت وجهه أنّني كنتُ أمام الرجل الذي أنتظره.

- هل تشترين سجّاداً؟ - سألني بضحكة غامضة. أجبته بجدّيّة:

- لا، بل أبيعها.

- إذن أريني واحدة منها.

- بكلِّ سرور. يسعدني أنّك احتفظتَ بالبطاقة التي أعطيتها لك.

لاحظت من تقطيب جبينه الخفيف جدّاً أنّه لم يفعل، وأنَّ حضوره يعودُ إلى أسبابٍ أخرى بدأتُ أُخمّنُها.

- الآن يأتي زوجي وستتعارفان - رفعتُ يداً وناديتُ الفتى الجالس أمامي - اذهب وأخبر يماماً فهو في دكّان محمّد.

ثمّ شرعتُ أُريه السجادات الموجودة بمتناول يدي في كومةٍ مرتفعة. لا أكادُ أبسط طرفها وأعلّقُ تعليقاً بسيطاً. كان بابلو يتظاهر بالاهتمام ويستقصي منّي عن مصدرها أو حجمها أو قِدَمِهَا؛ فأجيبه بآليّة. كلانا كان يفكّرُ متسارعاً - أنا واثقة من ذلك - بسبب تصادفنا في الساعة والمكان. خطوت خطوةً مضطربة، لكنّها ضروريّة.

- زوجي شديدُ الغيرة.

ـ لم أعلم أنّه زوجك.

ـ لا تكن قديماً. من الأفضل أن نتظاهر أنّنا لم نلتقِ قط. ونتخاطب بحضرتك إن رغبتَ بذلك

ـ حسن، لقد أصبتِ عين الصواب. لكن لنحاول ألاّ نخطئ وإلاّ انقلب عليك الأمرُ.

ـ ساعدني على فتح هذه من فضلك ـ كنتُ أشيرُ إلى سجّادة ـ إنّها رائعة على وجه الخصوص، ستعجبُ حضرتك. في الدكان يوجدُ من كلٍّ الأنواع والأحجام ومن كلّ المواد (حتّى من سقطِ الصوف) وكلّ الأسعار. هذه سجّادة حريريّة من حريك. نحن فخورون بها، ومن الصعب أن يوجدَ في العالم أخرى أكثر عقداً في السنتيمتر المربّع منها.

كان يسمعني كمن يسمع المطر.

ـ أنت بائعة جيّدة.

ـ شكراً. أخافُ أن تكون رجل مباحثٍ جيّد. وكان بوديّ لو أنّنا لا أنا ولا أنت هنا نمارس وظائفنا.

ـ لا أدري عن أيّةِ وظائف تتكلّمين.

ـ هذا أفضل ـ قلتُ ـ أجهلُ كيف وصلت هذه السجّادةُ إلى أيدينا. لها قصّة رائعة: الفتاة التي حاكتها ماتت في ذات اليوم الذي أنهتها فيه، وكأنّها لم تنتظر غير أن تقومَ باللمسات الأخيرة لهذا العمل المُتقَن. ألا ترى؟ رسومها تنطوي على ما يشبهُ الرجفة، كأنّه حدْسٌ.

ـ بائعة رائعة. وخصبة الخيال.

التفتُ قبل أن أسمعَ إيّ شيءٍ. كان يمام يدخلُ إلى الدكّان، نظر إليّ مستنفراً. ابتسمتُ.

ـ أرسلتُ في طلبك لأقدّمَكَ لابن بلدي. إنّه دون بابلو أكوستا، حسبَ ما قاله لي. منذ زمنٍ طويلٍ لم أتكلّم مع إسبانيّ وتسعدني زيارته للغايةَ.

تبادلا التحيّة بطبيعيّة مفتعلة.

ـ هل تريدُ كأساً من الشاي، يا سيّد أكوستا؟ ـ عرض عليه يمام.

ـ بكلّ سرور.

ـ بالليمون، أم البرتقال أم التفّاح؟

ـ شاي فقط.

ـ هذا ما أقوله دائماً ـ قلتُ وضحكنا.

كلّف يمامُ محموداً بطلب المغليّات، هذا إذا كانت كذلك. لم أكن أنظر إلى بابلو ولا أظنُّه كان ينظرُ إليَّ.

ـ كنتُ أُريه سجادة حريك الزرقاء.

ـ إنّها جوهرة ـ أضاف بابلو.

توجّه يمام إلى كومة العمق وأخرج بعضَ السجّادات. كان يعرفها من قفاها أو لمسها، لم يكن يخطئ إطلاقاً.

ـ هذه البرجامة من أقدم ما هو موجودٌ هنا: إنّها أعجوبة. تحتاجُ إلى إذن للتصدير، لكن من الممكن أن نحصل لك عليه. هذه بسط فان صناعة كرديّة، انظر كم هي فخمة ونظيفة...

كان الفتية ينظرُ بعضُهم إلى بعضٍ لأنَّ يماماً كسر قاعدة البازار. كان يفتحُ السجّادات، ويتركها تسقط بعضها فوق بعض وينظرُ إليها دون أن يحرف نظره نحو بابلو، الذي تصرّف كمشترٍ متحمّس: ينحني، يتحسّسُ نسيجَها ويقلّبها مرّةً وأخرى.

ـ هذه التي بين يديك كان نون على وشك أن يأخذها ـ كذبتُ، وقلتُ اسم الكاتب الإسباني.

ـ يبدو أنّه يعرف بالسجاد أكثر ممّا يعرف بالأدب: أدبه لا يُعجِبُني، وتعجبني هذه السجّادةُ كثيراً.

ـ انظر هذه اليقزيبريديرية ـ كان يمام يتابع ـ: إنّها من قيصيري، إحدى أكثر مدننا مستقبلاً، حيث تختلط إلى الآن أعظم الصناعاتِ مع أصغر المهن اليدويّة الخالصة. وهذه الميلاس اشتريتُها من أُسرة وقعت في العوز. مضى عليها عندها منذ بداية القرن. ومع ذلك فإنّها متوهّجة: انظر كيف تبرزُ ألوان حاشية الزهرة، النادرة جدّاً...

أحضرَ محمود الشاي فجلسنا. أردتُ أن أوقع بابلو في الحرج، لأرى ما إذا كان سيخرج منه بنجاح.

ـ لم تكن قد وصلتَ حين قال لي السيّد أكوستا إنّه كان في بغداد ـ

توجّهتُ إليه ـ أفترض أنّ ذلك كان قبل الحرب.

ـ لا؛ بل خلال الحرب، لكن مع إيران.

لم أستطع تفادي الابتسام. التفتُّ إلى يمام.

ـ كما قال إنّ السجّاد هناك كلّه صناعة جديدة.

ـ باستثناء بسط الريح ـ مزح بابلو ـ. حدثَ معي في دمشق شيءٌ غريب. كان المدير العام للهاتف أو ما شابه ذلك، يكرّمني. أخذني إلى باب توما، الحي المسيحي أكثر من أيِّ شيءٍ آخر، ليريني سجاداً في مخزنٍ كبيرٍ من دورين. لم أرَ شيئاً مهمّاً. كان الموظّفُ يردّدُ: «أعرفُ، أعرفُ، فالتي عندي اشتريتُها من لندن.» ذهبتُ وحدي في ذلك المساء ذاته إلى السوق فعثرتُ في دكّانٍ صغيرة وسخة لا تخطر بالبال على السجادة الموجودة الآن في غرفة الطعام، بأبعادٍ غير مألوفة: خمسة بثلاثة، وهو ما كان يناسبني. كانت مزيجاً من أشياء مذهّبة مريعة وسجادٍ حريريٍّ مزيّفٍ، عليه طيور تمّ وغزلان. عندما رآها الموظّف شدَّ شعره، ونتفه كلّه حين قلتُ له السعر.

كان يمامُ يضحكُ. استمرَّ يستنطقني بعينيه، لكنّه ظل يضحك.

ـ ما أغرب ألا يكون السوريون قد غشّوا حضرتك. إنّهم أخطرُ منّا.

ـ لا تكن متواضعاً. أرفع باعة عرفتهم هم أنتم.

أحضر محمود مزيداً من الشاي. دخلت الدكان ألمانيّتان متوسّطتا العمر. ذهب يمام للاهتمام بهما. تابعنا أنا وبابلو مسرحيّتنا.

ـ زوجكِ ظريف جدّاً.

ـ نعم، إنّه كذلك.

تحادثنا بحرّيّة، وكان يمامُ ينضمُّ إلينا حين تسمحُ له رعاية الدكان بذلك؛ والفتية ينشرون ويطوون بسطاً وسجادات.

ـ أعتقدُ أنّني سآخذُ هذا ـ أشار إلى بساطٍ غير كبيرٍ جدّاً ـ كي أعوّضك عن الإزعاج الذي تسبّبتُ لك به.

ـ صناعة هذا البساط خاصّة جدّاً بالبوسفور، لا يمكن أن يكون قد صُنِعَ في مكانٍ آخر من العالم.

عندئذٍ بدأ ـ لم أدرِ في البداية ماذا كان يقصد ـ حديثَهُ عن إيو، استغرق بقيّةَ المساء.

ـ إنّها أكثر الأساطير تبعثراً وخصباً. ومع ذلك ما أقل الأشياء الواضحة فيها أو على الأقل ما ليس قابلاً للنقاش.

ـ لن أُفيدك بشيءٍ، أعرف عن إيو ما يعرفه كلّ العالم.

ـ ليس في قدرها كثير ممّا يُشكر ـ توقّف ونظر إليّ ـ أعني قدر إيو، وليس قدر حضرتك. ربّما هو كذلك بالنسبة للبشريّة، لكن ليس بالنسبة إليها. دائما فكّرت أن من يملك قدراً سعيداً ليس بذي فائدة بالنسبة إلى البقيّة. وإذا بدا هذا لحضرتك قليلاً فسيّان عندها ألّا يكون كذلك. هناك جدالات واختلافات كثيرة حول هذه الأسطورة. أنا اخترتُ أن تكونَ إيو ابنةً إناكو، نهر أرغوليدا: نهر ينتهي دائماً إلى البحر حتى ولو كان من خلال ابنته.

ضحكَ بابلو. كنت منتبهة نسبيّاً إليه، لأنَّ علي أن أنتبه أيضاً إلى يمام، الذي استطعتُ أخيراً أن أوجّه إليه إشارة طمأنة.

ـ لا أعرف إلا قليلاً عن إيو، بدءاً من عشقها ـ علّقتُ مجاملةً.

ـ طبيعيّ. ـ نظر إليّ من جديدٍ خلال وقفة أخرى ـ ومع ذلك فهي لم تعشق، بل زيوس هو الذي عشقها. فإيو كانت راهبة من راهبات هيرا زوجة زيوس، وحين أحبّها الإلهُ، انتهى بها الأمر إلى أن أسلمت نفسها بناءً على نصيحة سيّئة جدّاً، لحبّها، وحبُ الآلهة دائماً عنيد وملحاح. ـ كان يتفحّصني وعيناهُ في عينيّ: لماذا؟ ـ تجسّست هيرا الغيورة على الحبيبين، وأرادت أن تنتقم من إيو، ولكي يمنعها زيوس من ذلك ما كان منه إلاّ أن حوّلها إلى بقرة، بقرة بيضاء، فطالبت بها هيرا لنفسها وأعطتها للراعي أرغوس كي يحتفظ بها. الآلهة دائما يتشابك بعضُها مع بعض. كلّف زيوس هيرمس بإنقاذ البقرة، وتمكّن من ذلك لكنه قتل أرغوس. غضبت هيرا حين رأت إيو حرّة وحاكت انتقاماً جديداً: ربطت نُعرةً إلى قرني البقرة. راحت النعرة تلسعها في رأسها دون توقّف، فجنّنتها ودوّختها. يا له من مجاز جميل للحبِّ، ألا ترين حضرتُك ذلك؟ الهوس، الانتقام، عقوبة النعرة. دائماً يحمل الواحدُ عدوّه الحميم معه. هربت إيو، جابت العالمَ على غير هدى، ومن جديد تتنوّع روايات الأسطورة كثيراً. إلى أين سافرت؟

ـ إلى البوسفور ـ قلتُ ـ أم لا؟ على الأقل هذا هو معنى الاسم: ممرّ البقرة... وبما أنّها لم تستطع مقاومة قسوة النعرة المتواصلة، كما تقولُ حضرتُكَ، هوت من أعلى جرفٍ إلى البحر، فغرقت وارتاحت.

كان بابلو ينظرُ إليّ ويضحك؛ وأنا في غاية الجدّيّة.

ـ لم أكن أعرف هذه الرواية. فرواياتي تقول إن الهاربة وصلت، بعد أن عبرت البوسفور إلى مصر، تعذّبها نعرتُها وفي الوقت ذاته تهديهاإلى الطريق. أو أنّها ذهبت إلى القوقاز أو إلى بلد الأمازونيات إلى أن انتهت إلى أثيوبيا. لكنّها حيّة غير ميّتة، لا ترتاح كما تؤكّدين أنتِ، عذراً حضرتُكِ. على كلّ الأحوال يبدو أنّ زيوس وإيو سُعِدا أخيراً في مصر وخلقا هناك أسطورةً جديدة، أي أسرة جديدة: الثور أبيس، مثلاً هو ابنهما، وهي دائماً تُعْرَف بالإلهة إيزيس. وقد علا شأنُ البقرة جدّاً: هناك من يخلطُ بينهما وبين القمر الذي يرعى في مرجِ النجوم، التي هي في الوقتِ ذاته عيون أرغوسٍ الألف. أيضاً إيو هي فيضانات النيل الخصيبة وربّما كانت تجسيداً لكلّ العرق الأيوني. لكن ومهما يكن ربما كانت أكثر الأساطير تجذّراً في بيزنطة القديمة، حيثُ نحن الآن. أسطورة إيو، المجنونة العاشقة أو العاشقة المجنونة.

سادَ صمتٌ. كان يمام يهتمُّ بزوجين في الدور العلوي.

ـ يالك من رجل أمن غير نموذجي، يا ولدي ـ قلتُ بصوتٍ خافتٍ ـ على كلّ الأحوال أحتفظُ بروايتي وإن كان لمجرّد أن أوفّرَ عليك العناءَ. البقرة المخبولة اختنقت في البوسفور.

ـ كما تريدين، لكنّ الأساطير وُجِدَت كي تُفَسّرَ مالا يُفسَّر وروايتُكِ مجرّدُ روايةٍ تركيب قرونٍ بكلّ المعاني. روايتُكِ قليلةُ الأهميّة.

جلسَ يمامُ معنا.

ـ يا بِسي، هل دعوتِ ابنَ بلدكِ للعشاء؟

ـ لم يخطر لي ذلك. ربّما لأنّني فكّرت أنّ حضرتك مشغولٌ جدّاً. لكنّنا سَنُسْعَدُ إذا ما قبلتَ أن تتناولَ العشاءَ معنا.

ـ سأكونُ سعيداً إذا ما سمحتما لي بدعوتكما.

ـ لا، هذا لا، هل ستأتي حضرتكَ؟

ـ بكلّ الحبّ.

ـ على الأخص حين أقولُ لكما إنّني لن أستطيع أن أذهب معكما لالتزامي بشأنٍ عائليّ نقله إليّ أخي في ساعات المساء الأولى. لكنّ دِسي ستمثّلني تماماً ـ التفت إلى بابلو ـ دِسي هي يمام أيضاً. أثق بها من كلّ روحي. استغلاّ النورَ المتبقّي وتمتّعا.

وقعنا أنا وبابلو في الارتباك. وبينما كان يلفُّ البساط الذي اختاره هو همسَ يمامُ في أذني:

ـ افعلي أيَّ شيءٍ معه؛ أيّ شيء ـ شدَّدَ على الكلمتين ـ على أن تعرفي كلّ ما يعرفه، لماذا جاء، ولماذا يُلاحقني.

دون ما قصدٍ منه، زرع يمامُ تَوّاً الريبةَ بيني وبين الصديق الوحيد الذي كان بالقرب منّي.

ذهبنا إلى بِيكْ، لتناول العشاء في مطعم على هضبة تحت المقبرة اليونانيّة، على مقربة من جدار مقدّس من القرن السادس الميلادي. كنتُ قد ذهبتُ إلى هناك مرّة للغداء وبدا لي مكاناً مناسباً لشيءٍ من الحميميّة؛ لو لم تخرّبها علينا فرقة موسيقيّة يونانيّة وعادةُ كسر الصحون على الأرض بدل التصفيق، التي لم تكن أقلّ يونانيّة من الفرقة.

كان بابلو مسروراً، الأمر الذي أقنعني بأنّ ما يبحثُ عنه ليس الحميميّة.

ـ لو كنتُ مكانهم ـ كان يشيرُ إلى الموسيقيين ـ ما كنتُ لأختار هذه الطريقة ولا بشكلٍ من الأشكال.

كلُّ شيءٍ كان صاخباً: البالونات التي تنفجر، الموسيقى اليونانيّة الحيويّة بقدر ما هي مكرّرة، جوقة الزبائن الذين يذهبون إلى هناك يشدُّهم الصخبُ وحده، ودويّ الصحون.

ـ يجبُ كسر الصحون مقلوبةً إلى الأسفل كي تنكسر بشكلٍ أفضلَ ـ قال بابلو.

ـ يظهر أنّكَ كسرتَ الكثيرَ منها.

كان اليونانيون والأرمن يرقصون وظهورهم إلى الخارج رقصات أنثويّة وذكوريّة في آنٍ معاً، وكذلك كان يفعل الأمريكيون، لكن بشكلٍ مثير للسخرية. كما كانت هناك امرأة ترقصُ الفلامنكو، أو تحاول.

فجأة وحين كنّا ننظرُ الواحدُ إلى الآخر أطرشين مذعورين سكبت علينا فتاةٌ جفنة من تويْجات الورد وهذا ما أصلح كلَّ شيء.

اقترح عليَّ بابلو بعد أن خرجنا الذهاب إلى ديسكوتيك مجهولة بالنسبة إليّ.

ـ إنّها خليعة قليلاً، لا تخافي. يوجدُ شبابٌ من ثلاثة أو أربعة أجناس، وليسوا من النوع الجيّد، عاهرات عاطلات عن العمل، شباب بزيّ جنسٍ غير جنسهم، بل وعملاء لتجّار مخدّرات ورجال أمن أخلاقي أيضاً. أي الأسوأ.

هل شدَّد على ما يتعلّقُ بتجارة المُخدّرات أم كان وهماً منّي؟ كانت الديسكوتيك قريبة من «تقسيم» وأكثر صخباً من المطعم، والخدمة فيها في غاية السوء. جرّني بابلو إلى طاولةٍ يجلسُ إليها رجلٌ بشرته شبه سوداء، ضخم الشارب ويضع نظّارة شمسيّة تصدمُ، خاصّةً في مثل ذلك الجوّ المُعتم. تكلّم معه بالإنكليزيّة وبصوتٍ خافتٍ جدّاً. شربنا ويسكي وخرجنا جرياً من ذلك الكهف.

ـ لك عليّ تعويض. فندقي سكونُ عدن بالمقارنة مع هذه الأماكن الصاخبة. أدعوك إلى الكأس ما قبل الأخيرة هناك.

ـ كان قد مضى عليّ الليل كلّه وأنا أتساءلُ ماذا أفعل. الخضوع لاستنطاق مستنطِقٍ متخصّص حماقة، محاولة إغوائه هي غشيانٌ محارم؛ تأجيل الموضوع كما لو لم يحدث شيءٌ أسلوب بائس. لذلك قلتُ:

ـ يا بابلو، وصل بي الأمر منك حتى الذروة. لم تسمح لي ولا في مكان أن أدفع أنا باسم يمام والآن تريدُ أن تأخذني إلى فندقِكَ. ما الغاية من ذلك؟

ـ أن نتكلّم عن أشيائنا.

لا شكَّ كان هذا هو الأفضل.

ـ تبدو لي فكرةٌ رائعة. هيّا بنا إلى هناك.

صعدنا مباشرةً إلى غرفته. كنت أشربُ ماءً فقط. وما إن خدمونا

حتى غامرتُ وأخذتُ الثورَ من قرنيه. (آهٍ، لقد دخلت أسطورةُ إيو في دماغي). شرعتُ بالكلام:

ـ ما كان عليَّ أن أقومَ به في هذه اللحظة هو، لا أدري لماذا، أن أغويك.

ـ من ناحيتي، لا تحرمي نفسك من ذلك. لن يُكلِّفكِ شيئاً: دائماً كنتُ مُعجَباً بك. لكن ما الداعي لطريقة مارلين؟ لا ليس عليك إلاّ أن تسألي عن كلّ ما تريدين معرفته وأستطيعُ أن أعلمك به.

حكيتُ له قصّتي مع يمام، ـ دون أن أدخل في كثيرٍ من التفاصيل، لكن بصراحة ـ أصغى إليّ فارتحتُ ورآها قصّة عاديّة وسوقيّة. «مألوفة» هذا هو التعبير الذي استخدمه بابلو.

ـ المرأةُ التي تعشقُ دليلاً سياحيّاً كالطفلة التي تعشقُ أُستاذَها، إنّه الوحيد المُتاح، يمام، الذي هو فوق الجميع، ويعرفُ أكثر من الجميع، يحلُّ كلَّ شيءٍ ويقودُ. ليس في ذلك شيءٌ خاص.

ـ يعني أنّني كنتُ وأنا أخرجُ عن المألوف، في غاية المألوف. إذن، كنتُ ذكيّة.

ـ ربّما لأنّكِ ولدتِ في وشقة وتزوّجتِ من وشقيٍّ فخور بوشقيّته ويُجسّدُ الروحَ التقليديّة. لا صناعة هناك ولا جِدّة. ليس غير الكهنة القانونيّين، الموظّفين، التجار الذين لا يتبدّلون، المزارعين وهذه المهنة أو تلك من المهن الليبراليّة السابقة. سيّان أن تكوني هناك يساريّة أو يمينيّة، فوضويّة أو متطرّفة. إذا كنتِ فعّالة بخاصّية الولادة في وشقة، فأنت من البرجوازيّة الصغيرة، راضية تماماً، تستفيدين وتدعمين الرقابةَ الاجتماعيّة. لا شيء من الهجرة المُجدِّدة، لا شيء غير المؤسّسات الضروريّة: الأسرة، السينما، الفيرموت بعد قدّاس الأحد، والكوسو حيث يتنزّه الناس ليظهروا ما عندهم من جديد. من هنا كان مألوفك حتى في مجال الحبّ.

ـ تريد أن تقول تصنّعي. وأنت؟

ـ أنا لم أعش أيّة قصّة حب. فقط بعض النوادر.

ـ إذن ليكن في علمكَ أنّ قصص الحبِّ تتشابه كثيراً جدّاً. لكن الآلام

التي لا تُدمي لا تُحترم أبداً. وما لم تنشر النعرةُ المأساةَ حولها، فإنَّ الجميع سيرون الشيءَ ذاته. ربّما كون هذا ما يحدثُ للجميع هو ما ينزع الاعتبار عنه، لكنّه لا يقلّلُ من ألم كلٍّ واحد بمفرده.

كان قد استفزّني. كنّا الركبة بملاصقة الركبة.

ـ لا أستطيع ممّا رويته لي وما أعرفه، إلاّ أن أنصحك بما ينصحك به أيُّ شخصٍ بمن فيهم أنتِ: عودي إلى إسبانيا. ـ أمسك بكلتا يديَّ ـ اصغي إليّ، يا بِسي: قصّتك البرّاقة كلّها تُختصر، إذا ما نُظِرَ إليها جيّداً، إي إذا ما نُظرَ إليها من خارجها، بقصّة تجارة مخدّرات. بماذا تعتقدين أنّ رحلة العسل التي قمت بها إلى الأناضول أفادت؟ يدخل المورفين الأساسي في الوقت الحالي من الحدود مع الشرق. توجدُ مخابر قريبة جدّاً تُحوّله إلى هيروئين، السكر التركي البنيّ. الشرطة تعرفُ ذلك، كما تعرفُ أنَّ المخابر الشرعيّة، تلك التي تنتجُ أدوية من الأفيون الوطني، تنتجُ أكثرَ ممّا عليها أن تنتج بكثير. تُصادر من حينٍ إلى آخر بعضَه للتمويه، لأنّها هي نفسها متورّطة في ذلك حتى رأسها. كان يمامُك يجمعُ الهيروئين أو المورفين ويترك (أو بالأحرى يزرع) الكوكا، كجزء من الثمن أو الثمن كلّه، تحت ستار البسط. كلُّ هذه الحدود مع إيران (سيرت، بطمة، بطليس) منطقة ساخنة، تعملُ فيها المافيا التركيّة، وأهمّها الكرديّة، التي تموّل حرب العصابات. ـ كنتُ سأتكلّم ـ لا تقاطعيني، وإلاّ فإنّني لن أُخرجك من الخديعة أبداً، لن أستطيع. السجاد الذي كنتِ تتلقّينه في وشقة كان يصل إلى مدريد مشبعاً بالهيروئين. والطريقة بسيطة جدّاً: يُحلُّ في ماءٍ فاترٍ وتشبع به البسط أو السجاد، ثمّ تُجفّفُ وتُرسل بالطائرة. يعودون ليضعوها في مدريد في ماءٍ أكثر سخونة، والنتيجة تُعالج بأساس، النشادر أو أيّ شيءٍ آخر، كي يعود الوسط قلويّاً، وهكذا يتشكّل راسبٌ يُتركُ ليرقدَ يوماً واحداً قبلَ أن يُفصّل عن السائل، يُجَفّفُ بعدها بالشمس في حوضٍ من الرمل وينتهي الأمر وتصبح السجّاداتُ جاهزة للشحن إلى وشقة أو إلى أيِّ مكانٍ آخر.

›› اسمحي لي أن أُكرّرَ عليك، يا بِسي: أطيعي يماماً للمرّة الأخيرة، اغويني. اغويني إن لم أكن أثير اشمئزازك كثيراً، لكن عودي

بعدها إلى إسبانيا أو انتظريني فنعودُ معاً. ابتعدي عن هذا الرجل. لقد استخدمك دائماً. ليس بالطريقة التي تظهر من النظرة البسيطة بل بطرقٍ أخرى كثيرة: كخادمة، كشريكة في جريمة، كبائعة، كامرأة إعلان، كمساعدة في تجارة مخدِّراته. لقد استخدمكِ كما يستخدمُ القوّادُ محظيَّتَه.

ـ جميعنا يستخدم بعضُنا بعضاً، يا بابلو. جميعنا. هذه هي حياتي. ـ عرفتُ أنَّني كنتُ أبكي، لأنَّ بابلو ناولني منديلاً ـ أنا لا أسألُ نفسي، كما تسألني أنت، إلى أي حدٍّ وصلتُ؛ لا أريدُ أن أعرف. أنا لا أبكي لهذا السبب، صدِّقني، وإنّما لأنّك أحييت جزءاً منّي كنتُ قد نسيتُه. حين لم نكن قد تلوَّثنا بعد، حين لم يكن قد بدأ التآكل بعد، والمستقبل لم يكن في طريقه ليصبح ما هو عليه.

ـ ليس المستقبل أبداً ما كان سيصير ـ قال ببطءٍ. كان يعانقني، ودموعي قد بلّلت ياقتي ـ أبداً، أبداً ـ كرَّر ـ في تلك المرحلة أحببتُكِ كثيراً.

ـ كان باستطاعتك أن تقول لي ذلك ـ قلتُ شبهَ ضاحكة.

ـ كان عليَّ أن أقولَه لك، لكنّكِ لم تمنحيني أدنى فرصة. هل كنّا سنصدِّقُ لو أنّ أحداً تنبّأ لنا أنّنا سنتعانق ذات ليلة هكذا في غرفة من فندقٍ في استنبول؟ ومع ذلك فما لا يصدّقُ هو أن نكون متعانقين هكذا، أيّاً كان المكان. لأنَّني، يا دِسي، ما زلتُ أُحبُّكِ ـ أبعدتُ رأسي عن كتفه، حاولتُ أن أنظرَ إليه، فدفعه إلى صدره ـ لا تهتمّي. فبعد ما حكيته لي أشعر بكِ بعيدة جدّاً عنّي، مُحالة عليَّ، بل إنَّني أستطيعُ أن أُصرِّح لك بالحب أو بالأحرى أستطيعُ أن أقولَ لدِسي اليوم إنَّني كنتُ أُحبُّ دِسي الأخرى تلك التي لا أدري أين هربت ونعرتها في رقبتها، مثل إيو.

قبّلني على جبيني. فرفعتُ رأسي شيئاً فشيئاً وقبّلتُه على شفتيه. لا أدري لماذا فعلتُ ذلك.

حملتني سيّارة من سيّارات الفندقِ إلى البيت. وبينما كنتُ أركبُ:

ـ غداً سأهتفُ لك ـ قلتُ لبابلو ـ كي ننقذَ يماماً، الذي هو مجرَّدُ

حلقة في السلسلة. وسأقول لك أين تبدأ ومن يقودها. لا أريدك أن تُنقذني وتدين يماماً. لن أغفر لك أبداً مثل هذا الظلم.

وصلتُ إلى البيت وأنا أؤنّبُ نفسي لأنّني رويت قصّتي بتلك الطريقة السيّئة، وتركت انطباعاً بأنّني عاشقة عاديّة ومستجاب لي بطريقة عاديّة أو غير مُستَجاب لي أبداً. في اللحظة التي دخلتُ فيها إلى هنا اختفى أثر بابلو المبْعِد، وانفجرت الحقيقةُ فوقي. ربّما كان الحبُّ بالنسبة لكلّ نظرة غريبة مألوفاً، لكنّني أعرف في حالتي - وفي كلّ الحالات - أنّها فكرة زائفة. لن يعرف بابلو أبداً إلى أيّ حد هي كذلك، وربّما أنا أيضاً. الآن بالذات أتصوّرُ يماماً في مكان آخر، مع شخصٍ آخر أو وحيداً - ربّما الأسوأ أن يكون وحيداً - فأشعر كيف تتفكّكُ روحي. لماذا لا يستطيع حبّي باكتفائه الذاتيّ، كما أظنُّ، أن يرتاح في ذاته؟

النعرةُ ليست الحبّ، بل القلق الذي يصوغُ الرغبات الغراميّة، يتقدّمها دون أن يُرضيه إشباعُها، لأنّها تطمح إلى المطلق، إلى اليقين الأخير الذي لا يوجد إلاّ في الموت. بأيِّ عناد تُحاصرني هذه النعرة. واضح أنّني لن أكتمل إلاّ في الحبِّ الذي يحطّمني، وكان مجدي، في الحبِّ الذي لا يسمح لي بالراحة، بل يتجدّدُ بلا كللٍ مثل ظمآن يشربُ ويشربُ ويزيدُ الشربُ من ظمئه. قانون الحبِّ هو اللاإرتواء الدائم. كنتُ قد ظننتُ بأنّني وصلتُ إلى الاتحاد بيمام، أطعتُ القدر؛ وأرى الآن أنّه لم يكن سوى قدري، لم يكن قدرَ الاثنين وأنّني لم أكن قدر يمام قط. هو لم يحبّ من خلالي، بل بحثَ من خلالي،وأنا لم أحبّ من خلاله، بل على العكس فأنا أيضاً أحببتُ يماماً من خلالي. أحترم نفسي وأستمرُّ في الحياة فقط لأنّني كنتُ أعكسُ - وأعكسُ الآن - يماماً.

ما سببُ عدم حبّه؟ لا أسألُ نفسي سؤالاً آخر. ومع ذلك فالجوابُ سهلٌ: لم يستسلم لي قط، لم يستسلم جسداً وروحاً، وحين فعل ذلك جزئيّاً فعله لأنّه راح يتبع واقعَهُ ذاته، دون أن يتخلّى عنه، دون أن يخنقه في واقعي. ما زال هو هو في الوقت الذي ما عدتُ فيه أنا نفسي.

ذنب من؟ إذا لم يصل المُحبّ إلى الجواب الذي يتلهّفُ إليه فهذا يعني أنّه يخلو من القوّة الضروريّة لتحريض انعكاسه في الآخر. ويعني أنّ الآخر غريبٌ عنه. أي أنَّ يماماً يتخلّى عنّي لا لأنّه لم يستسلم لي ويحتفظ بكينونته، دون أن يغرقها في كينونتي، بل لأنَّ تعبيري عن الحب كان تملُّكِيّاً بشكلٍ مُفرِط ويخيفه كما يُخيفُ عملاقٌ طفلاً.

ربّما كان هو مهيّأً لتعايشٍ عاديٍّ وغير مسؤول وأجبرته على تبادليّة لا ترتوي تجعله يجبنُ يوماً بعدَ يوم. أشعرُ بأنّني أُجَنُّ وأنَّ سبب جنوني هو الشيء الوحيد الذي ليس عندي استعداد للتنازل عنه، لأنّه الشيءُ الوحيدُ الذي يربطني بالحياة.

لا أرى غيرَ حلٍّ واحدٍ، مُحالٍ بالنسبةِ إليّ: أن أمضي باتجاه تجارب حبٍّ أخرى تغرقُني في نوعٍ من المتعة الجسديّة الدائمة. لكنَّ هذا مُحَظَّرٌ عليّ: جسدي لا يتمتّع، ينسى نفسه، لا يرتعشُ ولا يصدحُ إلاّ مع يمام. صارت الوحدةُ ضيفي في هذا البيت. ربّما أفادني أن أنظر إلى الخارج، أن أعلم ماذا يجري في العالم، أن أفهمَ مُطلقَ العذاب الإنساني، ودمِ المظلومين، لكنّني لا أستطيع: ليس هذا بعالَمي. لا أرى غير يمامٍ ولا أعيشُ إلا أمام يمام وتحت يمام ومن يمام وبدءاً من يمام. فكلُّ حروف الجرِّ تتقدّمه وتقودُني إليه. يمامُ حرفُ جرّيَ؛ حرفُ جرّيَ المُطلَقُ.

أُفكِّرُ، بعدَ أن كتبتُ هذا، أليست تبعيّتي هي بالتحديد التي أغرقته في تبعيّة غامضة لي. كنوعٍ من الخضوع لمتعتي الجسديّة التي يتأمّلها من الخارج ويعرفها أكثر منّي أنا نفسي. لا بدَّ أن يشعر يمام ببعض الروع أمام الرعشة الجامحة، أمام اختلاجات حبّي، حين أتجاوزُ القمّةَ التي من المحال عليه بلوغها. رغبةُ الرجل تحمل بذرة فنائها في ذاتها، إنّها مُجرّدُ وسيلةٍ لمتعة الأنثى، وهو ليس حتى وسيلة للإنجاب. شعرتُ أحياناً بأنَّ الطبيعةَ كاملةً مرتهنة بمتعتي. ألا يشعر يمامُ، حين تنتابني النوبةُ ويُغمى عليَّ كمن يستجمع عزماً بالرجوع خطوة إلى الخلف بأنّه مُستَغفَلٌ هو من قِبَلي، لا أنا من قبله كما قال بابلو هذه الليلة؟ صراخي،

إذا صرختُ، وزعيقي الذي يحرقُ حنجرتي ويُجففُها، احتياجي غير المفهوم بالنسبة إليه، رسائل المتعة غير الموجَّهة إليه ولا لأحدٍ، على الرغم من أنَّهُ هو من يثيرها، ألم تجعله يبتعدُ عنّي كما يبتعدُ عن خطر، مثل شلاّلٍ لا يشارك فيه، مثل سرٍّ ليس مُلكه فيثيرُ حضورُ آثاره بالتالي حنقه؟

لا، لا يمكن المقارنة. فتلذُّذي لا يمكن أن يُقارن بالموت، وتلذُّذ يمام ممكنٌ. هو ينتفخ، يُثار، يرتعشُ، يقذف، يتضعضعُ ويهدأ. بينما أنا أضحكُ، أبكي، ألهثُ، أستغيثُ، ورعشاتي ليست أكثر من رسمٍ إجماليّ، كنفا تطرّزُ المتعةُ مشهدها المتشابك. وإذا كانت متعي إفراغَ شحناتٍ كما هو حالُ يمام ـ وهذا ما لا أظنُّهُ ـ فهي كلّما زادت كلّما تضاعفت وكبرت. وأنا في وسطها لستُ راضية ولا غير راضية، لا مشبعة ولا غير مشبعة، بل مستعدَّة دائماً للشروع من جديد.. ويمام فوقي أو بجانبي يراقبني، وينتبه إلى أنَّ الإمتاع ليس الامتلاك، وأنَّني أهربُ عبر دروبِ إسرافٍ لا يستطيع أن يرافقني فيها، وحين يقدِّمُ لي المتعة، يشقُّ قناةً لسفينتي، باباً أبتعدُ عبره عنه بدل التضامن معه.

نعم، أشكرهُ بعدها. لكنَّها لحظات أكون فيها وحدي، ثملة مثل ممسوسة، مثل فلاّحة باخوسيّة، يراها يمامُ من تحته تصعدُ وتهربُ فلا يستطيع توقّع ما سيحدثُ بعد ذلك أبداً، لأنَّ اللذة تبحر وتذهب وتعودُ في كلِّ مرّةٍ عبر طرقٍ مختلفة. ويمامُ، المشوّشُ، يُثيرُ بإيماءةٍ منه ردَّةَ فِعلٍ مختلفة عن تلك التي أثارها بهذه الإيماءة ذاتها، ليس في اليوم السابق بل قبلَ دقائق. فيُخترقُ به جسدي من أعلاه إلى أسفله: أُذنّي، ركبتّي، أجفاني، فخذيَّ، وركيَّ، مساماتي، كلّ فتحاتي، كبيرةً كانت أو صغيرة، تتلقّاه وتحتضنه. كلّ معركةٍ مفرَقٌ ويمامُ في كلِّ الطرق، لكن دونَ اسمٍ، ولا وجهٍ، أو بقناعٍ مبلّلٍ بالمتعة. وبذلك لا يشعرُ حين أبلغُ أنا الذروةَ، هذا إذا غادرتُ الذروةَ إلى شيءٍ آخر أبلغ به ذروة أكبر، كما يمكن أن أشعرَ بمنيهِ كذروةٍ له. لا يستطيعُ أن يقيسَ ـ كما لا أستطيعُ أنا ـ الدرجة التي يتسلّقها التواء من التواءاتي، تقطيب من تقطيباتي، ارتعاش ساقيَّ أو انزلاقهما. إذ لا شيء في متعتي له علاقة بشيء، وهو لا يفهمها. لا يفهم النهايةَ ولا المسافات.

لذلك أتفهَّم حنقه. أتفهَّم أن يُفضِّلَ كون كلُّ شيءٍ تحت بطني، أن تُشبهَ متعتي متعته، وأن نبلغها معاً، بما يشبه التطابق، قاذفين معاً. لكن ليس هذا هو الموضوع، ليس كذلك. حين يرضى ويغفو أكون في بداية مجدي، حين يكون قد جرَّبَ موتَه الصغير، أجثو أنا مبهورةً بما ما يزالُ ينتظرُني؛ حين يبرهنِ هو عن متعته لا أدعُ أنا متعةً بهيّةً منها، وحين يتنفَّسُ هو بشكلٍ متقطِّع أبداً أنا سباقَ عوائقي البرّاقة، وحين أقفز فوق كلِّ واحدٍ منها ألامس السماوات مغمضَةَ العينين. وكلّما استهلكتُ أكثر كلّما صار عندي منها أكثر، فبينما هو يدَّخر ويستعيد نفسه، يغرقُ في ليل الإنهاك، يُشرق كلُّ شيء فيَّ، يتعزَّزُ ويشعُّ، وبينما تبدو له متعته مجداً من أمجاد الحياة التي يتدلى منها مثل مشنوق، تمضي شهوانيَّتي إلى مزيدٍ من الشهوانيّة والحياة ومزيدٍ من الإسراف بها. حتى أنّني حين أبدأ لا أفكِّر أبداً أنّني سأصلُ هذا الحدَّ. تغيب عيناي، أتلمَّس ـ لكن ليس بسبب الظلمة، بل الانبهار ـ الحدَّ الذي تنفذُ فيه طاقتي، وهو الحدُّ الذي أتلقى فيه طاقاتٍ أخرى أعلى منها، أكثر ضنى وخطفاً للبصر.

ربَّما لكلِّ هذا الذي لسنا مسؤولين عنه لا أنا ولا يمامُ وافتخرَ به فشعرَ بالعزلة معتزّاً في البداية بأنّه المُسبّب، يعتبرُ نفسه الآن الضحيّةَ والأداةَ التي تُستخدمُ مرَّةً وأخرى. لذلك يديرُ رأسه إلى الجانب الآخر كي لا أراه. إذا كان الأمرُ كذلك، كيف باستطاعتي إقناعه بأنّه مخطئٌ وأنّني أُحبُّه أكثر من كلِّ الأشياء وسأستمر أحبُّه حتى ولو لم يُثِر عندي كلَّ هذه الملذّات؟ لن يصدِّقني أبداً، لأنّني أنا نفسي لا أكادُ أُصدِّقه وأنا أكتبه.

ما إن التقيتُ صباحَ اليوم التالي مع بابلو حتى أرشدته كي يصل إلى بيت صاحب السكَّريّة الهائل. سخرَ بابلو منّي.

ـ أعرفُ هذا، يا دِسي ـ قالَ لي ـ لكن لا سلطة لي هنا. لا أستطيع أن أزجَّ أحداً في السجن أو أستنطقَه أو أمسكَ به في الشارع وأقولَ له «أمن». كلُّ ما أستطيعه هو نقل المعلومات إلى الأمن التركي. ومع ذلك

أخاف أن يكون عنده معلومات أكثر منّي. فكثير من عناصره مُجرّبون جيّداً. نخبةُ هذا الأمن ليست سيّئة، لكنّ المجموع ضعيف. أنا هنا بطريقة شبه رسميّة، لأنّ أهلَ البلد يتأخّرون كثيراً في اتخاذ القرار. جئتُ لأسرّعهم وأعلمهم أنّنا مطلعون على مختلف الألاعيب هنا. إذا قطعوا على الأقل إرسالاتهم. لذلك جئتُ وبقيتُ لأجلكِ؛ وعليّ أن أذهب الآن. يحدثُ لي معكِ وأنا أعرف أنّك هنا بمحضِ إرادتك وأنّك سعيدة وسط المصيبة، ما يحدثُ لي مع هذا الأمن: ليس عندي صلاحيّة التصرُّف. فقط أستطيعُ أن أرجوكِ التفكير بالأمر. قرّري قبل أن تسوءَ الأمور. سأعودُ خلالَ ثلاثة أشهر. سأعود لآخذكِ، إذا سمحت لي بذلك.

ودّعتُ بابلو وإحساسٌ مبهم ينتابني بأنّني لن أراه أبداً.

لم يظهر يمامُ هنا منذُ أكثر من أسبوع.

البارحة صباحاً ذهبتُ إلى البازار، كما هي عادتي دائماً، كأنّ شيئاً خاصّاً لم يحدث. أعطيتُ محموداً دروسَهُ، وهو يتقدّم أكثر لأنّه يراني حزينةً. لكنّني اضطررتُ أن أنتظرَ يماماً الذي لم يكن قادراً في السابق على مغادرة الحانوت. ظهر بعدَ ساعةٍ ونصف ومعه فتاة شابّة جدّاً. إنّها فرنسيّة تُدعى بلانش، تعمل في شركة دِنيس. تعارفا خلالَ فرش السجّاد.

ـ أنا قادم من هناك ـ قال لي يمام، دون أيّ اهتمام بأن أُصدّقَه.

اشتممتُ ـ وهذا ليس مجازاً ـ أنّه قادم من ممارسة الحب مع الفتاة. إنّها شقراء وبيضاء كاسمها. ليست سمينة الآن، لكنّها ستسمن، يُشعر بذلك من وركيها الهائلين وثدييها الكبيرين. أي أنّه ينتظرُها في عيني يمام مستقبل جيّد. كنّا نتحدّثُ عن السجّادات التي أخذوها، كي أُجاريهما ولا أُظهِرَ غيرةً، حين رأيتُ عيني يمام تشتعلان.

ـ لا أستطيعُ الآن أن أهتمّ بك كما تستحقّين ـ قالَ لي ـ كما تستحقّان... لماذا لا نتناول العشاءَ معاً هذه الليلةَ؟ هل تريدان أن تمرّا وتأخذاني معكما في السابعة فنتابع هذا الحديث المهم؟

ودّعتُ وخرجتُ قبل بلانش فربّما ما يزالُ لديهما ما يقولانه.

سرتُ في البازار، الذي يُثيرُ عندي في كلّ مرّةٍ سكينةً أقرب إلى سكينة فتحة السماء في العاصفة. أشعر بنفسي محميَّة بالناس، بتدافعهم، بضوضائهم وبقناعتي بأنّ سرقاتهم واختلاساتهم تمنع الجرائمَ الكبيرةَ. وددتُ أن أُدخّنَ نرجيلةً مع تركيٍّ أبيضَ الشعر، أسمرِ البشرة، يجلسُ بباب حانوت أحذية. كنتُ أُفكرُ بذلك حين تعثَّرَ بي حمّالٌ يحنيه حملٌ هائل من الفواكه. وبعد الحمّال رحت أمضي من تعثّر إلى آخر: ببعض القرويين المنبهرين أمام بهاء المدينة الكبيرة، ببعض السيّاح المذعورين المحتمين بعضهم ببعض، والذين لا يقلّ انبهارهم عن انبهار القرويين، على الرغم من ادعائهم المعرفة، بزوج من النساء، ملتفة الواحدة منهما إلى الأخرى، بشرشفيهما اللذين يُغطيانهما بالكامل. كانت تلفُّني رائحةُ البهارات، الجلود حديثة الدباغة، الخيش الخام، بسطات العطّارين، رائحة تأتي من الحوانيت العميقة التي لم يدخلها نور الشمس قط. يطوّقني ضجيجُ المثاقِب ومطارق المعدن. وميض الأنوار الاصطناعيّة والطبيعيّة، المسكونة بالغبار؛ يلفّني احتكاكُ من كانوا يعبرون بي، ربّما مستغربين رؤيتي وحيدةً في الزحام. أكثر عزلة ممّا يتصوَّرون.

حين مررتُ بحانوت مجوهرات محمد رأيتُ في الواجهة سكَّريّتي الصغيرة. تذكّرتُ أنّني ما أزالُ أحتفظُ بالكوكا في بيتي مخفيّة عن عيني يمام الذي لا يذهب إليه. رأيت أمّه في الحانوت، ورأتني أيضاً، وراحت تضحك واضعة يدها على فمها الذي فقد سنّاً.

ذهبتُ بعدها على مهلٍ إلى البازار المصري، وكأنّ النكهة التي سأتلقّاها هناك كانت تشدُّني: البهارات المخلوطة باللحم، أكباش الزنجبار وفانيلا مدغشقر الطريّة، ضبانات الأحذية والصنادل، الحلوى، رائحة الأزهار والنباتات الخفيفة في السوق الصغير الملحق. كان يمامُ قد قالَ لي:

ـ لا أدري لماذا يُسمّى بالبازار المصري، مِصِرْ صارزي. ربّما لأنّه أُطلق عليه اسم الكلمة التركيّة: مِصِرْ، أي الذرة.

حدث ذلك حين كان يمامُ يشرحُ لي كلَّ شيءٍ وما لا يشرحه لي لا وجود له.

عبرتُ سوق الحيوانات وغصّة في حنجرتي، دون أن أنظرَ إليها

وبي رغبة بالنظر إليها. تؤلمني - البارحة صباحاً أكثر - العصافير المحبوسة التي تُحرم حتى من المكان لترفرف فيه، الأرانبُ بعيونها المذعورة، الأسماكُ الدقيقة. وتؤلمني على الأخصّ جراءُ الكلاب، المفعمة بالحيويّة والاستعداد لتلقي العذاب أو الإهمال، المفعمة بالحيويّة والقريبة جدّاً من الموت.

لم أستطع تفادي الاقتراب من قفصٍ مؤلّف من قطع من شبك المعدن المرتخية. نهضت الجراء على أقدامها حين رأتني، باحثة عن الطعام أو المداعبة في يدي. كان نشيط هناك بينها، بعينين مفعمتين بالعتاب... شعرتُ بالحزن مثل حمل لا يُطاق على كاهلي. كنتُ مثل الحمّال الذي تعثّرتُ به في البازار. استند واحد من فوقِ الجراء الصغرى إلى الشبك ليلعق يدي فخرّب الشبك بدفعة منه. كلُ الجراء خرجت وهي تحرِّكُ أذنابها كما لو في لعبة بين صراخ صاحبها وبقيّة الباعة، المختفين تحت أكشاكهم. وهربتُ بدوري يلاحقني لا أدري مَنْ وتملأ عينّي الدموع.

ذهبتُ بعدها لتناولِ القهوة في المحطّة كما لو أنّني أتودّع أيضاً لا أدري ممّن أو ممّا. فكّرت بينما القهوة تبردُ: «دائماً تماسكتُ؛ بشكل جيّدٍ أو سيئٍ، لكنّني تماسكتُ. والآن ما عدتُ أتماسك، وأتساءلُ لماذا. نذير شؤم». فجأةً خطر ببالي تحذير وجّهه والدي إلينا، أنا وأخي، ذات يوم - أو ربّما أكثر من تحذير: - تُستذكرُ الطفولةُ مكوّمةً، مثل صندوقٍ مختلط - كنّا عائدين من المدرسة، ربّما كان معدّل واحدٍ منا منخفضاً. كان والدي يواسينا: «ليس من الضروري أن يكون الواحدُ أفضل الجميع، ولا أن يُحاول ذلك؛ يجبُ أن يكون أفضل من نفسه. فأنت يا دِسي، يجب أن تكوني الأفضل بين كلّ الـ دسيات اللواتي في داخلك. لا أكثر. وستكون هي في الحقيقة من سيقول لك ما إذا حقّقت ذلك». أبعدتُ القهوةَ جانباً. لا لم أحقّق ذلك؛ لم أكن أفضلَ دِسي. كان من الممكن أن أكونها. لم أكن راضية من نفسي حين هبط الضباب قبل ما هو متوقّع وتأخر الوقتُ لأخذ يمام. «آه، لماذا؟» عدتُ وسألتُ نفسي ولم أعرف بماذا أُجيبها.

كان الناسُ في الميناء يجرون، يأكلون شطائر القدقود والاسقمري، فقد أنهوا يوم عملهم وها هم يعودون إلى بيوتهم في

آسيا. في الميناء كانت تُباعُ الكستناء، والخبز بالسمسم، أباريق ماء، يانصيب، مرطبات، خذاريف ملوّنة، بصل نيئ، خيار، ورق لعب، بندق... كان الناس يتكلّمون بالهاتف، يقبّل بعضهم بعضاً، يضحكون مقهقهين، يودِّعُ بعضهم بعضاً كما لو أنّهم لن يلتقوا، يبحرون، حيويّين، حيويّين، حيويّين: وكانوا في الوقت ذاته قريبين من الموت جدّاً.

وصلتُ إلى البازار، حين وصلت بلانش. أطلقتْ قهقهة لشيءٍ همس لها به يمام. شعرتُ بنفسي غريبةً. ندمتُ لأنّني عدتُ. شدّني يمامُ إليه، قبّلني على خدّي وقال لي بصوت خافت:

ـ اليوم سأرى ما إذا كنتِ تُحبّينني فعلاً.

«منذ زمنٍ ونحن في مرحلة امتحان ـ فكّرتُ ـ نخرج بامتحان يوميّ. وليس عليّ أن أكون الأفضل.» ابتسمتُ وأجبته:

ـ تعرفُ أنّني أُحبّكَ. ماذا أفعل هنا لولا أنّني أحبّك؟

عينا أحد الصبية توقّفت عليّ لحظة أطول من المعتاد. كانت عينا محمود مُبلّلتين. ما معنى تلك العيون وتلك النظرات؟ ماذا تعرف ولا أعرفه أنا؟

أغلق يمامُ الحانوت وذهبنا للعشاء.

تكلّم هو أثناء العشاء بلا كلل. كان يملك النشاط المفتعل الذي يصدر عنه عندما يتناول كوكائين. كان يلمسنا أنا وهي، وقد جلس في الوسط، مثاراً ومبتسماً.

ـ الحبُّ يحتاج ـ كان يتوجّه بالكلام إليّ ـ لبراهين مستمرّة تؤكّد أنّه مؤسّس جيّداً ويشكّل تجارة راسخة. لكنّه ككلّ تجارة محفوفٌ بالمخاطر، ويمكن أن يتحطّم. لذلك هناك مبدآن، على المحبِّ الجيّد والتاجر الجيّدُ أيضاً أن يقوم بهما: الأوّل ألاّ يخسر، أن يُحافظ على ما عنده ـ تركَ يداً على ذراعي ـ الثاني ـ توجّه إليّ ثمّ إلى بلانش ـ ألا يلعب بكلّ ثروته في ورقة واحدة، أن يُحسن توزيعها، أن يستخدم ما ادخره في اتجاهات متعدّدة. يجبُ عدم المجازفة بالحبِّ كلّه، لا بدّ من الاحتفاظ باحتياطيٍّ منه للطوارئ.

كنتُ أقولُ له برأسي لا. رفع يمامُ وجهي دافعاً ذقني بإصبعه.

ـ من لا يعمل هكذا، ينتهي إلى أنّه سيحتاج الآخر للاستمرار، لا يدَّخرُ، يتدهور كاملاً فيحوّله قلقه بالتالي إلى محبٍّ سيِّئ. الحبُّ لعبٌ، تجارة مكمّلة. ليس التجارة التي نعيشُ منها، بل التي تُسعِدُ حياتَنا.

وكنتُ أتساءل: «تُسْعِدُ حياتنا؟»

ـ كي تُسعِدَنا فعلاً عليها ألاّ تطلبَ منّا شيئاً، ولا تصل إلى مكان، ولا أن تشبعَ رغبتنا بالكامل. عليها أن تطيلَ المداعبات، تصيرَ فراشةً لا تقف في مكان، خوفاً من أن يصطادوها ويضعوها في علبةٍ مخترقة بدبّوس. يجب أن تدخل، كالعطر، عبر كلِّ الفجوات، وتلامسنا ملامسة النسمة: راحة الكفّ ـ كان قد أخذ راحة بلانش ـ مفاصل الأصابع ـ أخذ أصابعي، حلقات الشعر، الإبطين، الوجنتين، الشفتين. كلّ شيء قابل لاستجلاب القلب، لكلِّ شيءٍ رضاه، ما معنى مناطق شبقيّة ومناطق محايدة؟ عليها جميعاً يفرضُ الحبُّ معركته، يا عسلي. الولوج سلوكٌ مألوفٌ ـ مرّةً أخرى أسمع هذه الكلمة ـ سلوكٌ آخر، لكنّه ليس نهائيّاً، أليس صحيحاً؟ إعلان المعركة ـ راح يضحكُ ـ عند الرجل مرئيٌّ تماماً: ينتصب الظهر، لكن عندكنَّ أنتنَّ النساء توجدُ أعراض، تعرفانها أكثر مني: ليست رطوبة الزوايا هي الوحيدة، عندكنّ تحت الحرير أثداءٌ تزيدُ من حجمها، وقلب يتسارع، وتنفس يضطرب، وبعض التقلّصات التي ربّما تشعرُ بها الواحدةُ منكنَّ في مكانٍ ما ـ عادَ وضحك ـ أراكما خجلتين، يا سكّرتيّ، لا أدري لماذا. الحبُّ يجبُ أن يكون مفاجَأة، ليس لأنَّ الجسدين مختلفان، بل لأنّهما دائماً رهن الاكتشاف، على الأخص حين يكون هناك أكثر من جسدين: المنعطفات، الأُربيات، الوجه الصقيل للفخذ، جلدُه الأملس، الأقدام، استدارة الأكتاف، والتقعيرة التي تخفي الصدر وتبرزه حين النهوض.

كان يتكلّمُ عن فرحة الأطفال حين يراقبُ بعضُهم بعضاً وسط اللغز، عن فضولِ الأطفال، الذين يخلطون ما يبدو لنا، نحنُ الكبار، قذارة بلعابهم ذاته ويدخلون أصابعهم ليلمسوا ما يرونه وما يريدون أن يروه، ويتكلّمون بأعضائهم ذاتها، تلك الممنوع عليهم النظر إليها ويشمّونها.

ـ الحبُّ يجبُ أن يمارَس بالعين والفم والأنف، باللسان ليتمَّ تذوُّق

كلّ شيء، وبالسمع ليتمّ سماع أنين وحركة الأمعاء وطقطقة اللحم عند الانفصال وسط العرق. إنّه جوعٌ يجبُ ألاّ يُشبعَ، كتناول المُقبّلات، كالقفز والسقوط من أجل العودة للقفز دون السقوط الكلّي، إنّه نَهَمٌ يكدمُ بهدف ألاّ ينفد ما لا ينفدُ، بهدف ألا يتوقّفَ عن الرغبة.

كان يهمسُ أحياناً قريباً مرّة منّي ومرّة منها فتظهر حرقدتُهُ حين يلقي برأسه إلى الخلف كي يضحكَ ويُطعمنا بيده، يلامس لساننا بإصبعه، فأنظرُ إلى بلانش المتورّدة وأتكهّن بأنّها تنظر إليّ بطرف عينها، ويمام ينظرُ إلينا، نحن الاثنتين...

ذهبنا نحن الثلاثة إلى البيت في المقعد الأمامي للسيارة بناءً على تعليمات يمام.

ـ أنصحكما بالصبر ـ قال بسرور ـ بودّي لو أذهب بينكما، لكن ربّما كان من الأفضل أن تجلس بلانش في الوسط.

كانت بلانش تداعب بنطلون يمام المنتفخ. وهو يقولُ لي من خلفها:

ـ أرأيتِ؟ لم تفهم شيئاً.

داعبَ يمامُ رقبتي عند إحدى إشارات المرور. وأنا رحتُ أُداعبُ فخذَه من فوق جسد بلانش، حيث ألقت برأسها على كتفه وأغمضت عينيها. أدخلتُ يدي تحته إلى أن شعرتُ أنّني ألامس يدَ الفرنسيّة، التي تنهّدت بخفوت.

في البيت حدثَ كلُّ شيءٍ كما شرح يمام، ما صُنِّفَ على أنّه عرضيٌّ صار رئيسيّاً. كانت يدا يمام تقودُ أيدينا، كراهبٍ بين معتنقي ديانته الجدد، يوزّعُ، يسيطرُ، يتكلّمُ ببطءٍ وسكينة، يوافقُ أو ينذر: «ليس بهذه القوّة.» «ليس بهذه السرعة.» «هكذا، أكثر، أكثر.» وجسد بلانش وجسدي يتشابكان فيما بينهما ومع جسد يمام. أفواهنا نحن الثلاثة تبحثُ عن عملها. وكان يمامُ يعيدنا، يقلبنا، يبدّل وضعيّتنا، إلى أن عرفنا ما نريدُ وبحثنا عنه بمعرفة مبهرة، كمعرفة الطفل الذي يرضعُ بمهارةٍ لأوّلِ مرّة.

كنّا نرتاح ونعود. أخرجتُ أنا الكوكائين وتناولنا عدّةَ خيوطٍ فَصَلها يمامُ ضاحكاً من إخفائي لها ومباركاً له. ونعود ثم نرتاح. فهمتُ عمليّاً أنَّ على العشّاق ألاّ يتبادلوا إشباع حاجاتهم. فهذا إفقار، يجب أن يثيروا حاجات جديدةً، رغباتٍ جديدةً، عليهم ألاّ يخرجوا منتصرين عليها، بل أن يطيلوها ويوسّعوها. عليهم ألاّ يستنفدوا الينابيع الأخيرةَ، بل أن يُبلّلوا شفاههم فيها ويعودوا للظمأِ والبحث والجوع. وتبديل إيقاع المكافآت وأن يكونوا من الرهافة بحيث لا شيء ممّا حدث يمكن أن يُرْوى، لأنّها ليست أحداثاً تحدثُ، بل تلميحاتٌ، حيرة، من خفر إلى خفر ومن جناح إلى جناح.

وأنا في المعمعةِ لا أدري جسدَ من ألمسُ،فاللزوجة التي كان يغوص فيها لساني، العرقُ الذي ألعقُ، الساق التي تمرُّ فوق عنقي، الكتف الذي ترتاح عليه رأسي، أيّةُ يدٍ هي التي تلوي حلمتَيّ، أو تدخلُ في لحمي، أيّ قدم كنتُ أعضُّ أو أُقبّلُ. ولم أكن لأستطيع أن أعرف ما إذا كانت تلك هي المرّة الأولى التي أتلقى فيها هذا الطعمَ أو أقوم بتلك الحركة، لأنَّ التكرار لم يكن نفسه تماماً قط ويكتسي دائماً أهميّةَ شيءٍ لا يتكرّرُ.

حين كان الاستنفاد ما يزالُ بعيداً أو حتى لم يكنْ متوقَّعاً، فتحتُ عينيّ قليلاً فرأيتُ جسدَ يمام الأسمرَ والمعروف جدّاً وجسد بلانشر الأبيضَ والمكتنز. كنتُ أعانقهما ويعانقاني. أغمضتُ عينيَّ من جديا ونسيتُ.

وحين عدتُ إلى نفسي تلقّتني كلماتُ يمام الرقيقةُ، وهو يكلّمنا كطفلتين. الشعورُ بالفراغ الذي كان ينتابني دائماً عند الانتهاء، ملأه يمامُ مرّةً أخرى بكلماته، برقّته، بترنيمه لأغنية ما، وكأنّه يريدُ أن يطيل أكثر شبهَ الوعيِ الذي يستحوذُ عليّ. أغمضتُ عينيّ كيلا ألقى نفسي من جديدٍ مع الواقع. كان يمامُ بجانبي وأشعرُ به؛ ما عداهُ لا يهمُّني، ولا حتى وجود شاهد. دخلتُ في سعادتنا القصوى وضبابُ الرغبة المستعجلة تراجع، تراجع المظهرُ، البريقُ، التعاونُ، السراب الكاذبُ والإغواءُ أيضاً. ما همّ؟

قبّلتُ يدَ يمام. قبّلتُها قبل أن يباغتني الحزنُ، لا لأنّني استُخْدِمْتُ، كما قال بابلو، بل لأنّني لم أحقّق وحدتي معه. استجبتُ لطلبه وهو لم يستجب لطلبي..في زمنٍ آخر، في أماكن أخرى، وعلى الأخصّ في هذا المكان كان يمامٌ أبديّاً لي. تراها انتهت نشوتي؟ لا، فما زال عندي صوتُ يمام، يدُ يمام. بلانش نامت. ربّما لم نتخلّ عن كوننا لوحدنا أنا وهو. كيف كان باستطاعتي أن أُفكّر أنّهُ غريب بالنسبةِ إليّ، ووجوده بعد الحبّ لا يُفهم؟ كيف كان باستطاعتي أن أُفكّرَ أنَّ يمام وبلانش كانا شيئاً واحداً بالنسبة إليّ؟ فضّلتُ ألاّ أُفكّر بشيء. عدتُ وقبّلتُ يدهُ.

تذكّرتُ ـ أكثر ممّا ظننتُ أنّني قادرة عليه وأكثر ممّا وددتُ ـ جلسةَ الحبّ تلك. (لماذا أُسمّيها جلسة، كجلسات بِنيس؟) كانت علاقتي بيمام بعدها ولعدّةِ أيّامٍ علاقة تجارة خالصة. أعني أنّني كنتُ أراهُ في الحانوت، أُساعده بكلّ ما كان بوسعي ويسمح لي به تلميذيَ الوفيّ محمود؛ كنتُ أحلُّ محلّه أحياناً، أعتني بولديه وأستقبلهما في نهايات الأسابيع وعيد الفطر الذي صادف تلك الفترة (كنتُ من اشترى هداياهُ فتذكّرت تلك الدمية التي طلبها منّا نحن الإسبانيّات حين تعرّفت عليه منذ زمن طويل. زمن طويل؟)

كنتُ أفكّرُ بالمصادفة ببلانش، قفزتُ إلى رئيسها بِنيس وعزمت على أن أهتف له، دون أن أعرف جيّداً السببَ، تماماً كما لا أعرف بشكلٍ عامٍّ ومنذ زمن سببَ تصرّفاتي. هتفت للقنصليّة الفرنسيّة، فقالوا لي إنّه يعيشُ في استنبول، لكنّهم لا يستطيعون أن يُعطوني رقمَ هاتف بيته. أعطوني هاتف الشركة. اتفقت معه على اللقاء هناك. كان بي فضول لرؤية السجّادات ولأتأكّد ممّا إذا كان البساط الخمري هناك ذلك الذي اختفى ذات مساء من صالون البيت، تحت أريكة القطيفة المطرّزة.

تذكّرتُ أثناء الطريق إلى المكتب باستلطاف رحلةَ باريس وطريقة بِنيس النظيفة والمستعجلة في ممارسة الحبّ، المناقضة تماماً لتجربتي الأخيرة. هو أيضاً كان تنفيذيّاً في الحبّ، لا يسأل عن رأيٍ

شريكته ـ هكذا كان يسمّيها ـ كان يُفضّل المرأةَ شبهَ الباردة التي تتجاوب مع برودته أو سرعته، وتبدي مقاومة مضبوطة ليبرهن عن قوّته وقدرته على الاستجرار. إنّه رجلُ إدارة ـ رجل إدارة جيّد ـ لا أكثر. لا يستهلك في عمليّةٍ ـ جلسةٍ ـ الحبِّ زمناً أكثر من اللازم. لا يبدِّدُ شيئاً أبداً. يستبعدُ الغلمات السوقيّة والمتواطئة، فهي تفاصيلَ تعتِّمُ على نور الحقيقة. والحقيقة هي الرعشة، المشتركة إنِ أمكن بتهذيب جيّد ونزوعٍ إلى التناسق. ربّما أخرجته إيماءة غير متوقّعة أو ردّة فعلٍ غير منتظرةٍ عن طوره. وهذا لا يعني أنّه مثل أولئك الرجال، يُسجِّلُ عدد رعشات شريكته، كما يُسجِّلُ رامي مسدّس على مسدّسِه عدد القتلى، لم يكن الأمر ليصل به إلى هذا الحد، لكن تعدّد هذه الرعشات لا بدَّ يُشْعِرُه بالرضا العميق عن نفسه وبالامتنان لتلك العظمة، ويريدُ لشريكته أكثر قليلاً.

هكذا كنتُ أُفكِّرُ وأنا في مصعد المكتب. لمتُ نفسي لأنّني بدَّلتُ كلّ هذا التبديل رأيي بدِنيس، لكنّني عذرتها فيما بعد، ذلك أنني دائماً فكّرتُ بهذه الطريقة، ما كان يحدثُ هو أنّني ما عدتُ مفيدة: ما عدتُ مفيدة ليمام طبعاً. «قلتُ لنفسي فجأةً: هل ما عدت كذلك في الواقع؟ ألا أستطيع أن أستخدمه كسلاح ضدَّ بلانش؟» هذا لا يعني أنّني كنتُ أشعر بالندم أو بالحدّ الأدنى منه لجلستنا الجماعية لكنّني لا أستطيع أن أتقاسم يماماً حتى ولو صارت متعتي أكبر ألفَ مرّة من التي كنتُ أشعر بها وحدي معه وتكفيني.

ما إن استقبلني دِنيس في مكتبه حتى فهمتُ أنَّ الأمور بيني وبينه ما عادت كما كانت من قبل.

ـ لم أظنّ أنّك ستهتفين لي ولا أنّكِ تريدين رؤيتي بعد حصولكِ على العقدِ ليمام.

ـ نحنُ الأوروبيين دائماً نرى ـ أكّدتُ على صيغةِ الجمع ـ أنَّ الأتراكَ ومن يحيطون بهم، لا يتحرّكون إلا بناءً على مصالح تجاريّة. نحنُ ظالمون، يا دِنيس. ومن جهةٍ أخرى أُذكِّرُكَ أنّني رافقتُكَ إلى فرنسا بعد الحصول على العقد المذكور.

خرجَ من وراء مكتبه متسائلاً: «بعده؟» كما لو أنّه يخرج من وراء

طاولة عرض في متجر ومدَّ يده إليَّ. مددتُ له يدي بشكل لم يكن أمامه بدٌ من تقبيلها. كانت برودته قد أصابتني بطرطشاتها. فجأة فُتِحَ باب مختلف عن ذاك الذي دخلتُ منه وظهرت بلانش مستعجلة.

ـ بِنيس، يا عزيزي. آه، عفواً، لم أكن أعرف أنَّ عندكَ زيارة.

اختفت مُغلِقَةً الباب.

ـ صديقة؟ ـ ابتسمتُ له.

ـ آهْ، لا ـ قال بغموض ـ طبعاً للمرء الحق بذلك حين يرى نفسه مهجوراً ممّن كان ينتظر منه الكثير.

ـ لو رويتُ لك ما حدثَ ـ كذبتُ عليه ـ لاعتذرت ألفَ مرّة على ما انتهيت من قوله لي.

رفرفتُ أجفاني كي أُضفي على عينيَّ تعبيرَ عدم الرضى. ولكي يبدِّل الحديث أراني البسط والسجّادات التي حوّلها إليه يمام. كانت جديدة، ليس فيها من جيّدٍ غير تناغم ألوانها مع مزركشات وألواح عرض الجدران. كان البساط المخطوف هناك في مكتبِ بِنيس. لم أستطع إلا أن أبتسمَ أمام مهارة يمام.

مررنا ببعض الأقسامِ واجتزنا ممرّاً، كان قد وضع بلانش في غرفة صغيرةٍ مضاءة وتطلُّ على حديقةٍ مجاورة. قدَّمها لي فتبادلنا التحيّة بلامبالاة. تكهّنتُ توسُّلاً في عينيها؛ كنتُ على استعدادٍ لمصلحةٍ لي أن أقبله منها. كانت غايتي منحطّة، إذا ما انتزعت منّي يمام انتزعتُ منها بِنيس. ربّما لو كان عليها أن تختار، لاختارت لمصلحتها رئيسها. كان من الممكن أن أكسبَ اللعبةَ معها، لأنّني كنتُ أُراهن وأنا مسيطرة بالمطلق على اللعبة، التي لم يكن يتدخَّلُ فيها قلبي ولا جيبي. قلبي لا يتدخَّلُ أيضاً؟ نعم؛ لكن ليس من ناحية بِنيس. علّقتُ على جدارٍ صورةُ للسين.

ـ أتذكَّرُ ـ قلتُ متوقِّفة أمامه بقصدٍ ـ مشاويرنا، حين كان يبدو كلُّ شيءٍ ممكناً، ولم يكن بيننا غير الأمل.

ـ صحيح ـ أجاب بِنيس، آخذاً ذراعي وماضياً بي إلى الخارج.

ـ وداعاً، يا آنسة ـ قلتُ لبلانش ـ هذا أجمل مكتب في الشركة؛ حاولي ألاّ ينقلوكِ منه.

افترضتُ أن التهديد المبطّن سيربكها وسيعطي نتيجته لصالحي تماماً.

ليس عليّ أن أقول إنّ دِنيس عرض عليّ في ذلك اليوم بعد الغداء أن يريني بيته الجديد في غالاتا. تذرّعت بشيءٍ له وقع الذريعة. شكرته على الغداء وودّعته موضحة له أنّ موقفه جرحني.

ـ من غير الممكن أن نتأخّر إلى هذا الحد بلقائنا هذه المرّة.

ـ هذا الأمر يتعلّقُ بكَ ـ أجبتُ ـ فقد فسّرتُ ابتعادي بطريقة مؤلمة جدّاً بالنسبةِ إليّ. لو قلتُ لك إنّه كان من أجل حمايتك، ومن أجل الاحترام والودّ الذي أكنّه لك. لو قلتُ لك إنّ موضوع يمام صبٌّ في مسألة محرجة، غريبة عنّي، لكنّني وجدتُ نفسي متورّطة فيها وقد جعلتني أفكّرُ أنّهم يراقبونني ويراقبون صداقاتي. لو قلتُ لك إنّ أول ما خطر ببالي هو أن ألوذ إلى ذراعيك وقد قاومتُ ذلك كيلا أؤذيك. فقط عندما انتهى كلُّ شيءٍ وتبيّنتُ أنّ أحداً لم يسئ الظنّ بي، وأن الامر لم يكن إلاّ استنفاراً مزيّفاً من قِبلي، عندئذٍ فقط جئتُ أبحثُ عنك. لأتلقى اتهاماً رهيباً. أنا ذاهبة، يا دِنيس، أنا ذاهبة.

حملتُ منديلاً إلى أنفي؛ حرّكتُ رأسي دون معنى. عانقني دِنيس. ملّس شعري.

ـ عفواً، عفواً. كنتُ أحبُّكِ إلى حدٍّ. كانت الخيبة كبيرة جدّاً.

ـ ليست أكبر من خيبتي اليوم.

ـ دِسيا، هل تصالحنا؟ قولي نعم، يا دِسيا.

رفعتُ أجفاني، التي ما تزال مشبعة بالدموع.

ـ إذا أنت أردتَ ذلك، فليكن.

قبّلني.

ـ هل ترغبين غداً بأن نتناول العشاء معاً؟

ـ إذا كنت تريدُ أنت. ـ كرّرتُ.

أكتبُ الآنَ هذا دون أن أتوقّع ما سيحدثُ غداً. تحرّكني دوافعي،

كمن فقد آخر اتجاه في طريقه. لا أدري ما إذا كنتُ أهبط أم أصعد. لا أدري ما إذا كان ما أفعله حسناً أم سيّئاً. ليس لي إلاّ هدفٌ واحد فقط: استعادة اهتمام يمام بي. لا أستطيعُ أن أكون موضوعيّةً أو أخلاقيّة ولا حتى وفيّة. فلكي يبقى يمام بجانبي - «بجانبي إلى الأبد» أفكّرُ الآن، رغم معرفتي أنّه ستكون لكلّ يوم معركته - كي يبقى يمام بجانبي سأفعل كلّ شيء، سواء توافر لي أمْ لم يتوافر. كل شيءٍ في دفاعٍ مشروعٍ، كلُّ شيءٍ في دفاعٍ ذاتي، لأنني لا أتعبُ من تكرار أنَّ يماماً حياتي وأنّني لا أريدُ أخرى. يقولون إنَّ العشّاق هم أكثر من يقدّرون الانسجام والجمالَ في العالم؛ كما يقولون بأنّنا كي نكونَ سعداء في هذا العالم، بعكس من حوّلوه إلى وادٍ للدموع، يمكننا ذلك. لكن كم من الجهد يُكلّفنا أن نلمسَ السعادةَ برؤوس أصابعنا. يكلّفنا من الجهدِ ما لا نستطيعُ معه تجنُّبَ أن نسألَ أنفسنا، بعد أن امتصّنا الجهد لماذا هذا الذي نصارع لأجله. كم تعبتُ في هذه المهمّة.

عادت العلاقاتُ وتوطّدت مع دِنيس - أو بالأحرى تأسّست - دون صعوبة. وسارت في الحال على أفضل وجهٍ، لكنها لم تصبح ريحاً في شراع، محوِّلةً إيّانا إلى زوجين رتيبين وقورين.

وبما أنّني لم أكن أريدُ أن أغيبَ عن شقّة يمام، خشية أن يأتي ولا يجدني، ولا من البازار، بسبب محمود، ألمحت إلى إمكانيّة أن نلتقي في فترة القيلولة. رفض دِنيس؛ فقد كان فعلاً تقليديّاً حتى الحنق. اتفقنا على اللقاء سرّاً - التهذيبُ قبل كلِّ شيء - ليلة الأربعاء والسبت، طبعاً في بيته.

كانت بالنسبة إليه حفلةً حقيقيّةً: مائدة مخدومة من مطعم غالٍ، عشاءٌ باردٌ، شموع وشامبانيا. في كلِّ ليلة أفاجئُ نفسي منتظرةً وصول المدعو الذي لم يكن غيري. يقدّم لي هدايا ناعمة، لكنّها ليست مكلفة، ربّما كيلا يُبالغ في الفوارق بيننا. ألمحتُ ذات ليلةٍ لحاجتي - قلتُ مصلحتي - الملحة للعمل. ربّما في شركته ذاتها نظراً لمعرفتي بالفرنسيّة واستنبول. فقال إنّه سيهتم بالأمر ومنذ تلك اللحظة صرتُ أكتشف في حقيبتي ظرفاً فيه نقود. ليس في كلِّ ليلةٍ طبعاً: فهو لا يريد

أن يهينني، بل أن يشعر فقط بالرضا والتعويض للحفاظ على امرأة رفيعة المستوى، كما يكرّر عليَّ بلطف.

الحقيقة أنّني وعلى الرغم من أناقته لا أخدعُ نفسي بمشاريع مستقبليّة أو دونها، بمكائد أو دون مكائد تبرّر سلوكي أمام نفسي، لا أخدع نفسي: فأنا عاهرة. أعترف أنّني أتعلّم مع دِنيس الحبَّ الجسدي - كيلا أقول الجنس - أكثر ممّا في كلّ حياتي. هو وفيّ ومنتصر، ليس مثل راميرو (أتكلّم فقط عن هذا المجال) لكنّه يتركني في القطب الشماليّ، وليس مثل يمام، وأنا أستطيع أن أفعلَ، بينما يتمتّع هو إلى هذا الحدّ أو ذاك، كلّ قدراتي على الاستنتاج، على الرغم من أنّه يكفيني أن أكون مراقبة متواضِعة.

إذا كنتُ أكتبُ وأتهم نفسي بهذا فلكيّ أُلهي نفسي عن أشياء أسوأ.

لقد قيل دائماً بأنَّ العاهرة هي امرأةُ متعة. وهذا صحيح لكنها متعةُ الآخرين. وهي لكي تمارس عملها بشكلٍ أفضل، عليها البقاء على الضفّة، وتود الاكتفاء بوضع العناصر الضروريّة للتمتّع تحت تصرّف زبونها. (طبعاً ليس تمتّعاً مبالغاً به ولا مجنوناً، بل صحيحاً، سريعاً وفعّالاً.) كجسدٍ مُجَنَّس، عليها إلغاء نفسها. أي أنّه لا يوجدُ بين العاهرة ورفيقها اختلاف في الجنس: لا يوجدُ إلا جنس واحد وطريقة مميَّزة للاستمناء المخدوم.

ما يحدثُ هو أنّني نوعٌ فريدٌ من العاهرات: عليَّ أن أضحك، أبكي، أصرخ - ليس كثيراً - أحياناً، أن أختفي، لكن ليس من الضروريّ أن أكونَ ممثّلةً رائعة: فدنيس، على الرغم من الكوميديا الفرنسيّة، على استعداد تامٍّ لقبول أيّ زلزالٍ تثيرهُ ذكورته. من الغريب أن يتبيَّنَ المرء أنَّ العهر نقيض الإباحيّة. ليس هناك ما هو أكثر قياساً ولا أكثر توفيراً أو مشابهة لعمل أيِّ كائنٍ إنساني مثله. لأنّه عملٌ وكفى. جسدي وسيلة لكسب عيشي - ليس فقط عيشي اليومي، بل عيشي الذي اسمه يمام - وليس وسيلة للوصول إلى المتعة. فدنيس وأنا، حتى ولو كان يجهل هذا، نتناكح بهذا المعنى: هو يريدُ أن يتمتّع بجسدي، وأنا أوجّهُ مشاريعي من خلال متعته، دون الحاجة للتستّر بلباس العاهرة، الأمر الذي أشكره عليه لستُ بحاجة للتخفّي وراء لباس السوقيّة. على العكس صرتُ أهتمُّ بمظهري أكثر من أيِّ وقت مضى، ذلك لأنَّ رغبته تتكئُ

عليه، وصرتُ أكثر أناقة من أيِّ وقتٍ سابق. بينما ألتقي بالسرعة مع زميلاتي في المهنة، أتوق لأن ينتهي دِنيس بأسرع ما يمكن. لا يعني هذا أنّه يسرع، فهو يصل إلى الذروة مباشرة بعد خروجه ويرفض أيّ شيءٍ يلهيه عنها. يذكّرني بصيّادٍ في وشقة، كان يذهب لصيد الحجل فيعبر به أرنب يقدّمُ نفسه له فلا يطلقُ عليه النار أبداً. «قلتُ على الحجل وعلى الحجل، ما أرهبني.»

يمكنُ أن يبدو أنّنا نستسلم، نحنُ العاهرات، مع أسلحتنا ومعدّاتنا. لكنَّ هذا ليسَ صحيحاً، فنحن لا نسلّمُ غير أسلحتنا ومعدّاتنا. نبقى بعيداتٍ عن التلوُّثِ فيما بعد كما من قبل، ليس دون خدش فقط، بل سليماتٍ، لأنَّ العري ليس أكثر من وعاءٍ عملٍ مثل لباسِ عامل المعادن الأزرق. في الوقت الذي يطلبُ فيه دِنيس تعاوني، يتطلّعُ لأن يجعلني أتمتّع، دون أن ينتبه إلى أنَّ أيَّ تلذُّذٍ منّي هو تظاهرٌ أو إذا حدثَ فهو تقليداً لتلذّذه: رعشة القذفِ القصيرة. من مركزي كامرأةٍ غير ملتزمة، أترصّدُ الحشرجةَ، التوتر، العينين الغائبتين أو المقلوبتين لعشيقي، وأعرفُ ماذا أفعل كي أحرضَهُ، كي أجنّنه - دائماً جنون العاقل الصارم، المسموح به - وأخيراً ولحسن حظّي، كي أفرّغه، وأعرف ذلك تماماً لأنَّ أفضل عضوٍ يعمل، ويكادُ يكون الوحيد، حين أكون معه، هو رأسي. بقيّة جسدي طهر خالص، ليست لي ولا حتى رائحتي نفسها، بل رائحة نظافةٍ حميميّة دقيقة.

أتسلى أحياناً بينما يمارسُ دِنيس الحبَّ، متصوِّرَةً ماساة عاهرة تعشقُ زبوناً وتريدُ أن تراعيه مستسلمة إليه من كلِّ قلبها. أتصوَّرُها وقد نسيت مهنتها، متسليّة معه، مشتعلةً غير مكتفية بذكورته، بل موسّعة نطاق سلطتها الى كامل الجسد. وأتصوَّرُ الزبون مندهشاً أمام ذلك الودّ، يُطالب بالضرر والظلم فلا يدفع أبداً مقابل النوم مع مثل هذه المجنونة.

كتابةُ هذه الابتذالات والتفاهات لم تلهني عن موضوعي. ليتني أستطيع الراحة هذه الليلة.

هناك أيّامٌ - صباحات - أمرُ فيها على البازار وأبقى برهة

فقط كي أعطي الدرسَ لمحمود. يمامُ حميم ومبتعد في آنٍ معاً، كما لو كان مع صديقةٍ قديمة. أجهل ما إذا كان يعرف علاقتي بدِنيس، على الرغم من أنّني أظنُّ أنَّ بلانش تعرفُ بها، لكنّ بلانش لن تكون من البلاهة بحيثُ تُخاطِرُ بالإبلاغ عنّي.

بعد أن تعزَّزَ موقفي بدأتُ البارحة بإنضاجِ دِنيس، ونظراً لأنّه لم يلبِّ طلبي بالعمل ولكي ألمح له بإمكانيّة أن يقدِّم لي عملَ بلانش، بدأتُ أُظْهِرُ غيرةً. في البداية بشكلٍ عامٍّ، ثمَّ بحزم «من تلك البدينة البيضاء، التي نادتك يومَ رأيتُك في مكتبك بـ أنتَ ويا عزيزي». نظر إليَّ بذعرٍ وعبثيّة في آنٍ معاً؛ حاول أن يُهدِّئني؛ أقسمَ لي وأغلظ الأيمان على إخلاصه لي، وعرضَ عليَّ كلَّ أنواع الضمان. لكنّه لم يكذِّب بوجود أمر بسيط بينهما من قبل. وأنا واثقة من أنّه لم يعد له وجود، لكنّ عدم وجوده يشغلني أيضاً، إذ يمكن أن يرمي ببلانش في أحضان يمام. كما أنّ الوشاية بها ليمام ليس تكتيكاً جيّداً، لأنَّ كمّه عريضٌ أكثر من اللازم ما دام ينتظرُ أن يخرج بفائدة من أحد. ما أنتظرُ التوصّل إليه هو أن تعود بلانش التي جاءت من فرنسا إلى فرنسا في أفضل لحظة بالنسبة إليَّ.

منذ أسابيع لم أرَ أريان. حضرث البارحة خادمتُها زريفة إلى الحانوت. كان الحرُّ هائلاً. روت لي المأساة بواسطة يمام. فسيِّدتُها، على الرغم من أنّ لديها أموالاً في البنك، لكنّها لا تستطيع الخروجَ من البيت بسبب تردّي وضعها كثيراً، كانت في أسوأ فاقة، وزريفة تنفق على البيت كلّ أموالها ولم يعد لديها شيء. حاولت أن تلجأ إلى الضيوف، لكنَّ أكثرهم ثقة كان في إجازة والشاب الإسباني يرافق مجموعة من السيّاح في كابادوسيا. أريان تموت: لا تأكلُ وتعاني من إسهالٍ متواصل.

ـ لا أعرف استخدام الهاتف ولا أتكلَّمُ غير التركيّة، والسيدة لا تريد أن تقبل شيئاً من أحدٍ ـ كانت تتأسّفُ.

ـ لكن ألا تقولين أنّها فاقدة لوعيها؟ ماذا يهمُّها في هذه الحالة أن تاتيها المساعدة من أية جهة؟ من أين تقبضُ التقاعد الذي يدفعونه لها؟

قالت لي اسم البنك. ذهبنا إليه، كانوا يعرفون زريفة بعد كلّ تلك السنوات. تضامن معنا موظّف فحصلنا لها على خمسة عشر مليون ليرة تركيّة كانت هناك ميتة من الضحك دون أن تُقبضَ. توجّهنا إلى بيت أريان. فعلاً كانت في لحظاتها الأخيرة. أمسكتُ بيدها اليمنى، ووضعتُ بصمتها على الإيصال. ثمّ طلبتُ من دِنيس سيّارة إسعافٍ إلى المشفى الإيطالي. فهناك ستستعيدُ عافيتها.

تمكّنتُ ليلاً ـ كان يوم ثلاثاء ـ بعد أن بقيتُ في الحانوت حتى ساعة إغلاق البازار من جعل يمام يأخذني إلى البيت. كان لديّ قليل من الكوكا وقنينة نبيذ بورغونيا رائع، غير مشكوك بمصدره.

لعبتُ، بعد أن شربنا النخب، بخصلة من شعره، بزرٍّ من قميصه، بإبزيم زنّاره. تمازحنا، تضاحكنا. وشيئاً فشيئاً ترمّم عالمنا وابتعد كلّ ما عداه. لا أؤكّدُ أنّه تأجّج عاطفياً، لكنَّ عاطفتي جرفته، وهو كرجلٍ لم يبغ التراجع. العاطفة تذرو، مثل ريحٍ شديدة، بقيّةَ التأثيرات، بقيّةَ الذكريات. فوضاي أو عاطفتي الفوضويّة واجهت بتفوّقٍ نظامَ يمام الجديد، الذي أجهله. تأكّدتُ من أنَّ عاطفتي تزدادُ لأنَّ شيئاً ما كان يعارضها، يقاومها وينازعها. لم تعد المسألة مسألة قول «أُحبّك»، بل مسألة تدمير أسس جديدة، استعادة الاتفاق الذي طالما جمعنا زمناً طويلاً من الدماغ وإحرازه.

وبينما كنتُ أتساءل لماذا عشّشت عاطفتي، عنيدةً لا تتبدّلُ في ذلك الجسد، تلك الأجفان، تفاحة آدم تلك، لماذا كان ذلك الرجل يرفضُ الذوبان فيّ؛ لماذا لم يمنحني أيّ اختيار لأختار؛ وبينما كنتُ أتساءل ما إذا كان باستطاعتي تصوّر طريقة في الحياة لا يكون هو فيها، انتبهت إلى هزيمتي: الهزيمة غير المختارة أيضاً، بل المفروضة بغباء من كائنٍ متجاهل للدور المطلق الذي مَنَحْتُهُ له حياتي. هزيمة بلا نصر.

وصلتُ إلى الفراش وطعم مرٌّ في فمي، لأنَّ انتصارَ ليلة لا يُبعدُ بأيِّ شكلٍ من الأشكال فشلي النهائي. «الحربُ ـ كنتُ أقول لنفسي ـ لقد خسرتُها، على الرغم من كسب مناوشاتِ اليوم بكلِّ شرف.»

يردِّدُ الناسُ أنّه ما من أحدٍ يستطيعُ أن يكون سعيداً في عالمٍ بائس، لكن هل هناك من ضربةٍ أكبر من ضربة من يحاول تحقيقَ سعادته في عالمٍ شقيّ؟ التناقض يزيدُ من عزمنا وقوّتنا، البارحة تبيَّنتُ ذلك.دافعت على غير صوابٍ عن نحنُ مقابل الـ هُم، تلك البقيّة الكاملة من البشريّة، فحبّي يكبر دائماً في الظروف الغامضة ونعرتي كلّما أُثيرت أكثر كلّما استُثيرت وعذّبتني أكثر. لو وجدتُ طريقاً مسلّماً به، بلا تردّد لتحوّلَ ولهي بيمام إلى ارتباط هادئ بدِنيس. العاشق الأكثر نعومة هو الأكثر ساديّة، لأنَّ اعترافه بالتبعيّة ليس أكثر من المطالبة بالتعويض على حساب أيِّ شيء كان.

لذلك لم يعد باستطاعتي أن أُظهر نفسي كعاشقة ناعمة. فعليّ تحقيق مكتسباتي بالدم والنار، استخدام آلة المتعة، التي هي جسدُ يمام، حتى آخرِ مسنَّناتها. ما من عضوٍ أو ملمحٍ امتلك ليلةَ البارحة عنْقَهُ المقصور عليه. فقد جعلتها جميعاً تشاركُ. كُنتُ العامل المساعد، الغازية، حصان الشيطان، أي المُلتَهِمة. لم أسلُ أو أعطِ قيمةً أكبر للرعشة على حساب القهقهة، للحركة على حساب السكينة، لقميص النوم على حساب زغب صدره: كلُّ شيءٍ تحالف للحصول على الغنيمة الفرورة، غنيمة ليلةٍ.

تدوّي في رأسي بعضُ كلماتِ يمام، في البدايةِ عن رحلة الأناضول، في لقائنا الثاني: «حين تعرفينَ نفسكِ جيّداً ـ لكن من منظور الغريزة، وليس العقل فهذا لا يجدي ـ عندئذٍ ستعرفين أنَّ عليكِ إطاعة نفسكِ، فكّ القيودَ التي فرضتها عليكِ آلافُ السنين، وأن تنطلقي على عماها وتعصي الأوامر التي لا تصدرُ من داخلِكِ. هكذا ستصبحين دليلةَ نفسك. أنا الآن صبيُّ الأعمى لأنّكِ لا ترين؛ ستنفتح عيناكِ لتغلقيهما بنفسك حين تشائين. وعندئذٍ تصيرُ رغبتكِ رغبتي ورغبتي رغبتكِ، فنسير حرَّيْنِ، عبدين الواحدُ للآخر فقط، مثلَ طفلين في غابةٍ سعيدة.»

لم أفعل طوال الليل غير العمل بهذه النصيحةِ أو بالأحرى بهذه الوصيّة وأنا مفتوحة العينين جيّداً وكذلك تلك التجربة، حيثُ لا يقودُ العناقُ إلاّ إلى عناقٍ جديد، وكلّ إيماءةٍ تكتسي بألف مظهرٍ مختلفٍ وتحرز ألفَ تكثيفٍ مختلف.

بعدَ أسبوعين من المكوث في المشفى الإيطالي أعادوا أريان إلى بيتها البارحةَ. ذهبتُ اليوم لزيارتها. كانت مستلقيةً وتقلّصَ حجمها. لم تعرفني، بل ولم تفهم شيئاً ممّا كنتُ أقوله لها. تهيّأتْ للوداع الأبديّ من الجسدِ وحده. انحنيتُ وقبّلتُها على جبينها. وفجأةً سمعتها تقولُ بكلّ وضوح:

ـ اذهبي، يا دِسي، اذهبي من استنبول.

لم تَقُلْ غير ذلك. قلّبت رأسها قليلاً وماتت.

أعرفُ أنّني فقدتُ صديقةً لم أكن صريحةً معها بما يكفي، وبالتالي كنتُ أجرحها بترسي. ربّما كانت ستساعدني، لكنّني لم أسمح لها. تلك كانت غايتي الأخيرة. عليّ أن أبكيها، لكن ليس باستطاعتي. حاولتُ ذلك ولم أستطع.

كان الشدُّ والرخيُ مع دِنيس يضجرني. اضطررتُ اليومَ أن أُمَثِّلَ عليه ـ لا يمكن التعبير عن هذا بأفضل منه أبداً ـ متّهِمَةً إيّاه بأنّه ما زالَ يخدعني مع بلانش. طرحتُ عليه شيئاً لا يمكن لأحدٍ أن يطرحَهُ أبداً: مأزق.

ـ هي أو أنا ـ قلتُ له.

ولكي يبرهن عن صدقٍ وعودِ حبِّهِ حثثتُه كي يُقيلَها ويرسلَها إلى فرنسا. لأنَّ علاقاتٍ «جدِّيّةً وواعية» كعلاقاتنا لا يمكن أن تكون تحتَ رحمةِ شابّةٍ طائشةٍ تتورّطُ مع رؤسائها. وعدني أنّه سيفعل ذلك خلال

أسبوع. بعد أن تظاهرتُ بانهيارٍ عصبيٍّ، ما يزالُ جسمي يرتعشُ منه حتى الآن. شهورُ بابلو الثلاثة انقضت أو على وشكِ أن تنقضي، وأُريدُ أن تكونَ مشكلتي قد حُلَّت حين يصلُ. مُشكِلتي الوحيدة التي ملأت ليالِيَّ ونهاراتي، مشكلتي التي تُجبرني على تناول (الشيء الذي لم أفعله منذ وصلتُ آخر مرّة) مُهدِّئاتِ صديقتي فِليساء التي كنتُ قد نسيتُها.

بقيتُ أتردَّدُ على البازار؛ مُهتَمّةً بمحمود، عملي الإنسانيّ الوحيد، مبتسمةً ليمام؛ مثنيةً على سطوته عليَّ، وأخفي التي لي عليه. في الحقيقةِ أخافُ أن تكونَ بلانش فرنسيَّةً صغيرةً وديعة، حياتُها الجنسية خاضعة لرجلها، فتبرز مكانة هذا: المكانة التي ربّما وضعتُها أنا في برزخ. يمامُ شعر بنفسه معي في حلّ من واجب السيطرة وانتهى إلى فَهم أنَّ مركزه ليس قضيبه، كما كان يظنُّ في البداية - «خذي صولجانكَ ولا تفلتيه» - بل إنَّ قضيبَه تحوَّلَ إلى وتَدٍ يُربط إليه كضحيّة للعذاب، أو ليرتقي نحو التعويض عن الجائزة الموجودة على عمودٍ مدهونٍ بالصابون، أو الذي يرى من خلاله مناظر لم تخطر بخياله قط. وتدٌ مشترك يقوم بمليون وظيفة.

بلى كلُّ شيءٍ حقيقة - أو كان حقيقة - لكن ماذا لو مع التغيير وجدَ متعةً مستجدَّةً بين فخذي صديقته الصغيرة الأبيضين؟

لامني يمامُ هذا المساء على غيابي الدائم عن البيت. أسعدني أنّه زارني. أجبته بتعابير محزنة:

- كيف يمكنك أن تقولَ لي هذا؟ فأنا لا أخرجُ إلا للقيام بمشوارٍ ينتهي دائماً إلى هنا. في أيّة ساعة كنتَ هناك؟

- في العاشرة ليلاً.

- في أيِّ يوم؟

- الأربعاء.

- طبعاً، كنتُ أتعشّى مع بِنيس، الذي التقيتُ به يومَ الثلاثاء مصادفةً.

ـ مع دنيس؟ ـ نظر إليّ بقوّةٍ فائضة إنما لا ليرعبني ـ ماذا تعرفين عن دِنيس؟

ـ انظر، مادمت تقول هذا الآن، ليس كثيراً ما أعرفه عنه: إنّه فرنسيٌّ، لديه مكتب مفروش بسجّادٍ من حانوتك، لكنه ناضج...

ـ كفاكِ حماقات ـ استنفرتُ ـ إذا كنتِ لا تعرفين، فاعلمي أنَّ صديقكِ الإسبانيَّ قد جاء.

ـ من؟ بابلو أكوستا؟

لم يكلِّمني أكثر. ودَّعتُه بعدَ نصفِ ساعة وظلٌّ كثيفٌ يخيِّمُ في داخلي.

حضرتُ إلى موعدي مع طبيب النسائيّة بدقّة. فقد وجدتُ كتلاً صغيرةً تحت أحدِ ثدييَّ أرعبتني. ليس من الخطرِ الأكبر بقدر ما هو رعب مما يُصنَّفُ بالأصغر: ما كان ينقصني وقتذاك هو أن يستأصلوا لي ثدياً. وبناء على إلحاحي قَبِلَ أن يعطيني النتيجة يومَ الاثنين، بعد أربعة أيّام.

حين دخلتُ اليومَ إلى الحانوت، نظرَ يمامُ إليَّ بطريقةٍ خاصّة. شعرتُ من جديدٍ بالخوفِ منه. اقتربَ منّي، أمسكَ بذراعيَّ. لماذا فكّرتُ ببلانش؟

ـ الآن ذهب أخو محمود الصغير. جاء ليخبرنا. غرق البارحة مساءً في البوسفور لأنّه سبح فيه وهذا ما كان ممنوعاً عليه. لم يستعيدوا الجثّة بعد.

شعرتُ كما لو أنَّهم يشدّونني من دمي إلى الأسفل. جلستُ على المقعد الأبيض في العمق، حيث كان يخطُّ محمود جُمقه وطرَحه ولسانه بين أسنانه وحيثُ لن يخطّها بعد الآن أبداً. انتهى إلى الأبدِ صوتُه

الحامضِ، ابتسامته المُذبِّبة قليلاً، سحرُ عينيه. ميتٌ... لم يعد عندي من مُبَرِّرٍ للاستمرار في الذهاب إلى الحانوت. ما عدتُ ذات فائدة لأحد. ما من أحدٍ يحتاجني. لستُ ضروريّة لأحد... لا أنقطعُ عن التفكير بجسد محمودٍ الصغير يطفو فوق تلك المياه القذرة أو يَعْلَقُ في العمق. كما لاأنفك عن التفكير بحياتهِ القصيرة، المليئة بالبلايا. كم من الظلم، يا إلهي. الحياة تنتزع أوراقي كما لو كانت زهرة أقحوان.

غطيتُ وجهي في الحانوت بيديَّ، شعرتُ بيد يمامٍ على كتفي.

أخبرني دِنيس اليوم رسميّا بأنّ بلانش نُقِلَت وفصلت وحجز لها للعودة «بعد أن وُجد أنَّ مهمّتها غير ضروريّة في المكتب وبعد أن تمَّ التأكّد من حاجات طاقم العمل». لكنَّ هذا ما عاد يؤثِّرُ عليَّ. أندم لأنّني حرّكت هذه الآلة القاسية.

تكلّمتُ مع بابلو. كان يريد رؤيتي اليوم، لكنّه سبتٌ وأُريدُ أن أُبقي على الصورة جيِّدة مع دِنيس، الذي تصرَّفَ معي بنبلٍ. سنلتقي غداً.

مرَّ العشاءُ مع بابلو خفيفاً ومُريحاً. فضيلتُهُ أنّه يحطِّمُ الزمنَ والمسافة. تابعنا حواراً مقطوعاً. كلّمتُهُ عن أريان ومحمود، وكلّمني بشكلٍ عابرٍ عن عملهِ.

توقَّفَ إرسالُ السجّاد المتعاقَدِ عليه، لكنّه واثقٌ من أنّ الفاعلين لن يُسْجَنوا أو يحاكَموا: لأنَّ هذا سيعني سحبَ البساط بمتورِّطين كثيرين إلى الداخل. هكذا هي الأشياء، لم يبق عند إسبانيا الكثير ممّا تقوله.

ـ ما أروع ما تبدو أحياناً العدالة المتأخِّرة والفاسِدة ـ علّقتُ، بينما كان يُهدِّئني بيده.

احتفلتُ بحظ يمامٍ بتناول بعض الكؤوس مع بابلو في غرفته.

اقترح عليٌ بطريقةٍ ذكيّة، لكنُّها في غاية الوضوح، أن نمارس الحبَّ. فهو أوّلاً وأخيراً جاء من أجلي. أنا سعيدة: فحرّيّة يمام ما عادت في خطر. أتركه يُقبّلني. ومع ذلك لا أستطيعُ أن أكونَ فاسِقَةً معه. لا، مع بابلو لا. لذلك أؤجّل الجواب بكثيرٍ من الرّقّةِ إلى الغد.

- غداً نتحدَّثُ. هِه؟ غداً نتحدَّثُ وسترى كيف سيخرجُ كلُّ شيء بشكلٍ جيّد.

آملُ من كلِّ قلبي أن يخرجَ كلُّ شيءٍ بشكلٍ جيّدٍ غداً، كائناً ما كان.

خاتمة

تلقى بابلو يوم الاثنين صباحاً مكالمة. تلك كانت بِسي. قالت له بطريقة مشوّشةٍ قليلاً، لكنّها حالمة:

ـ اتفقنا على هذه الليلة، أليس كذلك؟ لكن بودّي أن تقرأ قبلها بعضَ الصفحاتِ ممّا كتبتُ. أعتبرُ هذا ضروريّاً كي يسير ما بيننا بشكلٍ جيّدٍ وينتهي كما يجب. تعال في طلبها إلى عنواني. ـ أعطيتهُ له للمرّة الأولى ـ فيمامُ ليس في البيت ولا في استنبول، لقد ذهب خارجها لعدّة أيّام. عليّ أن أخرج للقيام بالمشتريات، فإذا قرعت ولم أفتح ستجدُ المفتاح تحت الدوّاسة، كما ترى أنا دائماً تقليديّة. وستجد الأوراق على طاولة المدخل. لا تأتي من فضلك إلاّ بعد الغداء: في الخامسة أو قريباً منها.

ذهبَ بابلو أكوستا إلى العنوان المشار إليه. لم يفتحوا له البابَ، استخدم مفتاحَ الدوّاسة. دخل إلى تلك الشقّة الصغيرة، الجهمة والحزينة، منتعلاً خفّين موجودين بجانب الباب، كانت بلا نور تقريباً إلا النور الذي يدخلُ الآن من نافذة مستطيلة أفقيّاً من خلال ستار مُكَرنش. أشعل النور الكهربائيّ، لأنَّ النهارَ كان رماديّاً ومطفأ. على طاولة توجدُ بعضُ الدفاترِ، وبجانبها علبةُ حلوى تركيّة فارغة. تصفّح الدفاتر، تبدو مكتوبةً بخطّ بِسي، الذي ما يزالُ يذكره. خاطر بالتوغّلِ، ليس لشيءٍ آخر غير التعرف على مسكنِ صديقتِهِ المتواضع كفايةً.

شاهد المطبخ المهمل، غير النظيفِ كثيراً وغرفة نوم بسريرين، لا شكَّ أنّها لطفلين، كانت فارغة أيضاً. في غرفة النوم الأخرى يرقد جسدُ بِسي ميتاً بلباسها. لم يكن قد برد تماماً، لكن عبثاً حاول أن يعيدَ إليه الروح. كان الموت قد وقع قبل وقتٍ قصيرٍ جدّاً. عددٌ من عبوات المهدِّئات فارغة على الأرض. ما عدا ذلك بدا كلّه مرتَّباً.

لم يجد الهاتف. هبط ليهتف من الشارع لأقرب مخفر للشرطة، ساعدَه عابرٌ لطيف. صعدَ من جديدٍ وانتظرَ. وحين وصل زملاؤه الأتراك عرَّفهم بنفسه ووضَّح لهم باقتضابٍ ما حدثَ. فكَّرَ أن يبقى في استنبول ـ قالَ لهم ـ ريثما تنتهي الإجراءات الضروريَّة. سينقلُ الجثة إلى إسبانيا.لم يدرِ لماذا قرَّر ذلك على الماشي.

حين بقي وحده استعد لقراءة دفاتر بِسي، لعلها تقدم له بصيصاً يبين سبب قرارها. بدأ من نهاية الدفتر الرابع. خرج بنتيجتين: الأولى احتمال أن يكون الطبيب قد أعطى تشخيصاً محبِطاً تماماً سلب بِسي كل أمل عندها. الثانية أن يكون خبر وجود يمام خارج أستنبول قد عنى لها أنهما تقابلا، فهي في الليلة السابقة لم تعلم بذلك وعلمت به في الصباح.

فتح بعدها الدفتر الأوَّلَ وبدأ يقرؤه.

كان قد صار في هزيعٍ متأخِّرٍ من الليلِ حين انتهى من قراءته. لم يكن قد حضرَ أحدٌ بعد. هبَطَ ليهتفَ من جديد، فصادف نقَّالين على الدرج. تركهما يحملان جثمان بِسي، لكنَّه بقيَ في الشقَّةِ. تصفَّح الدفاترَ من جديد، مقتنعاً من استحالة أن يكتشف لماذا يقتلُ شخصٌ نفسَهُ. «ببساطة لا لوجود مبرِّراتٍ للموت بل لنقصٍ بمبرِّراتِ الاستمرارِ في الحياة.» ربّما قالت كلُّ شيءٍ في الدفاتر... أو لا، ويكون السببُ هو أنَّ بِسي ما عادت تُحبُّ وشعرت بنفسها غير قادرة على الاعتراف بذلك حتى لنفسها. أو أنّها لم تعد قادرة على الاستمرار بالخداع أو الانخداع وهذا ما دفعها لاستعادة الحبِّ الذاتي الذي دفعها للموت.

حزنَ الآن لأنّهم أخذوا جثمان بِسي. ويودُّ لو سألها، انحنى فوقها، تحقَّق من وجهها. ما فعله هو أنّه قرأ كتاباتها بدَلَ أن يسألها هي التي لم تكذب قط مالم يكن فيما كتبت.

«غداً سيكونُ كلُّ شيءٍ جيِّداً» قالت ليلاً، حين لم يكن قد حُلَّ أيُّ

شيءٍ بعد. ومع ذلك خاف أن تكون على حافّةِ مقاومتها. ما حدثَ هو أنّه لم يفهمها جيّداً. اختلط عليه الأمرُ: عزا ضعفها الأقصى، إنهاكها، وهن همّتها ليلاً إلى رضاها بالاستسلام إليه، إلى رضاه بأن تكون له «للأبد» كما كان قد حَلِم.

قال لنفسه وقد انتابه ألمٌ متنام: لا أحد يستطيع أن يُثبت بثقة ما إذا كانت هذه المرأة قد أحبّت بشكلٍ جيّدٍ أو سيئ. فالحبُّ لا يُقاسُ بديمومته أو عنفه. وما من رجلٍ قادرٍ أبداً على إبداءِ رأيٍ فطن بما يحدثُ في قلبِ امرأةٍ عاشقة.

ذهبَ إلى المطبخ عساه يجدُ ما يأكله. لم يعد لاستمراره هناك معنى، لكنّ جوعاً مباغتاً وضارياً انتابه، كما لو كان انتقاماً. لم يكن قد تناول أيّ شيءٍ منذ الغداء. ما وجده كان ورقة نصفَ محروقة. تساءل لماذا لم يرها من قبل. الجملة الوحيدة التي كانت واضحة هي: «لقد أجبرتني النعرةُ على الاختيار بين الألم والعدم. في الحب إما أن يكبر الإنسان أو يموت...» ربّما أرادت أن تتركَ له شيئاً واضحاً ثمّ نسيت ما أرادت أن تقوله له. أو أنّها ندمت أو فضّلت ألاّ تعترف بأنّها كانت تموت لأنّها لم تُحَبّ حقيقةً قط. على الرغم من أنّ من يعانون منه يجهلون إسرافهم: إذ من يستطيع القولَ أنّ يماماً لم يحبّها؟ هي نفسها التي باغتها تعب هائلٌ وملل عظيمٌ واستعجلها الاستلقاء للنوم لم تستطع ذلك...

اختفى الجوعُ. ذهب إلى فندقه وهو يفكّر بالقليل الذي نعرفه، نحنُ البشر، بعضُنا عن بعض؛ طبيعيٌ أن يكون الأمر كذلك، نظراً لمعرفتنا القليلة بأنفسنا. «يا له من رجلٍ أمنٍ ماهر: يكون مع المرأة التي يُحبُّها وتنتحر بعد ساعاتٍ، يتكلّم معها قبل قليل من قيامها بذلك، ليس دونَ أن ينتبه فقط بل وهو يظنُّ أنّها ستكون أخيراً وبعد ساعاتٍ قليلةٍ بين ذراعيه.»

مَثُلَ صباحَ اليوم التالي في عيادة الدكتور الذي وجدَ اسمه وعنوانه على وصفة في حقيبةِ دِسي. أكّدَ له الدكتور أنّه رآها يومَ الثلاثاء أو الأربعاء، وحتى الاثنين لم يكن قد حصل على نتيجة التحليل

النهائيّة. والآن هي معه وكما توقَّعَ فالكتل الصغيرة كانت أكياساً غير ذات أهميّة. وبالتالي فصحّة السيّدة كانت جيّدة ولم تكن تحت أيِّ خطر أكبر من الذي فيه بقيَّة البشر.

على الرغم من محاولته تسريعِ إجراءات نقلِ الجثمان إلاَّ أنّها صارت أبديّة. الخميس هتف له رجلُ الأمن الذي كلّفه بإحضار يماماً فورَ عودته وتواعد معه في مخفرٍ قريبٍ من البازار. وما إن وصل حتى تركوهما منفردين.

كان يمام قد عاد من رحلةٍ إلى أنقرة. لا، لم يذهب وحده. بل مع بلانش، فتاة فرنسيّة. لا، لم يكن يعرف شيئاً عن دِسي منذ يوم الاثنين. (شكَّ بابلو بالأمر نتيجة رشقة توقٍ برقت في عينيه.) لا؛ لم تكن له أيّة علاقة بتلك المافيا التركيّة التي يتكلّم عنها). أرادَ بابلو أن يضع يماماً أمام إثباتاتٍ واضحة تشعره بضعف موقفه.)

في تلك اللحظة قال له إن دِسي ماتت.

ـ ماتت؟ ـ صرخَ يمام ـ هل أنت متأكّد؟ أم تعني أنَّها اختفت؟

ـ بل ماتت ـ كرَّرَ بابلو ـ منذ الاثنين، عند الظهيرة.

ـ غير ممكن: فالاثنين رأيتُها في ساعات الصباح الأولى.

ـ أعرفُ. هي أخبرتني بالهاتف. لماذا ذهبتَ لرؤيتها، أو لماذا ذهبت هي لرؤيتك؟

ـ أنا ذهبتُ إلى الشقّة. هل هناك حدث أن...؟ ـ أكَّد بابلو بالإيجاب ـ ذهبتُ إلى الشقّة لأقول لها إنَّني ساغيبُ عدَّة أيّام.

ـ لتهرب من الشرطة. أنتَ عرفتَ أنَّني قادمٌ إلى استنبول لأطلق عليك الكلاب و...

ـ لا؛ أنا عرفتُ أنّك قادمٌ، لكنَّني لم أذهب لهذا السبب... فقد استطاعت دِسي أن تحمل مدير إحدى الشركات في استنبول على طرد صديقتي بلانش من مكتبه وإعادتِها إلى باريس. وأنا مهتمٌ بها. وحين علمتُ بتصرُّف دِسي أردتُ أن أُلقّنها درساً. صدِّقني أنَّني كنت راغباً بالتخلّص من هذه المجنونة... اعذرني. إنَّها ميتة، لكنَّ ما أقوله لك هو

الحقيقة. الاثنين بعد أن قضيتُ الليلةَ في شقَّة بلانش الصغيرة، التي لن تستطيع دفع أجرتها، توجَّهتُ إلى البيت وطرحتُ المسألة على بِسي: ذهبتُ مع بلانش لثلاثة أيّام وكنتُ أنتظر ألاّ أراها هناك عند العودة. فبلانش يجب أن تبقى لتعيشَ في الشقَّة نظراً لأنَّ بِسي نفسها جعلت أيَّ حلٍّ آخر مُحالاً.

ـ كيف تلقَّت قرارك؟

ـ كما لو كانت تنتظره. أعطتني يدها. ثمَّ مرَّرتها على خدِّي وقالت لي: «شكراً على كلِّ شيءٍ. لا تهتم، فحين تعود لن تجدني هنا.» أيضاً قالت لي: «أتمنّى لك السعادة».

كان عند بابلو ما يكفي من المعلومات، لم يبغِ أن يسمعَ أكثر. نظرَ إلى ذلك التركيِّ السوقي. تساءل ما إذا كان يكذبُ. وأجاب: ربّما جميعهم كذبوا، بمن فيهم هو، وأنَّ بِسي نفسها خَدَعت نفسها حين كتبت دفاترها؛ والحقيقة المطلقةَ غير موجودة، وكلُّ إنسان ضحيّة حقيقته ذاتها، عرف أم لم يعرف، قالها أم لم يقُلْها.

حين خرج من مخفر الشرطة رفعَ عينيه إلى السماء. كانت زرقاء ويطيرُ فيها سربٌ كبيرٌ من الطيور المهاجرة. في ذلك اليوم بدأ الخريفُ. لم يميِّز نوعها لكنها بدت له لقالق. فكَّر ببِسي ورآها تبتسم. ثمَّ فكَّرَ بأنَّه سيعودُ بها إلى إسبانيا بطريقة مختلفة جدّاً عن تلك التي خطَّطَ لها.

الفهرس

من إصدارات الدار

* وليمة لأعشاب البحر	حيدر حيدر
* مرايا النار	حيدر حيدر
* غسق الآلهة	حيدر حيدر
* شموس الغجر	حيدر حيدر
* المخطوط القرمزي	أنطونيو غالا
* النبع الكبير	لطف الله حيدر
* سلالم الشرق	أمين معلوف
* القرن الأول بعد بياتريس	أمين معلوف
* البطء	ميلان كونديرا
* الخطة اللانهائية	إيزابيل ألليندي
* الحب الأول الحب الأخير	الطاهر بن جلون
* بيريرا يدّعي	أنطونيو تابوكي
* أحلام النساء الحريم	فاطمة المرنيسي



الوله التركي

يعتبر أنطونيو غالا اليوم واحداً من أهم الأقلام الإسبانية المعاصرة، على كلِّ المستويات، ذلك أنه كتب ويكتب كل الأجناس الأدبية ويبدع فيها جميعاً. واللافت للانتباه في أعمال انطونيو غالا هو موضوعاتها ومحورها: فالموضوعات في مجملها لها علاقة بتاريخ العرب في الأندلس، أو انطلاقاً من علاقة أسبانيا بالعرب والمسلمين، بشكل عام، ومحورها هو الحب، الذي يعتبر الهاجس الأساسي ويكاد يكون الوحيد فيها. فبالحب وحده ينتصر الإنسان للإنسان ومعه وبه، كما يحدث في رواية «الوله التركي».

«كنت أشعر بشيء أخوي تماماً في تلك الرحلة. كما لو أن العرب الأندلسيين يهمسون في عروقي بصلوات غير مفهومة. لا شيء يموت كلياً، لا وجود للنسيان. وآمنت وقتها وما زلت أومن بأننا مجبولون مما ننساه ظاهرياً... رحت قبل أن أنام أنظر إلى نفسي في مرايا حمامات الفنادق وأتساءل: من أين لك هاتان العينان السوداوان، هذه الانحناءات الفريدة في الأجفان، هذا الفم النهم، هذا الشعر الفاحم، هذا الفورانُ المتأجج للانتصار والاستمرار رغم كل الكروب؟ فهمتُ ملكة تدمر زنوبيا وأحسست بها خالدةً أكثر من أعمدة بيتها المنهارة، حيةً أكثر مني، أنا نفسي».

أعتقد أن هذه الفقرات من رواية «الوله التركي»، على لسان الراوية دِسيدِريا أوليبان، تستحق، رغم طولها، أن تُثبَّتَ في هذه المقدمة، كي تكتمل صورة أنطونيو غالا في ذهن القارئ.

الناشر